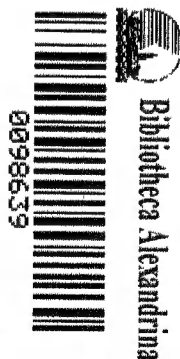


دوستويفسكي

الاعمال الأدبية الكاملة المجلد ٥

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

كرايت من
سر الاموات



دار
الكتاب



الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الخامس

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبازو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبع بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

ذكريات من منزل الأموات

جميع الحقوق محفوظة

« ذكريات من منزل الأموات »

ZAPISKI IZ MERTVAGO DOMA

نشرت في مجلة « العالم الروسى » • فأما
المقدمة والفصل الأول ففي شهر أيلول
(سبتمبر) ١٨٦٠ ؛ وأما الفصول ١ ، ٣ ، ٧ ،
وهى الفصول المندرجة تحت عنوان « منزل
الأموات » و « الشعاع الأولى » ففي شهر كانون
الثانى (يناير) ١٨٦١ ، وفي شهر نيسان (ابريل)
١٨٦١ استؤنف نشر « ذكريات من منزل
الأموات » في مجلة « الزمان » •

تقديم

يضم هذا المجلد من أعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة عملا واحدا هو « ذكريات من منزل الأموات » . والحق أن ترجمة عنوان الكتاب على هذا النحو ليست دقيقة كل الدقة ، فإن دوستويفسكى يحدثنا في هذا الكتاب عن « منزل ميت » يدفن فيه البشر أحياء .

ذكريات من منزل الأموات

١٨٦٠ - ١٨٦١

لقى هذا الكتاب اقبالا شديدا وأصاب نجاحا عظيما . وقد نشر في ظروف موالية كما قال أحد معاصريه ، فإن روحا من التسامح والتساهل كانت تسيطر عندئذ على الرقابة ، فظهرت كتب ما كان يتخيل أحد أن تظهر قبل بضع سنين . لقد أحدثت « ذكريات منزل الأموات » أثرا كبيرا في النفوس ، فرأى القراء والنقاد في كاتبها « دانتى » جديدا هبط الى « جحيم » رهيب ، لا سيما وأن هذا الجحيم موجود في الواقع لا في خيال الشاعر وحده . ان هذه الأوصاف الواقعية المرة الكاوية التي تصور عالما لم يكن يعرفه القراء قبل ذلك ، عالم هذا الخليط من السجناء ، عالم الأشغال الشاقة التي يقدمون بعبثها ، والمهن التي يتعاطونها ، والتسليلات التي يسرون بها عن أنفسهم ، والمستشفى الكريه الذين يعالجون فيه ، ولا سيما العقوبات الجسمية الرهيبة التي تنزل فيهم ، هذه الأوصاف التي يقدمها كاتب موهوب عاش هو نفسه في هذا الجحيم ، قد أثرت في نفوس القراء تأثيرا كبيرا ، وهزتها هزا قويا . حتى الاسكندر الثاني كانت تهطل دموعه على صفحات هذا الكتاب .

ومن الشائق مع ذلك أن نذكر أن رئيس لجنة الرقابة بالعاصمة قد أعتقد أن عليه أن يعترض على نشر الفصل الثاني . وهذه هي الحجة التي تعمل بها : « أليس من الجائز أن يذهب الظن بالبسطاء من القراء الى أن العمل الانساني العظيم الذي تقوم به الحكومة في السجون هو تخفيف للعقاب المخصص لجرائم خطيرة جدا ؟ » . وقد أعد دوستويفسكى عندئذ مذكرة يشرح فيها أن افتقاد الحرية سنين طويلة هو أقصى عقوبة ولكن دوستويفسكى لم تنهيا له فرصة نشر هذه المذكرة . وفي اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٦٠ أذنت الادارة المركزية للرقابة بنشر « ذكريات من منزل الاموات » صارفة النظر عن آراء اللجنة ، مشترطة شرطا واحدا هو أن تحذف من الكتاب « بعض التعابير التي تعوزها الحشمة » .

ان دوستويفسكى قد بدأ تدوين انطباعاته في سجن أومسك نفسه ، وظلت المذكرات التي دونها نخبأة زمنا طويلا لدى أحد موظفي المستشفى . ثم عمل دوستويفسكى في كتابة هذه المذكرات بمدينة سيمبيلاتنسك . ولكنه لم يستطع أن ينجز هذا العمل الا حين عودته الى العاصمة . ان هذا الكتاب الذي يفيض بذكريات مروعة رهيبية انما هو ثمرة تجربة شخصية . ان دوستويفسكى يتحدث عما عاناه هو نفسه في السجن . ولئن نسب هذه المذكرات الى رجل سماه الكسندر جورياتنشيوكوف ، فان هذا التلمويه لم ينطل على أحد .

ان الانطباعات الاولى التي يشعر بها دوستويفسكى فظيعة : افتقاد الحرية ، الحياة المشتركة مع قتلة ولصوص . فهذا دوستويفسكى يقول في رسالة له : « كانت المصاحبة المستمرة الدائمة للآخرين تفعل في نفسى فعل السم ، وما تأملت من شيء خلال تلك السنوات الاربع كما تأملت من ذلك العذاب الذي لا يطاق » والشيء الذي كان يشق على نفسه خاصة هو تلك العداوة الشديدة التي كان يشعر بها نحوه السجناء لأنه ينتمى الى طبقة السادة الذين يضطهدون أبناء الشعب ملاكين أو ضباطا أو موظفين . لقد شعر دوستويفسكى في السجن بعزلة رهيبية ، لا سيما وأن القلة القليلة من السجناء الذين كانوا قبل سجنهم ينتمون الى طبقة النبلاء ، لم يشعر نحوها دوستويفسكى بشيء من المودة ولم يجذبه اليها شيء من العاطفة . وهو ينظر الى رفاقه في السجن ، فلا يرى في أول الأمر الا

رجالا غلاظا أفضاظا ليس فيهم أثر من خجل ولا يخالج ضمائرهم شيء من ندم ، وانما هم فجرة مستهترون متأهبون فى كل لحظة للتشاجر والتشاتم والسكر وسرقة بعضهم بعضا . بل انه ليرى طباعا كريهة كأنها تجسد الشر المطلق . فمن هؤلاء قاطع الطرق الرهيب أورلوف الذى كان يقتل الصغار والشيوخ بهدوء وبرود ، وكان ينعم بارادة جبارة فهو يحتقر كل عقاب ويحتمل أى قصاص . ومنهم أيضا ذلك التترى جازين الذى يملك قوة خارقة ، ويشعر من يراه أنه أشبه بعنكبوت ضخم عملاق . لقد كان جازين، فيما قيل، يجد لذة عظيمة فى ذبح الأطفال الصغار، فى قتلهم بعد أن يمتلئ تلذذاً بافزاعهم . ومنهم أيضا رئيس عصاة قطاع الطرق كورينف ، الوحش الكاسر الذى كان لا يشعر بشيء الا الرغبات الجسمية والشهوات الحسية والظمأ الى المباح . ومنهم أخيرا ٠٠٠ ف (أرستوف) ، السيد المنحل الفاجر العاهر المستهتر الذى لا يتورع عن شيء والذى يقول عنه دوستويفسكى انه فى تشوّهه الروحى أشبه بكازيمودو فى تشوّهه الجسمى . وهنا يطرح دوستويفسكى هذا السؤال : ما هى الجريمة ؟ وما هو قدر الانسان الذى تجاوز الحدود المحرمة ؟ ويمضى دوستويفسكى يهبط الى الأغوار العميقة من النفس الانسانية ويسبر كل ما فى طبيعة الانسان من أعماق لا يسيطر عليها العقل ولا يدركها العقل . ويدرس دوستويفسكى نفسية الجلاد فينتهى الى هذه النتيجة ، وهى أن خير الناس يمكن أن يقسو قلبه بتأثير العادة فاذا هو يصبح حيوانا كاسرا ، وان الدم والسطو يسكران فيولدان التوحش والشذوذ والفساد ، حتى ليؤكد دوستويفسكى أن بذور الفرائز البهيمية موجودة فى جميع معاصره من الناس تقريبا .

غير أن هذه المشاعر التشاؤمية لا تتغلب على دوستويفسكى . لقد أخذ يميز بين الأشرار والأخيار شيئا بعد شيء ، وأخذ يجد بين السجناء رجالا يمكن أن تفهم جرائمهم بل يمكن أن تعذر من وجهة نظر الأخلاق . هذا أكيم آكيمتش الضابط الصغير الذى أمر باطلاق النار على أمير قوقازى متهم دون أن يحاكمه وفقا للأصول : انه رجل هادى وقور شريف جاد ؛ وهذا باكلوشين المرح الذى قتل منافسه فى الحب دون أن يريد ذلك تقريبا ، لانه لم يكن ينوى فى أول الأمر الا أن يروعه بمسدسه ، وهذا نورا الطيب البسيط الساذج الذى حكم بالسجن بتهمة السطو والنهب : انه انسان متدين شريف يلقبه السجناء « نورا الأسد » وهذا على اللطيف الوديع الحجول الذى يشبه أن يكون خفره كخفر العذارى : لقد انضم الى

اخونه في أعمال السلب لا عن ميل الى ذلك، بل لأنه لايجرؤ أن يعارضهم . وهذا شيخ ستارودوب المؤمن الذي أشعل النار في الكنيسة الأرثوذكسية وقرر ان يتعذب في سبيل الدين : انه رجل شهيم يحترمه السجناء ويجلوته . وهذا أوريب المولع بالتهريب ولعا شديدا لا يملك أن يغالبه : انه انسان على جانب عظيم من الشرف والاستقامة والهدوء والوداعة واللفظ ، وهذا هو الشاب الوسيم سيرودكين الذي لم يستطع أن يتحمل عبء الخدمة العسكرية فاذا هو بعد ان يحاول الانتحار يقتل رئيسه الضابط لا لشيء الا « أن يغير مصيره » ، وهذا بتروف الذي ضربه رئيسه الكولونيل مرارا فاذا هو يقتله ذات مرة في سورة من غضب ، وهذا لوقا الذي اعتقل بتهمة التشرد فلما سمع الميجر يقول له : « أنا قيصر ، أنا الله » لم يطق أن يسمع هذا الكلام فاذا هو يقتل الميجر . هؤلاء في اكثر الأحيان رجال أخرجتهم عن طورهم قسوة مضطهدهم ودفعتهم الى الجريمة دفعا . فواحد ، كبا يقول دوستويفسكي ، قد قتل طاغية فاجرا لينقذ شرف خطيبته أو أخته أو بنته ، وواحد هو قن هارب لعله كان يوشك أن يموت جوعا ، قتل واحدا من رجال الشرطة الذين يطاردونه دفاعا عن حريته وعن حياته . ليس المجرمون في كثير من الأحيان الا ضحايا الظروف الاجتماعية التي تحيط بهم ، وليست الجريمة التي يقرفونها الا مصيبة تنزل عليهم وشقاء يحل فيهم ، فما أصدق غريزة الشعب حين يعطف عليهم ويطلق عليهم اسم « الأشقياء » ! لقد تأثر دوستويفسكي تأثرا عميقا بهذا العطف : ما كان أعظم تأثره بالصدقات التي كان أبناء الشعب يجودون بها على السجناء في سخاء أيام الأعياد ! وما كان أعظم تأثره بحنان ناستاسيا ايفانوفنا المرأة الفقيرة التي كانت تفعل كل شيء في سبيل تخفيف آلام السجناء! وقد لاحظ دوستويفسكي أن أكثر السجناء متدينون ، وأنهم يصلون، وأنهم يتوقون الى رحمة الله ، ويطلبون غفرانه، فاذا هو يقول : ان في كل مكان أشرا را ! فمن يدري ؟ قد لا يكون هؤلاء السجناء شرا من غيرهم ، قد لا يكونون أسوأ من أولئك الذين يعيشون خارج الأسوار ! كان دوستويفسكي لا يرى في رفاقه أول الأمر الا وحوشا مفترسة ، ثم اذا هو يرى جوانب الخير في نفوسهم شيئا بعد شيء ، حتى لتتكشف له في بعض الأحيان على حين فجأة ، لدى واحد منهم ، عواطف غنية ومودة قوية وقدرة على الفهم والتعاطف ومشاركة الآخرين آلامهم ، فلا يكاد « يصدق عينيه ولا أذنيه » ! انه حين دنا من هؤلاء المنبوذين

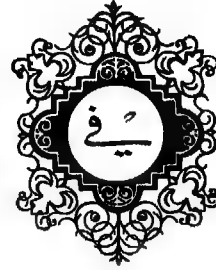
والتصق بهم أصبح لا يخشى أن يقول « ان أبرز سمة وأوضح سمة في شعبنا انما هي شعوره بالعدالة وظمؤه الى العدالة ، فمتى نزعتم القشرة الظاهرة اللفظة ، وأنعمت النظر في البذور الثاوية في الأعماق رأيت في هذا الشعب مزايا لم تخطر لك على بال! » حتى أن دوستويفسكى يهتف قائلا قبل خروجه من السجن ، حين أصبح له بين السجناء كثير من الأصدقاء والرفاق الطيبين : نعم يجب أن نعترف بالحقيقة : لقد كان هؤلاء الرجال يملكون كنوزا رائعة .. ولعلمهم كانوا بين أبناء شعبنا أعظمهم مواهب وأكثرهم طاقات لكن ملكاتهم الممتازة قد هلكت الى غير رجعة . فمن المذنب ؟ ان مشكلة الذنب والجريمة والعقاب تحتل مكانا كبيرا في أعمال دوستويفسكى الذى عانى هذه المشكلة معاناة شخصية أكثر مما عاناها أى كاتب ، حتى لنراه يقول بعد خروجه من السجن بزمن طويل : « لطالما باركت القدر الذى وهب لى أن أعانى هذه التجربة . لقد كان لهذه السنين الأربع التى قضيتها فى السجن فضل كبير على . ان نفسى وايمانى وفكرى ، ان ذلك كله قد تبدل تبديلا عظيما بفضل هذه التجربة » . لقد جعله السجن مؤمنا . لقد رد اليه السجن ايمانه بالله وايمانه بالشعب الروسى ، حتى لقد كتب يقول : ان الانسان « أثناء الحسرات التى يحسها فى سجن الأشغال الشاقة ، يرتوى بالايمان كما يرتوى العشب اليابس بماء المطر . انه يجد الايمان أخيرا لأن الايمان يظهر فى ساعات الشقاء أقوى وضوحا وأشد سطوعا . وكتب يقول أيضا : « لعل الاله العلى القدير قد شاء أن يرسلنى الى هناك حتى أتعلم جوهر الأشياء فأنقل علمى الى غيرى وأبلغه الناس » . ان ايمانه قد صفاه العذاب ونقاها . لقد استمد دوستويفسكى من الألم حنانا وشفقة على البشر الذين تردوا فى الخطيئة والشقاء فأصبحوا أحوج الى الحب من الأبرياء والسعداء ! ان روحا مسيحية تترقرق فى الكتاب كله . وذلك ما جعل تولستوى يتحمس له أشد التحمس فيكتب سنة ١٨٨٠ الى ستراخوف قائلا: « كنت أشعر فى هذه الأيام بضيق شديد فتناولت كتاب «ذكريات منزل الأموات» فأعدت قراءته . كنت قد نسيت كثيرا منه ، فلما أعدت

قراءته ، أيقنت أن ليس فى الأدب الجديد كله كتاب واحد يفوقه ، حتى
ولا كتب بوشكين ! ليست النبيرة هى الشئ الرائع فيه ، بل وجهة النظر
التي يشتمل عليها : انه صادق طبيعى مسيحي . انه كتاب يعلم الدين .
فاذا رأيت دوستويفسكى فقل له انى أحبه » .

وقد كان لهذا الكتاب أثر سياسى أيضا ففى شهر حزيران «يونيه»
من عام ١٨٦٢ ، بعد نشر الفصول التي تصف العقوبات الرهيبة كتب
الجنرال الأمير نيكولا أورلوف رسالة الى الامبراطور يرجوه فيها إلغاء
العقاب الجسدى الذى وصفه دوستويفسكى فى كتابه وصفا حيا قويا .
وشكلت لجنة خاصة لحل هذه المسألة فكان هنالك تياران متعارضان أحدهما
يقول بابقاء هذه العقوبات والثانى ينادى بإلغائها ، وتغلب التيار الثانى
أخيرا فصدر قانون ١٧ نيسان (ابريل) ١٨٦٣ الذى يلغى هذه العقوبة
الرهيبة إلغاء تاما .

الجزء الأول

مدحسل



وسط السهوب أو الجبال أو الغابات الوعرة من
المناطق النائية بسييريا يلتقي المرء من حين الى
حين بمدن صغيرة سكانها ألف أو ألفان ، مبنية
كلها بالخشب ، دميمة كل الدمامة ، لها كنيسةستان،

الأولى في وسط المدينة ، والثانية في المقبرة . فاذا أردنا أن نصفها موجزين
قلنا انها أكثر شبهاً بقرية في ضواحي موسكو منها بالمدينة بمعنى كلمة
المدينة . وهى على وجه العموم مزودة بعدد وافر من رجال الشرطة
وجباة المال وغيرهم من الموظفين المرؤوسين . ولئن كان البرد شديداً في
سييريا فان خدمة الحكومة هناك رابحة مجزية الى أبعد الحدود . ان
السكان أناس بسطاء لا تعصف برؤوسهم الأفكار الليبرالية ، ولهم عادات
قديمة رسخها الزمن . والموظفون الذين يمكن أن نسميهم بالطبقة النبيلة
في سييريا هم اما أناس من البلاد نفسها أى سيريون متأصلون ، واما
أناس وافدون من روسيا . فأما هؤلاء الوافدون من روسيا فهم قادمون من
العواصم رأساً يحدوهم المرتب الضخم والمعونة الكبيرة التى يُعطَوْنها
نفقات سفر، كما تحدوهم آمال أخرى تتعلق بالمستقبل ولا تقل عن الراتب
اغراء . فالذين يعرفون كيف يحلون مشكلة الحياة يمكنون في
سييريادائماً على وجه التقريب ويستقرون فيها الى الأبد، ذلك أن الثمرات
الوفيرة اللذيذة التى يجنونها بعد ذلك تعوضهم عن خسارتهم خير
تعويض . أما الآخرون ، وهم أناس خفاف لا يعرفون كيف يحلون هذه

المشكلة فانهم ما يلبثون أن يسأموا ويضجروا ثم هم يتساءلون على حيرة وأسف : لماذا ارتكبوا حماقة المجيء الى هذه البقاع النائية ؟ وهم يسلمون السنين الثلاثة ، وهى الفترة المحدودة لاقامتهم ، متذمرين متلملين قد نفذ صبرهم ، حتى اذا تصرمت المدة التمسوا العودة ورجعوا الى بلادهم وهم يقدحون فى سبيريا ويهزؤون بها ويسخرون منها ، ألا انهم لمخطئون ، فان سبيريا بلاد هناة وغبطة لا من جهة الخدمة العامة وحدها بل من جهات كثيرة أيضا . المناخ فيها رائع ، والتجار أثرياء مضيافون ، والميسورون من أهلها كثير . أما صباياها فأشبه بورود متفتحة ، وأخلاقيهن لا غبار عليها ، والطرائد تجرى فى شوارعها وترتسى على الصياد ارتساءً ، والناس يشربون فيها الشمبانيا وافرة غزيرة ، والكافيار مدهش ، والفلاحون يحصدون من التلال فى بعض الأحيان أضفاف ما بذروا خمس عشرة مرة . صفوة القول : انها أرض مباركة ، وانما ينبغى الاتفاع بها والاستفادة منها وما أيسر ذلك !

فى مدينة من تلك المدن الصغيرة - البهجة الراضية عن نفسها كل الرضى - التى ترك أهلها فى نفسى ذكرى لا تمحى - انما التقيت بمنفى من المنفيين اسمه الكسندر بتروفتش جورباتشيكوف ، وهو من سراة الملاكين فى روسيا . وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية * ، لأنه قتل زوجته . فبعد أن قضى مدة الحكم - وهى عشرة سنين من الأشغال الشاقة - مكث فى مدينة ك * * * * * الصغيرة هذه ، هادى البال لا يفتن الى وجوده أحد ، مستوطنا من المستوطنين . والحق أنه كان مسجلا فى قرية من القرى المجاورة ، ولكنه كان يعيش فى مدينة ك * * * * * حيث كان يستطيع أن يجنى رزقه من اعطاء دروس خاصة للأطفال . ان المرء كثيرا ما يلتقى فى سبيريا بمنفيين يعملون فى التعليم . والناس لا يحتقرونهم ، لانهم يملكون اللغة الفرنسية ، وهى ضرورية للحياة جدا ، وما كان لأحد

من سكان هذه الأماكن القاصية من سيريا أن يعرف شيئاً منها لولاهم •
وقد رأيت ألكسندر بتروفتش أول مرة في منزل موظف من الموظفين
اسمه ايفان ايفانتش جفوزديكوف ، وهو شيخ محترم وقور مضياف له
ثلاث بنات يعدن بأجمل الآمال • فكان الكسندر بتروفتش يعطينهم دروساً
في اللغة الفرنسية أربع مرات في الأسبوع ، ويتقاضى أجره عن كل درس
أربع كوبكات فضة • وقد لفت نظري مظهره • انه رجل شديد الشحوب،
شديد التحول ، ما يزال شاباً (فهو في نحو الخامسة والثلاثين من عمره)،
قصير واهن ، يعنى بنظافة ملبسه كل العناية ، ويرتدى الزى الأوروبي •
إذا تحدثت اليه انتبه الى كلامك اتبها شديداً ، وأصغى الى كل قول من
أقوالك مهذبا غاية التهذيب ، وقد بدا في وجهه التفكير كأنك تطرح عليه
مشكلة أو كأنك تريد أن تنتزع منه سراً • حتى اذا أجاب كان جوابه
واضحا موجزا ، ولكنه يزن كل كلمة من كلماته ، ويبلغ من ذلك أن من
يستمع اليه يشعر بشيء من الحرج دون أن يعرف سبب هذا الحرج ،
ويشعر بشيء من الضيق والبرم ، ويسعده بعد ذلك أن تنتهي المحادثة بينه
وبينه • وقد سألت عنه ايفان ايفانتش فأعلمني أن جورياتشيكوف رجل
لا غبار على سلوكه ، ولولا ذلك لما عهد اليه ، هو ايفان ايفانتش ، بتعليم
بناته ؛ ولكنه يكره البشر كرهاً شديداً وينفر من مخالطة الناس نفورا
قوياً ، ويظل مبتعداً عن الآخرين ؛ وأنه عدا ذلك على حظ كبير من سعة
الثقافة ، فهو كثير القراءة والمطالعة ، ولا يتكلم الا قليلاً ، ولا يفتح قلبه
لأحد في حديث •

وكان بعضهم يؤكد أن الرجل مجنون ، ولكن دون أن يرى في
ذلك آفة كبيرة خطيرة ، لذلك كان خيار القوم في المدينة على استعداد
لأن يداروا الكسندر بتروفتش ، لأنه يمكن أن يكون نافعا لهم كثيرا ،
كأن يتولى عنهم كتابة العرائض وما الى ذلك • وكان يُعتقد أن له في

روسيا أقرباء من ذوى المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ، وربما كان بينهم أناس يحتلون مناصب كبرى ؛ ولكن لم يكن مجهولا أن الرجل قد قطع كل علاقاته منذ نفيه ، فأساء بذلك الى نفسه على وجه الاجمال . وكان جميع الناس يعرفون قصته ، ويعلمون أنه قتل زوجته بدافع الغيرة بعد سنة من زواجه ، وانه سلّم نفسه للقضاء من تلقاء ذاته ، فكان ذلك من الأسباب التى دعت الى تخفيف الحكم عليه تخفيفا كبيرا . والناس ينظرون الى هذا النوع من الجرائم نظرتهم الى مصائب حلت بالمجرم نفسه ، فهو يستحق الشفقة والرحمة . ومع ذلك كان هذا الانسان الشاذ يصرّ على الابتعاد عن الناس اصرارا شديدا ، ولا يخرج الا لاعطاء الدروس التى يعهد بها اليه .

لم ألتفت اليه فى أول الأمر أى التفات . ولكنه أثار اهتمامى بعد ذلك دون أن أعرف لهذا سببا : انه أشبه بلغز . أما التحدث معه فأمر مستحيل اطلاقا . صحيح أنه كان يجيب عن جميع الأسئلة التى ألقاها عليه ، ولكن متى انتهى من اجابته لم أجروا أن ألقى عليه مزيدا من الأسئلة . وكان بعد أحاديث من هذا النوع يبدو فى وجهه عذاب وألم وتعب وارهاق . أذكر اننى فى ليلة جميلة من ليالى الصيف خرجت معه من عند ايفان ايفانتش . فخطر ببالى فجأة أن أدعوه الى بيتى لتدخين سيجارة . فما كان أشد الذعر الذى ارتسم على وجهه حينذاك ! اننى لا أستطيع أن أصف لكم ذلك الذعر . . لقد اضطرب اضطراباً شديداً ، وتمتم بضع كلمات مفككة لا ترابط بينها ولا اتساق فيها ، ثم اذا هو يرشقنى بنظرة غاضبة حارقة على حين فجأة ، ويلوذ بالفرار عائدا أدراجه . وقد أدهشنى هذا . وصار يبدو منذ ذلك الحين كمن يشعر بنوع من الرعب متى رآنى ، ولكننى لم أياس . . كان فيه شيء يشدنى اليه شدا . وبعد شهر دخلت على جورياتشيكوف من تلقاء نفسى ، دون أى عذر

أَتَعْلَلُ بِهِ ، دُونَ آيَةِ حُجَّةٍ أَتَحْلِلُهَا • وَاضْهِحْ أَنَّ فَعْلَتِي هَذِهِ كَانَتْ حِمَاةً شَدِيدَةً ، وَأَنَّهَا كَانَتْ خَالِيَةً مِنْ حَسَنِ الْأَدَبِ وَرَهَافَةِ الذَّوْقِ • كَانَ الرَّجُلُ يَقْطُنُ فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ ، عِنْدَ امْرَأَةٍ عَجُوزٍ مِنَ الطَّبَقَةِ الْبُورْجُوازِيَّةِ لَهَا ابْنَةٌ مُصَدُّورَةٌ • وَكَانَ لِابْنَتِهَا هَذِهِ ابْنَةٌ غَيْرُ شَرِيعَةٍ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهَا ، وَهِيَ صَبِيَّةٌ بَارِعَةٌ الْجَمَالِ ، شَدِيدَةُ الْمَرْحِ وَالْفَرَحِ • فَلَمَّا دَخَلَتْ كَانَ أَلَكْسَنْدَرُ بَتْرُوفْتَشْ جَالِسًا قَرِيبًا يَلْعَنُهَا الْقِرَاءَةُ ؛ حَتَّى إِذَا رَأَى اضْطَرَبَ اضْطِرَابًا شَدِيدًا كَأَنَّهُ فَاجَأَتْهُ مَتَلَبِّسًا بِجَرِيمٍ مُشْهُودٍ ، فَهَضَّ طَائِشَ اللَّبِّ عَلَى حِينٍ فِجَاءَةٍ ، وَنَظَرَ إِلَى مُشْدُوهُهَا مُبْهُوتًا إِلَى أَقْصَى الْحُدُودِ • وَجَلَسْنَا أُخِيرًا ، فَكَانَ يَتَابَعُ كُلَّ نَظَرَةٍ مِنْ نَظَرَاتِي ، كَأَنَّهُ يَرْتَابُ فِيَّ وَيَتَصَوَّرُ أَنَّ لِي نِيَّةَ خَفِيَّةٍ أَضْمَرُهَا ؛ فَأَدْرَكْتُ أَنَّ الرَّجُلَ شَدِيدُ الشُّكِّ ، كَثِيرُ الرِّيبِ ، سَيِّءُ الظَّنِّ ، قَوِيَّ الْحَذَرِ ، كَانَ يَنْظُرُ إِلَى حَاقِقًا مُقْتَاطًا ، وَيُوشِكُ أَنْ يَسْأَلَنِي : « هَلَاءَ انْصَرَفْتُ ؟ » •

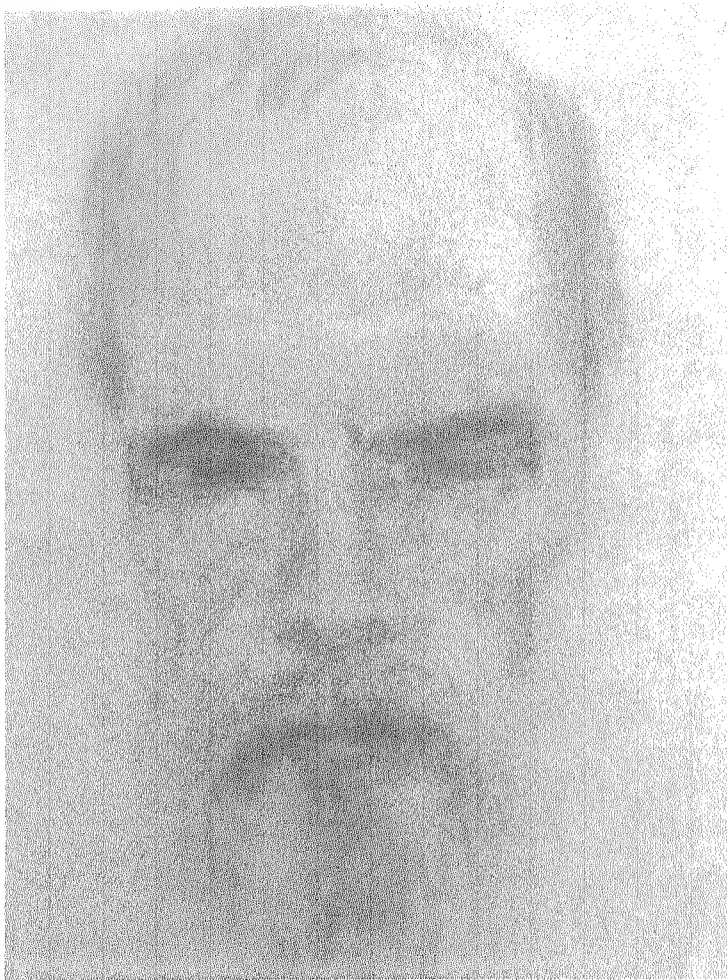
حَدَّثْتُهُ عَنْ مَدِينَتِنَا الصَّغِيرَةِ ، وَعَنِ الْأَنْبَاءِ الرَّائِجَةِ ، فَكَانَ يَصْمَتُ لَا يَقُولُ شَيْئًا ، أَوْ كَانَ يَتَسَمَّ بِتَسَامَةٍ صَفْرَاءَ سَيِّئَةٍ • وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ كَانَ يَجْهَلُ كُلَّ الْجَهْلِ مَا يَجْرِي فِي مَدِينَتِنَا ، وَأَنَّهُ لَا يَحْرُصُ عَلَى أَنْ يَعْرِفَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا الْبَتَّةَ • وَحَدَّثْتُهُ بَعْدَئِذٍ عَنْ مَقْاطِعِنَا وَعَنْ حَاجَاتِنَا ، فَكَانَ يَصْنَعُ إِلَى كَلَامِي صَامِتًا ، مُحَدِّثًا إِلَى بَهِيئَةٍ تَبْلُغُ مِنَ الْغَرَابَةِ أَنْتَى لَمْ أَلْبِثْ أَنْ خَجَلْتُ أَنَا نَفْسِي مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ؛ حَتَّى لَقَدْ كَدْتُ أَغْضِبُهُ حِينَ قَدِمْتُ إِلَيْهِ كِتَابًا وَجَرَائِدَ كَانَتْ قَدْ وَصَلَتْنِي فِي آخِرِ بَرِيدٍ وَلَمْ أَفْضَحْهَا بَعْدَ • لَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ نَظَرَةً شَرِّهَةً ، وَلَكِنَّهُ سَرَعَانَ مَا غَيَّرَ رَأْيَهُ فَرَفِضَ أَنْ يَتَنَاوَلَ مَا قَدِمَتْهُ إِلَيْهِ ، مُعْتَذِرًا عَنْ ذَلِكَ بِضَيْقِ الْوَقْتِ وَقِلَّةِ الْفَرَاغِ • وَاسْتَأْذَنْتُهُ أُخِيرًا بِالْانْصِرَافِ ، فَأَحْسَسْتُ وَأَنَا أَخْرَجَ مِنْ عِنْدِهِ أَنَّ حِمْلًا ثَقِيلًا قَدْ سَقَطَ عَنْ كَاهِلِي • وَآلَمْنِي أَنْ أَكُونَ قَدْ ضَايَقْتُ إِنْسَانًا لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَنَاقِشَ عَنِ جَمِيعِ النَّاسِ • لَكِنْ مَا وَقَعَ فَقَدْ وَقَعَ • وَكُنْتُ قَدْ لَاحِظْتُ

أنه لا يملك الا عددا قليلاً جداً من الكتب ، فليس صحيحاً اذن ما كان يُقال من أنه قرأ كثيراً . غير أنني قد اتفق لى أن مررت أمام نوافذه بالعربة مرتين فى ساعة متأخرة جداً من الليل ، فرأيت فى بيته ضوءاً . فلماذا كان يسهر اذن حتى الصباح ؟ أتراه كان يكتب ؟ واذا كان يكتب ، فماذا كان يكتب ؟

وغبث عن مدينتنا قرابة ثلاثة أشهر . فلما عدت فى الشتاء علمت أن ألكسندر بتروفتش قد مات ، وأنه لم يقبل حتى أن يستدعى أثناء مرضه طبيياً . وكان الناس قد نسوه أو كادوا . وكان بيته خالياً . وسرعان ما تعرفت بصاحبة البيت التى كان يسكن عندها ، عسى أن أعرف منها شيئاً عما كان يعمل جارجا ، وعسى أن أعرف هل كان يكتب شيئاً ! فما كدت أنقدها عشرين كوبكا حتى جاءتني بسلة مملوءة أوراقاً تركها المتوفى ، واعترفت لى بأنها قد استعملت دفترين منها فى اشغال النار . والمرأة عجوز متجهمة الوجه عابسة الهيئة صموت لا تتكلم ، فلا أنا استطعت أن أترزع منها شيئاً ذا بال ، ولا هى استطاعت أن تقول لى شيئاً عن الرجل الذى كان يقطن فى بيتها . ولكنها روت لى أنه كان لا يكاد يعمل شيئاً ، فهو يظل أشهراً برمتها لا يفتح كتاباً ولا يتناول قلماً ؛ وأنه كان فى مقابل ذلك يقضى الليل كله متجولاً فى غرفته جيئةً وذهاباً ، غارقاً فى تأملاته ذاهلاً عما حوله . حتى لقد كان يتكلم بصوت عالٍ فى بعض الأحيان ؛ وذكرت لى أنه كان يحب حفيدتها كاتيا حباً كثيراً ، ولا سيما منذ عرف اسمها ؛ وكان يكره أن يزوره أحد ، ولا يخرج الا لاعطاء الدروس التى كان يعهد اليه بها : حتى أنه كان ينظر الى صاحبة البيت نظراً شراً اذا هى جاءت ترتب غرفته بعض الترتيب مرةً كل أسبوع ؛ وخلال السنين الثلاث التى قضاها مقيماً عندها لم يكذب تجاهها بكلام يوماً . سألت كاتيا هل تذكر شيئاً عن معلّمها ، فنظرت الى صامتة ، ثم

التفتت الى جهة الحائط وأخذت تبكى • اذن لقد استطاع هذا الرجل أن يجعل أحداً يحبه •

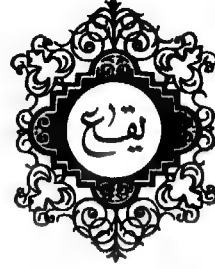
مضيت بالأوراق ، وسلخت يومى كله فى فحصها • كان أكثرها لا قيمة له البتة ، فهو تمارين للتلاميذ • وعثرت أخيراً على دفتر سميك بعض السمك ، قد ملئت صفحاته بكتابة دقيقة صغيرة ، ولكنه غير مكتمل ، ولعل صاحبه قد نسيه • انه قصة السنين العشرة التى كان ألكسندر بتروفتش قد قضاها فى سجن الأشغال الشاقة ، وهى قصة مفككة مجزأة لا تماسك فيها ولا تكامل ••• تتخللها هنا وهناك حكاية قصيرة أو ذكريات غريبة رهيبة ينفضها صاحبها نفصاً يشبه أن يكون تشنجاً ، ويتزعاها من نفسه انتزاعاً يوشك أن يكون اقتطاعاً • وقد أعدت قراءة هذه الأجزاء المتشورة ، فأخذت أساءل : ترى ألم يكتبها كاتبها فى لحظات من جنون ؟ على أن هذه المذكرات التى يسجلها محكوم بالأشغال الشاقة ، والتى يجعل عنوانها فى موضع من مواضع قصته « ذكريات من منزل الأموات » ، بدت لى غير خالية من الطرافة • انها تكشف عن عالم جديد كل الجودة ، عالم مجهول الى ذلك الحين ••• وأغراني ما فى بعض وقائعها من غرابة ، وأغرنتي ملاحظات خاصة عن هذا العالم الساقط الذى يصفه الرجل ، فكنت أقرأ فى لذة وشوق ••• قد أكون على خطأ : ولكننى أنشر بعض فصول هذه القصة ، تاركاً للقراء أن يحكموا عليها •



دوستويفسكى

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوا

منزل الموتي



سجننا فى آخر المدينة وراء الأسوار • فاذا نظرت
من خلال شقوق السياج ، آملاً أن ترى شيئاً ،
فلن يقع بصرك الا على ركن صغير من السماء ،
وعلى متراس من تراب تغطيه أعشاب السهوب ،
ويتجول عليه الحراس ذاهبين آيين ليل نهار ؛ فتقول لنفسك عندئذ ان
سنين كثيرة ستقضى ، وانك من خلال شق هذا السياج نفسه ستظل ترى
هذا المتراس نفسه ، وهؤلاء الحرس أنفسهم ، وهذا الركن الصغير نفسه
من السماء ، لا السماء التى تقوم فوق السجن ، بل سماء أخرى بعيدة •
تصوروا فناءً كبيراً طوله مائتا قدم ، وعرضه مائة وخمسون ، يحيط به
سياج سداسى الاضلاع على غير انتظام ، مؤلف من أوتاد غرست فى الأرض
عميقة : تلكم هى تخوم السجن الخارجية • وفى جهة من السياج بُنى
باب كبير قوى مغلق دائماً ، لا ينقطع عن حراسته عدد من الموظفين ، ولا
يُفتح الا حين يخرج السجناء للعمل • ف وراء هذا الباب يوجد الضياء وتوجد
الحرية ••• ووراءه يعيش أناس طلقاء ••• والناس فى داخل السياج
يتصورون ذلك العالم الرائع العجيب حلماً من الأحلام ، أو حكاية من
الخرافات ••• أما عالمنا نحن فليس من ذلك العالم فى شيء ••• انه عالم
خاص جداً ، لأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء • هو عالم له عاداته ، وله
زيه ، وله قوانينه ••• وكل ما فيه خاص • انه منزل « ميت حى » معاً ،

الحياة فيه لا شبيه لها ، والأحياء فيه ليس لهم نظراء • ان هذا الركن هو الذي أحاول أن أصفه •

إذا دخلت السياج رأيت بضع مبان • وفي كل جهة من جهات فناء واسع جداً يمتد مبنيان من خشب قد بنيا من جذوع الأشجار طبقة واحدة: تلکم هي ثكنات السجاء ، فيها يحتجزون بعد أن يقسموا عدة فئات • وفي آخر الفناء يرى مبنى آخر هو المطبخ قد قُسم جناحين • وبعد المطبخ مبنى آخر يتخذ كهفاً للمثونة ومرآباً للعربات ومخزناً للغلال في آن واحد • اما وسط الفناء « فهو عاري كل العري ، يشبه أن يكون ميداناً واسعاً • وهنالك انما يصطف السجاء ، فيجری تفقدهم وتتم مناداتهم ثلاث مرات في اليوم : صباحاً وظهرأ ومساءً » وعدة مرات أثناء النهار أيضاً اذا كان الجنود الحرس ريثابين غير بارعين في العد • وحول ذلك ، بين السياج والمباني « تبقى مساحة خالية واسعة يحب بعض السجاء الذين يكرهون صحبة البشر ويتصفون بمزاج قاتم وطبع مظلم أن يتزهوا حين لا يعملون: يجترون هنالك خواطرهم الحبيبة الى قلوبهم الأثيرة في نفوسهم بئى عن الناس ويمنحى من الأظفار • كنت اذا صادفتهم أثناء هذه الزهات التي يقومون بها أحب أن أنظر الى وجوههم الحزينة المتفضنة ، وأن أحزر ما يدور في رموسهم من أفكار • كان أحب شيء الى أحد هؤلاء السجاء مثلاً أن يشغل نفسه بعد أوتاد السياج التي يبلغ عددها ألفاً وخمسمائة وتبدأ • لقد عدّها جميعاً ، وحفظها على ظهر القلب • وكان كل وتد من هذه الأوتاد يمثل في نظره يوماً من أيام الاعتقال ، فهو يسقط من الحساب في كل يوم من الأيام وتبدأ ، فيستطيع بهذه الطريقة أن يعرف على وجه الدقة عدد الأيام التي بقى عليه أن يقضيها في السجن • وما كان أصدق سعادته حين يأتي على آخر وتد من أوتاد أحد أضلاع السياج السداسي ! وكان عليه مع ذلك أن ينتظر سنين طويلة قبل أن يُطلق سراحه • غير أن

الانسان يتعلم الصبر فى السجن • لقد شهدت فى ذات يوم اطلاق سراح واحد من المسجونين قضى مدة الحكم ، فأخذ يودّع رفاقه • كان قد قضى فى السجن عشرين عاما من الأشغال الشاقة • لقد رآه عدد من السجناء يدخل السجن شاباً ، غير عابىء بشيء • غير مبالي شيئاً ، لا يفكر لا فى الجريمة التى ارتكبها ولا فى العقوبة التى وقعت عليه ؛ وهو الآن شيخ أشيب الشعر ، حزين الوجه ، عابس الأسارير • لقد طاف على ثكناتنا الست صامتا ، فكان كلما دخل واحدة منها ، صلتى أمام صورة العذراء ، وحيثاً رفاقه تحية عميقة ، راجياً منهم أن لا يحفظوا عنه ذكرى سيئة • وأذكر أيضاً أن قد نودى أحد السجناء فى ذات مساء ، وهو رجل كان فى الماضى فلاحاً سيبرياً غنياً ، وقد أبلغ قبل ذلك بستة أشهر أن زوجته تزوجت غيره ، فأحزنه ذلك كثيراً ، وها هى ذى تأتى فى هذا المساء لتعطيه صدقة • لقد تحدثنا دقيقتين ، وبكى كلاهما • ثم افترقا الى غير لقاء بعد الآن ••• ورأيت وجه هذا السجين حين عاد الى الثكنة ••• حقاً ان الانسان يتعلم هنا كيف يعود احتمال كل شيء •••

ومتى بدأ الشفق أدخلونا الى الثكنات نُسجن فيها الليل كله • ولقد كان يؤلمنى ويحزننى دائماً أن أترك الفناء الى الثكنة • تصوروا غرفة طويلة منخفضة خائفة ، تضيئها شموع لا تكاد تنيرها ، وتشيع فى جوها رائحة ثقيلة تبعث على الغثيان • لا أستطيع أن أفهم الآن كيف عشت فى هذه الثكنة عشر أعوام كاملة • وكان سريرى فى الثكنة ثلاثة ألواح من خشب ، وذلك هو المكان الوحيد الذى كنت أستطيع التصرف فيه والتمتع به • كان يُحشر فى كل غرفة أكثر من ثلاثين رجلاً • وفى فصل الشتاء كانوا يجلسوننا فى ساعة مبكرة ، فكان لا بد من انتظار أربع ساعات حتى ينام جميع السجناء ، أما قبل ذلك فصخب كبير ، وضجة شديدة ، وقهقهات وشتائم وصليل سلاسل وأبخرة فاسدة ودخان كثيف ، وفوضى

رعوس مخلوقة وجباه متغضنة وثياب خلقة ••• وما الى ذلك من أمور تثير
الاشمئزاز وتبعث على التقرز ••• نعم ان الانسان حيوان طويل العمر !
ويمكن أن نعرفه بقولنا : الانسان كائن قادر على أن يتعود كل شيء ،
ولعل هذا خير تعريف يمكن أن يعرف به الانسان •

كان عددنا مائتين وخمسين سجيناً • وذلك عدد لا يكاد يتغير ، فما
ان يكمل أحد مدة سجنه حتى يصل سجناء آخرون • وكان بين السجناء
من يلقي حتفه فى السجن أيضاً • والسجناء من جميع أنواع البشر •
وأغلب الظن أن كل حكومة من حكومات روسيا ، أن كل اقليم من أقاليم
روسيا ، قد أرسل الى هذا السجن من مثله • وكان بين السجناء أجانب ،
بل وكان منهم رجال جاءوا من جبال القفقاس • وكان هذا العالم كله
يُقسَّم فئات مختلفة ، تبعاً لضخامة الجريمة ومدة العقاب • وكان لجميع
الجرائم أناس يمثلونها بين هؤلاء السجناء • ويتألف أكثر سكان السجن
من محكومين بالأشغال الشاقة من الفئة المدنية (أى من « كبار المحكومين »
على حد تعبير السجناء) ، فهم مجرمون جُرِّدوا من جميع حقوقهم المدنية ،
وهم أعضاء أديانهم المجتمع ، ولفظهم ، ووسم جباههم بالحديد المحمى
وسماً يشهد الى الأبد بالجريمة التى قارفوها • وهم يودعون السجن مدة
تراوح بين ثماني سنين واثنتى عشرة سنة ، حتى اذا انقضت مدة العقوبة
أُرسِلوا الى أحد أقاليم سيبيريا مستوطنين • أما فئة المجرمين العسكريين
فانهم لا يُجَرِّدون من حقوقهم المدنية - ذلك ما كان متبعاً فى الكتائب
المسكرية ذات النظام الروسى - ولا يرسلون الى السجن الا مدة
قصيرة بعض القصر • فمتى انقضت هذه المدة عادوا الى المكان الذى جاءوا
منه ، وأدخلوا جنوداً فى الفرق العسكرية على حدود سيبيريا • ان كثيراً
من هؤلاء كانوا يرجعون الينا بسبب ارتكابهم جرائم خطيرة ، ولكنهم
لا يسجنون فى هذه المرة عدداً قليلاً من السنين ، بل يسجنون عشرين

سنة في أقل تقدير ، وهم يشكلون عندئذ فئة يطلق عليها اسم «المؤبدين» .
ومع ذلك لم يكن « المؤبدون » مجردين من حقوقهم • وكان نمة فئة
اخرى كبيرة العدد يطلق عليها اسم « القسم الخاص » ، وهى تتألف من
اسوا المجرمين نوعاً وأشدهم خطراً ، فهم اناس مدمنون على الاجرام
عريقون فيه ؛ وكان يُرسل الى هذا القسم الخاص محكومون من جميع
البلاد الروسية • وكان هؤلاء يعدون أنفسهم مؤبدين ، لأن نهاية المدة التى
يجب أن يقضوها فى السجن غير معينة • وكان القانون يقضى بأن يمهّد
اليهم بأشغال مضاعفة مثني وثلاث • وهم يبقون فى السجن خارج سبيريا
الى ان يُشرع فى سبيريا بأعمال شاقة تبلغ غاية الارهاق • كان هؤلاء
يقولون للسجناء الآخرين « أتم هنا الى أجل معلوم ، أما نحن فباقون الى
آخر الحياة • » • وقد علمت فيما بعد أن هذا القسم قد أُلغى ، وأن
المحكومين العسكريين قد أبعدوا أيضاً ، وأنشئت لهم فرقة ذات نظام
خاص • وطبيعى أن ادارة السجن قد تبدلت كذلك ، فأنا أصف
الآن اذن تقاليد عهد قديم ، وأموراً أُلغيت منذ زمان طويل •••

نعم ، منذ زمان طويل ••• حتى ليخيل الىّ أن ذلك كله كان
حلماً من الأحلام • اننى أتذكر الآن يوم دخولى الى السجن فى مساء من
أماسى شهر كانون الأول عند هبوط الليل • كان السجناء عائدين فى تلك
الساعة من أشغالهم وكان الموظفون يهيتونهم للتفقد • فتح لى عريف ذو
شاربين طويلين باب هذا المنزل الغريب العجيب الذى سلخت فيه من عمرى
ذلك العدد كله من السنين ، وقاسيت فيه من الشدائد وكابدت من
الانفعالات ما لم يكن فى وسعى حتى أن أتصوره على وجه التقريب لولا
أن قاسيته وكابدته فعلاً • هل كان فى وسعى مثلاً أن أتخيل العذاب
الرهيب الذى يعانیه المرء حين لا يستطيع أن يخلو الى نفسه دقيقة واحدة
خلال عشرة سنين؟ نعم •• اننى لم أستطع أن أدخل الى نفسى مرة واحدة

قط ... سواء أثناء العمل تحت الحراسة ، أو فى الثكنة مع مائتى «رفيق»
... ولكن كان على أن أعود هذا ...

كان بين السجناء أناس ارتكبوا جريمة قتل عن طيش وخفة ، وكان
بينهم أناس احترفوا القتل احترافاً ؛ كان بينهم قطاع طرف وقادة قطاع
طرق وكان بينهم مجرد لصوص أتقنوا صناعة العثور على مالٍ فى جيب
أحد المارة ، أو اختطاف أى شئ من فوق مائدة ؛ وكان بينهم أناس
لا يستطيع المرء أن يقول لماذا ولا كيف أُدخلوا السجن . وكان لكل
سجين من السجناء قصته المضطربة المهمة الثقيلة الشاقة الاليمة كغداة ليلة
سكر . والسجناء على وجه العموم لا يتكلمون عن ماضيهم الا قليلا جداً ،
فانهم لا يحبون أن يقصوا هذا الماضى ، حتى أنهم يحاولون أن لا يفكروا
فيه . وقد عرفت بين رفاقى فى القيد الذى يشدنا معاً قتلةٌ يبلغون من شدة
المرح وقلة الاكتراث أن المرء يستطيع أن يراهن على أن ضميرهم لم
يعرف الندامة فى يوم من الأيام . ولكن كان بين رفاقى أيضاً أناس
عابسون صموتون لا يكادون يتكلمون . وكان يندر أن يقص أحد حكايته،
لأن حب الاستطلاع هذا لم يكن رائجاً ولا مألوفاً، بل نستطيع أن نقول انه
لم يكن مقبولاً . ومع ذلك كان يتفق من حين الى حين أن يروى سجين
لسجين قصته من فراغ الوقت وقلة العمل ، فيصغى الثانى للكلام الأول بغير
اكتراث ؛ والحق أنه ما كان لأحد أن يدهش جاره بما يقصه عليه أو
يرويه له . « أظننا نحن جهلة ؟ » : تلکم هى العبارة التى كان السجناء
يقولونها ساخرين معترزين ! أذكر أن واحداً من قطاع الطرق سكر يوماً
(وكان يمكن أن يسكر السجناء فى بعض الأحيان) فروى كيف قتل
طفلاً فى الخامسة من عمره ، ثم قطعهُ ارباً ارباً : اجتذبه فى أول الأمر
بلعبة ثم مضى به الى مخزن من مخازن المئونة فمزقه هنالك أشلاء . فاذا
بالثكنة كلها ، وكانت من قبل تضحك لأمازيح الرجل ، تطلق عندئذ

صرخة واحدة ، فاضطر الرجل أن يصمت • ولئن قاطعه السجناء وحالوا
 شينه وبين اتمام حديثه ، فما ذلك لان القصة قد أثارت استيائهم أو بعثت
 الاستهجان والاستنكار ، بل لأنه ليس مقبولا أن يتحدث المرء فى « هذا » •
 ويجب ان أذكر هنا أن السجناء كانوا على درجة من التعليم • كان نصفهم
 - ان لم يكن اكثر من نصفهم - يعرف القراءة والكتابة • اين يمكنك أن
 تقع ، فى روسيا ، بين أى طائفة من الناس عددها مائتان وخمسون رجلا ،
 على نصف يعرف القراءة والكتابة ؟ وقد سمعت بعد ذلك من يقول ان
 التعليم يفسد أخلاق الناس ، وسمعت من يستدل على ذلك بهذه الوقائع
 نفسها • الا ان هذا الحكم لخطا : فان التعليم لا شأن له قط بهذا السقوط
 الأخلاقى • يجب أن نسلّم مع ذلك بأن التعليم ينمى روح العزيمة ،
 ويقوّى ارادة التصميم لدى الشعب ، وما ذلك بعيب • وكان لكل فئة من
 الفئات أو لكل قسم من الأقسام زى خاص به : فهذه فئة يرتدى أفرادها
 صدره من جوخ ، لونها بين البنى والرمادى ، وسروالاّ أحد ساقيه بنى
 والثانى رمادى • فى ذات يوم ، بينما كنا فى الشغل ، جاءت بنت صغيرة
 تبسّع « سميّطاً » مصنوعاً من الدقيق الأبيض ، فنظرت الى طويلاً ، ثم
 انفجرت ضاحكة وصاحت قائلة : « هه ••• ما أبشع منظرهم ! انهم
 لا يملكون حتى ما يكفى لصنع ملابسهم من جوخ بنى أو من جوخ
 رمادى •• » وكان ثمة فئة أخرى يرتدى أفرادها صدره من جوخ رمادى ،
 لكن أكمامها بنية • وكانت الرؤوس تحلق أيضا على صور مختلفة ، فتارة
 تحلق الجمجمة طولا من القذال الى الجبين ، وتارة تحلق عرّضا من
 الأذن الى الأذن •

ان بين أفراد هذه الأسرة من التشابه الواضح البارز ما يتيح للمرء
 أن يميّزها من أول نظرة : فحتى الشخصيات المرموقة بينهم ، الشخصيات
 التى تسيطر على سائر السجناء دون أن تريد ذلك ، تحاول أن لا تشذ عن

الآخرين ، وانما تتبنى ما يتبنون وتسلك كما يسلكون • ويمكن أن نقول ان جميع السجناء - باستثناء عدد قليل يتمتع بمرح شديد ويحظى لذلك باحتقار الآخرين - كانوا عابسي الوجوه ، مقطعين ، كالخين ، حسودين ، مغرورين غرورا رهيبا ، مدّعين ، سريعى التأذى ، شديدى التمسك بالامور الشكلية • والفضيلة العليا فى نظرهم هى ان لا يدهش أحدهم من شيء ، لذلك كانوا يعنون أشد العناية باصطناع مظهر الرصانه والرزانه . ولكن كثيرا ما يحل محل مظهر التعالى ، بسرعة كومض البرق ، صغار واضح وجبن جلى • ومع ذلك كان بينهم رجال أقوياء أشداء حقاً ، وكان هؤلاء ينطلقون على سجيّتهم وطبيعتهم مخلصين صادقين ••• ولكن الشيء الغريب هو أنهم فى أغلب الأحيان على جانب كبير من الخيلاء توشك من فرطها أن تكون مرضاً • كانت الخيلاء فى المحل الأول دائماً • أما أكثر السجناء فكانت أخلاقهم منحلة حقيرة ، لذلك كانت النماث والوشايات والسعايات تنهمر انهمار المطر الهتون ••• كانت حياتنا جميعاً لا يطاق •• ولكن ما كان لأحد أن يجروّ على رفع صوته بالشكوى من أنظمة السجن الداخلية ، ولا من العادات المألوفة المقبولة • فكان السجناء يخضعون لهذه الأنظمة وهذه العادات صاغرين ، شاءوا أم أبوا • وكان هنالك أشخاص ذوو طباع شرسة ومراس صعب ، هؤلاء لا يخضعون الا بعد لآى ، ولكنهم يخضعون على كل حال • ان السجناء الذى كانوا قبل دخولهم السجن قد تجاوزوا كل الحدود ، ودفعهم غرورهم الطائش الاهوج الى ارتكاب جرائم رهيبه على غير شعور منهم ، كما لو كانوا فى حالة هذيان أو جنون ، فروّعوا مدناً بأسرها ، ان هؤلاء أنفسهم ما يلبث نظام السجن أن يروّضهم ••• قتلين قناتهم ، وتهدأ طباعهم بعض الهدوء • والقادم « الجديد » الذى يحاول أن يشدّ ، سرعان ما يلاحظ أنه لن يدهش هنا أحداً ، فاذا هو يخضع شيئاً بعد شيء ، ويتلام مع الجو العام ،

ويصطنع وقاراً شخصياً يكاد يصطنعه كل سجين ، تماماً كما لو كان اسم السجين عنوان شرف ولقباً من ألقاب المجد . ثم انك لا تلاحظ أية علامة من علامات الخجل ، أو أية امارة من امارات الندامة ، ولكن نوعاً من الخضوع الخارجى الذى يشبه أن يكون خضوعاً رسمياً ، هو الذى يتحكم بمستقبل السلوك . «نحن أناس مضيّعون ، لم نعرف كيف نعيش احراراً . فعلينا الآن أن نجتاز الشارع الأخضر * ، وأن نعد صفوفه ونعيد عدّاه . » لم تشأ أن تطيع أباك وامك ، فعليك الآن أن تطيع جلد الحمار . » « أبيت أن تطرّز ، فكسير الآن الحجارة . » . كذلك كانوا يقولون ، وكذلك كانوا يرددون ، على سبيل الموعظة بالآقوال المأثورة والأمثال المضروبة ، دون أن يأخذوا هذه الآقوال مأخذ الجد رغم ذلك ، فما كانت الا كلمات يطلقونها فى الهواء وهل اعترف واحد منهم بأنه أثم ؟ ابدا ! . . . انه ليكنفى أن يحاول غريب - لا سجين - أن يعيب على أحد السجناء جريمته أو أن يهينه حتى تنطلق الشتائم والمسبات هنا وهناك الى غير نهاية ! وما كان أحذق هؤلاء السجناء فى صنع المسبّات والشتائم مرهفةً لطيفة ! . . . ان فى سبابهم وشتائمهم لركة ودقه . . . انهم فى هذا المجال فنانون ! . . . الشتيمة علم حقاً . . انهم لا يحاولون أن يجرحوا الخصم باللفظ الصريح بل بالمعنى الخفى الذى تشتمل عليه عبارة يشيع فى داخلها السم . وكانت مشاجراتهم التى لا تنقطع تساهم كثيراً فى تطوير هذا الفن الخاص ، وفى تحقيق النمو والتقدم له .

ولما كانوا لا يعملون الا فى ظل التهديد بالعصا ، فلقد كانوا كسالى فاسدين ساقطين . والذين لم يكونوا قد فسدوا قبل وصولهم السجن ، فانهم ما يلبثون أن يفسدوا فيه . وكانوا غرباء بعضهم عن بعض ، قد جمعتهم الظروف على غير ارادة منهم . كانوا يقولون : « لقد أبلى الشيطان ثلاثة أزواج من الأحذية حتى استطاع أن يجمعنا . » . وكانت المكائد

والدسائس والوشايات والنمائى والسعايات والحسد والمشاجرات ، كان ذلك كله يحتل المقام الأول فى حياة الجحيم تلك التى نعيشها • ما من لسان يذىء بقادر على أن يصمد لهؤلاء القتلة الذين تهم³ الشتيمة أن تخرج من أفواههم فى كل لحظة •

كان بينهم ، كما سبق أن قلت ، رجال أقوياء الارادة ، صلاب العود ، شديدي البأس ، شجعان القلب ، تعودوا كيف يسيطرون على أنفسهم وكيف يتحكمون بسلوكهم • لقد كان الآخرون يهابون هؤلاء ويقدرونهم ويحترمونه على غير ارادة منهم ؟ وكان هؤلاء رغم حرصهم الشديد على سمعتهم يحاولون أن لا يسيطروا على أحد وأن لا يفرضوا أنفسهم على أحد ، وأن لا يحاصروا أحداً ، وكانوا لا يتهاترون ولا يتشاجرون ولا يتشاتمون بغير داع الى مهاترة أو مشاجرة أو مشاتمة • كان سلوكهم سلوكاً رضىً سليماً كريماً من جميع النواحي • كانوا يتميزون بالعقل والتبصر والحكمة ، وكانوا طيِّعين دائماً على وجه الاجمال ، لا عن قيد بمبدأ ولا عن شعور بواجب ، بل على أساس اتفاق صامت بينهم وبين ادارة السجن ، اتفاق يدركون هم ما يعود عليهم به من مزايا وما يجلبه لهم من منافع • ومع ذلك كانوا ياملون فى حذر • أذكر أن سجيناً شجاعاً قوى البأس معروفاً بما يتصف به من ميسول تشبه ميول الوحوش الكاسرة ، استدعى فى ذات يوم ليجلد • كان ذلك أثناء الصيف • ولم يكن أحد يعمل • وكان الضابط الذى هو الرئيس المباشر للسجن قد وصل الى مقر الحرس الموجود قرب الباب الكبير ليشهد تنفيذ العقوبة بنفسه • كان هذا الضابط ، وهو برتبة ميجر ، بلية⁴ السجناء العظمى* ، قد جعلهم يرتعدون أمامه خوفاً وذعراً • كان يبلغ من القسوة حدّاً يفقده صوابه ويضيّع له رشده • كان ينزل عليهم نزول الصاعقة ، على حد تعبيرهم • غير أن نظرتة التى لا تقل حدة⁵ عن نظرة الفهد هى التى كانت ترعبهم خاصة • كان

يستحيل اخفاء شيء عنه • كان يرى دون أن ينظر ان صح التعبير • كان اذا دخل السجن عرف على الفور ماذا يجرى في اقصى الطرف الآخر من السور • لذلك كان السجناء يطلقون عليه اسم « صاحب الاعين الثماني » • وكان أسلوبه في المعاملة سيئاً ، فهو لا يزيد على أن يثير الحق والغضب في نفوس هؤلاء الناس الذين لا يعوزهم حق ولا غيظ • ولولا الضابط النقيب ، الذي كان انسانا حسن التهذيب واسع الصدر عاقلاً يهدئ روع الميجر ويطامن اندفاعاته ويمنع نزواته اذن لاحت ذلك الميجر كثيراً من الأذى ولأوقع كثيراً من المصائب ولسبب كثيراً من الآلام بسوء ادارته • واني لأسأل كيف أمكن أن يحال على التقاعد سليماً لم يمسه أذى ؛ والحق أنه صرف من الخدمة بعد صدور حكم في حقه •

امتنع لون السجن حين نودي • كان في العادة يرقد على الأرض شجاعاً لا ينطق بكلمة واحدة ، حتى اذا فرغوا من جلده بالسوط نهض ينفض جسمه • كان يتحمل هذا التعذيب بهدوء كفيلسوف • صحيح أنهم كانوا لا يعاقبونه الا لذنوب قارفة ، ولا يوقعون فيه العقوبة الا بكثير من الحذر والاحتياط • ولكنه كان يعد نفسه في هذه المرة بريئاً • لذلك امتنع في هذه المرة لون وجهه ، واستطاع وهو يدنو من جنود الحرس في رفق وهدوء أن يخفي في كمه سكيناً من السكاكين التي يستعملها الحذائون • يجب أن نذكر مع ذلك أنه كان محظوراً خطراً مطلقاً على السجناء أن يملكوا آلات قاطعة ، كالسكاكين والخناجر والمدى وما الى ذلك • وكان يجرى من أجل ذلك تفتيش يقوم به المفتشون قياماً دقيقاً على حين غرة أحياناً كثيرة • وكانت مخالفة هذا النظام من أنظمة السجن تنزل في المخالف عقوبات شديدة قاسية • ولكن لما كان من الصعب أن يُنتزع من مجرم ما يريد اخفائه ، ولما كان السجن من جهة أخرى لا يخلو من آلات قاطعة حتماً ، فان هذه الآلات القاطعة لم تقب من السجن في

يوم من الأيام فاذا أمكنت مصادرة بعض هذه الآلات القاطعة ، لم يلبث السجناء أن يحصلوا على آلات قاطعة جديدة تحل محل تلك التي تمت مصادرتها • اندفع السجناء نحو السياج خافقي القلوب ليشهدوا من خلال الشقوق ما سيحدث • كانوا يعرفون أن بتروف سيرفض في هذه المرة أن يعنو للجلد ، وأن نهاية الميجر قد أوفت • ولكن الميجر قد ركب عربته في اللحظة الحاسمة وانصرف عاهداً بتنفيذ العقوبة الى ضابط مرءوس • قال السجناء فيما بعد : « ان الله هو أنجاه ! » • أما بتروف فقد تحمل القصص هادئاً ، ذلك أن غضبه قد تظامن منذ انصراف الميجر • ان السجناء يخضع ويطيع الى درجة ما ، غير أن هنالك حدوداً ما ينبغي تجاوزها • لا شيء أدعى إلى الدهشة والعجب من تلك الانفجارات الغريبة التي تظهر لدى السجناء في بعض الأحيان اندفاعاً وعصياناً وتمرداً • وما أكثر ما نرى رجلاً ظل خلال سنين عدة يتحمل أقصى العقوبات ثم اذا هو يثور ويعصى ويتمرد لسبب تافه • لأمرٍ لا قيمة له البتة ••• حتى ليتمكن أن يقال عنه عندئذ انه قد جنَّ ••• وذلك ما يقال على كل حال •••

سبق أن قلت انني لم ألاحظ خلال عدة سنين أية علامة من علامات الندامة ، ولا أيسر أثر من آثار الأسف للجريمة المرتكبة ، وان أكثر السجناء كانوا في قرارة نفوسهم يعتقدون أن من حقهم أن يفعلوا ما يحلو لهم ••• ولا شك أن للكبر والغرور والقذوة السيئة والتباهي والتواضع الكاذب شأناً في ذلك • ومن ذا الذي يستطيع أن يزعم على كل حال أنه سبر قرارة هذه القلوب التي استسلمت للضياع ، فوجدها موصدةً دون كل ضياء ؟! ••• على أنني كان في وسعي خلال هذا العدد كله من السنين أن ألتقط أية ايماءة ، ولو كانت عابرة خاطفة ، تدل على شيء من أسف أو ندامة أو عذاب ضمير • وذلك ما لم ألاحظ منه شيئاً والحق يقال • ليس في وسع الانسان أن يحكم على الجريمة وفقاً لآراء جاهزة ، وفلسفة

الانسان فى الحكم على الجريمة أعقد قليلاً مما قد تتوهم . ومن الثابت المحقق أنه لا السجون ولا المعتقلات ولا نظام الأشغال الشاقة ، لا شىء من هذا كله بقادر على اصلاح المجرم . ان هذه العقوبات لا تزيد على أن تنزل فيه قصاصاً ، وأن تقى المجتمع من الجرائم التى قد يقارفها . وليس من شأن الاحتجاز والأشغال المرهقة الا أن تفاقم الكره والبغض والحقد لدى هؤلاء الناس ، والا أن تزيد ظلمهم الى الملمات المحرمة ، والا أن تولد فيهم مزيداً من الاستخفاف والاستهتار . واننى من جهة أخرى لعلى يقين من أن نظام الزنزانة المنفردة لا يحقق الا هدفاً ظاهراً خداعاً ، فهو يجرد المجرم من كل قوته وكل طاقته ، وهو يثير الحفيظة فى روحه ويضعف نفسه ويروّعها ، ثم يخرج لنا من ذلك كله مومياء جافة شبه مجنونة ، يقدمها لنا مثلاً على الصلاح الذى تحقق فى نفس المجرم ، وعلى الندامة التى شعر بها . ان المجرم الذى تمرد على المجتمع يكره المجتمع ويمد نفسه دائماً على حق : فالمجتمع هو المخطئ فى نظره ، أما هو فليس بمخطئ . ثم انه قد عوقب ، لذلك يرى أنه قد أصبح بريئاً . دعك من اختلاف آراء الناس بعضهم مع بعض فى شأن الجريمة : ان هناك جرائم يعترف كل انسان فى كل مكان وزمان ، وتعترف جميع القوانين والأنظمة والشرائع بأنها جرائم لا جدال فيها ، وبأنها ستظل تعد جرائم ما ظل الانسان انساناً . واننى لم يتح لى أن أسمع الا فى السجن قصصاً عن أشد الجرائم غرابة وهولاً يرويها صاحبها ضاحكاً ضحكاً يشبه أن يكون ضحك طفل ، ولا يكاد يحاول أن يكظم ضحكته . لن أنسى مدى الحياة قصة ابن قتل أباه* ، وكان قبل ذلك ضابطاً وكان من طبقة النبلاء . لقد كان هذا الابن مصدر شقاء أبيه . كان ابناً شاذاً ما فى ذلك شك . وكان الأب يحاول جاهداً أن يصدّه عن سلوكه السيء باسداء النصيح اليه عسى أن يوقيه من الانزلاق الى الهاوية التى كان ينحدر اليها ، فلم يجده ذلك

شيئاً • واذ كان الابن مثقلاً بالديون ، وكان يتصور أن أباه يملك عدا
 المزرعة مالاً يخبئه ، فقد قتل أباه بغية أن يؤول اليه الميراث بمزيد من
 السرعة • ولم تكتشف الجريمة الا بعد انقضاء شهر على ارتكابها • وفي
 أثناء ذلك الشهر استمر القاتل على فجوره واستهتاره بعد أن أبلغ القضاء
 اختفاء أبيه • وأخيراً استطاعت الشرطة ، أثناء غياب الابن ، أن تكتشف
 جثة القاتل الشيخ في قناة تغطيها الأشجار • وكان الرأس الأشيب مفصولاً
 عن الجذع ، مسنداً الى الجسم العارى كل العرى ، وقد وضع القاتل تحت
 الرأس وسادة من قيل السخرية والهزء • لم يعترف الشاب بشيء • ولكنه
 جرّد من رتبته العسكرية ، وانتزعت منه امتيازات النبالة ، وأرسل الى
 سجن الأشغال الشاقة يقضى فيه عشرين عاماً • فكيف كان هذا الشاب
 طوال المدة التي عرفته فيها ؟ لقد كان دائماً مشرق المزاج لا يبالى شيئاً
 ولا يحفل بشيء ••• لم ألق في حياتي شاباً في مثل طيشه وقلة
 تبصره ، رغم أنه لم يكن غنياً قط ••• ولم ألاحظ فيه شيئاً من الافراط
 في القسوة • وكان السجناء الآخرون يحقرونه ، لا بسبب جريمته ،
 فما كان أحد يأتي على ذكرها أو يناقش فيها ، بل لأنه لم يكن على شيء
 من الرصانة والوقار • وهذا هو يمتدح في ذات يوم ماتتصف به أسرته
 من قوة الجسم وتمام العافية بالوراثة ، فيقول : « انظروا الى أبي مثلاً :
 انه الى يوم موته لم يمرض قط ! » • ان مثل هذا التبلد الحيواني في
 الاحساس يبدو أمراً مستحيلاً حين يبلغ مثل هذه الدرجة الرهيبة : انه
 شيء شاذ الى أبعد حدود الشذوذ • فلا بد أن يكون ثمة آفة عضوية ،
 لا بد أن يكون ثمة تشوه جسمي وروحي لم يعرفه العلم حتى أيامنا
 هذه ، ولا يمكن أن يكون الامر أمر جنوح أو اجرام فحسب • ولم
 أصدق طبعاً أن ترتكب جريمة تبلغ هذا المبلغ من الوحشية ، غير أن
 أناساً من المدينة التي كان يقطنها الشاب ، كانوا يعرفون جميع تفاصيل

قصته فرووها لى ؛ وكانت الوقائع من الوضوح بحيث يستحيل رفض التصديق والافتناع بصحة وقوع الجريمة •

وقد سمعه السجناء ذات مرة يصيح أثناء نومه : « اقبض عليه ! اقبض عليه ! اقطع رأسه ، اقطع رأسه ، رأسه ! ... »

وكان جميع السجناء تقريبا يحلمون بصوت عالٍ ، أو يهزون أثناء النوم • وكانت ألفاظ الشتم والسب وأسماء الخناجر والفئوس تتردد فى أحلامهم أكثر الأحيان • وكانوا يقولون : « نحن أناس مخربون ، ليس لنا أحشاء ، لذلك نصرخ فى الليل • • »

ولم تكن الأشغال الشاقة فى قلعتنا عملا بل الزاما : كان السجناء يقومون بمهمتهم أو يعملون عددا من الساعات يحدده القانون ، ثم يعودون الى السجن • • وكانوا يكرهون هذا العمل الذى يُجبرون على القيام به إجبارا ، فلولا أن كل سجين من السجناء كان يشغل وقته بعمل شخصي يقبل عليه من تلقاء نفسه ويهب له كل ذكائه ، اذن لاستحال غليه أن يطبق احتمال السجن • وكيف يمكن لهؤلاء الناس الذين يتصفون جميعا بطبيعة قاسية ، والذين عاشوا حياة عريضة وما يزالون يريدون أن يعيشوا ، والذين جمعتهم الظروف على غير ارادة منهم ، بعد أن نبذهم المجتمع ، كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يعيشوا حياة سليمة طبيعية ؟

ان الكسل وحده ينمى ويعزز لدى السجناء أشد الفرائز الاجرامية عتوآ ، حتى تلك التى ما كان لهم أن تخطر ببالهم فى يوم من الأيام •

ان الانسان لا يستطيع أن يحيا بلا عمل ، ولا يستطيع أن يحيا بدون تملك طبيعى مشروع • فاذا لم تتوفر هذه الشروط انحلت أخلاقه وفسدت طباعه وانقلب وحشا كاسرا • لذلك كان لكل سجين ، بحكم

ضرورة طبيعته وبحكم غريزة حب البقاء ، كان لكل سجين عندنا مهنة يتعاطاها وعمل يقوم به . وكانت أيام الصيف الطويلة تنقضى كلها تقريبا في الأعمال المفروضة ؛ وكانت ليالى الصيف القصيرة لا تكاد تكفى للنوم . وليس الأمر كذلك فى الشتاء . كان النظام يوجب أن يحبس السجناء فى الثكنات متى هبط الليل . فما عساهم يصنعون أثناء الليالى الطويلة الحزينة غير أن ينصرفوا الى عمل من الأعمال ؟ لذلك كانت كل ثكنة من الثكنات تتخذ فى ليالى الشتاء مظهر ورشه كبيرة رغم أن ذلك ممنوع محظور ! والحق أن العمل نفسه لم يكن ممنوعا أو محظورا ، ولكن الممنوع والمحظور انما هو اقتناء آلات أو أدوات وهل يمكن العمل بغير آلات أو أدوات ! كان السجناء يعملون اذن خفية فى السر ويظهر أن ادارة السجن كانت تفضل أعينها عن هذا . وكان كثير من السجناء يصلون الى السجن وهم لا يعرفون ماذا يصنعون بأصابعهم العشرة ، فاذا هم يأخذون يتعلمون من رفاقهم مهنة من المهن ، حتى اذا أطلق سراحهم خرجوا من السجن عمالاً مهرة . كان بينهم حذامون واسكافيون وخياطون ونحاتون وقفالون ونقاشون . حتى لقد كان بينهم يهودى اسمه اشعيا بومشتاين كان يعمل صائفا ومرابيا فى آن واحد . كان جميع السجناء يعملون ، فيجنون من عملهم بعض الدريهمات ، لأن طلبات كثيرة كانت تأتى اليهم من المدينة . ان المال حرية رنانة راجحة فى نظر من حرم من الحرية حرمانا كاملا . فاذا شعر أن فى جيبه بعض المال ، كان له فى ذلك عزاء عن حاله ، ولو لم يكن يستطيع أن ينفق هذا المال فى وجهه من الوجوه (ولكن يجب أن نذكر أن اتفاق المال ممكن فى كل مكان وكل زمان ، لا سيما وأن المرء يشتهى الثمرة المحرمة اشتها مضاعفا ، ولقد كان يمكن الحصول على خمرة حتى فى السجن) . وكان السجناء جميعا يدخلون رغم أن

الغلايين كانت ممنوعة منعاً باتاً • فكان المال والتبغ يقيان السجناء شرّ الجريمة : فلولا العمل لأهلك بعضهم بعضاً ، لولاه لدمّر بعضهم بعضاً ، كما تفعل العناكب حين تُحبس في حق من زجاج • ومع ذلك كان العمل والمال كلاهما ممنوعين محظورين : وكثيراً ماكانت ادارة السجن تقوم في الليل بحملات تفتيش دقيق فتصادر كل ما تقع عليه عندالسجناء من أشياء تحظّر الأنظمة اقتناءها ؛ وكانت حملات التفتيش هذه تظفر باكتشاف بعض هذه الأشياء المحظورة مهما يتفنن السجناء في اخفائه • وكان هذا أحد الأسباب التي تدفع السجناء الى أن لا يحتفظوا بهذه الأشياء زمنا طويلا ، بل يسارعون الى أن يستبدلوا بها خمرًا يشربونه • وذلك يعلل لنا كيف كان لا بد أن تدخل الخمرة الى السجن • كان السجين لا يحرم من ماله متى صودر فحسب ، بل كان الى ذلك يجلد جلدًا قاسياً ! •••

وما يكاد ينقضي على حملات التفتيش زمن قصير ، حتى يحصل السجناء من جديد على نظائر الأشياء التي تمت مصادرتها ••• فتعود الأمور الى ما كانت عليه ••• وكانت ادارة السجن تعلم ذلك ••• ورغم أن ظروف حياة السجناء كانت أشبه بظروف حياة الناس الذين يسكنون فوق بركان فيزوف ، فلم يكن أحد منهم يتمم بكلمة واحدة تذكرا من العقاب •

ومن لم يملك صنعة يدوية كان يتاجر بطريقة من الطرق • وكانت أساليب الشراء والبيع طريقة • فبعضهم يشتري أشياء عتيقة ثم يبيعها ، وهى أشياء ما كان لأحد غير سجين أن يخطر بباله بيعها أو شراؤها • حتى ولا اعتبارها ذات قيمة • ما • ان أحقر خرقه بالية كان لها ثمنها ، وكان يمكن أن تنفع • وكان المال يكتسب في نظر السجناء ، بسبب فقرهم ، قيمة أعلى من قيمته في الواقع • ان أشغالا طويلة شاقة ،

بل ومعقدة كل التعقيد في بعض الأحيان ، كان لا يُدفع ثمنها الا بضعة كوبيكات . وكان بعض السجناء يقرضون بالربا لمدة اسبوع ، فيجنون من ذلك بعض الأرباح . كان السجن المبذّر أو المتلاف يحمل الى المراهبي الأشياء القليلة التي يملكها ، فيرهنها لديه لاقتراض دريهمات قليلة بفائدة ضخمة . فاذا لم يسترد المدين أشياءه بدفع الدين في موعده المضروب ، كان من حق المراهبي أن يبيعها بالمزاد في غير رحمة ، وبلا ابطاء . وقد بلغ الربا في السجن من الرواج والازدهار أن السجناء كانوا يرهنون حتى أشياء تملكها الدولة : كالمالبس والأحذية وما الى ذلك من أمتعة لا غنى عنها في لحظة من اللحظات . فاذا قبل الدائن رهن أمتعة من هذا النوع ، جرت الأمور في كثير من الأحيان مجرى لم يكن في الحسبان : فما هو ذا صاحب الامتعة يمضي بعد استلام المال الى العريف (رئيس المراقبين في السجن) ، فيبلغه نبأ اختفاء امتعة من ملك الدولة ، فتتزع الامتعة عندئذ من المراهبي ، دون أن يرى أحد أن هناك ما يدعو الى تبليغ ادارة السجن حقيقة الأمر . وما من مشاجرة قامت يوماً بين المراهبي وصاحب الأمتعة - وذلك أظرف ما في الأمر - فان المراهبي يرد الامتعة المطلوبة صامتاً عابس الوجه مقطب الجبين ، كأنه كان يتوقع ذلك منذ زمن طويل . ولعله كان يعترف لنفسه بأنه لو كان في محل المدين لما فعل غير ما فعله المدين . ولذلك اذا تشاتم الرجلان في اثر حادثة من هذا النوع ، فانهما لا يتشتمان عن كره وبغضاء ، بل يتشتمان ابراءاً للذمة ان صح التعبير .

وكان السجناء يسرق بعضهم بعضا بلا خجل ولا حياء . ان لكل سجين صندوقاً صغيراً مزوداً بقفل ، يدس فيه الأمتعة التي تعهد بها اليه ادارة السجن . غير أن السماح باستعمال هذه الصناديق لم يمنع السرقات قط . وسهل على القاريء أن يتصور براعة اللصوص الذين كانوا يبتنا.

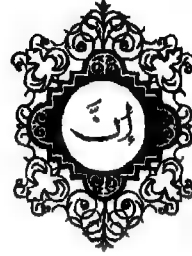
ان أحد السجناء ، وكان مخلصاً لى كل الاخلاص ، (أقول هذا بلا ادعاء) قد سطا على كتاب التوراة الذى كنت أملكه ، وهو الكتاب الوحيد الذى كان يسمح للسجناء اقتناؤه فى السجن . وقد اعترف لى بفضلته فى ذلك اليوم نفسه ، لا ندما على ما فعل ، بل لأنه حين رآنى أبحث عن الكتاب مدة طويلة أشفق علىَّ وأخذته بى رحمة . وكان بين رفاقنا فى القيد عدد من السجناء يسمون «خمسّارين» ، وهم يبيعون الخمر ويثرون من هذه التجارة اثراءً لا بأس به . سأحدث عن هذا فيما بعد ، لأن هذه التجارة شائقة جداً فيحسن أن أثبت عليها قليلاً . ان عدداً كبيراً من السجناء قد جرى بهم الى هنا لانهم مهربون ، فلا غرابة والحالة هذه ان يهرّب الخمر سرا الى السجن ، رغم المراقبة الشديدة ، والحراسة المستمرة التى لا بد منها ولا غنى عنها ويجب أن أذكر عابراً أن التهريب جريمة لها شأن خاص هل تتصورون أن المال والربح الذى يجنيه المهرّب من التهريب ليس فى المقام الأول دائماً فى نظر المهرّب ؟ تلك حقيقة مع ذلك . ان المهرّب يعمل فى التهريب لا طمعاً فى الربح بل تحقيقاً لرسالة : انه فى نوعه شاعر . انه يجازف بكل ما يملك ، ويعرّض نفسه لأشد المخاطر ، ويمكر ، ويحتال ، ويتكر ، ويخرج من المآزق ، وينجو من المتاعب حتى لكأنه أحياناً ملهم فيما يعمل ان هوى التهريب لا يقل قوة وغنفاً عن هوى القمار . عرفت سجيناً ضخّم الجسم قوى البنية كان بين جميع من عرفت أكثرهم دماءً وألينهم عريكة وأشدهم مسألة وخضوعاً حتى ليستأهل المرء كيف أمكن أن يسجن هذا الانسان ؟ لقد كان من حسن المعشر ولطف السلوك وحب الناس أنه لم يتشاجر مع أحد طوال المدة التى قضاها فى السجن . انه من روسيا الغربية ، وكان يقطن على الحدود ، فاعتقل وأرسل الى السجن بتهمة التهريب . وكان طبيعياً أن لا يستطيع مقاومة الاغراء الذى

يحضه على المجيء بخمرة الى السجن • كم من مرة عوقب على ذلك !
والله يعلم كم كان يخاف الشياطين ! وكانت هذه المهنة لا تدر عليه الا
ربحاً زهيداً ••• وكان المتعهد (المقاول) هو الذى يثرى على حسابه ••
كان الرجل يبكى بكاء امرأة عجوز كلما عوقب ، ويحلف أغلظ الأيمان
لينقطع عن هذا العمل ••• فكان يمر بالعهد الذى قطعه على نفسه شهراً ،
ثم اذا هو يعود سيرته الأولى منساقاً مع هواه من جديد ••• فبفضل هواه
التهريب هؤلاء كان السجن لا يخلو من الخمرة فى يوم من الأيام •

وهناك مورد آخر ثابت كان يحسن الى السجناء وان لم يكن
يغنيهم ••• ذلك المورد هو الصدقات • ان الطبقات الراقية فى مجتمعنا
الروسى لا تعرف مدى اهتمام التجار والباعة والكسبة وسائر شعبنا
الروسى «بعائرى الحظ» • كان سيل الصدقات لا ينقطع عن السجن فى يوم
من الأيام ، وهو أنواع من الخبز الأبيض فى أكثر الأحيان ، أو شئ من
المال فى بعض الأحيان • فلولاً هذه الصدقات لكات حياة السجناء ، ولا
سيما حياة أولئك الذين ساءت تغذيتهم ، شاقة أليمة الى أبعد الحدود •
وكانت الصدقات توزع على السجناء بالتساوى • فاذا كانت احدى
الصدقات غير كافية شطرت الأرغفة الصغيرة نصفين ، حتى ينال كل
سجين نصيبه • ما زلت أذكر أول صدقة تلقيتها ، وكانت قطعة نقود
صغيرة • ففى ذات صباح ، بعد وصولى بزمان قصير ، كنت عائداً من
العمل وحدى مع أحد الحرس ، فالتقيت بأُم وابنتها ••• ان البنت فى
العاشرة من عمرها ، جميلة كملاك ••• كنت قد رأيته مرة قبل ذلك •
(الأم أرملة جندي شاب مسكين حوكم أمام المجلس الحربى ومات
بمستشفى السجن أثناء وجودى فيه • لقد بكنا بكاءً حاراً حين جاءتا

كلتاها تودعانه الوداع الأخير) • فلما رأتني الفتاة احمر وجهها وتمت
تهمس في أذن أمها ببعض الكلام ، فتوقفت الأم ، وتناولت من سلتها ربع
كوبك مدته الى البنت ، فأسرعت البنت الى تقول : « خذ هذا الكوبك
أيها المسكين ، على روح يسوع المسيح ! » • فأخذت قطعة النقد التي
دستها البنت في يدي • وعادت البنت الى أمها فرحة كل الفرح • لقد
احتفظت بذلك الكوبك ••• زمنا طويلا •••

المسار الأول



الأسابيع الأولى من سجنى ، وبدأياتى الأولى فيه بوجه عام تعرض لخيالى الآن واضحة وضوحاً قوياً . أما السنوات التالية فقد اختلط بعضها ببعض ولم تخلف فى نفسى الا ذكرى غامضة مبهمه . حتى أن بعض فترات هذه الحياة قد امّحت من ذاكرتى تماماً ، ولم أحتفظ منها الا باحساس واحد لم يتغير ، وهو الاحساس بأنها شاقة رتيبة خائقة .

ان ما رأيته وشعرت به أثناء تلك الآونة الاولى من اعتقالى يبدو لى كأنه حدث بالامس . وكان لا بد أن يكون الامر كذلك .

أذكر تماماً أن هذه الحياة انما أدهشتى فى أول الامر لأننى لم أجِد فيها شيئاً خاصاً خارقاً يلفت النظر أو يثير الانتباه ، أو قل بتعبير أصدق لأننى لم أجِد فيها شيئاً غير متوقع . ولم أفهم كل ما فى مثل هذه الحياة من أمور استثنائية غير متوقعة الا بعد أن عشت فى السجن زمناً طويلاً طويلاً كافياً ، فدهشت عندئذ أشد الدهشة . ويجب أن أعترف أن هذه الدهشة لم تفارقنى طوال المسدة التى قضيتها فى السجن ؛ ولا استطعت أن أتصالح مع هذه الحياة بحال من الاحوال .

شعرت فى أول الأمر باشمئزاز لا سبيل الى مغالته حين وصلت الى السجن ، ولكن الشئ الغريب أن الحياة فيه بدت لى أقل مشقة والمأما كنت أتصورها فى طريقى اليه •

فهاهم أولاء السجناء ، رغم ضيقهم بالاغلال ، يذهبون ويحيئون فى السجن بحرية • انهم يتشائمون ويفنون ويعملون ويدخنون الغليسون ويشربون الخمر (كان الشاربون مع ذلك قلة نادرة) ، بل ويقيمون فى الليل ندوات لعب بالورق • ولم تبد لى الأشغال شاقة جدا • وخيل الى أنها ليست هى المشقة أو العناء أو التعب الذى يلقاه السجن فى معتقل الأشغال الشاقة • ولم أدرك الا بعد ذلك بزمان طويل لماذا كان هذا العمل قاسيا ومفرطاً • انه قاس ومفرط لا لأنه صعب ، بل لأنه اجبارى ، لأنه الزامى ، لأنه قهرى ، ولأن المرء لا يقوم به الا خوفا من العصا • لا شك أن الفلاح يعمل أكثر كثيراً من السجن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، فهو يكد ويجهد فى الصيف ليل نهار • ولكنه من أجل مصلحته انما يكد ويجهد ، فهدفه معقول وغايته مفهومة ، لذلك لا يقاسى مايقاسيه السجن الذى يقوم بعمل اجبارى لا يجنى منه نفعا • خطر ببالي ذات يوم أنه اذا أريد تحطيم انسان من الناس تحطيماً ، ومعاقبته معاقبة قاسية رهية ، وسحقه سحقاً يرتعش ازاءه أشد السفاكين عتواً ، وأكثرهم ضراوة ، اخافته من هذه العقوبة خوفا رهيبا قبل انزالها فيه ، يكفى أن يُفرض عليه القيام بعمل ليس له أى فائدة البتة ، عمل سخيف باطل مستحيل • ان الأعمال التى يُفرض على السجناء أن يقوموا بها الآن لا تفيد هؤلاء السجناء فى شئ ، ولا تعود عليهم بنفع ، ولكنها أعمال معقولة على كل حال : فالسجين يصنع قريدا أو يحفر الأرض أو يطن أو يبنى ، وتلك كلها أعمال لها معناها ولها هدفها • فهو يريد عندئذ أن يقوم بعمله بمزيد من الحذق ، ومزيد من الفائدة • أما اذا أكرهته مثلا

على أن يصب ماءً من وعاء في وعاء ، ثم أن يعيد الماء من الوعاء الثاني الى الوعاء الاول ؛ أو اذا اكرهته على أن يدق رملًا * او على ان ينقل كومة تراب من مكان الى مكان لتأمره متى أتم نقلها بأن يردها الى حيث كانت ، فأننى لعلى يقين من أن السجين سيقتل نفسه ذبحاً بعد بضعة أيام ، أو سيرتكب ألف جريمة من الجرائم التى يعاقب فاعلها بالاعدام ، مؤثراً ذلك على أن يحيا فى مثل هذا الهوان وهذا العذاب • ان عقوبة كهذه العقوبة لهى أقرب الى التعذيب والاتقام الرهيب منها الى التأديب • وهى سخيفة مستحيلة لا تحقق هدفاً مقولاً •

مهما يكن من أمر ، فأننى لم أصل الى السجن الا فى فصل الشتاء ، فى شهر كانون الأول (ديسمبر) • لم تكن الأعمال حينذاك كثيرة فى قلعنا • ولم يكن فى ذهنى اية فكرة عن اعمال الصيف التى يساوى تبعها خمسة أضعاف تعب أيام الشتاء • كان السجناء أثناء فصل الشتاء ينقضون مراكب قديمة تملكها الدولة على نهر ارتيش ، ويعملون فى الورشات ، وينزعون التلوج التى تراكمها عواصف الثلج على المباني ، أو يحرقون الجص ويدقونه ، الخ • ولما كان النهار قصيراً جداً ، فإن العمل ينتهى فى ساعة مبكرة ، ويعود السجناء الى السجن حيث لا يعملون شيئاً عدا العمل الاضافى الذى ابتدعوه لأنفسهم •

وكان ثلث السجناء فى أكثر تقدير يقوم لنفسه بعمل جاد : أما الآخرون فيتسكعون كسالى لا يعملون ، ويحوّون هنا وهناك فى الثكنة بغير هدف ، يكد بعضهم لبعض ويشتم بعضهم بعضاً • والذين يملكون منهم شيئاً من مال يشربون الخمر ويسكرون ، أو يخسرون فى القمار ما ادخروه ••• ذلك كله كسلاً وضجراً وفراغاً ••• وقد عرفت نوعاً من العذاب لعله أشد وآلم أنواع العذاب التى يمكن أن يقاسى منها سجين الى جانب حرمانه من الحرية : ألا وهو السكنى المشتركة قسراً • ان

السكنى المشتركة أمر يُقسر عليه الانسان قسراً فى كل مكان تقريباً ،
ولكن السكنى المشتركة ليست رهية فى مكان كما هى رهية فى سجن :
ان هناك أناساً لا يطبق أحد أن يعيش معهم • وانى لعل يقين من أن كل
سجين قد قاسى من هذا الأمر ، ربما دون أن يشعر •

أما الطعام الذى كان يقدم للسجناء فقد بدا لى مقبولا • وكان
السجناء يؤكدون أنه خير كثيرا من الطعام الذى يقدم فى أى معسكر من
معسكرات التأديب فى روسيا الأوروبية • غير أننى لا أستطيع أن أشهد
بصدق قولهم ، لأننى لم أدخل سجناً غير هذا السجن • وكان كثيرون
منا يستطيعون أن يحصلوا على الطعام الذى يطيب لهم • ولكن رغم أن
سعر رطل اللحم لا يزيد على كوبكين شتاءً ، وثلاثة كوبكات صيفاً ، فإن
الذين كانوا يسمحون لأنفسهم بترف أكل اللحم انما هم الذين يملكون
مالاً • أما أكثر السجناء فكانوا يكتفون من الطعام بالنصيب الذى يوزع
عليهم •

واذا امتدحوا طعام السجن فانهم لا يعنون الا الخبز الذى كان
يوزع بالوزن على الغرف لا على الافراد ، ولو قد اتبعت هذه الطريقة
الأخيرة لأرعب ذلك السجناء ؛ لأن ثلثهم على الأقل كان سيُعاني من
الجوع فى هذه الحالة بغير انقطاع ؛ أما الطريقة المتبعة فقد كان كل منهم
راضياً عنها • وكان خبزنا طيب المذاق لذيد الطعم مشهورا فى المدينة
كلها : وانما تعزى جودته الى أن افران السجن قد أحسن بناؤها • أما
حساؤنا الذى كان يُصنع من حامز الملفوف (الكراب) ويطبخ فى قدر
كبيرة ويكتف باضافة شئ من الدقيق اليه ، فلم يكن منظره بالمنظر
السار ، وهو فى أيام العمل رائق هزيل يكاد يخلو من الدسم • على أن
الشئ الذى كان يثير فى نفسى الاشمزاز خاصة ، انما هو عدد الهوام

والحشرات التى كثيراً ما كانت توجد فيه • على أن السجناء كانوا لا يولون ذلك أى انتباه •

لم اذهب الى العمل فى الأيام الثلاثة الأولى التى أعقبت وصولى : فلقد كان السجناء الجدد يُمهّلون بعض الوقت للاستراحة من متاعب السفر • وكان على ان اخرج من السجن فى الغداة لتبديل أغلالى ، فان السلسلة التى كنت مقيداً بها ليست من النموذج المستعمل فى السجن ، فهى مؤلفة من حلقات ترن رنين الجلاجل ، كما وصفها بذلك السجناء ؛ وهى تُحمل من الخارج فوق الثياب ، ولا كذلك قيود رفاقى فانها لم تكن مصنوعة من حلقات بل من قضبان أربع بسمك الاصبع ، تضمها ثلاث حلقات تلبس تحت السروال وتشدُّ الحلقة الوسطى منها بحزامٍ معقود على القميص • ما زلت أرى الصبيحة التى قضيتها فى السجن رؤية واضحة الى الآن • لقد دق الطبل عند مقر الحرس قرب الباب الكبير فى السور ، فما هى الا عشرة دقائق حتى فتح العريف أبواب الثكنة ، فأخذ السجناء يستيقظون بعضهم وراء بعض ، فينهضون عن أسرتهم المصنوعة من ألواح الخشب ، مرتجفين من شدة البرد ، على ضوءٍ كابٍ يصدر عن شمعة مشتعلة •

انهم عابسون جميعاً على وجه التقريب : يتشاءبون ويتمطون وتتغصن جباههم الموشومة • فبعضهم يرسم اشارة الصليب وبعضهم يبدأ بقذف الشتائم وصب اللعنات • والأبخرة التى تملؤ جو الثكنة رهية • غير أن الهواء البارد يهجم من الخارج متى فُتح الباب ، ويأخذ يدور فى الثكنة كالاعصار • ويتدافع السجناء حول دلاء الماء يملئون منها أفواههم ليفسلا وجوههم وأيديهم • ويكون هذا الماء قد حمّله السقاء منذ الأمس • والسقاء سجين توجب الأنظمة أن يعنى بتنظيف الثكنة ، وينتخبه السجناء بأنفسهم ، فهو لا يمضى الى العمل ، لأن عليه أن يعنى بفحص الأسرة ،

وملاحظة الأرض ، وأن يجيء بطشت النسيل في الليل وأن يخرج في الصباح ، وأن يملأ دلاء الثكنة بالماء البارد يستعمل في الصباح للاغتسال ويستعمل في النهار للشرب • وفي ذلك الصباح الذي دخلت فيه السجن شبت على الفور مشاجرات حول جرة الماء :

— ماذا تفعل هنا يا ذا الجين الموشوم ؟

بهذا دمدم سجين فارح القامة ، أعجف الجسم ، أسمر اللون ، يلفت النظر بالتلوءات الغريبة التي تغطي جمجمته • قال ذلك ودفع بيده سجيناً آخر مدوّر الجسم ، قصير القد ، مرح الطبع ، أحمر الوجه • فأجابه الثاني :

— هلاًّ انتظرت قليلاً !

— لماذا تصرخ ؟ ألا تعلم أن من يطلب من غيره الانتظار فلا بد له أن يدفع ثمن ذلك ؟ هيا امض ! رأيتم الى هذا التمثال أيها الاخوة ! لا ••• لا ••• انه لا يملك شيئاً من « الفارتيكوليتانوبست » •••

وأحدثت هذه الكلمة « فارتيكوليتانوبست » * أثرها ••• فانفجر السجناء ضاحكين مقهقهين ••• وذلك كل ما كان يتمناه السجين المازح الهازل الذي كان واضحاً أنه يقوم في الثكنة بدور المهرّج • فرمقه السجين الثاني بنظرة احتقار عميق •

قال الأول :

— يا لك من عجل ••• انظروا كم سمّنه خبز السجن ! •••

— ماذا تظن نفسك ؟ طائراً جميلاً ؟ •••

— كما تريد ! •••

— قل لنا اذن : أيُّ طائر جميل أنت ؟

- انك ترى ...
- كيف أرى ؟
- قلت لك : طائر ...
- ولكن أى طائر ؟

كان الرجلان يلتهم كل منهما صاحبه بعينه التهاماً • وكان القصير ينتظر جواباً وهو قابض يديه كأنه يستعد للنزال • وقدّرت أن معركة ستشب • كانت هذه الأمور كلها جديدة على • لذلك كنت أنظر الى المشهد مستظلاً مدهوشاً • ولكننى علمت بعد ذلك أن المشاجرات التى من هذا القيل برية كل البراءة ، يراد بها تسلية السجناء الآخرين ، كأنها تمثيلية مضحكة ... ولا يكاد يصل الشجار فى يوم من الأيام الى حد استعمال الأيدي • ذلك أمر تتميز به عادات السجن وأخلاقه تميزاً واضحاً •

لبث السجين الطويل القائمة هادئاً رضيعاً وقوراً جليلاً • كان يحس أنهم ينتظرون جوابه • ان عليه أن أن يدافع عما قاله ، وأن يبرهن على أنه طائر عظيم ، على أنه شخصية ... والا تلتطخ شرفه أمام الآخرين ، وضحكوا عليه ما شاء لهم هواهم أن يضحكوا • لذلك ألقى على خصمه نظرة شذراء تفيض احتقاراً لا يوصف ، محاولاً أن يشير خنقه بنظرة من فوق الكتف يروزه بها من أعلاه الى أدناه ، كما يمكن أن يفعل ذلك بحشرة من الحشرات ، ثم قال يجيبه بصوت بطيء متميز :

- كاجان *

يريد أن يقول انه طائر من نوع « الكاجان » • فما ان نطق بهذه الكلمة حتى انطلقت من الصدر قهقهة رهية ، وحتى أخذت الأكف تصفّق تهليلاً للجواب المحكم •

— أنت لست طائر « كاجان » ... بل أنت وغد حقير ...

كذلك صاح يقول الرجل القصير السمين الذى أحس أنه غلب •
ونارت نائثرته للمهزيمة التى ألحقها به خصمه ، فأوشك أن يهجم عليه لولا
أن رفاقه أحاطوا بالرجلين كليهما خشية أن تقوم مشاجرة حقاً •

صاح أحد المشاهدين يقول من ركنه البعيد :

— مالكما لا تقتلان بالأيدي بدلاً من تراشق الكلام بالألسن ؟

فأجيب :

— بل حولوا بينهما ... فلسوف يقتلان ... نحن رجال أشداء ••
واحدا بسبعة اذا جد الجدد ... ولا نهجم عن منازل •••

— يا للمقاتلين الأشداء ! ... واحد جرى به الى هنا لأنه سرق
رطلاً من خبز ... وواحد لأنه من لصوص الأواني ... أوسعه الجلاد
جلداً بعد أن سرق من احدى العجائز وعاء لبن رائب ...

صاح رجل من مشوهمى الحرب :

— هياً ... كفى ... كفى ...

هو جندي سابق مهمته أن يحافظ على النظام فى التكنة ، وكان ينام
فى ركن من الأركان على سرير خاص •

— ماءً يا أولاد ! ماءً لأخيكم نيفاليد بتروفنش ! ... ماءً لأخينا
نيفاليد* بتروفنش ... ها هو ذا يستيقظ الآن !

— أخوك ؟ أنا أخوك ؟ اننا لم نشرب خمرة معاً بقرش واحد فى
يوم من الأيام ...

كذلك دمدم يقول الرجل المشوه وهو يدس ذراعيه في كمي
معطفه •

وتيهأ السجناء للتفقد ••• ذلك أن النهار قد طلع ••• تدافع
السجناء نجو المطبخ جمهوراً متراحماً ••• كانوا قد لبسوا صدراتهم •••
وها هم يتلقون بقبعاتهم ذات اللونين الخبز الذي يوزعه عليهم أحد
الطباخين • كان هؤلاء الطباخون يختارهم السجناء أنفسهم ، وكان يوجد
منهم اثنان في كل مطبخ ••• وهم يتصرفون بالسكين الوحيدة المرخص
بها في المطبخ ، يستعملونها في قطع الخبز وقطع اللحم على السواء •

وتفرق السجناء في الأركان وحول الموائد ، لابسين طاقياتهم
وستراتهم ، متزترين بحزام الجلد ، متأهين للذهاب الى العمل • وكان
أمام بعض السجناء شيء من شراب الكفاس* يفتون فيه خبزهم ثم يلتهمونه.
الجلبة لا تطاق • ومع ذلك كان بعض السجناء يتحدثون في
الأركان وقد لاح في وجوههم الجذ والهدوء •

– نعمت صباحاً ، وطاب طعامك أيها الأب أنطوتش •

كذلك قال أحد الشبان من السجناء ، وهو يجلس الى جانب شيخ
أثرم عابس • فأجابه الشيخ دون أن يرفع عينيه محاولاً أن يمضغ خبزه
بلثيه اللتين ليس لهما أسنان :

– نعمت صباحاً ، اذا كنت لا تمزح !

– كنت أحسب أنك مت يا أنطوتش ! ما أغبانى ! ••• حقاً كنت
أظن أنك مت ! •••

– مت° أنت أولاً فأتبعك •••

جلست قرب الرجلين • كان على يميني سجينان وقوران يتبادلان الحديث ويحاولان أن يحافظا على رصاتهما وهما يتحدثان •

قال أحدهما :

- لست أنا من يمكن أن يسرقه أحد ••• بل اننى لأخشى أن أقوم أنا بسرقة أحد ••• لن ينفع أحداً أن يسرقنى ••• والا دفع الثمن غالياً •••

- ما عساك نستطيع أن تفعل ؟ ما أنت الا سجين ••• هل لنا اسم آخر ؟ ••• لسوف ترى أنها سسرقك ، هذه اللثيمة ••• دون أن تقول لك شكراً • لقد صنعت بى ذلك • هل تتصور أنها جاءت منذ بضعة أيام ؟ تساءلت : أين يمكن أن نخفى عن الأنظار ؟ قلت : استأذن بالذهاب الى تيودور الجلاذ • كان لا يزال يملك داراً فى ظاهر البلدة ••• هى تلك الدار التى اشتراها من سالومون الأجرب ••• هل تعرفه ؟ انه ذلك اليهودى الذى قتل نفسه منذ عهد قريب •

- نعم أعرفه ••• هو الذى كان خمّاراً هنا منذ ثلاث سنين ، وكانوا يسمونه جريشكا ••• الخمّار الأعور ••• أعرفه •

- بل أنت لا تعرف شيئاً ••• أولاً : هو خمّار آخر •••

- كيف ؟ خمّار آخر ؟ أنت لا تعرف ماذا تقول ••• أستطيع أن أتيك بالعدد الذى تشاء من الشهود على أنك لا تدري ماذا تقول ! •••

- أأنت تأتينى بشهود ؟ من أنت ؟ أتعرف من تخاطب يا هذا ؟

- من أنا ؟ أنا من ضربك مراراً ، رغم أننى لا أتباهى بذلك ولا أفخر ولا أزهو ••• فدعك اذن من التكبر والاستعلاء ! •••

- أنت ضربتني ؟ لَمَّا يولد بعد من يضربني والشخص الذى
ضربنى هو الآن راقد فى باطن الارض على عمق ست اقدام

- أنت امرؤ مصاب بالطاعون !
- ليت جذام سييريا يملؤك قروحاً !
- ليت تركيا يشق رأسك شقاً !
وانهالت الشتائم كالطرر المنهمر

- انظروا ها هما يصيحان • على المرء أن يبقى هادئاً بعد أن لم
يعرف كيف يسلك سبيل الرشاد فى هذه الحياة انهما لسعيدان جداً
بالمجيء الى هنا ليأكلوا خبز الحكومة ، هذان الفتيان الشجاعان ! ..

وسرعان ما فصلوا أحدهما عن الآخر ، فحالوا بين اشتباكهما • لأن
« يقتل المقتلون بالألسن » ماشاء لهم أن يقتلوا ، فذلك أمر مباح ، لأنه
يسلّى الجميع ، أما ان يشتبكا بالأيدي فلا ! ان الاعداء لا يشنجرون
بالأيدي الا فى حالات نادرة استثنائية ! فاذا نشب عراك أبلغ الميجر ،
فأمر الميجر باجراء تحقيق ، وتدخل فى الامر بنفسه - وعندئذ تجرى
الامور معجزة سيثا يصيب السجناء باذى • لذلك تراهم يسارعون الى انهاء
اى شجار جدى • ثم ان المتخاصمين يتشاجرون من قيل التسلية والتمرن
على فصاحة اللسان وبلاغة البيان فى الدرجة الأولى • انهم يتحمسون فى
أول الأمر ، ويتخذ الشجار بينهم طابع السخط والغضب والحقن ، فيتوقع
المرء أن يهزم أحدهما بالآخر يريد أن يقتله ، ثم لا يقع شئ من ذلك
البتة ؟ فما ان يبلغ بهم الغضب حداً معيناً ، حتى يفترقا ويمضى كل منهما
فى سبيله • ولقد أدهشنى ذلك كثيراً ولئن كنت أصف هنا بعض
ما كان يجرى بين السجناء من أحاديث ، فانما أفعل ذلك عامداً • هل كان
يمكننى قبل ذلك أن أتصور أن يتشاتم اثنان نشدائاً للذة ، وأن يجدوا

فى هذا التشاتم متعة ! يجب أن لا ننسى ميل المرء الى الظهور والشهرة :
ان المحاور الذى يعرف كيف يشتم شتماً موفقا كفنان ، يحظى باحترام
الآخرين ... حتى ليكاد السجناء يصفقون له كما يصفق الناس لمثل
أجاد تمثيل دوره .

وكننت قد لاحظت فى المساء الماضى نظرات شزراء يوجهها الى
بعضهم ؟ ولاحظت فى مقابل ذلك عدداً من السجناء يحوم حولى ، لظنهم
أننى احمل معى الى السجن بعض المال . حاولوا أن يستميلونى ، وذلك
بأن يعلمونى كيف أضع الاغلال دون أن تضايقنى ، وقدموا لى ايضاً
صندوقاً ذا قفل أودع فيه أمتعتى التى سلمتها الادارة وأودع فيه الملابس
الداخلية القليلة التى سمح لى ان ادخلها معى الى السجن (وقد قبضوا
ثمن الصندوق طبعاً) . وبعد ذلك بيوم واحد فقط ، سرق هؤلاء السجناء
هم أنفسهم صندوقى ، بعد أن شربوا بشمته خمرأ . ان واحدا منهم قد
أخلص لى الود بعد ذلك ، وبلغ من ذلك أنه أصبح يسرق لى كل ما تتيح
الفرص أن تمتد يده اليه من أشياء . ولم يكن يشعر من سرقاته باى
خجل أو حياء ، لأنه كان يرتكب هذه السرقات وهو لا يكاد يشعر بما
يعمل ، حتى لكان ما يقوم به واجب : لذلك لم أستطع أن أحمل له أى
حقد أو ضغينة .

وقد عرفت من هؤلاء السجناء أن فى امكان المرء أن يحصل على
شئ من الشاى ، وأن من مصلحتى أن أهيبء لنفسى غلاية . ووقعوا لى
على غلاية استأجرتها الى زمن . ودلونى كذلك على طباخ يمكن اذا أنا
نقدته ثلاثين كوبكاً فى الشهر أن يدبّر لى الأطعمة التى أرغب فيها ،
هذا اذا كنت أريد أن أشتري مؤناً خاصة وأن يهيا لى طعام خاص ...
واقترضوا منى بعض المال بطبيعة الحال ... بل انهم فى يوم وصولى نفسه
قد جاءونى يطلبون الاقتراض ثلاث مرات .

ان من كانوا ينتمون الى طبقة النبلاء قبل دخولهم السجن ، كان السجناء ينظرون اليهم شزرا • فرغم انهم جردوا من جميع حقوقهم ، وأصبحوا كسائر السجناء سواء بسواء ، فان هؤلاء كانوا لا يعدونهم رفقاءً . صحيح • كانوا ينظرون إلينا دائماً نظرتهم الى نبلاء ، رغم أنهم كثيراً ما يسخرون من سقوطنا • كانوا يقولون مثلاً :

— هيه ! أنظر الى هذا السيد النبيل ! كانت عربته فى الماضى تدوس الناس بموسكو ! أما الآن فقد انتهى الأمر • انه الآن يجدل حبال القنب •

كانوا يقتبطن لآلامنا التى نحاول اخفائها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً • وكنا نقاسى أكثر ما نقاسى حين نعمل معهم، ذلك أن قوانا لا تعادل قواهم ، ولم تكن نستطيع أن نساعدهم حقاً • لا شئ أصعب من كسب ثقة الناس ، وكسب ثقة أمثال هؤلاء الناس خاصة ، والحظوة برضاهم وئيل محبتهم وعاطفتهم •

ولم يكن فى السجن كله الا بضعة أشخاص من قدامى النبلاء ، فهم خمسة بولونيين كان السجناء يكرهونهم أكثر مما يكرهون الروس من قدامى النبلاء (وسأتكلم عن هؤلاء البولونيين تفصيلاً فيما بعد) ؛ كان البولونيون (ولا أتكلم الآن الا عن المحكومين السياسيين) يكرهون أنفسهم على معاملة السجناء بشئ من التهذيب اكراها جارحاً مسيئاً مؤذياً ولا يكادون يخاطبونهم يوماً بكلمة ، ولا يخفون ما يشعرون به من اشمئزاز من صحبتهم • فكان السجناء يدركون ذلك حق الادراك ، ويكيلون لهم الصاع صاعين •

احتجت الى ما يقرب من سنتين من أجل أن أظفر بمودة بعض رفاق السجن ، على أن أكثرهم كان يحببنى ويعلم أننى انسان طيب شهيم •

كان عدد قدامى النبلاء من الروس فى السجن خمسة منهم أنا •
ولقد سمعت من يصف أحدهم - حتى قبل وصولى - بأنه انسان شرير
حقير فاسد الأخلاق وغد متفسخ يتجسس على السجناء ويشى بهم • لذلك
تحاشيت منذ أول يوم أن تكون لى علاقة بهذا الانسان • أما ثانى الخمسة
فهو قاتل أبيه الذى سبق أن أثبت على ذكره • وأما الثالث فاسمه آكيم
آكىمتش ، ما رأيت فى حياتى انسانا اطرف منه ، وما تزال ذكره فى نفسى
حية قوية الى الآن •

انه طويل القامة • نحيل الجسم ، ضعيف العقل ، على جانب رهيب
من الجهل ، مباحك مناكد كألمانى • كان السجناء يسخرون منه ويستهزئون
به ولكنهم كانوا يخشونه ، لأنه سريع التأذى ، كثير المطالب ، ميّال الى
المشاجرة • وقد وضع نفسه موضع الند منذ وصوله ، فهو يبادلهم
الشتائم والضرب ، وهو لما يتصف به من استقامة وشرف ونزاهة وإخلاص ،
ما ان يلاحظ ظلماً يقع على مخلوق حتى يتدخل فى الأمر الذى لا يعنيه ،
فكانه طرف فيه • وكان الى ذلك ساذجاً الى أبعد حدود السذاجة • كان
فى مشاجراته مع السجناء يعيب عليهم أنهم لصوص ، وينصحهم مخلصاً
صادقاً بأن يقلعوا عن السرقة • كان فى الماضى ملازماً ثانياً بالقفقاس • وقد
انعدت بينى وبينه الصلة منذ أول يوم ، فسرعان ما قصّ علىّ قصيته •
قال انه بدأ حياته العسكرية متطوعاً برتبة صف ضابط فى فرقة على
الحدود • وبعد أن انتظر ترقيته الى رتبة ملازم ثانٍ زمناً طويلاً ، نال
هذه الترقية أخيراً ، وأرسل الى الجبال رئيساً لحصن صغير • وكان هنالك
أمير صغير من الأراضى التابعة للحصن ، حاول اشعال النار فى الحصن ،
وقام ذات ليلة بهجوم على الحصن ، فلم يظفر بطائل • وعمد آكيم
آكىمتش الى الحيلة فى الاقتصاص من الأمير ، فظواهر بأنه يجهل أن

الأمير هو الذى شن ذلك الهجوم على الحصن ، ونسب ذلك الهجوم الى عصاة كانوا يطوفون فى الجبل . وبعد شهر من ذلك ، دعا آكيم الأمير الى زيارته زيارة مودة وصداقة . فجاء الأمير منتظماً صهوة جواده دون أن يخطر بباله أى شك ، ودون أن تراوده أية شبهة . جمع آكيم آكيتش جنوده ، وأعلن لهم أمام الأمير الخيانة التى ارتكبها الزائر ، وقرع الأمير على سلوكه ، وبرهن له على أن احراق حصن من الحصون جريمة شنعاء ، وشرح له بكثير من الدقة والتفصيل ما يقع على أمير تابع للحكومة من واجبات ، ثم ختم ذلك كله بأن أمر باطلاق الرصاص على الأمير ؟ ثم أسرع يبلغ رؤسائه بأنه نفذ فى الأمير حكم الاعدام ، ذاكراً جميع التفاصيل اللازمة . فأحيل آكيم آكيتش الى المحاكمة أمام مجلس حربى ، فصدر الحكم باعدامه ، ثم خفف الحكم فأرسل الجانى الى سبيريا سجيناً من الفئة الثانية ، أى سجيناً مدة اثنتى عشرة سنة . اعترف لى آكيم بأن تصرفه لم يكن شرعياً ، وأن الأمير كان يجب أن يحاكم أمام محكمة مدنية لا أمام مجلس عسكري . ومع ذلك كان آكيم غير قادر على أن يفهم أن فعله جريمة . فكان يجب على جميع اعتراضاتى بقوله :

- لقد أشعل النار فى حصنى ، فماذا كان يجب علىَّ أن أعمل ؟
 أكان يجب علىَّ أن أشكر له فعلته ؟

وكان السجناء ، رغم أنهم يسخرون من آكيم آكيتش ، ويستهزئون به ، ويزعمون أن به لومة ، كانوا يقدرونه بسبب حذاقته ومهارته ودقته .

كان يتقن جميع المهن الممكنة ، ويصنع لك ما تشاء أن يصنعه : كان حذاءً ، واسكافياً ، ودهاناً ، ونقاشاً ، وقفالاً . وقد اكتسب هذه المواهب كلها فى السجن نفسه ، فقد كان يكفيه أن يرى شيئاً من الأشياء حتى

يقلده أحسن تقليد • وكان يبيع في المدينة سلالاً وفوائيس ودمى ، أو
قل كان يكلف أحداً يبيع له هذه الأشياء •

وبفضل عمله كان يملك بعض المال دائماً ، يشتري به على الفور
ملابس أو وسادة أو ما الى ذلك مما يحتاج اليه • وقد هيا لنفسه فراشاً •
واذ كان يقيم في نفس الثكنة التي اقيم انا فيها ، فقد أفادني كثيراً في اول
عهدي بالسجن •

وكان السجناء قبل أن يخرجوا من السجن الى العمل يصطفون
صفين أمام مقر الحرس ، فكان الحرس يحيطون بهم وقدأمسكوا ببندقياتهم
محمشة • وكان ياتي عندئذ ضابط من سلاح الهندسة مع مراقب الاشغال
وعدد من الجنود الذين يشرفون على أعمال السجناء • فكان المراقب يعد
السجناء ويرسلهم أفواجا الى الأماكن التي يجب عليهم أن يعملوا فيها •

وذهبت مع عدد من السجناء الى ورشة الهندسة ، وهي مبنى واطيء
من خشب ، شيد وسط فناء كبير تراكت فيه مواد البناء • كان هناك كور
لصهر المعادن ، وورشات نجارة واقفال ودهان • فكان أكيـم أكميتش
يعمل في هذه الورشة الأخيرة : يحضر زيت الدهان ، ويشكل الألوان ،
ويطلي الموائد وغيرها من الاثاث بلون يوهـم أنها من خشب الجوز •

وبانتظار أن يضعوا لى أغلالاً جديدة ، نقلت اليه احساساتي الأولى،

فقال :

- نعم ، انهم لا يحبون النبلاء ، ولا سيما المحكومين السياسيين ،
ويسعدهم أن يلحقوا بهم أذى أو أن ينالوهم باساءة • وذلك أمر ما ينبغي
أن نستتريه في حقيقة الأمر ! أنت لست منهم ، أنت لا تشبههم : لقد
كانوا كلهم قناناً أو جنوداً ، فكيف يمكن أن يحبوك ؟ ان الحياة قاسية
هنا ، ولكن قسوتها ليست شيئاً مذكوراً اذا قيسـت بقسوة الحياة في

معسكرات التأديب بروسيا • حتى أن الذين يجيئون من هنالك يمتدحون سجننا ، ويصفونه بأنه جنة بالقياس الى تلك السجون ••• لا لأن العمل هنالك أصعب ؛ ويقال ان الادارة هنالك تعامل سجناء الفئة الأولى (ولست الادارة هناك عسكرية فحسب ، كما هي هنا) معاملةً تختلف عن المعاملة هنا كل الاختلاف • ان للسجناء هناك بيوتاً صغيرة خاصة بهم (قيل لى ذلك ولكننى لم أره بنفسى) ، وانهم لا يرتدون زياً موحداً ، وانهم لا تُحلق رؤوسهم ؛ على أن الزى الموحد والرؤوس المحلوقة خير فى نظرى ••• انها تنظم الأمور ، ثم ان منظرها أجمل ••• ولكنهم ، هم • لا يحبون هذا • ياله من برج بابل ! أولاد مجنونون ، شراكسة • ملاحدة ، أورتوذكس ، فلاحون تركوا نساءهم وأولادهم ، يهود ، غجر ، وأناس آخرون لا يدري الا الله من أين جاءوا ! ••• وعلى هذا الخليط العجيب من البشر أن يعيش معاً كأسرة واحدة ، جنباً الى جنب ؛ على هؤلاء الناس جميعاً أن يأكلوا من أطباق واحدة ، وأن يناموا على ألواح واحدة ••• ما من لحظة حرية : ولا يمكن للمرء أن يرفه عن نفسه قليلا الا خلصة وخفية ••• عليه أن يخبئ ماله فى حذاءيه ••• ثم السجن فالسجن ••• ولا شيء الا السجن ••• ان الانسان لتراوده عندئذ حماقات دون أن يريد ذلك •

كنت أعلم هذا كله من قبل • وانما كنت أحب خاصة أن أسأل آكيم آكىمتش عن الميجر • فلم يخف عني آكيم شيئاً ، فتركت أقواله فى نفسى أثرا ليس بالمتع ! •••

كان على أن أعيش سنتين كاملتين تحت سلطة هذا الضابط • وكل ما قصه على آكيم آكىمتش عنه لم يكن الا الحقيقة نفسها بلا زيادة ولا نقصان • ان هذا الضابط انسان سيء الطبع ، شرس الخلق ، رهيب ، لا سيما وأنه كان يملك سلطة تكاد تكون مطلقة على أكثر من مائتى

انسان • كان ينظر الى السجناء نظرتهم الى أناس يصابونه العداء شخصياً ،
وتلك خطيئة أولى خطيرة كل الخطورة • وحتى كفائه النادرة ■ بل
وربما حسناته القليلة كان يفسدها طيشه وخبثه وميله الى الشر والأذى •
كان يسقط على التكنة فى بعض الأحيان سقوط قبلة فى وسط الليل ،
فاذا رأى أحد السجناء نائماً على ظهره أو على جنبه الأيسر أيقظه ليقول
له : « يجب أن تنام على الجنب الأيمن كما أمرت أنا بذلك » • وكان
السجاء يكرهونه ويمقتونه ويخافونه خوفاً من الطاعون • ان وجهه
الكره المحمرّ يرتجف لمنظره جميع السجناء • وكان كل سجين يعرف
أن الميجر خاضع خضوعاً كاملاً لسلطة خادمه فدكا ، وأنه كاد يُجنّ
حين مرض كلبه تريزوركا* • كان يؤثر هذا الكلب على جميع خلق
الله ••• فلما أعلمه فدكا أن بين السجناء سجيناً ملماً بالبطيرة ، وأن
حالات شفاء عجيبية قد تمت على يديه ، استدعى السجين على الفور
وقال له :

— أعهد اليك بمعالجة كلبى من مرضه ، فان شفيت تريزوركا أغدقت
عليك ذهباً وفضة •••

والرجل فلاح سيبرى ذكى جداً ، هو فى الواقع يطرى ممتاز ،
ولكنه فلاح ماكر قبل كل شيء • وقد قص على رفاقه قصة زيارته للميجر
بعد أن نُسيت تلك القصة ، قال :

— نظرت الى كلبه تريزوركا • كان راقداً على أريكة وتحت رأسه
وسادة ناصعة البياض • وأدركت فوراً أنه يعانى من التهاب ، وأنه فى
حاجة الى فصد ، وأيقنت أن فى امكانى أن أشفيه ، ولكننى قلت لنفسى :
« فماذا لو فطس الكلب ؟ لسوف يكون الذنب عندئذ ذنبى أنا » ، فقلت
للمضابط : « لا يا صاحب النبالة ••• لقد تأخرت فى استدعائى ••• فلو

قد رأيت كليلك أمس أو أمس الأول اذن لكان الآن مشافى معافى •••
ولكن فات الأوان ، فليست أستطيع أن أصنع له شيئاً ، وسيموت لا محالة !
وفطس تريزوركا •

وحكى لى أن أحد السجناء أراد فى يوم من الأيام أن يقتل الميجر •
كان هذا السجين قد عُرِف منذ عدة سنين بخضوعه وامتناله وانصياعه ،
كما عرف أيضاً بسكوته وصمته : حتى لقد كان يعد معجوناً • ولما كان
على جانب من ثقافة • فقد كان ينفق لياليه فى قراءة التوراة • فمتى نام
جميع السجناء نهض وتسلق المدفأة فأشعل شمعة من شموع الكنيسة
وفتح انجيله وأخذ يقرأ • فعلى هذه الحال انما قضى سنةً بكاملها •

وفى ذات يوم ، خرج من الصفوف وأعلن أنه لن يذهب الى العمل •
فأبلغ الميجر الأمر ، ففضب غضباً شديداً ، ولم يلبث أن جاء الى الثكنة
فوراً • فما ان رآه السجين حتى اتجه نحوه ، ورماه بقريدة كان قد
هياها سلفاً ، ولكنه لم يصبه • فقبض على السجين ، وحوكم ، وجلد
بالسياط ، بضع لحظات لا أكثر ••• نُقِل بعدها الى المستشفى ، فما هى
الا ثلاثة أيام حتى مات • وقد صرَّح وهو يحتضر بأنه لا يكره أحداً ،
وانما أراد أن يتألم وأن يتعذب ، وانه مع ذلك لا ينتمى الى أية ملة من
الملل المنشقة • كان الناس اذا أتوا على ذكره فى الثكنات يذكرونه بالخير
والاحترام دائماً •

وأخيراً أبدلوا لى أغلالى • وفيما كانوا يلحمونها دخلت الى الكور
بائعات أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض ، واحدةً بعد أخرى • كان
أكثرهن فتيات صغيرات يأتين لبيع أرغفة الخبز التى تحضرها أمهاتهن •
حتى اذا شبين عن الطوق ظللن يجتنّ الينا ، ولكن دون أن يحملوا بضاعة
للبيع ••• كان لا بد أن يلقي المرء واحدةً منهن دائماً • وكان ثمة نساء

متزوجات • ان سعر رغيف الخبز الصغير كوبكان ، فكان جميع السجناء
تقريباً يشترون

وقد لاحظت سجيناً نجاراً ، أشيب الشعر محمرّ الوجه باس الهيئة
مبتسم الثغر كان هذا السجين النجار يمازح بائعات أرغفه الخبز
الصغيرة • عقد على عنقه منديلاً أحمر قبل مجيئهن • فما هي الا لحظات
حتى وصلت امرأة سمينه في وجهها بثور ، فوضعت سلتها أمام منصدة
النجار ، ودار بينهما الحديث التالي :

- لماذا لم تعيئي أمس ؟

كذلك سألتها النجار مبتسماً ابتسامه رضى •
فأجابته المرأة بجرأة قائله :

- بل جئت ، ولكنك كنت قد مضيت •

- نعم لقد ذهبوا بنا من هنا ، والا لكانا التقينا حتماً لقد جئت
أمس الأول جميعاً لرؤيتي

- من اللواتي جئت ؟

- مارياشكا هافروشكا تشيكوندا وكانت هنا
دفوجروشفايا (أربعة كوبكات) أيضاً

سألت آكيم آكيمنش :

- ماذا ؟ هل مثل هذه الأمور ممكنة هنا ؟

- نعم ، تحدث أحياناً

قال آكيم ذلك وهو ينفذ طرفه ، لأنه رجل عف جداً •

نعم ، كانت هذه الأمور تحدث أحياناً ، ولكنها لا تحدث الا نادراً •

وذلك بعد تخطى مصاعب كبيرة جداً ••• فكان السجناء يؤثرون أن ينفقوا مالهم فى الشراب ، رغم كل ما فى حياتهم المكبوتة من عنت • لقد كان من الصعب جداً اللحاق بهاته النسوة • كان لا بد من الاتفاق على المكان والزمان ، كان لا بد من تحديد موعد ، من العثور على خلوة ، وذلك من أعسر الأمور ، وكان لا بد من مغافلة الحرس ، وذلك أمر يكاد يكون مستحيلاً ، وكان لا بد من اتفاق مبالغ طائلة ••• نسيياً ••• ومع ذلك رأيت بعض مشاهد الغرام ••• فى ذات يوم ، كنا ثلاثة نعمل فى تسخين فرن القرميد فى مكان على شاطئ نهر ارتيش • وكان معنا جنود من الحرس متسامحون • فاذا بامرأتين تصلان •

قال أحد السجناء يخاطب المرأتين ، وكان ينتظرهما ولا شك :
 - أين بقيتما طوال هذه المدة ؟ تلبثتما عند آل زفيركوف ، أليس كذلك ؟

- عند آل زفيركوف ؟ حين يصبح للدجاج أسنان أذهب الى آل زفيركوف !

كذلك قالت احدهما متضحكة •

انها أقدر بنت يمكن أن يتصورها الخيال • كانوا يطلقون عليها اسم تشيكوندا ••• وقد وصلت فى صحة صديقتها « الأربعكوبكات » (دفوجروشفايا) التى تفوق كل وصف •

قال الشاب الغزل مخاطباً الأربعكوبكات :

- هيه ••• أصبحنا منذ زمن طويل لا نراك ••• لكأنك نحلت قليلاً •

- ربما ••• لقد كنت قبل الآن جميلة سمينية ، أما الآن فكأننى بلغت ابرأ •••

– وما تزالين تصاحين الجنود ، أليس كذلك ؟

– انظروا الى هؤلاء الناس كم يتقولون ويقتابون ! ثم أى ضير في أن أصحاب جنودا ؟ ...

– دعى جنودك أولئك ، وأحيينا نحن ... ان معنا مالا ...

تصوروا هذا المغازل المحلوق الرأس ، المغلول القدمين ، اللابس سترة من لونين ، العامل تحت حراسة الخفراء ...

وحين أصبح في وسعى أن أعود الى السجن ، وكنت قد أوثقت بالأغلال ، ودعت آكيم آكيمتش ، وانصرفت بحراسة أحد الجنود • ان الذين يعملون لا على أساس عدد معين من الساعات بل على أساس مهمة معينة ينجزونها ، يعودون أول العائدين ... ولذلك حين وصلت الى ثكنتنا كان قد سبقنى إليها عدد من السجناء : ان الوسيلة الوحيدة التي تحمل السجناء على المواظبة والاستمرار في العمل هي أن يُعهد اليهم بمهمة معينة يجب عليهم انجازها ؟ انهم ينجزون المهمة عندئذ مهما تكن صعبة بنصف الوقت الذي يحتاجون اليه لانجازها حتى ولو استمروا على العمل بغير انقطاع الى أن يقرع الطبل • فمتى انتهى السجن من انجاز مهمته عاد رؤساء ، ولم يخطر ببال أحد أن يصدّه عن العودة •

واذ كان المطبخ لا يمكن أن يتسع لسكان ثكنة بكاملها ، فقد كان السجناء لا يتناولون الطعام معاً ، فمن يصلون قبل غيرهم يأكلون نصيبهم ويفرغون فيخلوا المكان للآخرين • وقد ذقت الحساء المصنوع من حامز الملفوف ، ولكننى لم أستسغ مذاقه لأننى لم أعود عليه ، وهيات لنفسى شيئاً من الشاي ، ثم جلست الى طرف مائدة مع أحد السجناء ، وهو مثلى نبيل سابق •

كان السجناء يدخلون ويخرجون • ولم يكن المكان هو الذي

يعوزهم ، ذلك أن عددهم ما يزال قليلاً • وجلس خمسة منهم على حدة ، قرب المائدة الكبيرة ، وصبَّ الطباخ لهم طاستين من حامز الحساء ، وأتاهم بقصعة فيها سمك مقلًى • كان هؤلاء الأشخاص يحتفلون بعيدٍ فيرفهون عن أنفسهم ويبدخون • ونظروا إلينا من جانب • ودخل أحد البولونيين فجلس قربنا •

صاح سجين طويل القامة وهو يدخل ويشمل رفاقه بنظرة :

– لم أكن معكم ، ولكننى أعرف ماذا تعملون •

انه رجل فى نحو الخمسين من عمره ، نحيل الجسم ناتئ العضلات ، ينم وجهه عن المكر ، كما ينم عن المرح ، وشفته السفلى سمكة متدلّة تضافى على وجهه مظهرأ مضحكاً •

قال وهو يجلس قرب الذين يحتفلون ويولون :

– هيه ! هل طاب نومكم ؟ لماذا لا تردون التحية ••• طيب •••
يا أصدقائى الكورسكيين ••• هنيئاً مريئاً ! ••• هأنذا أحييكم بضيف جديد •

– لسنا من مقاطعة كورسك !

– اذن يا أصدقائى التامبوفيين •

– ولا نحن من تامبوف • وليس لك أن تطلب منا شيئاً • فاذا أردت أن تولم فعليك بفلاح غنى فاتجه اليه •••

– فى معدتى اليوم ايفانى تاسكون وماريا ايكوتشينيا (ايكوتا تعنى بالروسية : الفواق) أى اننى أكاد أموت جوعاً ، فأين يسكن هذا الفلاح الغنى الذى ذكرتموه ؟

– هو جازين ، فعليك به !

- ان جازين يشرب اليوم يا اخوتى • فيتلف كل ما يملك !
- معه عشرون روبلاً على الأقل • ألا ان مهنة بيع الخمر لمهنة تدر ربحاً كثيراً ...
- كذلك قال سجين آخر •
- أجاب الرجل قائلاً :
- أترفضوننى اذن ؟ طيب ... سأكل طيخ الحكومة •
- هل تريد شيئاً من الشاى ؟ عليك اذن بهذين السيدين اللذين يشربان الشاى ، فاسألهما منه قليلاً ! ...
- أين ترون سيدين ؟ ما هما الآن بنيلين ، ما هما الآن خير منا •
- بهذا نطق بصوت قاتم سجين آخر كان جالساً فى ركن ، ولم يكن قد جازف قبل ذلك بكلمة واحدة •
- قال السجين ذو الشفة السمكة وهو يلقي علينا نظرة فكهة :
- وددت لو أشرب قدحاً من الشاى ، ولكنى أستحى أن أطلب ..
- ذلك أن لنا كرامتنا نحن ...
- فقلت له وأنا أدعوه بإشارة من يدى :
- اذا شئت قدمنا اليك قدحاً من الشاى • هل تريد ؟
- وكيف لا أريد ؟ من ذا الذى لا يريد ؟
- قال ذلك وهو يقترب من المائدة •
- انظروا الى هذا الرجل ! حين كان حراً فى بيته كان لا يأكل الا حساءً حامزاً وخبزاً أسود أما فى السجن فلا بد له من شرب الشاى كأنه نيل من النبلاء !
- كذلك أردف يقول السجين ذو الوجه القاتم الكتيب •

سألته :

- ألا يشرب أحد الشاي هنا ؟

ولكنه لم يجدنى جديراً بجواب •

- أرغفة بيضاء ، أرغفة بيضاء ! أول مبيع

كان سجين شاب يحمل أرغفة بيضاء منظومة فى خيط ، هى حمل
ثقل من الأرغفة يبيعها فى الكنات •

ان الباعة تعطيه رغيفاً عن كل عشرة أرغفة يبيعها ، أجرأ له وعلى
هذا الرغيف انما كان يعتمد لطعامه •

- أرغفة صغيرة ! أرغفة صغيرة !

كذلك كان يصيح وهو يدخل المطبخ •

ثم يردف قائلاً :

- أرغفة صغيرة من موسكو ، ساخنة ، ساخنة أتمنى لو أكلها
كلها ، ولكن لا بد عندئذ من مال ، لا بد من مال كثير • هيّا يا أولاد ! لم
يبق الا رغيف واحد من كان يحب أمه فليشتر منى هذا الرغيف •
ضحك الجمع من هذه الاستعانة بحب الابن أمه فاشتروا منه
بضعة أرغفة بيضاء •

قال :

- ان جازين يسكر الآن سكرة رهية ! يالها من خطيئة! ولقد اختار
اللحظة المناسبة ماذا لو وصل « ذو العيون الثمانى » ؟ (يقصد
الميجر) •

- سنخبئه هل سكر ؟

- نعم ولكنه فطيع لقد ثارت ثأثرته !

ـ لا شك أننا سنصل الى مرحلة اللطمات •

سألت البولندي جارى :

ـ عمّن يتكلمون ؟

فقال :

ـ عن جازين •• هو سجين يتعاطى بيع الخمرة • فاذا جنى من تجارته بعض المال ، شرب بالمال الذى جناه الى آخر كوبك • انه منى شرب أصبح وحشاً كاسراً قاسياً شريراً • أما قبل أن يشرب فهو هادىء مسالم ••• حتى اذا شرب ظهر على حقيقته ، فاذا هو يهجم على الناس مشرعاً سكينه الى أن يتزعوها منه •

ـ وكيف يستطيعون ذلك ؟

ـ يهجم عليه عشرة أشخاص ، فما ينفكون يضربونه ضرباً شديداً مبرحاً الى أن يفقد وعيه ، ويسقط مغشياً عليه • فاذا صار كاليت من كثرة الضرب أرقدوه على سريريه المصنوع من ألواح الخشب وغطوه بمعطفه •
ـ ولكنهم بذلك قد يجهزون عليه !

ـ لو ضرب غيره كما يضرب هولاء حتماً ، أما هو فلا ••• انه قوى الجسم الى درجة خارقة ، انه أقوى السجناء طرا ••• ان بنيتيه تبلغ من المتانة والصلابة أنه يصحو فى الغداة سليماً معافى كأن لم يحدث شئ •••

تابعت أسأل البولونى :

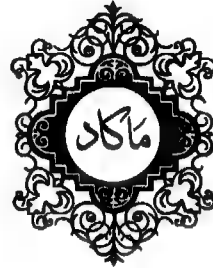
ـ قل لى ، من فضلك : هؤلاء أناس يأكلون على حدة ، ومع ذلك أراهم ينفسون على الشاى الذى أشربه ••• فما معنى هذا ؟
ـ لا دخل للشاى فى هذا ••• وانما حقدهم منصب عليك أنت :

الست نبيلًا؟ انك لا تشبههم • وانه ليسعدهم أن يناكدوك وأن يذلوك •
انك لا تعرف المتاعب التي تنتظرك • ان حياتنا هنا استشهاد ، انها شاقة من
ناحيتين • ولا بد أن نكون على جانب عظيم من قوة الارادة وشدة الصبر
حتى نعتادها ونألفها • لسوف يسببون لك كثيراً من نكد العيش وكثيراً من
التفصيص بسبب طعامك وشايك ، مع أن الذين يأكلون طعاماً خاصاً
ويشربون الشاي كثيرون • ان ذلك من حقهم هم ، أما أنت فليس من
حقك ...

قال البولونى هذا ثم نهض وبارح المائدة • وبعد لحظات كانت
نبواته قد تحققت ...

المسافر الأولي

تمة



يخرج هـ ... كى * (البولوني الذي تحدثت عنه) حتى دخل جازين الى المطبخ مسرعاً وقد أخذ السكر منه كل مأخذ .

لأن أرى سجيناً سكران في وسط النهار ، رغم أن على جميع السجناء أن يذهبوا الى العمل ، ورغم ما عُرِف عن الميجر من قسوة شديدة ، ورغم أن هذا الميجر قد يباغت الثكنة من لحظة الى أخرى ، ورغم مراقبة ضابط الصف الذي كان لا يبارح السجن لحظة ، ورغم وجود جنود وحرس وموظفين ، فإن ذلك خلق بأن يبلبل الأفكار التي كانت قد قامت في ذهني عن السجن . وقد احتجت الى زمن طويل حتى أفهم وأعلل وقائع كهذه الوقائع ظهرت لي في الوهلة الأولى أقرب الى الألغاز والأحاجي .

سبق أن قلت ان جميع السجناء كانوا يزاولون حرفة من الحرف، وان هذا العمل كان لهم ضرورة طبيعية لا بد منها . وهم يحبون المال حباً شديداً ، وينزلونه منزلة عالية لا تعلوها منزلة أى شيء من الأشياء ، ويكادون يقدرونه تقديرهم للحرية نفسها . ان السجن يتأني بعض التأني حين ترن في جيبه بضعة كويكات . أما اذا لم يكن يملك شيئاً من

مال فان الحزن يستولى عليه ، وان القنوط والياس يستبدان به ، حتى
 يمكن أن يقارف أية جناية في سبيل الحصول على بعض المال • غير أن
 هذا المال ، رغم المنزلة العالية التي ينزلها فيه السجناء ، ورغم القيمة الكبرى
 التي يصفونها عليه ، لا يبقى في جيب صاحبه زمناً طويلاً قط ، لأن
 الاحتفاظ به والابقاء عليه هما من أشق الأمور • فهو إما أن يصادر وإما
 أن يسرق • كان الميجر يصادر أثناء حملاته التفتيشية المباحثة كل ما قد
 يقع عليه من مبالغ صغيرة لقي أصحابها في جمعها أكبر العناء ؛ فينق المالح
 عندئذ في تحسين طعام السجناء ، لأن ادارة السجن تخصص المال المصادر
 لهذا الغرض • ولكن المال يسرق في أكثر الأحيان • ان من المستحيل أن
 يثق السجين بأحد ، وأن يركن اليه ويعتمد عليه • على أن السجناء قد
 اهتموا الى وسيلة للمحافظة على المال • كان هناك شيخ عجوز ينتمى الى
 الملة الدينية المنسوبة الى مدينة فياتكا* وقد التجأ الى منطقة ستارودوب ،
 فهذا الشيخ هو الذى يتولى اخفاء مدخرات السجناء • لا أستطيع أن أقاوم
 الاغراء الذى يدفعنى الى قول بضع كلمات عن هذا الرجل: انه فى الستين
 من عمره ، نحيل ، قصير القامة ، أشيب الشعر تماماً • وقد أوقعنى فى حيرة
 شديدة منذ وقع بصرى عليه أول مرة ، ذلك أنه لا يشبه السجناء الآخرين
 فى شيء • ان نظرتة تبلغ من الهدوء والوداعة والمسألة والعذوبة أننى كان
 يحلو لى دائماً أن أرى عينيه الصافيتين الراضيتين المخفوفتين بغضون كثيرة •
 وقد تحدثت معه مرارا ، فقلما رأيت انساناً يبلغ ما يبلغه هذا الرجل من
 طيبة القلب ، ونبل النفس ، وشهامة الخلق ، ودماثة السلوك • ولقد
 أرسل الى سجن الأعمال الشاقة لجريمة خطيرة ارتكبها • كان عدد بنى
 ملته الدينية فى ستارودوب (اقليم تشرنيجوف) قد ارتدوا الى الارثوذكسيه •
 لقد عملت الحكومة كل ما تستطيع أن تعمله من أجل أن تشجعهم على
 المضى فى هذا الطريق ، ومن أجل أن ترد الى هذا الطريق سائر المنشقين •

فقرر الشيخ مع عدد من المتصيين للملة الدينية أن يدافعوا عن « الدين القديم » • فلما أخذت الحكومة تبنى في مدينتهم كنيسة أرثوذكسية ، أضرمو في الكنيسة النار وأحرقوها • ونتج عن ذلك اعتقال الفاعل وارساله الى السجن في سيبيريا • ان هذا الرجل الغنى (وكان يعمل في التجارة) قد خلف وراءه امرأة وأولاداً يحبهم ، ولكنه ذهب الى المنفى رابط الجأش شجاعاً ، معتقداً لعمالته أنه يتألم في سبيل « الدين القديم » و « الايمان الصحيح » ••• ان المرء ليتساءل رغم ارادته ، بعد أن يعيش زمنا الى جانب هذا الشيخ : « كيف أمكن أن يتمرد هذا الرجل وأن يثور ؟ » • ولقد سأله عدة مرات عن « دينه » ، فكان لا يجيب بشيء يتعلق بمعتقداته ، ولكنني لم ألاحظ في ردوده أية بفضاء أو سخيمة • ومع ذلك فقد أضرمت النار في كنيسة فدمر الكنيسة ••• وكان لا ينكر أنه فعل ذلك أبداً : كان يبدو أنه مقتنع كل الاقتناع بأن جريمته و « استشهاده » ، على حد تصيره ، هما من الأعمال المجيدة التي تستحق أن يعتز بها صاحبها وأن يفخر • وعبثاً حاولت أن أحاصره بالسئلة وأن أدرسه ، فأننى لم أستطع أن أجد فيه أثراً من آثار العجب بنفسه أو الزهو أو الخيلاء أو الغرور • وكان بيننا سجناء آخرون من المنشقين عن الأرثوذكسية الملتصين الى هذه الملة ، وكان أكثرهم من سيبيريا ، فكان هؤلاء على جانب كبير من توفد الذكاء وحسن الحيلة ، كما يلاحظ ذلك لدى كثير من الفلاحين • كانوا يحبون الجدل على طريقتهم ، وكانوا يتبعون عقيدة ملتهم اتباعاً أعمى ، ويميلون الى المناقشة ميلاً واضحاً • ولكنهم كانوا يتصفون بعبوب كثيرة : فهم متعالون متكبرون فيهم من النظرة ما لا يطاق ولا يحتمل • ولا كذلك صاحبنا الشيخ • انه لا يشبههم في شيء • فهو ، على أنه قوى جداً ، وعلى أنه أقوى من اتباع هذه الملة الآخرين حجةً وأوسع منهم ثقافة ، يتحاشى أى نقاش ؟ وكان

دمت الطبع ، لين العريكة ، باش المزاج ، حتى ليتفق له أن يضحك -
 لا ضحكا فظاً ساخراً كما يضحك غيره من السجّاء - بل ضحكا حلواً
 مضياً يسمع فيه المرء كثيراً من براءة الطفولة ، وينسجم أكبر الانسجام
 مع راسه الاشيب . (قد آكون على خطأ ، ولكنى احسب أن فى الامكان
 معرفة رجلٍ من ضحكته وحدها ؟ فاذا بدت لك ضحكته محببة ، فكن
 على يقين من انه انسان طيب كريم النفس) . وقد ظفر هذا الشيخ باجماع
 السجّاء على احترامه ولكن ذلك لم يصبه بشئ من غرور . كان السجّاء
 يطلقون عليه اسم « الجد » ، ولا يسيئون اليه فى يوم من الأيام . وعندئذ
 أدركت كيف استطاع هذا الشيخ أن يكون له تأثير كبير فى أتباع ملته .
 وان المرء يشعر ، رغم أن الشيخ كان يتحمل فسوة الحياة فى السجن
 رابط الجاش قوى العزيمة ، أنه يخفى حزناً عميقاً لا شفاء منه ولا برء
 له . وفى ليلة من الليالى ، فى نحو الساعة الثالثة من الصباح ، استيقظت
 من نومى ، فسمعت نشيجاً بطيئاً مخنوقاً . كان الشيخ جالساً على المدفأة
 (حيث كان قبل ذلك يصلى الرجل الذى أراد أن يقتل المجر) ،
 يقرأ فى كتاب ملته المخطوط . وكان يبكى . وسمعتة يردد : « لا تركنى
 يا رب ! لا تركنى يا رب ! يا رب شدّ أزرى وقوّ عزيمتى .. أولادى
 الصغار المساكين ! .. أولادى الصغار الأحبة .. لن نلتقى اذن بعد
 اليوم أبداً .. » . لا أستطيع أن أصف لكم الحزن الذى شعرت به
 حينذاك !

عهدنا اذن بماننا الى هذا الشيخ . كان قد ذاع فى ثكتنا - لا يدري
 الا الله لماذا ؟ - أن الشيخ لا يمكن أن يُسرق . كانوا يعلمون أنه يخفى
 المدخرات التى تودع عنده فى مكان ما . ولكن لم يستطع أحد أن يكتشف
 سرّه . وقد كشف لنا عن هذا السر ، كشفه لى وللبولونيين .
 كان لأحد الأوتاد التى يتألف منها السياج غصن يبدو فى الظاهر

مرتبطاً بالجذع ارتباطاً قوياً ، ولكن كان يمكن فى الواقع انتزاعه ثم رده الى مكانه • فيها هنا اذن فراغ • وهذا الفراغ هو ما كان يتخذه الشيخ مخبأً للمال •

والآن أعود الى ما كنت بصدد الكلام عليه • لماذا لا يحتفظ السجين بماله ؟ انه لا يحتفظ بماله ، لا لأن الابقاء على هذا المال صعب فحسب ، بل أيضا لأن حياة السجن حزينة كثية كثيراً ••• ان السجين فى ظمأ شديد الى الحرية بطبيعته ! انه من جهة وضعه الاجتماعى انسان يبلغ من قلبه الاكتراث وشدة الفوضى ان فكرة تبديد ماله فى سكر وعريضة وموسيقى تراود ذهنه بطبيعة الحال ، ولو لينسى شقاء دقيقة واحدة • انه ليدو للمرء غريباً أن يكب بعض الناس على العمل دائين صابرين ، لا لهدف آخر غير أن يتلفوا فى يوم واحد كل ما جنوه بالتعب والعرق حتى آخر قرش ! ••• ثم هم يعودون الى العمل يكدون ويجهدون الى أن يحين حين احتفال جديد ينتظرونه أشهراً برمتها • وكان بعض السجناء يحبون الثياب الجديدة المتفردة بعض التفرد ، يحبون السراويل الغربية ، والصديرات ، والمعاطف السييرية ••• ولكن القمصان الهندية هى ما كان يحبه السجناء أكثر مما يحبون أى نوع آخر من أنواع الثياب ، وكذلك الأحزمة ذات المشابك المعدنية •

وكان الأنيقون فى أيام الأعياد * يرتدون أبهى حلة : ليتك تراهم يتجشرون فى جميع التكنات ! ان سرورهم بارتداء ثياب أنيقة يبلغ بهم مبلغ الطفولة • والحق أن السجناء هم فى أمور كثيرة اطفال كبار • وهذه الملابس الجديدة سرعان ما تختفى ، وكثيراً ما تختفى فى مساء اليوم الذى اشترت فيه ، فان أصحابها ما يلبثون أن يرهنوها أو يبيعوها بأبخس الأثمان • والاحتفالات انما تتكرر فى أوقات توشك أن تكون دائماً محددة ، فهى تطابق مواعيد الاحتفالات الدينية أو تطابق أيام الأعياد

يسبب أية فوزى • ومتى حاول أن يثور أو أن يحدث جلبه وضجة وصخباً ، قام رفاقه يهدئونه ، وقد يوثقونه • لذلك كان الموظفون المروسون (من مراقبين وغيرهم) يفضون الأبصار • انهم يعلمون أن تحرير الخمرة سيجعل جميع الأمور تجرى فى السجن مقلوبة • والسؤال الآن هو : كيف كان السجناء يحصلون على الخمرة ؟

كانوا يشترونها فى السجن نفسه من « الخمارين » (بهذا الاسم كان السجناء يسمون أولئك الذين يتعاطون هذه التجارة ، وهى تجارة مربحة جداً ، رغم أن عدد الشاربيين والمحتفلين قليل ، نتيجة لفلاء تكاليف كل احتفال من هذا القبيل ، اذا قيسست هذه التكاليف بقله موارد السجناء) • وكانت هذه التجارة تبدأ وتستمر وتنتهى على نحو طريف كل الطرافة • هذا سجين لا يجيد أى حرفة ، ولا يريد أن يعمل ، ولا بد له مع ذلك من أن يفتنى اغتناء سريعاً ، فإذا هو يقرر ، متى ملك بعض المال ، أن يتعاطى تجارة الخمرة يشترىها ويبيعها • والمغامرة خطيرة جريئة : فهى تقتضى شجاعة وتتطلب جسارة ، لأن المغامر لا يخاطر بجلده وحده ، بل يخاطر ببضاعته أيضاً • ولكن الخمار لا يراجع أمام هذه العقبات • وهو فى أول الأمر يحمل الخمرة الى السجن بنفسه ، لأنه لا يملك ، بعد ، الا قليلاً من المال ، ويبيعها فيجنى من ذلك ربحاً كبيراً • ثم يكرر هذا العمل مرة ثانية ، فثالثة • • • فإذا لم تكشف أمره الادارة ملك من المال ما يتيح له أن يوسّع تجارتها • • • فيصبح عندئذ «مقاولاً» ، يصبح « رأسمالياً » : انه يتخذ لنفسه عملاء ومساعدين ، وبذلك تقل المخاطر التى يتعرض لها ، وتزداد الأرباح التى يجنيها • فالمساعدون هم الذين يجازفون الآن من أجله وفى سبيله •

ان السجن ملىء دائماً بسجناء لا مال عندهم ولا حرفة لهم ، ولكنهم يملكون الجرأة والشجاعة ، ويملكون الحلق والمهارة • فرأس المال

الوحيد الذى ينعمون به انما هو جلود ظهورهم » وهم كثيراً ما يقررون استغلال رأس المال هذا ، فيقترحون على الخُمَّار أن يتولوا تهريب الخمرة الى التكنات • ولا بد أن يوجد فى المدينة دائماً جندي أو متكسب أو حتى فتاة ، يشترون خمراً بمال الخُمَّار (ويتقاضون على شراء الخمر ربها يتفق عليه ، وهو ربح زهيد على وجه الاجمال) ثم يخفونه فى مكان يعرفه السجين المهرَّب ، قرب ورشة العمل التى يعمل فيها ؛ والمهرَّب لا بد أن يدق هذا السائل الطيب فى طريق عودته الى السجن ، فيفرغ بذلك بعض الزجاجاة ، فيعمد الى ملء الفراغ بالماء القراح ... ولسان حاله يقول : « لك أن تأخذ أو أن تدع » .. وإن يستطيع الخُمَّار أن يكون متشدداً ، بل عليه أن يعد نفسه سعيداً اذا لم يسرق ماله أصلاً ، واذا جرى بالخمرة ممزوجةً بالماء على هذا النحو • ان المهرَّب الذى يعيّن له الخمار مكان اللقاء بينه وبين الوسيط يحمل الى هذا الوسيط أمعاء من امعاء البقر أحسن غسلها سلفاً ، ومُكثت ماءً ، لتحفظ بمرورتها ولينها وطراوتها ، فتمى تم ملء الأمعاء بالماء ، لفئها المهرَّب وخبأها فى جسمه ... فى المواضع الخفية السرية من جسمه ... وهنا انما تتجلى الحيلة وتتجلى الدهاء والحدق لدى هؤلاء السجناء الشجعان ... والا تجل شرفهم بالعار : ان عليهم أن يخادعوا الذين يرافقونهم الى العمل ، وأن يخدعوه ؛ فاذا كان المهرَّب بارع الحيلة لم يلاحظ الحارس شيئاً (وهو فى الغالب من المجندين) لأن المهرب يكون قد أحسن دراسته ، كما يكون قد أحسن اختيار الزمان والمكان للموعد المضروب • هب المهرَّب يعمل فى صنع القرמיד مثلاً : انه فى هذه الحالة يتسلىق الفرن الذى يُشوى فيه القرמיד ، وطبعاً أن لا يرافقه الجندي الذى يحرسه ليراقب حركاته وسكناته • ومن ذا الذى يستطيع أن يرى هنالك ماذا يصنع ؟ حتى اذا قفل راجعاً الى السجن ، هياً قطعة نقدية بخمسة عشر كوبكاً أو بعشرين كوبكاً ، وانتظر

عريف الحرس على الباب • ان العريف يفتش كل سجين ويجسه وينبشه عند عودته الى التكنة ، ثم يفتح له الباب ؛ والمهرَّب يأمل ان يستحي العريف من تفتيشه وجسه في بعض المواضع تفصيلاً ، ولكن العريف انما يجس هذه المواضع الحرجة بعينها حين يكون بارع الحيلة ما كرا ، فاذا هويش على الخمرة المهربة ، فلا يبقى للسجين عندئذ الا سبيل واحدة للسلامة ، هي ان يدس في يد العريف قطعة النقد خلسة فتصل الخمرة بهذه الطريقه الى ايدي الخمار بغير مشاكل في كثير من الاحيان • حتى اذا لم تتجح هذه الحيلة كان لا بد للمهرَّب من أن يضع في التداول رأس المال الوحيد الذي يملكه ، فالعريف يكتب تقريراً الى الضابط الميجر ، والضابط الميجر يأمر بجلد المهرَّب العائر الحظ بغير هوادة ولا رحمة ؛ وتصادر الخمرة ••• والمهرَّب يتلقى عقابه دون أن يشي بصاحبه المقاول ، لا لأن هذه الوشاية ستلطح شرفه بل لأنها لن تجلب له نفعاً ، فلسوف يجلد على كل حال ، سواء أوشى بصاحبه أم لم يش به ؛ وكل العزاء الذي يمكن أن يناله من الوشاية بصاحبه هو أن يشركه في تحمل العقوبة معه ، ولكنه في حاجة الى الخمار ، لذلك لا يشي به ، رغم أنه لا يتقاضى أى أجر متى افترض أمره فلم يستطع أن يهرَّب الخمرة الى داخل السجن •

على أن الوشاية راتجة في السجن • والسجناء لا يفضبون من الجاسوس ولا يبعدونه عنهم ، بل كثيراً ما يتخذونه لهم صديقاً • فاذا خطر ببال أحد أن يبرهن للسجناء على أن وشاية بعضهم ببعض أمر حقير غاية الحقارة لم يفهم عنه أحد شيئاً • ان النبيل السابق الذي تحدثت عنه آنفاً ، ذلك المخلوق الجبان الغدار الذي قطعت صلتى به منذ وضولى الى القلعة كان صديقاً لقدكا خادم الضابط الميجر ، فكان يروى له كل ما يجرى في السجن • وكان فدكا يسارع طبعاً فينقل الى مولاه ما قد

سمعه • والسجناء جميعاً يعرفون هذا الأمر • ولكن ما كان ليخطر ببال أحد منهم أن يعاقبه على ذلك ، أو أن يعيب عليه سلوكه • ولكن هأنذا ابتعدت عن مجرى حديثي مستطرداً ، فلأعد الى ما كنت بصدده :

متى وصلت الخمرة الى السجن دفع المقاتل للمهرب أجره وأخذ يُجرى حسابه ، والبضاعة قد كلفه ثمنها غالباً ، وهو لذلك من أجل أن يُربى ربحه يضيف الى الخمرة نصف مقدارها ماءً قراحاً ، فلا يبقى عليه بعد ذلك الا أن ينتظر المشتريين • وهذا سجين يجيئه في مطلع يوم عيد ، بل وفي مطلع يوم من أيام الأسبوع : لقد عمل عدة أشهر عملاً شاقاً كما يعمل زنجي ، من أجل أن يجمع ، كوبكاً بعد كوبك ، مبلغاً من المال يقرر أن ينفقه دفعةً واحدة • لقد حد • السجن يوم احتفاله منذ زمن بعيد ، وحلم به أثناء ليالي الشتاء الطويلة ، وأثناء قيامه بأعماله القاسية المرهقة ، فكان الأمل بحلول هذا اليوم يشد أزره ويقوى عزيمته • ويسطع أخيراً فجر ذلك اليوم الموعد الذي طال انتظاره : ان المال في جيب السجين لم يصادر ولم يسرق ، وهو حر في انفاقه على مايشاء له هواء ، فهاهوذا يحمل مدخراته الى الخمار الذي يعطيه في أول الأمر خمرة تشبه أن تكون صافية لأنها لم تمزج بالماء الا مرتين • ولكن كلما فرغت الزجاجية بعض الفراغ ملأ الخمار فراغها ماءً ، وهكذا يدفع السجين ثمن قدح الخمر ستة أضعاف ما يدفعه في خمارة • قد يتراءى لكم أن السجين يحتاج الى عدد كبير من مثل هذه الأقداح حتى يسكر ، وأنه يدفع مبالغ طائلة من المال قبل أن يسكر ••• ولكن الواقع أن القليل من الكحول الذي يحويه الشراب يسكر السجين بسرعة كافية • لأن السجين قد فقد عادة الشراب ••• وهو يظل يشرب الى أن ينفق آخر قرش يملكه ، ثم يعمد الى بيع أمتعته الجديدة أو رهنها ليستمر على الشراب ، والخمار يتعاطى تجارة الاقراض بالرهن في الوقت نفسه ، فاذا نفدت أمتعة السجين

الشخصية ، وهى قليلة ، لم يلبث أن يرهن الأمتعة التى تقدمها له الحكومة؛ فمتى شرب بшمن آخر قميص من قمصانه وآخر خرقه من خرقه ، استيقظ فى صباح اليوم التالى مصدّع الرأس ، فراح يتوسل الى الخمار أن يعطيه قطرة من الخمر ديناً ليذهب عنه هذا الصداق ، ولكن الخمار يرفض أن يعطيه شيئاً بالدين ، فما يملك المسكين الا أن يقبل الرفض حزيناً • وفى اليوم نفسه يعود يعمل ، ويظل يعمل أشهراً بكاملها ، كادحاً مرهقاً نفسه ، حالماً باليوم السعيد الذى انقضى ••• وشيئاً فشيئاً يسترد أمله ويستعيد شجاعته منتظراً يوماً كذلك اليوم ، يوماً بعيداً لكنه آتٍ لا ريب فيه •

وحين يجنى الخمار مبلغاً كبيراً - بضعة عشرات من الروبلات - فانه يشتري خمرأ ، ولكنه لا يمزج هذه الخمرة الجديدة بماء ، لأنه يخص بها نفسه : كفاه تجارة ! ••• لقد أن له هو أن يتسلى ويطرب • فها هو ذا يشرب ويأكل ويدفع للموسيقى أجراً ••• ان مواردته تتج له أن يمنّ على صغار الموظفين المرؤسين فى السجن ببعض الهبات ••• ويدوم احتفاله هذا بضعة أيام ، حتى اذا نفدت مئوته من الشراب مضى يشرب عند الخمارين الآخرين الذين ينتظرون ذلك منه ويتوقعونه، فيظل يشرب الى أن ينفق آخر كوبك يملكه • ومهما يكن انتباه السجناء قوياً من أجل حماية رفاقهم المحتفلين ، فانه ليتفق أن يلاحظ الضابط الميجر أو ضابط الحرس ما قام فى السجن من فوضى ، فيقاد السكير عندئذ الى غرفة القصاص ، فيصادر ما معه من مال - ان كان قد بقى له منه شيء - ثم يُجلد • حتى اذا فرغوا من جلده نفص جسمه كما ينفض جسمه كلب تُلطخ بالوحل ، وعاد الى الكئنة ، ثم استأنف عمله خماراً بعد بضعة أيام •

ويوجد بين السجناء فى بعض الأحيان أناس من عشاق الجنس

اللطف : انهم يستطيعون بمبلغ كبير من المال يرشون به جندياً من الجنود أن يتسللوا خلسة من القلعة الى ضاحية من ضواحي المدينة بدلا من ان يذهبوا الى العمل • وهناك ، فى بيت هادى المنظر ، يقيمون حفلةً ينفقون فيها مبالغ طائلة • ان الجنود الذين يقبلون اصطحاب سجين من السجناء فى رحلة كهذه يتقاضون رشوةً كبيرةً ، لذلك تراهم فى بعض الاحيان يهثون فراراً من هذا النوع سلفاً لثقتهم بأنهم سيكافئون مكافأةً ضخمة • وامثال هؤلاء الجنود مرشحون لان يصبحوا هم انفسهم سجناء • وهذا الفرار يبقى فى أكثر الأحيان سرىً ، بل يكاد يبقى سرىً فى جميع الأحيان • ويجب ان أعترف مع ذلك ان حدوث هذا الفرار امر نادر ، لانه يكلف نفقات باهظة ، وعشاق الجنس اللطيف يلجئون الى وسائل أخرى لا تكلف مثل هذه النفقات الباهظة •

فى بداية عهدي بالسجن لفت نظرى واستأثر بانتباهى وأثار حب الاطلاع فى نفسى سجين شاب وسيم الوجه حلو الملامح دقيق القسمات : ان اسمه سيروتكين : انه انسان يشبه أن يكون لغزاً من نواح كثيرة • لقد خطف وجهه بصرى منذ أول نظرة • لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ينتمى الى القسم الخاص ، أى أنه كان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، فكان ينبغى النظر اليه على أنه من أخطر المجرمين العسكريين • انه هادى لطيف عذب لا يتكلم الا قليلاً ، ولا يضحك الا نادراً • ان عينيه الزرقاوين وبشرته الرائعة وشعره الأشقر ، ان هذا كله يضيف على وجهه تعبيراً جميلاً لا تفسده حتى جمجمته المحلوقة الشعر • ورغم انه لا يمارس اية حرفة فقد كان يحصل احيانا على مبالغ زهيدة من المال • كان كسولاً كسلاً واضحاً ، وكان زرى الثياب دائماً • فاذا تكرم أحدهم فأهدى اليه قميصاً أحمر طار له من فرط الفرح وشدة الابتهاج ، فأخذ يطوف مرتدياً قميصه الجديد يعرضه فى كل مكان •

وكان سيروتكين لا يشرب الخمر ولا يلعب القمار ولا يكاد يتشاجر يوماً مع احد من السجناء • وكان لا ينسى يتجول ، واضعاً يديه فى جيبي سرواله ، هادئ المشية واجم النظرة متأملاً مفكراً • أما فى أى شىء كان يفكر ، فذلك ما لا أعلم عنه شيئاً • اذا نودى ليسأل عن امر من الامور « او ليطلب منه شىء من الأشياء أسرع يجيب بكثير من الاحترام ، وتسكلم كلاماً واضحاً دقيقاً ، دون أن يثرثر كثيراً كما يفعل غيره : انه ينظر اليك دائماً بعينين ساذجتين سذاجة عيني طفل فى العاشرة من عمره • اذا ملك مالا لم يشتتر شيئاً مما كان يعده سائر السجناء أشياء لا غنى عنها ، واذا تمزق قميصه لم يعهد الى أحد بترقيعه ، لا ولا كان يشتري أحذية جديدة • ان ارغفة الخبز الأبيض والفطائر هى ما كان يحلو له ان يشتريه أكثر من أى شىء آخر • فكان يقضم هذه الأرغفة وهذه الفطائر بلذة كلذة طفل صغير فى السابعة من عمره • كان السجناء يخاطبونه بقولهم : « هيه ! سيروتكين ، يا يتيم * قازان الصغير المسكين ! » اذا كان رفاقه لا يعملون أخذ يتجول فى التكنات على عادته حتى اذا كان جميع السجناء منكبين على عملهم ظل هو عاطلاً لا يحرك يديه • واذا مازحه أحد أو سخر منه وهزىء به - وكان هذا يحدث كثيراً - لم يزد على أن يدير ظهره ويمضى الى مكان آخر دون أن يقول كلمة واحدة • فاذا كانت المزحة ثقيلة قوية احمر وجهه • تساءلت كثيراً ما عسى تكون الجريمة التى اقترفها حتى أرسل الى سجن الأشغال الشاقة • وفى ذات يوم كنت مريضاً راقداً فى المستشفى ، وكان سيروتكين متمدداً على فراش قريب منى ، فأخذت أتحدث معه ، فتحمس وقصّ علىّ بغير تحفظ كيف جُنّد ، وكيف صعبته أمه باكية ، ووصف لى أنواع العذاب التى قاساها أثناء الجندية ، وأضاف الى ذلك أنه لم يستطع أن يتعود هذا النوع من الحياة : فلقد كان جميع الناس هنالك قساة عتاة ، يفضيئون لأنفهِه الأسباب،

وكان رؤساؤه حاقدين عليه ساخطين منه فى جميع الأحيان تقريباً •
سأله :

– ولكن لماذا أرسلت الى هنا يا سيروتيكين ؟ ولماذا الى القسم الخاص
يا سيروتيكين ؟
قال :

– نعم يا ألكسندر بتروفتش ! ... اننى لم أقض فى الجندية الا
سنة واحدة : وقد أرسلت الى هنا لأننى قتلت رئيسى النقيب جريجورى
بتروفتش •

– سمعت بعضهم يروى هذا ، ولكننى لم أصدقه ... فكيف أمكن
أن تقتله يا سيروتيكين ؟
– كل ما روى لك صحيح • لقد كانت حياتى هنالك ثقيلة لا تطاق
ولا تحمل •

– ولكن المجندين الآخرين يحتملون تلك الحياة ! صحيح أنها شاقة
قاسية فى البداية • ولكن المرء يتعودها أخيراً ويصبح جندياً ممتازاً • لاشك
أن أمك قد أسرفت فى تدليك فأفسدت طباعك ... أنا واثق أنها كانت
تغذيك بالفطائر واللبن حتى الثامنة عشرة من عمرك ! ...

– حقاً لقد كانت أمى تحببى كثيراً ... وحين سافرت رقدت على
سريرها وبقيت فيه ... ألا ما كان أقسى حياة الجندية فى نفسى حينذاك !
كان كل شيء يجرى مقلوباً ... كانوا ينزلون فى " العقوبة تلو العقوبة
... ولماذا ؟ لقد كنت أطيع جميع الناس ، وأخضع لجميع الأوامر ، وأتبع
جميع القواعد ، وأعتنى بكل شيء ، ولا أشرب الخمرة قط ، ولا أستدين
من أحد شيئاً ... ذلك أن المرء يسئ صنعاً اذا هو أخذ يستدين ...
ومع هذا كان جميع الناس حولى قساةً عتاةً الى أبعد حدود القسوة
والعتو ... كنت فى بعض الأحيان ألتو فى ركن من الأركان وآخذ

أبكى ••• وأتجنب ••• نعم ••• أتجنب ••• وفى ذات يوم ، أو قل فى ذات ليلة ، كنت مكلفاً بالحراسة ••• الفصل خريف ، والرياح شديدة ، والجو يبلغ من شدة الاظلام أن المرء لا يستطيع أن يرى قطة ••• وكنت حزينا ، حزينا غاية الحزن ••• نزعنا الحربة من بندقتي ووضعناها جانبا، ثم وضعت فوهة البندقية على صدرى ، وضفطت الزناد بابهام قدمي بعد أن خلعت حذائي • لم تنطلق الطلقة • فحصدت بندقتي وحشوتها باروداً جديداً ، ثم سددت فوهة البندقية الى صدرى ••• ومرة أخرى لم تنطلق الطلقة ••• قلت لنفسى : « ما العمل ؟ » • ثم انتعلت حذائي ، وأحكمت اعادة وضع الحربة فى موضعها من البندقية ، ومضيت أتجول ذاهباً آيأ ، حاملاً بندقتي على كفى • قلت لنفسى : ألا فلأرسل الى أى مكان ، ولكننى لا أريد أن أبقى جندياً وبعد نصف ساعة وصل النقيب الذى كان يقوم بجولته التفيشية • تقدم منى وقال لى : « أهكذا يسير الجندي حين يكون حارسا ؟ » ، فما كان منى الا أن أمسكت بندقتي وأغمدت الحربة فى جسمه • وقد جلدونى أربعة آلاف جلدة بالسوط ••• هكذا وصلت الى القسم الخاص •

لم يكذب سيروتكين ! ومع ذلك فأنا لا أفهم لماذا أرسلوه الى هنا • ان جرائم من هذا القبيل تعاقب معاقبة أقل قسوة • ان سيروتكين هو السجين الوحيد الذى كان جميل الوجه حقاً • أما سائر رفاقه فى القسم الخاص – وعددهم خمسة عشر سجيناً – فقد كان لهم منظر كرهه رهيبا ان لهم وجوها تبعث الاشمئزاز فى النفس ! والرعوس الشائبة فيهم كثيرة • سأحدث عن هذه العصابة فيما بعد • وكان سيروتكين فى كثير من الأحيان على صداقة طيبة بالخمار جازين الذى سبق أن تحدثت عنه فى بداية هذا الفصل •

ان جازين هذا انسان رهيب • يحس كل من يراه أنه رجل مرعب

مخيف يبعث الاضطراب والقلق فى النفس • ولقد بدا لى أنه لا يمكن أن
 يوجد على وجه الأرض مخلوق أشد منه شراسة وضاوة ووحشية ؛ لقد
 سبق لى أن رأيت فى مدينة توبولسك قاطع الطريق كاميف الذى اشتهر
 بجرائمه ؛ ورأيت بعد ذلك سولوكوف ، السجين الهارب ، الذى كان
 فارا من الجنديه ، وكان سفاحا كاسراً من السفاحين • ولكن لا هذا ولا
 ذاك أيقظ فى نفسى من الاشمئزاز ما أيقظه جازين • تخيلوا عنكبوتاً ضخماً
 عملاقاً فى حجم انسان • وهو تترى • لم يكن فى السجن كله انسان
 يضارعه قوة جسم ، وشدة بأس • انه يوحى الى القلوب الذعر والرعب ،
 بضخامة رأسه الغريب المشوه اكثر مما يوحى ذلك بقامته الطويلة وبنيته
 الهرقالية • وكانت تجربى فى حقه شائعات من أغرب الشائعات : فبعضهم
 يقول انه كان جندياً ، وبعضهم يزعم أنه قد فرّ من نوتشنسك* ، وأنه نفى
 عدة مرات الى سيبيريا ، ولكنه استطاع أن يهرب فى كل مرة ، ثم آل
 أخيراً الى سجننا فرداً من أفراد قسم المؤبدين ، ويقال انه كان يحب قتل
 الاطفال الصغار يستدرجهم فى أول الأمر الى مكانٍ ناءٍ ثم يأخذ يربعهم
 ويعذبهم ، حتى اذا شفى غليله من الاستمتاع بذعر نفوسهم ونبضات قلوبهم ،
 اخذ يقتلهم ببطء وهدوء وورصانة ووقار ، متلذذاً بذلك أكبر التلذذ • لعل
 الذين يروون عنه هذه الفظائع قد تخيلوها تخيلاً من الأثر الذى يحدثه
 فى نفوسهم ، غير أن من الجائز أن تكون صحيحة ، وهى تتفق وسخته
 على كل حال • على أن جازين ، حين يكون صاحباً غير سكران ، يتصرف
 تصرفاً لائقاً ويسلك سلوكاً لا غبار عليه • انه هادئ دائماً لا يخاصم أحداً
 ويتحاشى المشاجرات احتقاراً لمن حوله ، وتقديراً لشخصه • وكان لا يتكلم
 الا قليلاً • وكانت حركاته جميعها محسوبة موزونة هادئة رصينة • ولا
 تخلو نظراته من ذكاء ، ولكن تعبير هذه النظرة تعبیر قاسٍ ساخر
 كابتهامته • وكان بين تجار الخمرة أغناهم طراً • وكان يسكر

مرتين في السنة ، فاذا سكر انكشفت شخصيته على حقيقتها وحشية ضارية كاسرة • انه ينتعش شيئاً فشيئاً فيأخذ يناكد السجناء بالسخرات اللاذعة المسمومة التي يكون قد حضرها وسنّها وصقلها زمناً طويلاً قبل ذلك ؛ حتى اذا بلغ غاية السكر واستبدت به نوبات حقن مسعور وغيظ مجنون ، تناول سكيناً فأشرعها واتجه نحو رفاقه • والسجناء يرففون قوة بأسه الهرقية ، فهم لذلك يتحاشون ويختبئون عنه لانهم يعلمون أنه سيهجم على اول من يراه منهم • وقد انتهوا مع ذلك الى وسيلة يجردونه بها من سلاحه هي أن ينقض على جازين عشرة من السجناء مباغتةً ، فما يزالون يكيلون له ضربات شديدة على صرته وفي بطنه وتحت قلبه الى ان يفقد الوعي ويسقط مفشياً عليه • ان هذه الطريقة يمكن أن تجهز على أي انسان ، ولكنها لا تجهز على جازين • حتى اذا أوسعوه ضرباً لفوه بمعطف ورموه على سريريه ، قائلين : « والان فلينم » • ويستيقظ جازين في النداء سليماً معافى تقريباً • فيذهب عندئذ الى العمل صامتاً كئيب المزاج مظلم النفس • وكلما سكر جازين عرف جميع السجناء كيف ينتهي نهاره • وكان هو نفسه يعرف ذلك ، ولكنه يشرب رغم كل شيء • وانقضت على هذا سنوات ، فلاحظ السجناء أن جازين قد أخذ يهزل ويضعف • أصبح لا يكف عن الأتئين ، شاكياً من أمراض بشي • وازدادت زيارته للمستشفى • وقال السجناء : « ها هو يرضخ أخيراً » •

في ذلك اليوم دخل جازين المطبخ يتبعه البولوني القصير الذي يعزف على الكمان ، والذي كان السجناء يستأجرونه لتتم بموسيقاه بهجة أعيادهم • وقف جازين وسط القاعة صامتاً يحدّق الى رفاقه واحداً بعد واحد • لم ينطق أحد بكلمة • فلما رأى مع رفيقى ألقى علينا نظراته تلك الخبيثة الساخرة ، وابتمس ابتسامة رهيبة ، وقد لاح في وجهه ما يلوح من

الرضى فى وجه امرئ تخيل مهزلة سوف يقوم بها ... اقرب من
مائدتنا مترحاً وقال :

- هل لى أن أعرف من أين تجيئون بالموارد التى تتيح لكم أن
تحتسوا شايا ؟

تبادلت وصديقى نظرة عجلي • وأدركت أن خير ما نفعله هو أن
نصمت فما نجيب بشئ ... ذلك أن أية معاوضة يمكن أن تثير حنق
جازين ، فيجبن جنونه ...
وتابع جازين يقول :

- لا شك أن عندكم مالا • بل لا شك أن عندكم مالا كثيراً حتى
تشرّبوا الشاى • ولكن قولاً : أأنتم فى سجن الأشغال الشاقة من أجل
احتساء الشاى ؟ هه ؟ ... أأنتم هنا من أجل أن تشرّبوا شايا ؟ هلاً قلتم
... هلاً أجبتم ، حتى أعرف كيف ...

واذ أدرك أننا صامتان ، وأنا قررنا أن لا نلتفت اليه تقدم نحونا
سرعاً مكفهر الوجه مرتجفاً من شدة الغيظ والحنق • وكان يوجد على
بعد خطوتين منا صندوق ثقيل يودع فيه خبز السجناء مقطّعا للغداء والعشاء ،
فما يحتويه الصندوق يكفى لإطعام نصف السجناء • وكان الصندوق فى
تلك اللحظة خالياً • فتناوله جازين بكلتا يديه ، وهزه فوق رأسنا • ورغم
أن وقوع جناية قتل أو محاولة قتل يكون فى العادة مصدر انزعاج للسجناء
(إذ تجرى عندئذ تحقيقات كثيرة ، وتفقيشات كثيرة) ، ورغم أن السجناء
يحاولون فى العادة دون حدوث مشاجرات يمكن أن تكون لها عواقب
وخيمة ، فقد صمت الجميع وأخذوا ينتظرون ما سيحدث ••

ما من كلمة قالها أحد دفاعاً عنا ! ما من صيحة صدرت عن أحد فى
ردع جازين ! لقد كان حقد السجناء على النبلاء يبلغ من الشدة أن كلاً

منهم كان يسره أن يرانا فى خطر ، وأن يحس أننا فى خطر ... كان ذلك واضحاً كل الوضوح ... غير أن حادثاً موثقاً سعيداً قد أنهى هذا المشهد الذى أوشك أن ينقلب الى فاجعة ... كان جازين يهم أن يسقط فوق رأسنا الصندوق الضخم الذى كان يديره يديه ، حين جاء أحد السجناء مسرعاً من التكنة التى يبيت فيها ، فصاح يقول لجازين :

ـ جازين ، لقد سُرّق خمرى !

فاذا بالرجل الرهيب يدع الصندوق يسقط على الأرض ، ويسرع خارجاً من المطبخ . قال السجناء بعضهم لبعض : « الله أنقذهما ! » ... وظلوا يرددون هذه الجملة زمناً طويلاً .

لم أستطع يوماً أن أعرف هل سُرّق خمرى حقاً ، أم أن تلك حيلة ابتكرت لاقاذنا ...

وفى ذلك المساء نفسه ، قبل اغلاق الثكنات ، حين هبط الليل ، كنت أتجول عند السور ... ان حزناً ساحقاً قد سقط على نفسى ... لم أشعر طوال مدة اقامتى فى السجن بتعاسة كالتعاسة التى شعرت بها فى ذلك المساء ، رغم ما يقال من أن أول يوم فى السجن هو أشقى أيام السجن على الإطلاق . كانت فكرة تهزنى فى ذلك المساء هزاً قوياً ، فكرة لم تبارحنى بعد ذلك طوال مدة اقامتى فى السجن ... فكرة هى سؤال لم أجده جواباً حينذاك ، ولا وجدت له جواباً الى الآن . ذلك السؤال هو : هل يمكن أن تقارن جريمة بأخرى ولو مقارنة تقريبية ؟ هذان رجلان اقترف كل منهما جريمة قتل ... وقد درست ظروف اقتراف الجريمتين دراسة دقيقة ووزنت وزناً دقيقاً ... ان القضاء يصدر على الرجلين حكماً واحداً وينزل فيهما عقوبة واحدة ... ومع ذلك ما أعقق الهوة بين الفعلين ! ان أحد الرجلين قد قتل فى سبيل شئ تافه لا قيمة له ... قتل فى سبيل

بصلة ... قتل في الطريق فلاحاً كان ماراً هنالك ولم يجد معه الا
بصلة *

— هه ... لقد أرسلوني الى سجن الأشغال الشاقة من أجل فلاح لم
يكن معه الا بصلة ! ...

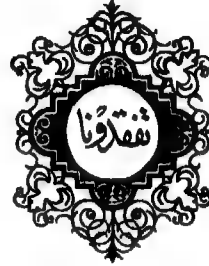
— يا لك من غبي ! ان ثمن البصلة كوبك ، فلو قتلت مائة فلاح
لملكتم مائة كوبك ... أى لملكتم روبلاً ، فما قيمة ذلك ؟ ...

أما الرجل الثانى فقد قتل طاغية حقيراً لطنح سرف امرأته أو أخته أو
بنته . وهذا رجل ثالث متشرد يكاد يموت جوعاً ، تحاصره فصيلة كاملة
من الجند فيدافع عن حريته وحياته . فهل هو مساو لذلك الوجد الذى
يقتل الأطفال تلذذاً ، للاستمتاع بجريان دمهم الحار على يديه ، وبمنظرهم
وهم يرتعشون آخر رعشة من رعشات عصفور تذبحه سكين ؟ ان هؤلاء
القتلة جميعاً يرسلون الى سجن الأشغال الشاقة . قد لا تكون مَدَدُ الأحكام
متساوية . ولكن أنواع العقوبات قليلة ، فى حين أن أنواع الجرائم تعد
بالالوف . فهناك من أنواع الجرائم بقدر ما هنالك من أنواع الطباع .
وهنا سلمنا بأن من المستحيل ازالة هذا الظلم الأول فى العقوبة ، هنا سلمنا
بأن هذه المشكلة لا سبيل الى حلّها ، هنا سلمنا بأن هذه المشكلة صعبة
صعوبة تربيع الدائرة ... هنا سلمنا بهذا ... هنا تفاضينا عن هذا
الظلم ... ان هناك ظلماً آخر : هو الظلم الذى يتعلق بنتائج العقوبة ...
فرب رجل يزوى فى السجن ويهلك وينوب كما تنوب الشمعة ؛ ورب
رجل آخر ما كان ليخطر له ببال أن الحياة فى السجن يمكن أن تكون
ممتعة الى هذه الدرجة بين حلقة من الأصدقاء تحلو معانرتهم وتطيب
صحبتهم ! ... هناك أشخاص من هذا النوع فى سجون الأشغال الشاقة .
وانظر بعد ذلك الى انسان رقيق القلب مثقف الفكر مرهف الضمير ...

ان ما يشعر به لهو أشد ايلاماً لنفسه من العقوبة نفسها • ان الحكم الذى أصدره هو نفسه على جريمته أقسى حكم يصدره القضاء تطبيقاً لأشد نصوص قانون من القوانين صرامة وقوة • انه يعيش جنباً الى جنب مع سجين آخر لم يفكر مرة واحدة فى الجريمة التى ارتكبها والتى عوقب عليها ، لم يفكر فى هذه الجريمة مرة واحدة طوال مدة اقامته فى السجن ، ولعله يعد نفسه بريئاً لم يقارف ائماً ••• وأخيراً ، أليس هناك أناس تعساء يؤساء يرتكبون الجرائم بغية أن يُرسلوا الى سجون الأشغال الشاقة حيث الحياة أقل مشقة من حياة الحرية خارج السجون ؟ ان الحياة ملأى بألوان الشقاء •• رب شخص لا يجد ما يأكله اذا جاع ••• رب شخص يرهق نفسه فى العمل من أن أجل أن يفتنى سيده ••• وهو لذلك يؤثر حياة السجن على الحياة التى يعيشها خارج السجن ••• فالعمل فى السجن أقل مشقة وعسراً ، والمرد فى السجن يأكل متى جاع ، ولعله يأكل خيراً مما يأمل أن يأكل خارج السجن ••• سوف يأكل لحماً فى أيام الأعياد ، وسوف تتوارد عليه الصدقات ، وسوف يجنى من عمل المساء بعض المال ••• وهذا المجتمع الذى سوف يعرفه فى السجن ، هل تعدونه غير ذى بال ؟ ان السجناء أناس بارعون ماكرون يعرفون كل شئ ••• والقادم الجديد ينظر الى رفاق الأغلال نظرة اعجاب لا يخفيها ••• انه لا عهد له بشئ كهذا من قبل •• فهو لذلك يتصور أنه فى أحسن صحبة ! •••

فهو يعلم أن يشعر هؤلاء الرجال جميعاً شعوراً واحداً بالعقوبة التى أنزلت فيهم ؟ ولكن علام الخوض فى مشكلات لا سبيل الى حلها ، علام طرح أسئلة لا سبيل الى الجواب عليها ! ••• لقد قرع الطبل ، فيجب أن أعود الى الثكنة •••

المسألة الأولى تمه



مرة أخرى ، ثم أغلقوا أبواب الثكنات ، وأقفلوا كل باب بقفل خاص ، وظل السجناء محبوسين حتى مطلع الفجر •

لقد قام بتفقد السجناء ضابط صف ، يصحبه جنديان • فإذا اتفق أن شهد التفقد ضابط من الضباط ، صف السجناء في الفناء • أما في أكثر الأحيان فكان التفقد يتم في داخل المباني نفسها • ولما كان الجنود كثيراً ما يخطئون التعداد ، فانهم يخرجون ثم يعودون ليكرروا تفقدنا واحداً واحداً ، الى أن يتضح لهم أن العدد كان صحيحاً ، فيجسبونا عندئذ في الثكنات • وكل ثكنة من الثكنات تضم نحو ثلاثين سجيناً ، لذلك كانت المضاجع متراسة قريباً بعضها من بعض • ويأخذ السجناء يعملون ، لأن موعد النوم ما يزال بعيداً •

عاد الجندي المشوه الذي سبق أن أتيت على ذكره ، والذي كان يبيت معنا في الثكنة ، ويمثل ادارة السجن أثناء الليل • وكان يوجد في كل ثكنة سجين قديم يعينه الضابط المجير «عريفا» ، مكافأة له على حسن

سلوكه • ومع ذلك لم يكن بالأمر النادر أن يرتكب « العرفاء » أنفسهم مخالفات يعاقبون عليها بالجلد ؛ فهم يفقدون عندئذ رتبتهم ، ويحل محلهم سجناء آخرون ممن يكون سلوكهم مرضياً • كان « عريف » ثكنتنا هو أكيم آكيمتش • وقد أدهشني أنه كان ينهر السجناء ويقرعهم تقريراً شديداً • ولكن السجناء لا يردون على تقريراته إلا بسخریات • أما الجندي المشوه فقد كان أقرب الى حصافة الرأي وسداد النظر فهو لا يتدخل في أمر من الأمور ، فاذا فتح فمه بكلام ، فهو انما يتكلم عندئذ مراعاة للواجب وتبرئة للذمة • وكان يظل جالسا على مرفده صامتا ، عاكفاً على ترقيع أحذية عتيقة • وكان السجناء لا يولونه أى اهتمام ولا يلتفتون اليه أى التفات •

وفي ذلك لاحظت أمراً ثبتت لي صحته وثبت لي صدقه بعدئذ ، وهو ان جميع من ليسوا سجناء ويتعاملون مع السجناء ، سواء أكانوا من جنود الحرس أم من الموظفين ، ينظرون الى السجناء نظرة خاطئة مبالغة ، كأنهم يتوقعون ان ينقض عليهم السجناء بسكين لأنفه أمر أو لايسر سبب • وكان السجناء لعلهم بهذا الخوف الذى يوقظونه فى نفوس هؤلاء ، يشعرون من ذلك بزهو وخيلاء • لذلك فان خير رئيس للسجن انما هو ذلك الذى لا يشعر أمام السجناء بأى انفعال • والسجناء رغم المظاهر التى يصطنعونها يؤثرون هم أنفسهم أن يُمحضوا الثقة ، حتى لقد تستطيع بهذه الثقة التى توليهم اياها أن تشدهم اليك وأن تربطهم بك • وقد أتيح لي غير مرة أن ألاحظ دهشتهم حين يدخل عليهم رئيس بلا حرس يرافقه • • وليس فى هذه الدهشة شئ من التملق فى الواقع : فان الزائر الشجاع يفرض احترامه ويفرض مهابته على السجناء • واذا وقع شئ مزعج فى يوم من الأيام ، فان ذلك لا يمكن أن يقع فى حضوره • ان الرعب الذى يوظفه السجناء فى النفوس عام شامل ؛ ومع ذلك فأنا أرى أنه لا يقوم على

أساس • هل يرجع هذا الذعر الى أن سحنة السجين وهيته التي تدل على الاجرام تولدان شيئاً من النفور والاشمئزاز ؟ أغلب الظن عندي أن هذا الذعر راجع الى شعور معين يستبد بنا منذ ندخل السجن ، هو الشعور بأن من المستحيل على المرء ، رغم جميع الجهود ورغم اتخاذ جميع الاجراءات الممكنة ، أن يحيل انساناً حياً الى جثة ، أن يخلق عواطف هذا الانسان • أن يزيل ظمأه الى الانتقام والى الحياة ، وأن يبدد أهواءه وحاجته القوية العارمة الى ارضاء هذه الأهواء • ومهما يكن من أمر فأننى أؤكد أنه لا داعى الى الخوف من نزلاء سجون الاشغال الشاقة • ما من انسان ينقض بسكين على قرينه بمثل هذه السرعة وبمثل هذه السهولة • ولئن وقعت حوادث من هذا القبيل فى بعض الاحيان ، فهى من الندرة بحيث يمكن أن لا تحسب • أنا لا أتكلم هنا طبعاً الا عمن تم صدور الحكم عليهم ، فهم ينالون عقابهم ، ويكاد يشعرون بعضهم بالسعادة من وجوده فى السجن اخر الامر ، فان شكلاً جديداً من أشكال الحياة لا بد أن يجذب الانسان دائماً • فهو لا يعيشون هادئين خاضعين راضخين مذغنين • أما المشاغبون فان السجناء أنفسهم يجبرونهم على المحافظة على الهدوء ، فلا يمكنهم أن يمضوا فى تبجحهم بعيداً • ان السجين ، مهما يكن جسوراً ومهما يكن متهوراً ، يخاف فى السجن كل شيء • ولا كذلك المتهم الذى لم يتقرر مصيره بعد • ان هذا المتهم لا يتورع عن الإقتضاض على أى شخص ، دون أن يكون ثمة دافع من كره يدفعه الى ذلك ، لا لشيء الا لانه سيصدر فى حقه حكم غداً • فانه اذا ارتكب جريمة جديدة ، تعقدت قضيته ، وتأخر انزال العقاب فيه • وكسب وقتاً ••• ان مثل هذا المدوان ما يفسره ويعلمه ، ان له سيباً ، ان له هدفاً ••• ان السجين فى هذه الحالة يريد أن « يغير مصيره » بأى ثمن ، ويريد أن يغير هذا المصير فوراً • وبهذه المناسبة فقد أتيت لى أن أشهد واقعة نفسية غريبة جداً •



دوتوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كان فى قسم المحكومين العسكريين جندى قديم أرسل الى سجن الأشغال الشاقة يقضى فيه سنتين . كان هذا الرجل متبجحاً وجباناً فى آن واحد . ان الجندى الروسى قليل المباهاة بوجه عام ، ولا يتسع وقته للمباهاة ولو أراد . فاذا وجد بين الجنود الروس جندى كثير المباهاة شديد الافتخار فاعلم أنه جبان وأنه محتال . قضى دوتوف - وذلك هو اسم السجين الذى أتحدث عنه الآن - قضى مدة سجنه وعاد الى فرقة مرابطة على الحدود . ولكنه كان قد فسد فساداً كاملاً كسائر من يُرسلون الى السجن لاصلاحهم . ان كثيراً من هؤلاء السجناء يعودون الى السجن بعد أن يتمتعوا بالحرية أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، ولكنهم لا يعودون عندئذ لقضاء مدة قصيرة بعض القصر ، وانما يعودون ليقضوا فى السجن خمسة عشر عاماً أو عشرين . فذلك ما حدث لصاحبنا دوتوف . فبعد اطلاق سراحه بثلاثة أسابيع ، سرق أحد رفاقه عنوةً ، ثم شق عصا الطاعة وتمرد على النظام العسكرى ، فحوكم وصدر فى حقه حكم جسمى قاس ، فاذا هو من شدة هلهله من العقاب المقبل (لأنه جبان) ينقض بسكين فى يده على ضابط الحرس الذى دخل عليه مقرّ عشيّة اليوم الذى كان يجب أن ينفذ فيه الحكم الذى أصدرته المحكمة بجلده . لقد كان يدرك تمام الادراك أنه بذلك يفاقم جريمته ويطيل مدة حكمه . ولكن الشيء الوحيد الذى كان يريده هو أن يؤجّل اللحظة الرهيبة ، لحظة انزال العقوبة ، بضعة أيام أو بضعة ساعات على الأقل . وكان من الجبن بحيث أنه لم يستطع حتى أن يطمئن الضابط الذى أشهر عليه سكينه . انه لم يرتكب هذا العدوان الا ليضيف الى « ملفّه » جريمة جديدة ، توجب أن تُعاد محاكمته .

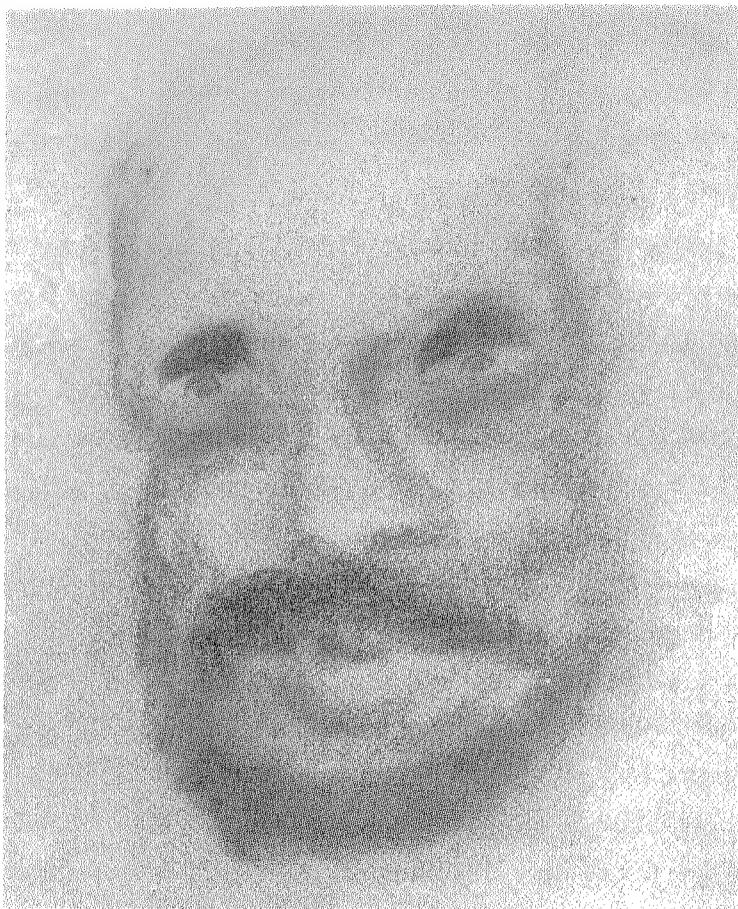
ان اللحظة التى تسبق تنفيذ العقاب هى لحظة رهيبة فى نظر المحكوم بعقوبة الجلد بالسياط . لقد أتبع لى أن أرى كثيراً من المحكومين قبل تنفيذ

الحكم فيهم بيوم • كنت ألقاهم عادةً في المستشفى حين أكون مريضاً ، وكثيراً ما كنت أمرض ... ان أراف الناس بالمحكومين في روسيا انما هم الأطباء حتماً • انهم لا يفرقون أبداً بين المحكومين تلك الأنواع من التفريق التي يعمد اليها غيرهم ممن هم على صلة مباشرة بهؤلاء المحكومين • ولعل الشعب وحده يراف بهم أيضاً مع الأطباء ، لانه لا يلوم المجرم أبداً على الجرم الذي ارتكبه مهما يكن هذا الجرم ، بل يغفر له هذا الجرم ما دام قد كفر عنه بالعقاب الذي ناله •

ليس عبثاً أن الشعب في روسيا كلها يصف الجريمة بأنها سوء حظ؛ ويصف المجرم بأنه انسان سيء الحظ • ان لهذا التعريف دلالة بليغة عميقة ، دلالة هامة خطيرة ، لا سيما وانه غريزي لا شعوري ... أعود الى حيث كنت من الحديث فأقول ان الأطباء هم الملجأ الطبيعي الذي يلجأ اليه السجناء ، وخاصة حين يكون عليهم أن يتحملوا عقوبة جسدية ... ان المتهم الذي أحيل الى مجلس عسكري يعرف على وجه التقريب الوقت الذي سيصدر فيه الحكم ، فمن أجل أن يجتنب هذا الموعد تراه يمارض ويطلب الذهاب الى المستشفى عسى أن تُرجأ اللحظة الرهيبة بضعة أيام • وهو حين يصريح أنه شفى من مرضه لا يجهل أن تلك اللحظة موعدها عادةً خروجه من المستشفى • لذلك ترى السجناء مضطربين أشد الاضطراب في ذلك اليوم • صحيح أن بعضهم يحاول اخفاء اضطرابه محافظة على كبريائه ، ولكن ما من أحد ينطلي عليه هذا التظاهر الكاذب بالشجاعة • ان كل انسان يفهم قسوة هذه اللحظة ، ويسكت من قيل الشعور الانساني • لقد عرفت سجيناً شاباً كان في الماضي جندياً ، وقد أرسل الى سجن الأشغال الشاقة بتهمة القتل ... وكان عليه أن يعاقب بالحد الأقصى من الجلد بالسياط • فقرر قبل تنفيذ العقوبة فيه بيوم أن يشرب زجاجة كاملة من الخمر غلى فيها مقداراً من التبغ • ان السجين

المحكوم بالجلد لابد أن يشرب قبل اللحظة الحاسمة شيئاً من خمر يكون قد أعدّه منذ زمن طويل ، واستراه بتمن باهظ في اكثر الاحيان : انه يؤثر أن يحرم نفسه من الاشياء الضرورية سته اشهر برمتها على ان لا يعب ربع لتر من الكحول قبل تنفيذ العقوبة فيه • فالسجناء يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن الانسان لا يتألم من ضربات العصا أو السوط مثلما يتألم منها وهو في حالة الصحو • وأعود الى قصتي فاقول ان الشاب المسكين سقط مريضاً بعد شربه زجاجة الخمر ببضع لحظات ، وأخذ يتقيأ دماً ، ونقل الى المستشفى مغشياً عليه • وبلغ صدره من التمزق لهذا أن سلاً أصابه ثم أودى بحياته بعد بضعة أشهر • ولم يعرف الاطباء الذين تولوا علاجه سبب مرضه أبداً •

واذا لم تكن الأمثلة على الجبن نادرة بين السجناء ، فيجب أن نضيف أننا نقع عندهم على أفراد يملكون بسالة مذهلة • اننى أتذكر ألواناً من الشجاعة وصلت الى حد فقدان الاحساس • وما يزال مشهد وصول أحد قطاع الطرق الى المستشفى محفوراً في ذاكرتي الى الآن • ففي ذات يوم جميل من أيام الصيف ، انتشرت في مستشفىنا شائعة تقول ان فاطم الطرق الشهير أورلوف سيجلد في مساء ذلك اليوم نفسه ، وأنه سينقل بعدئذ الى المستشفى • وقال السجناء الذين كانوا في المستشفى ان تنفيذ العقوبة سيبلغ غاية القسوة ، لذلك كان جميع السجناء في المستشفى مضطربين • واني لأعترف بأننى كنت أنا نفسى أنتظر بكثير من حب الاطلاع أن يصل الى المستشفى هذا الرجل الذى كانت تروى عنه حكايات رهيبة • انه مجرم قلّ بين المجرمين مثله ، قادر على أن يقتل شيوخاً وأطفالاً دون أن يهتز فيه عرق ، ودون أن يشعر بأى انفعال • وكان يملك ارادة جبارة لا يمكن ترويضها ولا يمكن السيطرة عليها ، وكانت نفسه تفيض زهواً وكبرياء من شعوره بقوته • ولما كان قد قارف جرائم عدة فقد حكم



أورلوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

بالجلد • وجاءوا به أو قل حملوه في المساء • كانت القاعة غارقة في الظلام ، وقد أخذ السجناء يشعلون شموعاً • كان أورلوف شاحباً شحوباً خارقاً ، يكاد يكون فاقد الوعي مغشياً عليه ؛ ان شره كثير مضفور ، أسود على غير لمعان • وكان ظهره متشققاً متورماً أزرق اللون تغطيه بقع من الدم • وظل السجناء يعنون به طوال الليل ، يغيرون له الكمادات ، ويرقدونه على جنبه ، ويحضرون له المرهم الذي أمر به الطبيب ، واهتموا به وعطفوا عليه كما يهتم المرء بقريب له ، وكما يعطف على محسن اليه • واسترد الرجل حواسه كاملة في الفدأة ، فطاف بالقاعة مرة أو مرتين • فأدهشني ذلك كثيراً ، لأنه كان مهدماً محطماً القوى حين جئ به الى المستشفى • لقد جلدوه نصف عدد الجلادات التي حددها القرار • ولكن الطبيب أوقف الجلد لاقتناعه بأن أورلوف سيموت حتماً اذا استمروا في جلده • وكان هذا المجرم ضعيف البنية قد هدمه طول اقامته في السجن • ان من رأى سجناء حكم عليهم بالجلد ، سيظل يتذكر وجوههم المزولة المهودة ، ونظراتهم المحمومة المسعورة • وسرعان ما شفى أورلوف : لا شك أن طاقته الجبارة قد ساعدت جسمه على استرداد عافيته • ان أورلوف ليس بالشخص العادي • وتعرفت عليه جيداً بالاطلاع ، واستطعت أن أدرسه على مهل خلال أسبوع بكامله • ما رأيت في حياته كلها رجلاً يضارعه قوة ارادة وصلابة شكية • كنت قد التقيت في توبولسك برجل مشهور من هذا النوع كان رئيس عصابة من قطاع الطرق • لقد كان ذلك الرجل وحشاً كاسراً حقاً • ما ان يلامسه المرء ملامسة ، ولو دون أن يعرفه ، حتى يوجس أنه رجل خطر • والأمر الذي أزعبنى فيه خاصة انما هو غباؤه • ان المادة تبلغ فيه من غلبتها على الروح أن المرء ما يكاد يراه حتى يحس أن لا وجود لشيء عنده الا ارضاء حاجاته الجسمية واشباع شهواته الحيوانية ••• ومع ذلك فأنا مقتنع اقتناعاً تاماً

بأن كورنيف (وهذا هو اسمه) كان لا بد أن يغمى عليه لو سمع صدور حكم يقضى بتعذيبه تعذيباً جسدياً كالتعذيب الجسدى الشديد الذى أوقعوه فى أورلوف ، وكان لا بد أن يذبح عندئذ أول قادم دون ان يطرف جفنه • ولا كذلك أورلوف ، فلقد كان انتصاراً رائعاً للروح على الجسم ••• كان يسيطر على نفسه سيطرة كاملة : كان لا يشعر نحو القصاص الا بالاحتقار ، ولا يخشى فى العالم شيئاً على الاطلاق • ان الشيء البارز فيه هو هذه الطاقة التى ليس لها حدود ، هو هذا الظمأ الى الانتقام ، هو هذا النشاط الذى لا يهدأ ، وهو الارادة التى لا تتزعزع ، حين يكون عليه أن يبلغ غاية من الغايات أو أن يحقق هدفاً من الاهداف • وقد أدهشنى مظهره المتعالى المتعطر ، كان ينظر الى الناس من عل ، لا اصطناعاً للمهابة والوقار ، فلقد كان العجب والكبر فطرةً فيه • وما أحسب أن أحداً قد أثر فيه أى تأثير فى يوم من الأيام • انه ينظر الى كل شيء نظرةً لا تبالى ، فلا شيء فى هذا العالم يمكن أن يثير دهشته أو يوقظ استغرابه • وكان يعلم حق العلم أن السجناء الآخرين يحترمونه ، ولكنه لا يستغل ذلك لاضطناع الوجاهة واطهار الاستعلاء • على أن حب الظهور والزهو بالنفس آفتان لا يخلو منهما سجين • وكان ذكياً • وكانت صراحته العجيبة ليست من الثرثرة واللغو فى شيء • لقد أجاب عن جميع الأسئلة التى ألقىها عليه ، بغير لف ولا دوران : فاعترف لى بأنه ينتظر شفاه بصبر فارغ ، حتى ينتهى من باقى العقوبة التى صدر الحكم بانزالها فيه • قال لى غامزاً : « عندئذ ينتهى الأمر : أنال باقى العقوبة ثم أرحل الى فرتشنسك مع قافلة من السجناء ••• وسأتهز هذه الفرصة فأهرب ••• نعم سوف أفر ، ما فى ذلك شك ! ولكن ••• ليت جروح ظهرى تبرأ بمزيد من السرعة ! » • وظل خلال خمسة أيام يحترق شوقاً الى تحسن حاله بحيث يستطيع مغادرة المستشفى • وكان فى بعض

الأحيان مرحاً رائق المزاج • فكنت أستغل لحظات صفائه هذه لأسأله عن مغامراته • فكان يقطب حاجبيه قليلاً ، ولكنه يجيب على أسئلتى دائماً بصدق وإخلاص • فلما أدرك أنني أحاول أن أنفذ الى أعماقه وأن أجد في نفسه بعض آثار ندامة ، ألقى على نظرة استعلاء واحتقار ، كما لو كنت طفلاً غيباً بعض الغباء يشرفه كثيراً أن يرضى التحدث معه ؛ ولمحت في وجهه نوعاً من الاشفاق علىّ ، والرافة بى • وما هى الا لحظة قصيرة حتى انفجر يقهقه ملء حنجرتة ، دون أى استهزاء أو سخر • ويخيل الىّ أنه لا بد قد ضحك بعد ذلك غير مرة حين كان يتذكر كلماتى • وأخيراً سجل اسمه بين الراغبين فى الخروج من المستشفى ، رغم أن جروح ظهره لم تتدب بعد ' تبدأ كاملاً • ولما كنت قد شفيت من مرضى فقد غادرنا المستشفى معاً فى يوم واحد • أما أنا فعدت الى السجن ، وأما هو فأعيد الى المحل الذى كان مسجوناً فيه من قبل • فلما تركنى صافحنى مصافحة قوية ، وكان ذلك فى نظره دليلاً على حسن الثقة ؛ وأحسب أنه انما فعل ذلك لأنه كان فى تلك اللحظة رائق المزاج مقتبط النفس • فالحق أنه كان يحقرنى ولا شك ، لأننى انسان ضعيف يستحق الشفقة والرثاء من جميع النواحي ، انسان أذعن لقدرة ورضخ للمصير الذى كتب له • وفى الغداة أنزلوا فيه النصف الثانى من العقوبة •

حين أقفلت علينا أبواب ثكنتنا اتخذت على الفور طابعاً آخر مختلفاً عن طابعها الأول كل الاختلاف ، اذ أصبحت مسكناً حقيقياً ، ومنزلاً أهلاً بسكانه • وعندئذ فقط رأيت رفاقى السجناء كأنهم فى بيوتهم حقاً • ذلك أن ضباط الصف أو غيرهم من المشرفين على السجن كان يمكن أن يباغتوا السجناء أثناء النهار فى كل لحظة ؛ لذلك يكون السجناء أثناء النهار على شيء من القلق ، لا يشعرون بالاطمئنان كاملاً • حتى اذا أغلقت الأبواب وأقفلت بالأقفال ، جلس كل سجين من السجناء فى مكانه ،

وأخذ يعمل ... وقد أضيئت التكنة عندئذ اضاءة لم تكن فى حسابانى ،
فلقد كان لكل سجين شعبة وشمعدان من خشب؛ فهؤلاء يأخذون يرتقون
بعض الأحذية ، وأولئك يأخذون يخططون بعض الثياب ، وهكذا
دواليك ...

ويفسد الهواء مزيداً من الفساد ... ها هم أولاء بعض السجناء
قد أقعوا فى ركن من الأركان يلعبون بالورق على بساط ممدود . ان فى
كل تكنة من التكنات سجيناً يملك بساطاً طوله ثمانون سنتيمتراً ، وشعبة
كبيرة ومجموعة من ورق اللعب متسخة أشد الاتساخ . كان هذا يسمى
« قماراً » . وصاحب الورق يتقاضى من المقامرين خمسة عشر كوبكاً عن
كل ليلة . فتلک تجارتہ التى يمارسها . وكان المقامرون يلعبون فى العادة
لعبة « الورقات الثلاث » ، لعبة « الجوركا » ، وهى من ألعاب الحظ . ان
كل سجين يضع أمامه كدسة من قطع النقد النحاسية ، هى ثروته كلها .
ولا ينهض عن اللعب الا بعد أن يخسرها أو يربح كل ما يملكه رفاهه
الباقون ... واللعب يستمر الى ساعة متأخرة من الليل ، حتى لقد يطلع
الفجر قبل أن يفرغ أصحابنا من المقامرة ، وكثيراً ما لا ينقطعون عن اللعب
الا قبل فتح أبواب التكنة بدقائق معدودات . وكان فى تكنتنا - كما كان
فى سائر التكنات - شحاذون فقدوا كل ما يملكون فى القمار أو فى
الشراب ؛ أو قل كان هنالك شحاذون « فطروا » على الشحاذة . أقول
« فطروا » ، وأعنى ذلك . ذلك أنه يوجد بين أبناء شعبنا وسيظل يوجد
بينهم مهما تكن الظروف عدد من تلك الشخصيات العجيبة المسألة التى قد
لا تكون كسولة فى كثير من الأحيان ، ولكن القدر فرض عليها أن يكون
مصريها مصير الشحاذين دائماً . ان هؤلاء الشحاذين أناس شاذون يظنون
طوال حياتهم متبلدين مأخوذین مرهقين ، يخضعون لسلطان أحد من
الناس ، ويقعون تحت وصاية أحد من الناس ، ولا سيما المتلافين الذين

وصلوا الى شيء من الاغتاء • ان كل جهد هو عبء على هؤلاء الشحاذين ،
وان كل مبادرة حمل تنوء به أكتافهم • انهم لا يحيون الا شريطة أن
لا يبادروا الى القيام بعمل من الأعمال من تلقاء أنفسهم ، ولكنهم يخدمون
دائماً ، ويعيشون دائماً في ظل ارادة شخص • لقد يُسَرَّوا لأن يعملوا
بغيرهم ولنغيرهم • وما من ظرف من الظروف يمكن أن يغيثهم ، حتى ولو
كان ظرفاً طارئاً ليس في الحساب • فهم يظنون شحاذين ••• لقد
التقت بأناس من هذا النوع في جميع طبقات المجتمع ، وفي جميع الفئات ،
وفي جميع الهيئات ، وحتى في عالم الأدب • وأنت تجدهم في كل سجن ،
في كل مكان •••

فمتى تشكلت حلقة القمار نودى أحد هؤلاء الشحاذين الذين لاغنى
عنهم للمقامرين ؟ انه يتلقى خمسة كوبيكات فضة عن عمل ليلة بكاملها •••
وياله من عمل ! ••• ان عمله هو أن يحرس الدهليز في جو بارد تبلغ
درجة برودته ٣٠ ريثامور ، وفي ظلام دامس خلال ست ساعات أو سبع .
فاذا سمع هذا المتربص أيسر ضجة أو أقل صوت ، لأن الضابط الميجر أو
ضابط الحرس يقومون بجولاتهم التفتيشية في ساعة متأخرة من الليل
أحياناً ، بخطوات كخطوات اللصوص ، فيداهمون اللاعبين والعاملين ،
وينقضون عليهم متلبسين بالجرم المشهود ، وذلك بفضل رؤيتهم ضوء
الشموع الذي تمكن رؤيته من الفناء ، أسرع ينه المقامرين ، ذلك أنه
حين يُسمع صرير المفتاح في قفل الباب ، لا يتسع الوقت للاختباء واطفاء
الشموع والاستلقاء على المضاجع • وتلك مداهمات نادرة جداً على كل
حال • والأجر الذي يتقاضاه الشحاذ خمس كوبيكات ، أجر " تافه حتى
في سجننا ••• ومع ذلك ترى المقامرين يشددون مع من يعينونه لهذا
النوع من الحراسة ، ويقسون في معاملته أشد القسوة ، وذلك أمر
أدهشني ، كما أدهشتني أمور أخرى كثيرة على كل حال •• انهم يقولون

له : « لقد نقدناك أجرك ، فمليك أن تخدمنا ! » • وتلك حجة لا تحتمل جواباً ولا رداً • • يكفي أن تنقد أحد الناس بضعة دريهمات حتى تستفيد منه وتستغله الى أقصى درجة من درجات الاستفادة والاستغلال ؛ بل يكفي أن تنقده هذه الدريهمات القليلة حتى يكون من حقك عليه أن يعرب لك عن مشاعر الشكر والامتنان • حتى لقد رأيت بعض السجناء ينفقون بلا حساب ، ويددون المال يميناً ويسرة ، ثم هم يفسنون الشخص الذي « يخدمهم » • رأيت ذلك بعيني غير مرة في أكثر من سجن •

سبق أن قلت ان جميع الناس يأخذون يعملون ، باستثناء الذين يتحلقون للمقامة • وكان هنالك خمسة سجناء لا يعملون شيئاً ، فما تكاد أبواب السجن تغلق حتى يرقدوا على الفور • وكان مكاني على ألواح الخشب قريباً من الباب ، وبعده يأتي مكان آكيم آكيتش • • • • • فإذا رقدنا تلامس رؤسنا • ظل آكيم يعمل حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الصاق مصباح صيني متعدد الألوان كان قد عهد اليه بصنعه أحد سكان المدينة ، وكان سيتقاضى ثمنه مبلغاً كبيراً • ان آكيم بارع براعة فذة في هذا العمل ، فهو يتبع في عمله نظاماً دقيقاً وطريقة ممتازة بلا كسل ولا تراخ ولا اهمال • فلما فرغ منه جمع أوراقه بعناية ، وبسط فراشه ، وقرأ صلاته ، ونام نوماً عميقاً • ان آكيم يبالغ في التقيد بأدق تفاصيل النظام تقيداً يبلغ حد الحذقة • • • • • ولا شك أنه كان في قرارة نفسه يعد نفسه انساناً ذكياً ، كسائر ذوى العقول المتوسطة المحدودة • انه لم يعجبني في أول الأمر ، رغم أنه حملني على أن أفكر كثيراً في ذلك اليوم • لقد أدهشني أن يوجد رجل كهذا الرجل في سجن الأشغال الشاقة ، بدلاً من أن يكون خارج السجن متفوقاً في صناعة من الصناعات • وسأحدث عن آكيم آكيتش غير مرة ، فيما سيلي من هذه القصة • ولكن يجب عليّ أن أصف أشخاصاً نكثنا • لقد كتب عليّ أن

أعيش في هذه الثكنة عدداً من السنين ، فهؤلاء الذين يحيطون بي لا بد أن يكونوا رفاق كل دقيقة من دقائق حياتي . وطبعى أننى كنت أنظر اليهم بكثير من حب الاطلاع ! كانت تبيت على يمينى عصابة من سكان جبال الففاس ، قد نفى جميع أفرادها تقريباً لأنهم كانوا من قطاع الطرق ، وحكم عليهم بعقوبات متفاوتة : كان منهم اثنان من أهل لزخين ، وشركسى واحد ، وثلاثة من تتر داغستان . أما الشركسى فهو رجل عابس الوجه مقطب الأسارير لا يكاد يتكلم أبداً ، وهو يختلس اليك النظر اختلاساً ويتشم ابتسامة وحش مفترس . وأما اللزخينان فأحدهما شيخ مستقيم الأنف طويل القامة نحيل الجسم ، تدرك من أول وهلة أنه من قطاع الطرق ؛ ولا كذلك الثانى ، واسمه نورا ، فقد شعرت نحوه شعوراً طيباً ، وأحسست بارتياح اليه . انه مربوع القد ، ما يزال شاباً ، قوى البنية ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، معقوف الأنف قليلاً ، تشبه قسماته أن تكون قسمات فنلندى وكانت ساقاه مقوّستين كجميع من عاشوا على ظهور الخيل . وكان جسمه ممتلئاً بالنُدوب ، محروثاً بضربات الحراب أو طلقات الرصاص . لقد انضم هذا الرجل الى العصاة رغم أنه من رجال الجبال الخاضعين ، وقام مع هؤلاء العصاة بعدد من الغارات المتصلة على أراضينا . كان جميع من فى السجن يحبه بسبب مرح طبعه وبشاشته وجهه . وكان يعمل بغير دمدمة أو تذمر ، هادئاً مسالمًا بغير انقطاع . وكان يشمئز من السرقة والفسق والاحتيال والسكر ، بل كان يفضب من هذه الأعمال غضباً شديداً ، ولا يطيق أن يحتمل أى أمر معيب مشين منافٍ للشرف والكرامة . ولكنه لا يحاول أن يشاجر أحداً ، بل يكتفى باشاحة وجهه مستكراً مستاءً . لم يقترب خلال اقامته سرقة ولا أتى أى عمل يمكن أن يؤخذ عليه . وكان شديد التقوى كثير العبادة ، فهو يؤدى صلاته كل مساءً ، ويصوم شهر رمضان ، ويتمسك بدينه الاسلامى ، وكثيراً

ما كان يقضى الليل كله متهجداً • كان جميع من فى السجن يحبونه •
ويرون أنه انسان شريف حقاً • • • كان السجناء يلقبونه «نورا الأسد» ،
وقد بقى له هذا اللقب • وكان مقتنعا اقتناعا قويا بأنه سيرسل الى القفاس
متى أنهى مدة سجنه • فكان فى الواقع لا يعيش الا على هذا الأمل ، ويتقنى
أنه لو حرم من هذا الأمل لمات • لقد لاحظته يوم وصولى الى السجن •
وكيف كان يمكن أن لا أميز هذا الوجه الهادئ النبل الشريف وسط
تلك الوجوه القاتمة الكئيبة العابسة المنفرة ! لقد مرّ الى جانبى فى نصف
الساعة الأول ، فربت على كتفى برفق ولطف وهو يتبسم الى ابتسامة عذبة
طيبة • فلم أفهم فى أول الأمر ما كان يريد أن يقوله لى ، لأنه كان
لا يحسن الكلام بالروسية • ولكنه لم يلبث أن عاد يمر قربى من جديد ،
ويربت على كتفى مرة أخرى وهو يتبسم ابتسامة المودة والصدقة تلك •
وظل يكرر هذه الحركة ثلاثة أيام • لقد كان يريد أن يشير ، كما أدركت
ذلك فيما بعد ، الى أنه يشفق علىّ ويرئى لحالى ، ويدرك مدى ما أعانيه
من آلام فى هذه اللحظات الأولى من اقامتى بالسجن: كان يريد أن يبرهن
لى على مودته وصداقته ، وأن يقوى عزيمتى ويشد أزرعى ويؤكد حمايته
ورعايته لى • ما كان أطيب نورا ، وما كان أعظم سداجته !

وأما تتر داغستان الثلاثة ، فقد كانوا اخوة ، الكيران منهم كهلان ،
والثالث شاب اسمه على ، لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، بل ان
المرء حين يراه يقدّر أن عمره أقل من ذلك • كان يبيت الى جانبى • وقد
اجتذبنى وجهه الذكى الصريح الطيب الساذج منذ البداية • وشكرت
للقدر أنه وهب لى هذا الجار بدلا من أن يرمى الى جانب سجين آخر
ان نفسه كلها تُقرأ على صفحة وجهه المفتوح • ان فى ابتسامته الوداعة
الهادئة المطمئنة بساطة كبساطة الأطفال • وان فى عينيه الواسعتين السوداوين
من الرقة والعذوبة والحنان ما كان يجعلنى أشعر بلذة كبيرة حين أراه ،

فكان ذلك يخفف عني ويسرّني عني في لحظات الحزن والهم والقلق والغم • لقد أمره أخوه الأكبر (وله خمسة اخوة كان اثنان منهما في مناجم سيبيريا) أمره في ذات يوم أن يحمل سيفه وأن يستطي جواده وأن يتبعه • ان احترام الجليلين لاختوتهم الكبار يبلغ من القوة أن الفتى علياً لم يجرؤ أن يسأل أخاه عن الدافع الى هذه الرحلة ، ولعله لم تدر في خلده أية فكرة عنها ؛ لا ولا رأى اخوته أن من الضروري أن يطلعوه على شيء • هكذا مضى الاخوة الثلاثة يقطعون الطريق على قافلة تاجر أرمني ترى استطاعوا أن يضلّوه ، فقتلوا التاجر ونهبوا بضاعته • وشاء سوء حظهم أن تكتشف فعلتهم وأن يفضح أمرهم ، فاعتقل الاخوة الستة ، وحكم عليهم ، وجلّدوا ، ثم أرسلوا الى سجون الأشغال الشاقة في سيبيريا • ولم تعتمد المحكمة الى تخفيف الحكم الا عن الفتى علي ، فحكم بالسجن مدة هي أقصر مدة : أربع سنين سجنًا • وكان أخواه يحبانه كثيراً ، حتى يمكن أن يوصف حبهما له بأنه حب أبوي أكثر مما هو حب أخوي • وكان عزاءهم الوحيد في المنفى • فكأننا يشتمان له دائماً ، رغم أنهما في العادة عابسان مقطبان حزينان • فإذا تحدّثا اليه - وكان لا يحدث ذلك الا نادراً لأنهما يعدانه طفلاً لا يمكن أن يفضيا اليه بشيء ذي بال - كان وجههما العابسان المكفهران يضيئان ، وأدركت أنهما لا يكلمانه الا كما يكلم طفل صغير ؛ حتى اذا أجابهما تبادلا نظرات سريعة وابسما ابتسامة طيبة • وما كان له أن يتوجه اليهما بكلام من فرط ما يكن لهما من احترام • ولعمري لست أدري كيف استطاع هذا الفتى أن يحتفظ بقلبه الحنون الرقيق ، وبشرفه الفطري البريء ، وبمودته الصريحة السخية ، دون أن تفسد أخلاقه طوال هذه المدة التي قضاها في سجن الأشغال الشاقة ••• ان ذلك لأمر لا تفسير له ولا تعليل ••• ورغم كل ما كان يتصف به من رقة وعذوبة ولين ، فقد كان قوى الارادة شديد

البأس فى تحمل المكاره ، كما استطعت أن أتحقق من ذلك فيما بعد •
 وكان على عفة وخفر كالعدارى ، وكان كل فعل سيء او مستهتر أو معيب
 أو ظالم يلهب عينيه السوداوين استياءً واستككاراً ، فيزيدهما ذلك جمالاً •
 وعلى أنه ليس من أولئك الذين يتهاونون فى حق كرامتهم أو يسمحون
 لأحد أن يهينهم أو يسيء اليهم ، فقد كان يتحاشى التشاجر ويتجنب
 الشتم • ويعف عن السب واللعن ، ويحافظ على وقاره ومهابته وكرامته •
 ولت شعري مع من كان يمكن أن يشتجر ؟ لقد كان الجميع يحبونه
 ويلطفونه ويدارونه ••• ولم يكن فى أول الأمر معى الا مهذباً مؤدباً
 لطيفاً ، ولكننا وصلنا من ذلك الى أن أخذنا تتجاذب أطراف الحديث فى
 المساء • لقد استطاع خلال بضعة أشهر أن يحسن الكلام باللغة الروسية،
 على حين أن أخويه لم يتوصلا يوماً الى اجادة الكلام بهذه اللغة • لقد
 رأيت فيه فتى خارق الذكاء من جهة ، وجمّ التواضع مرهف الشعور
 عاقلاً حكيماً من جهة أخرى • لقد كان الشاب على انساناً نادر المشال •
 وما زلت أعد لقائى به حظاً من أجمل حظوظ حياتى • ان هناك أناساً
 يبلغون من جمال الطباع من تلقاء أنفسهم ، ويبلغ ماوهب لهم الله من مزايا
 عظيمة أن المرء لا يتصور أن يفسدوا فى يوم من الأيام ••• فهو مطمئن
 عليهم كل الاطمئنان واثق منهم كل الثقة ، لذلك لم أكن أخشى على الفتى
 على من شيء ••• ترى أين هو الآن ؟

فى ذات يوم ، بعد وصولى الى السجن بمدة طويلة ، كنت مستلقياً
 على مضجعى وكانت تهزنى وتبث الاضطراب فى نفسى خواطر شاقة
 أليمة • وكان على الذى لا يكف عن العمل والنشاط ، لا يعمل فى تلك
 اللحظة ، ولم يكن أوان النوم قد آن • كان الاخوة الثلاثة يحتفلون بعيد
 اسلامى ، فهم لذلك لا يعملون • ان علياً راقد الآن ، مسك رأسه يديه ،
 مسترسل فى أحلامه • وما هوذا يسألنى فجأة :

– هه ! يبدو عليك أنك حزين جداً الآن ؟

نظرت اليه متعجباً • لقد بدا لى هذا السؤال من على غريباً • ذلك أن علياً لبقٌ دائماً ، يتحاشى أن يخرج أحداً ، ولكننى انعمت النظر اليه فلاحظت فى وجهه حزناً شديداً وعذاباً عميقاً • لا شك أن هذا الألم انما أيقظته فى نفسه الذكريات التى كانت تطوف بخياله • وأدركت أنه كان هو نفسه فى تلك اللحظة يعانى كرباً شديداً وكمداً عظيماً • ذكرت له ذلك فتنهد تنهداً عميقاً وابتسم ابتسامة كئيبة • كنت أحب دائماً ابتسامته اللطيفة الودود : كان اذا ابتسم يفتر ثغره عن صفين من الاسنان يمكن أن يحسده عليهما أجمل مخلوق فى العالم •

قلت له :

– لملك كنت تتذكر يا على كيف يحتفلون بهذا العيد فى داغستان !

لا شك أن الاحتفال بالعيد رائع هناك ...

قال على متحمساً وقد سطعت عيناه :

– نعم هو كذلك ولكن كيف عرفت اننى كنت أحلم بهذا ؟

– كيف لا أدرك ذلك يا على ؟ أليس العيد هناك أجمل منه هنا ؟

– أوه ! لماذا تقول لى هذا الكلام ؟

– لا شك أن فى بلادكم أزهاراً جميلة ، أليس كذلك يا على ؟ ان

بلادكم جنة !

– اسكت اسكت أرجوك •

كان واضحاً أنه انفعل انفعالاً شديداً •

قلت له :

– اسمع يا على ، هل لك أخت ؟

– نعم ولكن لماذا تسألنى هذا السؤال ؟

- لا بد أنها بارعة الجمال اذا كانت تشبهك !

- لا مجال للمقارنة بينى وبينها • ليس فى داغستان كلها فتاة جميلة كجمالها • ما أجمل أختى ! أنا واثق أنك لم تر فتاة فى مثل حسننها • ولقد كانت أمى جميلة جداً كذلك •

- هل كانت أمك تحبك ؟

- ما هذا السؤال ؟ لعلها قد ماتت حزناً وكرهاً وكمداً • لقد كانت تحببى كثيراً • كنت أنا الأثير على نفسها • نعم ••• كانت تحببى أكثر من من أختى ، وأكثر من سائر اخوتى ••• لقد جاءت الىّ فى الحلم هذه الليلة وذرفت على رأسى دموعاً سخية •

قال علىّ " ذلك وصمت ثم لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة ، لكنه أصبح منذ تلك اللحظة يسمى الى مصاحبى ويحرص على التحدث معى رغم أنه لم يسمح لنفسه يوماً أن يكون هو البادىء فى الكلام ، وذلك من باب الأدب والاحترام فما كان أسعده حين أتحدث معه ! كان يتكلم كثيراً عن القفاس ، وعن حياته الماضية ، وكان أخواه لا يمنعانهم من الكلام معى بل أظن أن ذلك كان سرهما فحين رأيا أننى أعطف على أخيه أصبحا أكثر تودداً الىّ وتقرباً منى •

وكثيراً ما كان علىّ " يساعدنى فى الأعمال • وكان فى الثكنة يفعل كل ما يظن أنه يسرنى ويخفف عنى ويحمل بعض العزاء الى قلبى ، ولم يكن فى عنايته بى والتفاتة الىّ لا شئ من عبودية ولا أمل فى منفعة ، بل عاطفة حارة ودود لا يخفيها قط • وكان علىّ " يملك استعداداً خارقاً لتعلم الفنون الميكانيكية : لقد تعلم الخياطة وتعلم ترقيع الأحذية ، حتى لقد أُلِّمَ بفن التجارة بعض الامام ••• ذلك ما كان يمكن تعلمه فى السجن ••• وكان أخواه يعتران به •

قلت له ذات يوم :

— اسمع يا على : لماذا لا تتعلم القراءة والكتابة باللغة الروسية ؟ ان ذلك قد يفيدك كثيراً فى سبيلك فى المستقبل •

— أتمنى ! ولكن من ذا الذى يعلمنى !

— ان من يعرفون القراءة والكتابة كثرة هنا • واذا شئت علمتك أنا •

— أوه علمنى القراءة أرجوك •

بهذا هتف على وهو ينهض ويضم يديه احديهما الى الآخر وينظر الى نظرة توسل وتضرع •

وشرعنا نعمل فى مساء الغد • كان عندى ترجمة روسية للانجيل ، وهو الكتاب الوحيد الذى لم يكن محرماً فى السجن • فبواسطة هذا الكتاب وحده وبدون تعلم الألفباء أتقن على القراءة فى غضون أسابيع وما انقضت ثلاثة أشهر حتى كان يفهم لغة الكتابة فهماً كاملاً لأنه كان يكب على الدراسة بحماسة قوية ونشاط متأجج •

وفى ذات يوم قرأنا معاً موعظة الجبل كاملة ، فلاحظت أنه كان يقرأ بعض الآيات بنبرة نافذة ولهجة مؤثرة ، فسألته هل أعجبه ما قرأ فرمقنى بنظرة ناقبة واشتعل وجهه بحمرة مفاجئة • قال :

— نعم ان عيسى نبي ينطق بلسان الله • ما أجمل هذا الكلام !

— ولكن قل لى : ما الذى أعجبك أكثر من غيره ؟

— الآية التى تقول : « اغفروا لأعدائكم ! أحبوا أعداءكم ! لا تسيئوا الى أحد قط » • آه ما أجمل كلامه !

والتفت على " الى أخويه اللدين كانا يصنيان الى حديثنا وقال لهما
بضع كلمات فى حرارة وحماسه ، وتحدث الاخوة الثلاثة طويلا فى جد
واهتمام ، فكان أخواه يؤيدان كلامه بهز الراس فى بعض الاحيان ، ثم
أكدوا لى وهما يتسلمان ابتسامة مهية لطيفة ، ابتسامه مسلمة (ما أكرر
ما أحب مهابة هذه الابتسامة) أكدوا لى ان عيسى نبي عظيم وذكرنا انه حقق
معجزات كبرى منها أنه خلق طائراً من طين ثم نفخ فى الطائر روحاً فطار
الطائر • كانا مقتنعين بأنهما يحدثان لى سرورا عظيماً حين يمدحان عيسى .
أما على فقد أسمعده كثيرا ان يرى اخويه يؤيدان كلامى ويهبان لى ما كان
يعده رضىً وارتياحاً فى نفسى •

ان النجاح الذى أصبته مع تلميذى فى تعليمه القراءة كان نجاحا
رائعاً حقاً • وقد اشترى على ورقا واقلاما وحبرا (اشترى ذلك من ماله
لأنه لم يشأ ان أنفق انا هذه النفقة) فما انقضى شهران الا وكان على قد
تعلم الكتابة • ودعش الأخوان أشد الدهشة من هذا التقدم السريع الذى
أحرزه على ، وشعرا بزهو ورضى وارتياح بغير حدود ، حتى أصبحا
لا يعرفان كيف يعربان لى عن عظيم شكرهما وعميق امتنانهما ، حتى اذا
كنا نعمل فى الورشة كانا يتنافسان فى مساعدتى ويشعران من ذلك بلذة
كبيرة ، ناهيك عن على الذى كان يكن لى عاطفة لا تقل عمقا عن عاطفته
نحو أخويه • لن أنسى ما حييت اليوم الذى أطلق فيه سراحه • لقد
قادنى يومئذ الى خارج الثكنة فارتمى على عنقى وأجهش باكيا • لم يكن
قد قبلنى قبل ذلك يوماً ولا بكى أمامى أبداً •
قال :

– لقد صنعت فى سبيل أشياء كثيرة ، أشياء كثيرة جداً ، فلا أبى ولا
أمى كانا خيراً منك فى معاملتى : لقد خلقت منى رجلاً ، فليبارك الله فيك ،
ولن أنساك مدى الحياة ، مدى الحياة •••

تُرى أين هو الآن ؟ أين هو صديقى الطيب العزيز على ؟

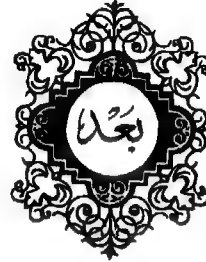
وكان فى نكتتنا ، عدا الشراكسة ، عددٌ من البولنديين يشكلون عصبة على حدة ، ولا يكاد يكون بينهم وبين سائر السجناء صلة . سبق أن قلت انهم بسبب تعصبهم وبسبب ما يضررونه من بغضٍ للسجناء الروس ، كانوا مكروهين منبوذين . انهم أناس ذوو طبائع مضطربة معذبة مريضة . وكان عددهم ستة ، اثنان منهم متعلمان سأتحدث عنهما تفصيلاً فيما سيلي من هذه القصة ، ومن هذين انما استعرت بضعة كتب فى الفترة الاخيرة من اقامتى بالسجن . لقد أحدث أول كتاب قرأته من هذه الكتب أثراً غريباً عميقاً فى نفسى وسأتحدث فيما بعد عن هذه الاحساسات التى أعدها عجيبة جداً ولكن القارئ سيجد شيئاً من العناء فى فهمها ، أنا من ذلك على يقين . لأن هناك أشياء لا يستطيع المرء ان يقضى فيها ما لم يكابدها بنفسه . وحسبى أن أقول ان الحرمان من متع الفكر اشق على النفس من أقصى الآلام الجسدية . ان من يرسل الى السجن من عامة الناس يجد نفسه فى مجتمعه ، بل لعله يجد نفسه فى مجتمع ارقى ، فلئن افتقد عندئذ الركن الذى ولد فيه ، والأسرة التى نشأ وترعرع بين أحضانها ، فان بيئته تظل هى نفسها . أما الرجل المثقف الذى حكم عليه القانون بالعقوبة نفسها التى يحكم بها على رجل من عامة الناس فانه يتألم ألماً لا يقاس به الألم الذى يعانيه ذلك الرجل . ان عليه أن يخفق جميع حاجاته وأن يقضى على جميع عاداته وأن يهبط الى مستوى أدنى لا يرضيه ، وأن يتعود استنشاق هواء آخر . انه أشبه بسمكة ألقيت على الرمل . فالعقوبة التى يتلقاها ، وهى تساوى بحكم القانون عقوبات جميع المجرمين ، نُحدث له فى كثير من الأحيان من الألم الممض والعباب الكاوى عشرة أضعاف ما يعانيه من ذلك ابن الشعب . تلك حقيقة لا جدال فيها ، ولو اقتصر الكلام على العادات المادية التى ينبغى له أن يضحى بها .

غير أن هؤلاء البولنديين كانوا يشكلون عصبه على حدة ، ويعيشون معاً ، ولا يحبون من بين جميع السجناء فى ثكنتنا الا سجيناً يهودياً ، وإذا كانوا يحبونه « فلأنه كان يسليهم ويضحكهم ويسرى عنهم . وكان هذا اليهودى محبوباً على وجه العموم رغم أن جميع السجناء يسخرون منه ويتحكمون عليه . ولم يكن بيننا يهودى غيره . وما زلت لا أستطيع حتى الآن أن أتذكره دون أن أضحك . كنت كلما نظرت اليه تذكرت اليهودى يانكل الذى وصفه جوجول فى قصته تاراس بولبا والذى متى خلع ملابسه ليضاجع يهوديته فيما يشبه الخزانة ، كان أقرب ما يكون الى فرخ دجاجة . حقاً ان بين أشعيا فومتش وبين فرخ الدجاجة المتوفى الريش من الشبه ما بين قطرتى ماء . انه متقدم فى السن قليلاً ، فهو فى نحو الخمسين من عمره قصير ضعيف ، ماكر على غباوة عظيمة ، متبجح على جبن شديد . كان وجهه مليئاً بالفوضون وكانت على جبينه وخديه ندبات الحرق التى نشأت عن وشمه . لم أستطع فى يومٍ من الأيام أن أفهم كيف أمكن أن يحتمل هذا الرجل ستين جلدة بالسوط بعد الحكم عليه بتهمة ارتكابه جريمة القتل . كان يحمل فى جيبه وصفة طبية وصفها له يهود آخرون بعد تنفيذ الوشم رأساً . وكان المفروض فى المرهم الذى تضمه هذه الوصفة أن يزيل الندبات فى أقل من أسبوعين ولكن اشعيا فومتش لم يجرؤ أن يستعمل هذا المرهم ، فهو ينتظر انقضاء العشرين عاماً على سجنه حتى يستعمل مرهمه الشافى بعد أن يستوطن فى المنطقة . كان يقول لى : « لن أستطيع أن أتزوج (أتزوج) ما لم أستعمل هذا المرهم ، ولا بد لى أن أتزوج قطعاً » . كنا صديقين . ان مزاجه الرائق لا ينضب له معين ، وان الحياة فى السجن لا تبدو له شاقة كثيراً ، وكانت مهنته الصياغة فما أكثر الطلبات التى ترد اليه ، اذ لم يكن فى مدينتنا صائغ غيره . فبذلك كان ينجو من الأعمال الصعبة . وكما يليق بيهودى ، كان يقرض السجناء

بالربا فيجنى منهم فوائد طائلة ، وكان لا يقرضهم الا اذا اودعوه رهناً • وكانت مدة القرض أسبوعاً لا تزيد • وقد وصل الى السجن قبل فمّا كان أروع دخوله المظفر الذى رواه لى أحد البولنديين • تلك حكاية طويلة سأقصها فيما بعد لأن لى عودة الى اشعيا فومتش •

أما السجناء الآخرون فكان منهم أولاً أربعة من المنشقين ينتمون الى الملة التى ينتمى اليها العجوز القادم من ستارودوب ، ثم اثنان أو ثلاثة من روسيا الصغرى وهم أناس عابسو الوجه متجهمو المزاج ، ثم فتى مرهف الوجه دقيق الأنف فى الثالثة والعشرين من عمره كان قد ارتكب ثمانى جرائم قتل ، ثم عصابة من مزيفى النقود كان أحد أفرادها مهرج ثكنتاء وأخيراً بضعة سجناء مكتئبة نفوسهم حزينة قلوبهم محلوقة رؤوسهم مشوهة وجوههم صامتون حاسدون ينظرون نظرة شذراء الى كل من يحيطون بهم ، وقد ظلوا ينظرون هذه النظرة ويحسدون هذا الحسد ويقطبون هذا التقطيب خلال سنين طويلة • هذا كله انما لمحتّه لمحاً فى ذلك المساء الحزين الكئيب ، مساء وصولى الى سجن الأشغال الشاقة وسط دخان كثيف وهواء موبوء وشتائم بذيئة وسباب مقذع واهانات مسمومة وضحكات ساخرة يصحبها صليل الأغلال وصريف القيود • استلقيت على ألواح الخشب العارية مسنداً رأسى الى وسادة صنعتها من ردائى (لم أكن قد ملكت مخدة بعد) والتحفت معطفى • غير أننى بعد تلك المشاعر الأليمة فى ذلك النهار الأول لم أستطع أن أنام فوراً • ان حياتى الجديدة انما تبدأ الآن • وكان المستقبل يدخر لى أشياء كثيرة لم تكن فى حسابى ولا خطرت لى على بال •••

الشهد الأول



وصولى بثلاثة أيام تلقيت الأمر بالمضى الى العمل •
 ان الاحساس الذى بقى لى عن ذلك اليوم مايزال
 واضحاً جداً ، رغم أنه لا يشتمل على أى شىء
 خاص ، اذا نظرنا بعين الاعتبار الى أن وضعى كله
 غير عادى أصلاً • ولكنها الاحساسات الأولى : كنت فى تلك اللحظة
 أنظر الى كل شىء بكثير من حب الاطلاع وكثير من التعجب • لاشك أن
 تلك الأيام الثلاثة كانت أشق أيام سجنى • كنت أقول لنفسى : « انتهت
 أيام السفر • ها قد وصلت الى المعتقل الذى سأقيم فيه سنين طويلة • فى
 هذا الركن يجب أن أعيش • اننى أدخل الى هذا المكان منقبض الصدر
 ملتاع النفس مفعماً شكاً وحذراً • » « ومن يدري ؟ لعلى سأفارقه مومجاً
 القلب أسفاً عليه وحيناً اليه ، حين أفارقه • » • هذا ما كنت أضيفه ،
 تدفنى اليه تلك اللذة الخيثة التى تحض المرء على أن ينكأ جرحه ، كأنه
 يستطيع الآلام ويستعذب العذاب • ان المرء ليجد لذة حادة فى بعض
 الأحيان حين يشعر بضخامة الشقاء الذى يعاينه ، وفداحة النازلة التى أمت
 به ؟ فحين كنت أتصور أننى قد أبارح هذا المكان ، حين أبارحه ، أسفاً
 حزيناً على فراقه ، كان ذلك نفسه يرعبنى ويملؤنى خوفاً • وأوجست منذ

تلك اللحظة أن «الانسان حيوان يتعود»... وأن هذا التعريف يصدق على الانسان الى درجة لا يصدقها العقل... على أن ذلك كله هو من المستقبل ، أما الحاضر الذى يحيط بى فلقد كان رهيباً ، وكان يناصبنى العداء... أو هذا ما بدا لى على الأقل...

ان ما كان يرشقى به رفاقى السجناء من نظرات مستطلعة متوحشة ، وما كانوا يعاملون به هذا « النيل » السابق الذى يدخل الآن عضواً فى جماعتهم من معاملة قاسية تبلغ أحياناً حد البغض والكره ، ان هذا كله كان يعذبنى تعذيباً شديداً ، حتى صرت أتمنى أنا نفسى أن أمضى الى العمل ، بغية أن أعرف مدى شقائى دفعة واحدة ، وأن أعيش كما يعيش الآخرون ، وأن أسقط فى الهاوية معهم بأقصى سرعة . كانت نفوتنى أمور كثيرة ، وتستغصى على فهمى وقائع شتى: كنت لا أستطيع مثلاً أن أميز بين العداوة الشاملة التى يظهرونها لى ، وبين المودة والعاطفة التى يبدونها نحوى . على أن ما أحاطنى به بعض السجناء من تودد وبشاشة قد شد أزرى وبث الشجاعة فى نفسى وأنعش قلبى . كان أكثر هؤلاء تقريباً منى وتودداً الىّ وعطفاً على هو أكيم آكىمتش . وسرعان ما لاحظت أيضاً بضعة وجوه أخرى طيبة كريمة لطيفة محبة فى ذلك الجمهور الكئيب المبعوض من السجناء الآخرين . أسرعرت أقول لنفسى متأسياً : « ان فى كل مكان أشراً ، ولكن الأشرار أنفسهم يشتملون على خير ! ومن يدرى ، فقد لا يكون هؤلاء الناس شراً من الآخرين الذين هم طلقاء أحرار . » قلت ذلك لنفسى وأنا أهرأ رأسى متحيراً ! ... ولم أكن أدرى الى أية درجة كنت على حق ! ...

انظروا الى السجنين سوشيلوف مثلاً : اننى رجل لم أعرفه حق معرفته الا بعد مدة طويلة ، رغم أنه يتجاوزنى طوال الوقت تقريباً . اننى متى تكلمت عن الذين ليسوا شراً من الآخرين ، ينصرف ذهنى اليه على

غير ارادة منى • كان سوشيلوف يخدمنى ، كما يخدمنى سجين آخر اسمه أوزيب زكّاه لى آكيم اكمتش منذ دخولى السجن ، وتمهد ، لقاء كوبك فى الشهر ، بأن يطبخ لى غداءً خاصاً حين لا يرضينى الغداء الذى يقدمه السجن للسجناء عادة ، أو حين أكون قادراً على أن أأطعم بمالى • كان أوزيب واحداً من الطباخين الاربعة الذين يختارهم السجناء بأنفسهم فى المطبخين • يجب أن أذكر هنا مستطرداً أن الطباخين يمكن أن يقبلوا هذه الوظيفة أو أن يرفضوها ، كما يمكن أن يتركوها متى حلا لهم أن يتركوها • كان الطباخون لا يذهبون الى العمل ، فمهمتهم تقتصر على خبز الخبز واعداد الحساء • وكان السجناء يطلقون عليهم لقب الطباخات ، لا احتقاراً لهم أو استخفافاً بهم ، فان أذكى السجناء واشرفهم هم الذين كانوا يختارون لهذه المهمة ، وانما كان يطلق عليهم هذا اللقب من قيل المزاح والدعابة • ولم يكن يُغضبهم هذا اللقب أبداً • ولقد ظل أوزيب يُنتخب «طباخة» عدة سنين ؛ فكان لا يترك هذه الوظيفة الا حين يلزم به ضجر شديد ويستولى عليه سأم كبير ، أو حين يجد سيلاً الى القيام بعمل تهريب الخمرة الى الثكنة • وهو ، رغم أنه أرسل الى سجن الأشغال الشاقة بسبب التهريب ، فقد كان على جانب عظيم نادر المثال من العفة والاستقامة والشرف وكان الى ذلك جباناً جباناً رهيباً ، فهو يخشى جلد السياط فى كل ما يقبل عليه من أمر وما يهم به من عمل • وكان هادىء الطبع مسالماً لطيفاً فى معاملة جميع الناس ، لا يتشاجر مع أحد يوماً ولكنه ما كان يستطيع بحال من الأحوال أن يقاوم الاغراء الذى يدفعه الى القيام بأعمال تهريب الخمر ، رغم كل ما يتصف به من جبن ، لأنه يعيشق التهريب عشقاً كبيراً • فكان يتعاطى تجارة الخمر كسائر الطباخين • • • ولكن تجارته كانت أضيق كثيراً من تجارة جازين ، لأنه لا يجرو أن

يجازف مراراً وكثيراً كما يجازف جازين • لقد كنت دائماً على صلة طيبة بأوزيب •

ليس يحتاج المرء الى أن يكون غنياً جداً حتى يعد لنفسه طعاماً خاصاً : لقد كنت أنفق على طعامي روبلاً واحداً في الشهر على وجه التقريب ؛ ذلك طبعاً عدا الخبز الذي كان السجن يزودنا به ؛ وكنت في بعض الاحيان اكل حساء الملفوف الذي يقدم للسجناء ، وذلك حين يستبد بي جوع شديد ، رغم الاشمتزاز الشديد الذي كان هذا الحساء يوقظه في نفسي • على أن هذا الاشمتزاز قد زال زوالاً تاماً بعد ذلك • كنت أشتري في العادة رطلاً من اللحم في اليوم ، فيكلفني ذلك كوبكين • ان الجنود المشوّهين الذين كانوا يراقبون داخل الثكنات يقبلون طائعين مختارين أن يذهبوا الى السوق كل يوم يشترون للسجناء ما هم في حاجة اليه • وكانوا لا يتقاضون على ذلك أى أجر ، اللهم الا أن ينفضهم أحد مكافأة يسيرة زهيدة من حين الى حين ••• كانوا يفعلون ذلك ضماناً لراحتهم نفسها وهدوئهم نفسه ، فلو رفضوا أن يقوموا بهذه المهمة لأصبحت حياتهم في السجن عذاباً متصلاً وجحيماً لا يُطاق • كانوا يشترون للسجناء تبغاً وشاياً ولحماً ، أى كل ما يريده السجناء عدا الخمرة ، ولم يكن أحد يطلب منهم ذلك على كل حال •••

ظل أوزيب عدة سنين يهيم لي شريحة من اللحم المقلى كل يوم بدون تغيير ••• أما كيف كان يستطيع طهيها فذلك سره • وأغرب ما في الأمر أنني لم أبادله كلمتين طوال تلك المدة : لقد حاولت أن أتكلم معه غير مرة • ولكنه كان عاجزاً عن عقد أى حديث مع أى انسان • فكان يكتفي بالابتسام ، وكان يقتصر من الجواب على « نعم » أو « لا » في كل ما يلقي عليه من أسئلة • لقد كان شخصاً عجيباً هذا الرجل الذي يملك جسماً كجسم هرقل ، وعقلاً كعقل طفل في السابعة من عمره •

وكان سوشيلوف أيضاً فى عداد من يساعدونى • لم أندبه لذلك ، ولا بحث عنه ، وانما ارتبط بشخصى من تلقاء نفسه لا ادرى متى • وكان العمل الاساسى الذى يقوم به من اجلى هو غسل ملابسى وتنظيفها • كان يوجد لهذا الغرض حوض فى وسط الفناء يجتمع السجناء حوله فيفسلون ملابسهم فى اجران تملكها الدولة • وقد استطاع سوشيلوف ان يقدم لى طائفة من الخدمات الصغيرة : كان يغلى الماء فى غلايه الشاى التى املكها ، ويركض ذات اليمين وذات الشمال ينفذ شتى المهمات التى أعهد اليه بها ، ويهيم لى كل ما أنا فى حاجة اليه ، فيرقع صدرتى متى احتاجت الى ترفيع ويدهن حذاءى بالشمع اربع مرات فى الشهر • كان ينهض بهذه الاعباء كلها فى همة ونشاط وحماسه وانهماك شاعرا بما يقع على عاتقه من واجبات • الخلاصة أنه ربط مصيره بمصيرى ، فكان يتدخل فى كل شأن من شئونى ، ويهتم بكل امر من امورى • ما كان يخطر بباله مثلاً أن يقول لى : « عندك هذا العدد من القمصان ... سترتك ممزقة » ، وانما كان يقول « عندنا هذا العدد من القمصان ... سترتنا ممزقة ... » • لم يكن يرى شيئاً جميلاً غيرى ، بل أعتقد أننى أصبحت الغاية الوحيدة لحياته كلها • ولما كان لا يجيد أية مهنة ، فانه كان لا يتلقى أى مال غير ما أعطيه أنا ، وهو نزر يسير طبعاً ... ومع ذلك كان دائم الرضى مهما يكن المبلغ الذى أعطيه اياه • ما كان لهذا الرجل أن يطبق الحياة دون أن يخدم أحداً من الناس ، ولعله آثرنى على غيرى لأننى كنت أكثر لطفاً فى معاملته ، وأكثر عدلاً وانصافاً فى مكافأته • انه واحد من أولئك الناس الذين لا يمكن أن يقتتوا يوماً ، ولا يمكن أن يحسنوا تدبير أمورهم ؛ ولقد كان أحد أولئك الذين يستأجرهم المقامرون ليسهرؤا طول الليل فى الدهليز ، ينصتون الى أية نائمة يمكن أن تدل على وصول الضابط الميجر ؛ وكانوا يتقاضون خمسة كوبكات أجراً على سهرهم ليلة بكاملها • أما اذا

جری تفتیش فی اللیل ، فانهم لا يتقاضون أى أجر • وكانت ظهورهم
هى التى تتحمل جزاء غفلتهم وسهولهم وقلة انتباههم • ان الشيء الذى
يمیز هذا النوع من الناس هو انه لا شخصیه لهم البتة ، فى اى مكان
وفى أى زمان ، فهم دائماً فى المحل الثانى أو المحل الثالث • وذلك فطرة
فيهم • ان سوشيلوف انسان وديع مسكين اذا نظرت اليه رأيته مذعوراً
كان أحداً قد ضربه منذ لحظة ... هكذا خلق • ومع هذا ما كان
ليخطر ببال احد فى ثكتنا أن يمد اليه يديه بلطمه ... كنت أشفق عليه
دائماً ، لا أدري لماذا ... كنت لا استطيع ان انظر اليه دون أن أشعر
نحوه بشفقة عميقة • لماذا كنت أحمل له هذه الشفقة؟ ذلكم سؤال لا أدري
بم أجيب عليه • وكنت لا أكلمه ، لأنه لا يحسن الكلام ... وما كان
أشد ارتياحه واتعاشه حين أعهد اليه بعمل من الأعمال، أو أكلفه بالرخص
الى أمرٍ من الأمور ! ... كل ذلك فى سبيل أن يتحرر من الحديث •
وأصبحت على يقين من أنه يسرُّ أكبر السرور متى أصدرت اليه أمراً من
الأوامر ... انه ليس بالطويل ولا بالقصير ؛ ليس بالديم ولا بالجليل ،
ليس بالغبي ولا بالذكي ؛ ليس بالمجوز ولا بالشاب ... ان من الصعب
على المرء أن يصف هذا الانسان بأية صفة محدّدة معينة • وكان وجهه
منطى قليلاً بشور الجدرى ... وكان أشقر الشعر ... صفة واحدة
كانت تبدو لى بارزة فيه هى أنه اذا صدق ظنى ينتمى الى الفئة التى ينتمى
اليها سيروتيكين ... انه ينتمى الى هذه الفئة من ناحية أنه مشدوه مدهول
لا يشعر بالمسئولية • كان السجناء يسخرون منه ويتهمون عليه فى بعض
الأحيان ، لأنه أجرى مقايضةً فى طريقه الى سبيرا ، ولأن هذه المقايضة
كانت على قميص أحمر وروبل فضة • كانوا يضحكون من هذا المبلغ
الزهيد الذى باع به نفسه • والمقايضة تعنى أن يجرى تبادل فى الاسم بين
معتقلين اثنين ، أى أن يتحمل كل منهما عقوبة الآخر • قد يبدو لكم هذا

الأمر غريباً كل الغرابة ، ولكنه واقع لا مجال للشك فيه • كانت هذه العادات التي رسختها التقاليد ما تزال قائمة بين المعتقلين الذين صحبوني الى منفأى فى سيرييا • لقد رفضت أن أصدق وجود امر كهذا الأمر فى البداية ، ولكنه ثبت لى بعد ذلك فأيقنت منه •

واليكم الطريقة التى تتم بها هذه المقايضة : قافلة من المحكوم عليهم تسير فى طريقها الى سيرييا • ان بين أفراد القافلة سجناء من كل فئة : فبعضهم محكوم بالأشغال الشاقة فى السجن ، وبعضهم محكوم بالعمل فى المناجم ، وبعضهم محكوم بالاحتجاز فى معسكر لا أكثر ••• وفى أثناء الطريق ، فى مكان ما ، فى مقاطعة برم مثلاً ، يعرب أحد المعتقلين عن رغبته فى المقايضة على الحكم الصادر فى حقه • هذا رجل اسمه ميخائيلوف مثلاً محكوم بالأشغال الشاقة لجريمة كبرى • انه لا يطيق أن يتصور أن يبقى محروماً من الحرية سنين طويلة • ولما كان ماكرأ واسع الحيلة ، فانه يعرف ماذا يجب عليه أن يعمل • فهذا هو يبحث فى القافلة عن رفيق بسيط ساذج غر طيب ، هادىء الطبع ••• محكوم بعقوبة أقل من عقوبته ••• محكوم مثلاً بالعمل فى المناجم أو بالأشغال الشاقة بضع سنين ، أو محكوم بالنفى وحده • وهذا هو يعثر على واحد اسمه سوشيلوف هو قن قديم لا يتعدى الحكم عليه احتجازه فى معسكر ••• لقد سار سوشيلوف على قدميه حتى الآن ألفاً وخمسمائة فرسخاً دون أن يكون فى جيئه كوبك واحد ، لسب بسيط هو أن رجلاً مثل سوشيلوف لا يمكن أن يكون له أى مال • انه الآن متعب مكدود مرهق مهدم القوى لأنه لا يملك من الطعام غير ما تقدمه الحكومة الى أفراد القافلة ولا يملك من الكساء غير الرداء الموحد الذى يرتديه السجناء • انه عاجز حتى عن الحصول على لقمة طيبة من حين الى حين ••• وهو يخدم جميع السجناء لقاء دريهمات قليلة بخسة ••• وهذا ميخائيلوف يبدأ معه حديثاً • وها هى أوامر

الصدقة تنعقد بين الرجلين •• نم تأتي مرحلة أخرى •• ان ميخائيلوف يسكر الآن صديقه • ثم يسأله هل يريد أن يقايض ؟ ••• يقول له : « أنا اسمي ميخائيلوف ، وأنا محكوم بالأشغال الشاقة ، ولكنها ليست أشغالاً شاقة لأننى ساكون فى قسم خاص ••• هى أشغال شاقة اذا شئت ، ولكنها ليست كغيرها ••• ففرقتى خاصة ، فلا بد أن تكون خيراً من غيرها ! » •

قبل الغاء الفرقة الخاصة كان كثير من الذين يعملون فى وظائف الحكومة ، حتى بمدينة سان بطرسبرج ، لا يتصورون وجود هذه الفرقة الخاصة ولا يخطر لهم وجودها ببال • كانت الفرقة الخاصة تقيم فى ركن منزوٍ جدا بمقاطعة من أبعد مقاطعات سيبيريا ، فيصعب على الناس ان يعلموا بوجودها • على أن عدد المحكومين من أفراد هذه الفرقة الخاصة ضئيل (كان فى زمانى لا يتجاوز سبعين سجينا) • وقد التقيت فيما بعد بأناس خدموا فى سيبيريا ، وعرفوا تلك البلاد معرفة تامة ، ومع ذلك لم يكونوا قد سمعوا بوجود « فرقة خاصة » ••• وكل ما تنص عليه مجموعة القوانين فيما يتعلق بهذه الفرقة الخاصة لا يتجاوز ستة أسطر : « يتم انشاء فرقة خاصة فى سجن ••• للمجرمين الخطرين جداً ، بانتظار تنظيم أشغال شاقة أعنف ••• الخ » • والسجناء أنفسهم لا يعرفون شيئاً عن هذه الفرقة الخاصة : أهى مؤبدة أم مؤقتة ؟ الواقع أن مدة الاعتقال فى سجن الفرقة الخاصة ليست محدّدة ، وانما هى فترة تطول الى « حين تنظيم أشغال شاقة أعنف » ، أى تطول مدة لا تعرف نهايتها • فلا سوشيلوف ولا أحد من أفراد القافلة ولا ميخائيلوف نفسه ، لا أحد من هؤلاء كان فى وسعه أن يحزر معنى هاتين الكلمتين • غير أن ميخائيلوف يتصور كيف يمكن أن تكون طبيعة هذه الفرقة ، يتصور ذلك على أساس خطورة الجريمة التى عوقب عليها بثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جلدة بالسوط • لا شك أنهم لا يرسلونه الآن الى مكان يعيش فيه حياة رضية ناعمة •••

وكان على سوشيلوف أن يستوطن ، فهل يمكن أن يرغب ميخائيلوف فيما هو خير من هذا • « الا تريد أن تقايض ؟ » • • • • • هكذا يسأل ميخائيلوف صاحبه سوشيلوف • وسوشيلوف سكران ، وهو انسان طيب القلب طاهر السريرة تقيض نفسه شكرا وعرفانا وامتنانا لرفيقه الذي يسقيه الخسرة ويفدق عليه ، فليس في وسعه أن يرفض • ثم انه قد سمع من سجناء آخرين أن المقايضة ممكنة ، وأن هناك سجناء آخرين قد قايضوا ، فلا عجب أن يقايض هو أيضاً ، وليس في هذا العرض الذي يعرضه عليه رفيقه شيء خارق للعادة خارج عن المألوف • وهكذا يتم الاتفاق بين الرجلين على المقايضة • فيشتري ميخائيلوف الماكر اسم رفيقه بقميص أحمر وروبل فضة يستلمهما منه سوشيلوف بحضور شهود يشهدون الصفقة • ويصحو سوشيلوف من سكرته في النداء ، ولكن صاحبه يسكره من جديد ، فلا يستطيع اذن أن يرفض • لقد شرب بالروبل خمرة ؟ وما هي الا وهلة يسيرة اذا هو شرب خمرة بالقميص الأحمر أيضاً • ويقول له ميخائيلوف : « اذا كنت تريد العدول عن الصفقة والنكول عما تم الاتفاق بيننا عليه ، فأعد الى المال الذي أعطيتك اياه • • • • • ولكن من أين يمكن أن يحصل سوشيلوف على روبل فضة • واذا هو لم يردّ الروبل ، فإن أفراد القافلة سيجبرونه على ذلك • ان السجناء أناس لا يحبون أن يحنث المرء بعهد قطعه على نفسه • فلا بد أن يفنى سوشيلوف بوعده ، وويل له اذا لم يفعل • • • • • فان مصيره القتل • • • • • أو ان مصيره الاذلال والتعذيب في أقل تقدير • • • • • »

ذلك أنه يكفي أن تتسامح الجماعة مرة واحدة في أمر النكول عن المقايضة التي يكون قد تم الاتفاق عليها ، حتى تزول صفقة تبادل الأسماء هذه زوالاً تاماً • • • • • فاذا كان في وسع المرء أن يتراجع عن تنفيذ العهد الذي قطعه على نفسه، وأن يفسخ الصفقة التي تم ابرامها بينه وبين صاحبه،

بعد أن قبض المبلغ المتفق عليه = فمن ذا الذى يمكن أن يفنى بعد ذلك بعهد قطعه وشرط ارتصاه ؟ ان القضية هى فى نظر الجماعة قضية حياة او موت، انها مسألة تهمهم جميعا ، فلا يمكن ان يتهاونوا فيها ولا ان يتسامحوا ؛ ويدرك سوشيلوف اخيرا انه لا يستطيع التراجع او التلصص ، ويدرك انه لا شئ يمكن ان ينقذه مما تورط فيه ، لذلك يدعى لما يراى منه « ويرضى شئ ام لم يشأ . وعندئذ يذاع امر الصفقة فى القافلة كلها ، فاذا كان يخشى أن يشئ بالقضية أحد، أعطيت رشوة لمن يظن فيهم أنهم قد يشون ... وهؤلاء لا يهمهم الامر فى شئ ... فسيان عندهم ان يكون ميخائيلوف أو سوشيلوف هو الذاهب الى الفرقة الخاصة . لقد شربوا خمرة ودفعوا لهم رشوات فلذلك يبقى السر مكتوماً لا يعلم به أحد . وفى المرحلة التالية يجرى التفتد فاذا نودى على ميخائيلوف أجاب سوشيلوف : حاضر ! واذا نودى على سوشيلوف أجاب ميخائيلوف : حاضر ! ... وتمضى القافلة ولا يعود يتحدث أحد فى الامر من قريب ولا من بعيد ؛ حتى اذا وصلت القافلة الى توبولسك تم فصل السجاء فيمضى ميخائيلوف يستوطن البلاد ويقاد سوشيلوف الى الفرقة الخاصة تحت حراسة مضاعفة ، ويستحيل عندئذ على سوشيلوف ان يطالب بشئ أو أن يحتج على شئ ، لأنه لا يملك برهانا . ولو طالب واحتج فسيطول أمر القضية سنين عدة ولن يجنى من شكواه شيئاً فلا شهود يشهدون على صحه ما يقول ، اذ لا يعرف أحد أين هم الآن ، وهبهم وجدوا فلن يقولوا شيئاً ولن يشهدوا بشئ بل سيلوذون بالصمت . اليكم اذن كيف أرسل سوشيلوف الى القسم الخاص لقاء تناوله روبلا فضة وقميصاً أحمر .

كان السجاء يسخرون منه ويستهزئون به لا لأنه أجرى تلك المفايضة، رغم أنهم على وجه العموم يحتقرون أولئك البلهاء الذين ارتكبوا حماقة استبدال عمل شاق بعمل سهل، بل لأنه لم يقبض ثمن تلك الصفقة

الا قيصاً أحمر وروبلاً فضة وذلك مبلغ نزر يسير تافه ، فانما يقبل المرء عادةً أن يقايض على مبالغ ضخمة (ضخمة بالقياس الى موارد السجناء) حتى لقد يتقاضى بضع عشرات من روبلات • على أن سوشيلوف كان يبلغ من التلاشي والتفاهة وانعدام الشخصية أنه لا سبيل الى التهكم عليه ولا حاجة الى الهزء به •

لقد عشنا معاً أنا وهو ربحاً طويلاً من الزمن ، فتعودت عليه وتعلق بي • ومع ذلك فانه جاء يسألني بعض المال في ذات يوم ، ولم يكن قد نفذ أوامري ، فما كان أشد قسوتي حين قلت له : « انك تعرف كيف تطلب مالاً ولكنك لا تفعل ما تؤمر به » • آه ! اننى لم أغفر لنفسى يوماً فعلتى تلك • وقد صمت سوشيلوف عندئذ ، وأسرع ينفذ أوامري طائعاً راضخاً ، ولكنه أصبح حزيناً جداً على حين فجأة • انقضى يومان لم أستطع أن أصدق أن يتأثر سوشيلوف هذا التأثير كله مما قلته له • وكنت أعلم أن سجيناً اسمه فاسيليف كان يطالبه ملحاً برد دين صغير له عليه ، ولعل سوشيلوف كان خالى الوفاض لا يملك قرشا واحداً ولا يجرو أن يطلب منى شيئاً ، فناديته وقلت له : « اسمع يا سوشيلوف ! أعتقد أنك أردت أن تطلب منى بعض المال لسداد دين انطوان فاسيليف عليك ، فإليك هذا المال ! » كنت جالسا على مضجعى ولبت سوشيلوف واقفا أمامى مدهوشاً أشد الدهشة من أننى أعرض عليه المال بنفسى ، وأننى تذكرت وضعه الحرج وحالته الشائكة ، لا سيما وأنه كان فى الآونة الأخيرة قد طلب منى فى رأيه سلفاً كثيرة فهو لا يجرو أن يأمل أن أتعمده سلفة جديدة • نظر سوشيلوف الى الورقة النقدية التى مددتها اليه ، ونظر الى ثم استدار فجأة وخرج • أدهشنى ذلك غاية الدهشة ، ونخرجت أجرى

وراءه الى أن وجدته خلف التكنات • كان واقفاً مسنداً وجهه الى السور
متكئاً بيديه على الأوتاد •
سألته :

— ما بك يا سوشيلوف ؟

فلم يجبني • وما كان أشد دهشتي حين لاحظت أنه يهم أن يبكي •
قال بصوت مختلج وهو يحاول أن لا ينظر الى :
— انت •• تظن •• يا •• الكسندر •• بتروفتش •• أنني أقوم

بخدمته •• فى سبيل •• المال •• أما أنا •• فأننى •••

قال ذلك واستدار من جديد وهوى بجبينه على السور وطفق يبكي
منتجهاً • تلك أول مرة فى السجن أرى فيها رجلاً يبكي ، فأخذت
أواسيه وأعزيه ، وبذلت فى سبيل ذلك عناءً كبيراً • صار بعدئذٍ يخدمنى
بمزيد من الحماسة والهمة والنشاط ، وأصبح « يرصد » حركاتى
وسكناتى ويدارينى أشد المداراة ، ولكننى استطعت أن أدرك من بعض
الامارات التى لا تكاد تلاحظ ومن بعض العلامات التى لا تكاد ترى أن
قلبه لن يغفر لى فى يوم من الأيام أننى نهزته وزجرته • على حين أن
آخرين كانوا يضحكون عليه ويعاكسونه ويناكذونه كلما سنحت الفرصة ،
بل ويهينونه ويشتمونه فلا يفضب ولا يتأثر بل تظل صلاته بهم طيبة •
نعم ان من المستحيل أن يعرف المرء انساناً معرفة صحيحة حتى بعد أن
يعاشره سنين طويلة •

ذلكم هو السبب فى أن السجن لم يكن له فى نظرى فى أول الأمر
الدلالة التى ستكون له بعد ذلك • ذلكم هو السبب فى أننى رغم شدة
انتباهى لم أستطع أن أدرك كثيراً من الوقائع التى فقأت عيني من بعد •

ان الذين لفتوا نظرى أول الامر انما كانوا هم الاشخاص البارزين • لكن نظرتى كانت خاطئة • انهم لم يخلفوا فى نفسى الا اترا ثقيلًا • حزينا مؤسًا • ومما ساهم خاصة فى وصولى الى هذه النتيجة ، لفتى مع ا • • • ف وهو سجين وصل الى السجن قبل وقد ادهشنى فى الايام الاولى ادهاشًا مؤلما غاية الالم • لقد سمم بداية اقامتى فى السجن وفاقم مزيدا من المفارقة الآلام الروحية القاسية الرهيبة التى كنت أعانيها • انه اقدر مثال للخسة والدناءة والحقارة التى يمكن أن ينحدر اليها انسان ماتت فيه كل عاطفة من عواطف الشرف دون مقاومة أو ندامة • كان هذا الشاب وهو نيل سابق (سبق أن تحدثت عنه) ينقل الى الضابط الميجر كل ما كان يجرى فى الثكنات ، لأنه كان على صلة بخادمه فدكا واليكم قصته : لقد وصل الى بطرسبرج قبل اتمام دراسته بعد مشاجرة قامت بينه وبين أبويه الذين أصابهما الذعر والرعب من اندفاعه فى أنواع الفجور والعهر والدعارة • ومن أجل أن يحصل على المال لم يتورع عن ارتكاب وشاية كاذبة • لقد قرر أن يبيع دم عشرة رجال فى سبيل أن يرضى ظمأه الذى لا يشبع الى الملذات البهيمية الحقيرة الدنيئة ، وبلغ من نهمه فى التمتع بهذه الملذات القذرة ، وبلغ من فرط انحداره الى حضيض الفساد فى الحانات والمواخير ببطرسبرج أنه لم يتردد عن التورط فى قضية كان يعرف ما تشتمل عليه من طيش وجنون لأن الذكاء لم يكن يعوزه فحكم عليه بالنفى الى سيبيريا وبالاعتقال فى سجن الأشغال الشاقة • تلك كانت بداية حياته • وقد يتوهم المرء أن هذه الضربة الرهيبة التى أصابته كان لا بد أن تهزّه ، وأن توقظ فى نفسه شيئا من المقاومة ، وأن تحدث له أزمة ، ولكنه ارتضى مصيره الجديد غير عابىء ولا مكترث ، حتى أنه لم يشعر بشيء من ذعر أو رعب • وكل ما كان يخيفه هو أنه سيضطر الى العمل والى هجر فسقه ومجونه الى الأبد • فلما أصبح يسمى سجينًا لم يزد

هذا الاسم الاّ امعاناً فى المزيد من أنواع الحقارات والدناعات الكريهة المقيّنة ، فكان يقول : « أنا الآن سجين محكوم بالاشغال الشاقة فلا جناح على اذا انعمست فيما أحب الانغماس فيه على ما يشاء لى هواى بلا خجل ولا حياء » . كذلك كان ينظر الى وضعه • اننى آتذكر هذا الانسان المقرز كما اتذكر ظاهرة شاذة من الظاهرات الخارقة العجيبة • لقد عشت عدة سنين بين قتلة سفاكين وعهرة ماجنين واوباش واوغاد ، ولكننى لم اصادف فى حياتى كلها حالة تمثل الخسة الاخلاقية والفساد المتعمّد والحقارة الوقحة تمثيلاً يبلغ هذا المبلغ من الكمال • كان بيننا شاب من اصل نيل قتل أباه (سبق أن تحدثت عنه) ولكننى استطعت أن أفتنع من نواح ليرة وسمات شتى أن هذا الشاب كان أكرم نفساً وأكثر انسانية من صاحبنا آ ••• ف • اننى طوال مدة اقامتى فى السجن لم ار فى آ ••• ف شيئاً آخر غير كتلة من لحم لها أسنان ومعدة ، شرهة الى أوسخ المذات الحيوانية ، نهمة الى أفذر المتع الوحشية التى لا يتورع صاحبها عن اغتيال أى انسان فى سبيل الحصول عليها؛ ولست فيما أقول بالمبالغ قط، فقد عرفت فى آ ••• ف نموذجاً من أتم نماذج الحيوانية التى لا يردعها مبدأ ولا تنظمها قاعدة ولا تزعمها أخلاق • ولشد ما كانت ابتسامته الساخرة أبداً ، الهازئة دائماً ، تثير فى نفسى الاشمئزاز والتقزز ! انه مخلوق عجيب مشوه ! انه فى روحه مثل كازيمودو فى جسمه ! ولقد كان ذكياً ماكرأً وسيماً ، يملك بعض ثقافة ، وينعم ببعض كفاءات ••• لا ! لا ! ألا ان الحرائق والأوبئة والمجاعات وسائر الكوارث والنوازل أفضل من وجود انسان كهذا الانسان فى المجتمع • لقد سبق أن قلت ان التجسّس والوشايات رائجة فى السجن ، كثمرة طبيعية للانهايار الروحى والخسة الأخلاقية لا يستاء منها السجناء أىّ استياء • بالعكس ••• لقد كانوا على صلات طيبة بصاحبنا آ ••• ف ؛ وكانوا يتوددون اليه ويتقربون منه

ويلاطفونه ويدارونه أكثر مما يفعلون ذلك معنا • وكان صاحبنا الضابط الميجر السكير يحسن معاملته ، فكان ذلك يسبغ عليه شيئاً من مهابة فى نظر السجناء ، بل كان يهب له شيئاً من قيمة • وقد زعم للميجر فيما زعم انه رسّام قادر على تصوير وجوه (كما اوهم السجناء بانه كان ضابطاً برتبة ملازم فى حرس القصر) فأعفاه الميجر من الذهاب الى الأشغال الشاقة ، واستدعاه مخفوقاً الى منزله ليتيح له اعمال مواهبه الفنية برسم صورة له • حتى اذا استقر به المقام فى منزل الميجر انعقدت بينه وبين فدكا الخادم أواصر الصداقة ، وكان للخادم تأثير كبير فى مولاه وسلطان عظيم عليه ، وكان له تبعاً لذلك تأثيرٌ وسلطان على جملة السجناء • فكان آ • • • ف يكتب تقارير عنا ، بتكليف من الميجر الذى كان اذا سكر لا يتورع عن صفعه وشتمه ، ووصفه بأنه جاسوس وانه واش • بل كان يتفق فى كثير من الأحيان ، بعد أن يصفعه ويشتمه ، أن يجلس على كرسي ، فيطلب اليه متابعة عمله فى رسم صورته • فرغم ان الضابط الميجر كان يعده رسّاماً من الطراز الاول يشبه أن يكون من مستوى برولوف* (وكان قد سمع عن هذا الرسّام الشهير برولوف) فقد كان يحسب أن من حقه عليه أن يصفعه ، قائلاً له بينه وبين نفسه : « مهما تكن رسّاماً ، فأنت فى السجن ، وأنا أظن رئيسك أفضل بك ما يحلو لى أن أفعل » • حتى لقد كان يأمره فى بعض الأحيان أن يخلع له نعليه ، أو أن يأتيه بالوعاء الذى يبول فيه ليلاً • • • واحتاج الضابط الى وقت طويل حتى يدرك أن الرجل لا يملك أية موهبة • فقد ظل الرسام يعمل فيها قرابة السنة ، فلاحظ الضابط أخيراً أن الرجل قد ضحك عليه ، فكلما تقدم العمل فى رسم الصورة ، كانت الصورة تزداد بعداً عن الشبه بصاحبها • • وزعل الضابط ، فضرب الرسّام ، وطرده وأرسله الى الأشغال الشاقة • • • وكان طبعياً أن يستاء آ • • • ف : انه يأسف الآن على انقضاء أيام الفراغ

والكسل ، وعلى الحرمان من الهدايا الصغيرة ، وعلى الابتعاد عن اصناف الحلوى التى كانت تختلس من على مائدة الضابط اختلاسا ، وعلى الانفصال عن فدكا ، وعلى هجر الطيبات التى كانا ينعمان بها كلاهما فى مطبخ الميجر ...

وحين فقد آ ... ف حظوة الضابط ، كف الضابط عن اضطهاد م ... الذى كان آ ... ف يحرّضه عليه للسبب التالى : حين وصل ا ... الى السجن كان م ... يعانى حزنا شديدا ويأسا قاتلا ... كان لا يشعر بوجود أية صلة تربطه بهؤلاء السجناء ، وكان ينظر اليهم باحتقار واشمئزاز . انه لم يعرف كيف يجد فيهم ما يمكن ان يحمل بعض الهدوء الى قلبه ، وما يمكن أن يعزّيه ويسرّى عنه ويخفف بلواه . كان يكرههم بدلا من أن يحاول معرفتهم وفهمهم ، وكانوا من جهتهم يبادلونه كرها بكره . كان وضعه حرجا رهيبا . وكان م ... لا يعرف السبب الذى سيق من أجله آ ... ف الى سجن الاشغال الشاقة . واذا أدرك آ ... ف طبيعة الرجل ، تقرّب منه ، وأكد له فى البداية أنه لم يحكم بالأشغال بسبب وشاية كاذبة ، بل بسبب جرم كالجرم الذى أدى الى الحكم على م ... فما كان أشد سعادة م ... بأن يعثر أخيراً بين هؤلاء السجناء على رفيق من رفاق المحنة والشقاء ! ... ولاعتقاده بأن صاحبه يعانى ولا شك آلاماً روحية كبيرة ، فقد أسرع اليه محاولاً أن يواسيه ، حتى لقد أعطاه بعض المال ، وجعله يتناول طعاماً خاصاً غير طعام السجناء ، وأشركه فى جميع أشيائه ... غير أن آ ... ف الذى تفوق حقارته كل حد ، وتجاوز دأته كل وصف قد أخذ يكره صاحبه م ... بسبب هذا الكرم نفسه ، وبسبب هذا السخاء الذى أعدقه عليه ... فلم يجد خيراً من أن ينقل الى الميجر فى الوقت المناسب كل ما أسر به اليه صاحبه م ... عن الضابط الميجر وعن السجن أثناء الأحاديث التى جرت بينهما ... فكره الضابط

صاحبنا م ... وأضر له الحقد ، ولولا وجود أمر السجن اذن لمضى بهذا الحقد الى أقصى حد ، فاجهز على الرجل ... وبعد ذلك ، حين اكشف م ... حقارة آ... ف لم يشعر آ... ف باى نوع من انواع النرج ، حتى لقد صار يحرص على ان يلقي رفيقه ليرمقه بنظرة شزراء ، وليتسم له ابتسامة صفراء تعبر عن جميع معانى الشماثة والتشفي والوقاحة والحقد ... وكان ذلك يحمل الى قلبه الرضى والسرور . وقد لفت م... انتباهي الى هذا غير مرة . وقد فرّ هذا الانسان الحقير بعد ذلك من السجن فى صحبة جندي من جنود الحراسة ، ولكننى ساقص حكاية فراره هذه فى الوقت المناسب والموضع المناسب ... أما الآن فأحب أن اذكر أن هذا الرجل قد أخذ يحوم حولى فى أول الامر ، ظانا اننى لا أعرف قصته . وأعود فأقول انه سمّم حياتى وأفسد على أوائل أيامى فى السجن ، حتى هويت الى الحضيض من الحزن والكمد والكره واليأس . لقد أرعبتني هذه البيئة الحقيرة الجبانة التى ألقيت اليها ، وتصورت أن كل ما فى هذه البيئة دنيء هذه الدناءة نفسها ، فاسد هذا الفساد نفسه ، ولكننى أخطأت الظن حين خيل الىّ أن جميع من فى السجن يشبهون م ...

فى تلك الأيام الثلاثة الأولى كنت لا أزيد على أن أطوّف فى السجن حين لا أكون راقداً على مضجعى الخشبي . وقد عهدت الى واحد من السجناء كنت واثقاً منه (لأن آكيم آكيتش زكاه لى) عهدت اليه بالقماش الذى سلمتني اياه ادارة السجن ليصنع لى منه بضعة قمصان . وعملت بنصيحة آكيم آكيتش أيضاً ، فهبأت لنفسى فراشاً يطوى . انه فراش من لباد مغطى بقماش ، رقيق رقة فطيرة ، خشن كل الخشونة على من لم يألف مثله ولا اعتاده . وتعهد آكيم كيمتش بأن يمدنى بجميع الأمتعة التى لا بد منها ، حتى لقد صنع لى

بيديه لحافا من قطع بالية من الجوخ الذى توزعه ادارة السجن على السجناء ، قطع اختارها وقصها من السراويل والسترات التى استغنى عنها أصحابها من فرط ما بلغت من الرثالة ، وقد اشتريتها من عدد من السجناء . ان الامتعة التى توزعها الدولة على السجناء تصبح ملك هؤلاء السجناء متى انقضت على ارتدائها المدة التى يحددها نظام السجن ، فما يلبث السجناء أن يبيعوها ، لأن لباساً من الألبسة تظل له قيمة مهما بلغ من الاهتراء والبلى . وقد أدهشنى ذلك كثيرا ، ولا سيما فى البداية ، فى أوائل اتصالى واحتكاكى بهذا العالم . فلتن صرت بعد ذلك واحداً من هؤلاء الناس ، وأصبحت جزءا من هذا العالم ، وغدوت سجيناً كسائر السجناء ، فاصطبغت عاداتى وأفكارى بعباداتهم وأفكارهم من الخارج ، فان ذلك كله لم يبلغ أعماقى ، ولا نفذ الى قرارة نفسى . لقد دُهِشت وتحيّرت ، كأننى لم أسمع بهذه الأمور فى يوم من الأيام ، ولا تصورت وجود مثلها فى لحظة من اللحظات . وعلى أننى كنت أعرف ما سوف أراه فى السجن بعد أن سمعت ما سمعت عنه قبل وصولى اليه ، فقد أحدث الواقع فى نفسى من الأثر ما لم يحدثه السماع . هل كان فى وسعى أن أتصور مثلاً أن خرقاً بالية رثة خلقة ممزقة يمكن أن تبقى لها قيمة ؟ ومع ذلك فقد كان لحافى مصنوعاً كله من مثل هذه الخرق ! ان من الصعب على أن أصف نوع الجوخ المستعمل ثياباً للسجناء : انه يشبه الجوخ الرمادى السميك الذى يُصنع للجنود ، ولكنه ما ان يلبس زمناً قصيراً حتى تنسل خيوطه ويتمزق ويتقطع . ان على الرداء الموحد أن يُلبس عاماً كـملاً ، ولكن الرداء لم يكن يدوم أبداً كل هذا الزمان ، فان السجين يعمل ، ويحمل أثقالاً باهظة ، فسرعان ما يهترئ القماش فى هذه المهنة ويتمزق . وكان على المعاطف أن تلبس ثلاث سنين ، فهى خلال هذه السنين الثلاث تُتخذ ملابس وأغطية وألحفة

ومخدرات ووسائل ، ولكنها متينة ، ومع ذلك لم يكن نادراً أن تراها في نهاية السنة الثالثة مرقعة بقماش عادي . ورغم أنها تهترى أخيراً ، فإن أصحابها يجدون من يشتريها منهم ، بسعر أربعين كوبكاً للقطعة الواحدة ، فإذا كانت ما تزال محافظة على شيء من جدتها ارتفع السعر الى ستين ، وربما الى سبعين كوبكاً .

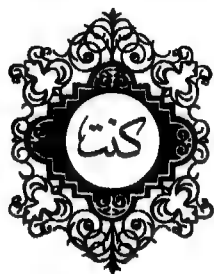
سبق أن قلت ان للمال سلطاناً أعلى في حياة السجن . وفي وسعي أن أؤكد جازماً أن السجين الذي يملك بعض المال يتالم اقل عشر مرات مما يتالم السجين الذي لا يملك شيئاً . ان رؤساءنا يقولون : « ما دامت الدولة تؤمن للسجين كل حاجاته ، فما شأنه وشان المال ؟ » . كذلك يفكر رؤساءنا . ومع ذلك فأننى أعود فأقول : لو حُرِم السجناء من القدرة على امتلاك شيء يخصهم ويكون لهم ، لفقدوا عقولهم حقاً ، او لما اتوا كالذباب ، أو لارتكبوا جرائم لا نظير لها ولا سمع بمثلها أحد بعضهم ضجراً وسأماً ، وبعضهم حزناً وشجناً ، وبعضهم بغية أن يعاقبوا مزيداً من المعاقبة « فتبديل حالهم ويتغير وضعهم » على حد تعبيرهم . ولئن كان السجين الذي كسب بضع كوبكات بالعرق الدامي يتسبب من جسمه وبمخاطرات ومجازفات قام بها ليحصل على هذه الدريهمات القليلة ، لئن كان هذا السجين ينفق بعد ذلك ما جناه يميناً ويسرة بغضب كغضب الأطفال ، فان ذلك لا يعنى أبداً أنه لا يدرك قيمة المال . كما يمكن أن تتوهم لأول وهلة . ان السجين شره الى المال ، شره اليه شراهة تفقده عقله وصوابه ولئن كان يتلفه بعد ذلك ويذره ، فمن أجل أن يحصل على ما يعده خيراً من المال وما هو الشيء الذي يعده السجين خيراً من المال ؟ ويضعه فوق المال قيمة وقدر؟ انه الحرية أو انه حرية موهومة انه حلم حرية ان جميع السجناء أناس حالمون وسأتحدث عن هذا تفصيلاً في حينه . أما

الآن فحسبى أن أقول اننى سمعت سجناء محكومين بالاعتقال فى سجن
الاشغال الشاقة عشرين عاما يقولون لى وقد لاح الهدوء فى وجوههم :
« حين تنتهى مدة سجنى ، ان شاء الله ، فمئذئذ سوف ... » ان لقب
السجين وحده يعنى انسانا محروماً من حرية الارادة . فاذا انفق
هذا الانسان ماله ، كان يتصرف على ما يشاء له هواه ، كان يتصرف على
ما تشاء له ارادته ، كان يتصرف حراً ... انه رغم الوشم والاغلال ،
رغم السور الذى يخفى العالم الحر من نظره ويحبسه فى قفص كما
يجس حيوان كاسر ، انه رغم ذلك يستطيع ان يحصل على خمرة ، ان
يستمتع بموسى ، بل وان يرشسو فى بعض الاحيان (لا فى جميع
الاحيان) مراقبيه من مشوهى الجنود وحتى من ضباط الصف ، ليغضوا
الطرف عن مخالفاته للنظام ... بل انه ليستطيع أيضاً - وذلك مايشقه
عشقا - أن يشجع أمامهم ، أى ان يبرهن لرفاقه وأن يبرهن لنفسه
كذلك ، الى حين ، أنه يتمتع بحرية هى أكبر من الحرية التى يتمتع
بها فى الواقع . ان السجين فى حاجة الى أن يتوهم وأن يوهم أن له
حرية وشأنا أكبر كثيراً مما يُظن ، فهو مباح له أن يتسلى ، وأن
يصخب ويعريد ، وأن يؤذى الناس وأن يسىء اليهم حتى ليدخلهم تحت
الأرض اذا شاء ! ان المسكين يريد أن يقتنع بأمور يعرف أنها مستحيلة :
وذلكم هو السبب فى أن السجناء يحبون أن يتباهوا وأن يتفاخروا ،
وبالفن فى تقدير شخصياتهم التعيسة مبالغة ساذجة وهمة مضحكة .
ثم انهم حين يتلفون مالهم ويبدرونه ، يجازفون بشئ من الأشياء ، وذلك
عندهم مظهر حياة وحرية، وهوعندهم خير مايرجونه ويتمنونه ويطمحون
اليه . تصوروا رجلاً يملك الملايين قد شدت على عنقه حبل : أفلا يتمنى
هذا الرجل أن يهب كل ما يملك من ملايين فى سبيل نشقة هواه ؟
رب سجين يعيش هادئاً سنين طويلة متتالية ، ويبلغ من حسن سلوكه

وسلامه تصرفه أنه يُعَيَّن « عريقاً » ، ثم اذا بهذا الرجل يصبح على حين
 فجأة شيطاناً من الشياطين ، يعصى ويتمرّد ويتورّع ، ولا يتورّع عن ارتكاب
 اية جريمة ، قتلاً كانت أو اغتصاباً أو ما الى ذلك ! ان رؤساء ليد هسبون
 عندئذ اشدّ الدهشة ، وان الناس عندئذ يعجبون أشدّ العجب . فماذا
 كان سبب هذا الانفجار الذى لم يكن ينتظره منه أحد ؟ ان سبب هذا
 الانفجار المبالغ لى رجل لا يتوقع احد منه مثله انما هو رغبة جامحة
 عارمه قلقة حزينة غريزية استحوذت عليه فجأة ، تدفعه الى اظهار
 شخصيته ، وتأكيد ذاته تلكم عواطف لا يفهمها من يراه ، فيحتار
 فى أمره ، ولا يعرف كيف يحكم عليه انها أشبه بنوبة صرعة ،
 انها أشبه بتشنج . تصوروا انساناً دفن حياً ثم صحا على حين فجأة : ان
 هذا الانسان لا بد أن يضرب غطاء تابوته ضرباً مستميتاً . انه يحاول
 دفع الغطاء ، يحاول دفع الغطاء ، رغم أن عقله مقتنع بأن هذه الجهود
 كلها لن تجديه نفعاً ، ولكن العقل لا يملك أن يسكّن هذه التشنجات .
 يجب أن لا نسى أن كل محاولة يحاولها السجين لاطهار شخصيته بارادته
 تشبه أن تكون فى نظر المسؤولين جريمة ، يستوى عندهم فى ذلك أن
 يكون سبيله الى اظهار شخصيته خطيراً أو يسيراً . فاذا كان الامر كذلك ،
 اذا كانت المخاطرة هى المخاطرة ، واذا كان الخروج على النظام هو
 الخروج على النظام ، فليمض السجين فى المجازفة الى أبعد حدودها ،
 ولو وصل من ذلك الى جريمة القتل . الخطوة الأولى هى الصعبة ، ثم
 يُجن جنون السجين شيئاً فشيئاً ، ويتشهى ، فاذا هو عاجز عن السيطرة
 على نفسه وكبح جماحه . ولذلك يحسن أن لا يُدفع السجناء الى مثل
 هذا التطرف والنلو ليظل الجميع فى سلام وأمان

نعم ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟

السرد الأول تمه



أملك حين دخولي السجن مبلغاً ضئيلاً من المال، ولكنني لم أحمل منه في جيبي الا جزءاً يسيراً مخافة أن يصادر • أما الباقي فقد ألصقته أوراقاً نقدية في تجليدة انجيلي ، وهو الكتاب الوحيد المسموح باقتنائه في السجن • وكان قد أعطاني هذا الانجيل في مدينة توبولسك * أشخاصٌ منفيون منذ عشرات السنين ، ألفوا أن يمدوا كل « سيء حظ » أخاً • ان في سيبيريا أناساً نذروا حياتهم لنجدة « عاتري الحظ » نجدة الأخ أخاه • انهم يشعرون نحوهم بالعطف الذي كان يمكن أن يشعروا به نحو أبنائهم • ان شفقتهم شفقة مقدسة منزهة عن الغرض مبرأة من المنفعة • ولا يسعني هنا الا أن أروى في بضع كلمات لقاءً تم لي حينذاك •

في البلدة التي كان يوجد فيها سجننا ، كانت تقطن أرملة اسمها ناستازيا ايفانوفنا • لم يكن أى واحد منا على صلات مباشرة بهذه المرأة طبعاً • فقد نذرت هذه المرأة حياتها لمساعدة جميع المنفيين ولمساعدة نزلاء

سجن الأشغال الشاقة بخاصة • تُرى هل كان أحد أفراد أسرتهامراً عائر الحظ ؟ ترى هل كان أحد الأشخاص الأعزة على قلبها قد أنزلت فيه عقوبة شبيهة بعقوبتنا ؟ لست أعرف ذلك • ولكنها كانت تفعل كل ما تستطيع أن تفعله في سيلنا • على أن ما كانت تستطيع أن تفعله في سيلنا قليل جداً ، لأنها كانت هي نفسها فقيرة فقراً شديداً •

ولكننا كنا نحن نزل السجون نشعر أن لنا في خارج السجن صديقة مخلصه متفانية • كانت في كثير من الأحيان تنقل إلينا الآباء التي كنا في حاجة كبيرة إليها (ولقد كنا فقراء جدا إلى الآباء) ، فلما تركت السجن وسافرت إلى مدينة أخرى أتيت لي أن أزررها في بيتها وأن أعرف إليها • كانت تقيم عند أحد أقربائها في مكان بالضاحية •

ليست ناستازيا إيفانوفنا مسنة ولا شابة ، وليست جميلة ولا دمية ، ويصعب على المرء بل يستحيل عليه أن يعرف أهي ذكية أم غنية ، أهي مثقفة أم غير مثقفة • ولكن كل فعل من أفعالها يدل على طيبة لا حدود لها ، وعلى رغبة لا تقاوم في المسايرة والمجاراة والملاطفة والمواساة ، وفي أن تصنع شيئاً يسر ويبهج • ان المرء يقرأ هذه العواطف في نظرتها الطيبة الرقيقة العذبة الحنون • قضيت سهرة كامله لديها مع رفيق آخر* من رفاق السجن ، فكانت تنظر إلينا وجهاً لوجه ، وتضحك اذا ضحكنا ، وتوافق فوراً على كل ما نقول من قول أو نعلن من رأى ؛ فهي ، أياً كان الكلام الذي نقوله ، تسارع إلى تبني رأينا ، وهي ماتنفك تقوم وتقعّد وتذهب وتجيء لتفدق علينا مما عندها من طعام ومن شراب •

قدمت لنا شايًا وحلوى • وان المرء ليدرك أنها لو كانت غنية لما كان يفرحها الغنى الا لأنه يتيح لها أن تهنيء لنا مزيداً من المسرة والبهجة ، وأن تواسينا مزيداً من المواساة ، نحن معشر السجناء •

فلما استأذناها بالانصراف أهدت الى كل منا علبة لحفظ السيكار
مصنوعة من الكرتون ، على سبيل الذكرى • كانت قد صنعت هاتين
العلبتين بيديها وغلفتهما بورق من ذلك الورق الذى تجلده به كتب
الحساب للمدارس ، وزينتهما بحافة رقيقة من ورق مذهب لعلها اشتريته
من احدى الدكاكين تجميلاً لهما •

قالت لنا وهى تعتذر خجل من هديتها :

— ما دمتما تدخنان فلعل هاتين العلبتين تناسبكما •

هناك أناس يقولون (قرأت هذا وسمعت) ان الايثار الشديد ليس
الا أثره شديدة فى الوقت نفسه ، وأن الفرية أنانية ، فإين أين الأثرة
أو الأنانية هنا ؟ لن أفهم ذلك يوماً

رغم أننى حين دخلت السجن كنت لا أملك مالا كثيراً ، فأننى لم
أستطع أن أعتاق حقاً من أولئك السجناء الذين كانوا يقبلون على منذ
وصلت هادئين ، بعد أن خدعوني مرة أولى ، ليقترضوا منى ثانية فثالثة
فرابعة • غير أننى أعترف صراحة بأن الشيء الذى كان يغيظنى حقاً
ويثير غضبى وحنقى هو أن هؤلاء جميعاً كانوا يحيلهم الساذجة يحسبوننى
امراً غيياً أبله ، ويسخرون منى فى قرارة أنفسهم ، لا لشيء الا لأننى
أقرضهم بعض المال مرة خامسة • لا شك أنهم كانوا يتخيلون أن مكرهم
كان ينطلى على • وانى لعل يقين من أنهم كانوا سيشعرون نحوى باحترام
أعظم وتقدير أكبر لو رفضت أن أقرضهم ، ولو طردتهم شر طردة ،
ولكننى كنت لا أستطيع أن أرفض لهم طلباً ، رغم أنه اتفق لى غير مرة
أن غضبت غضباً شديداً •

كان يهمنى أثناء الأيام الأولى أن أعرف أين يجب أن أضع قدمى ،
وكيف يجب أن يكون سلوكى مع رفاقى • كنت أحس احساساً كاملاً

وأدرك ادراكاً تاماً أن هذه البيئة الجديدة على كل الجدة ، وأنتى أسير فيها فى ظلمات، وان من المستحيل على المرء ان يعيش فى الظلمات عشر سنين. ولقد قررت ان اتصرف التصرف الصريح الواضح الذى يعمليه على ضميرى وتامرني به عواطفى . ولكننى كنت اعلم ان هذه السنة قاعدة نظرية صالحة ، اما الواقع فملئ بمفاجات ليست فى الحسبان . لذلك فرغم جميع الهموم الصغيرة التى شغلتنى بها افامتنى فى التكنة ، وهى الهموم التى سبق ان تحدثت عنها والتى أعاننى فيها اكيم آكيمتش راسا ، فلقد كان هنالك قلق رهيب يستبد بنفسى وغم عميق يقبض صدرى ويعذبني مزيدا من العذاب شيئا بعد شيء . « المنزل الميت ! » كذلك كنت أقول لنفسى حين يهبط الليل وانا أنظر احيانا من عتبة نكنتنا الى السجناء العائدين من العمل وقد أخذوا يطوفون فى الفناء منتقلين من المطبخ الى التكنة أو من التكنة الى المطبخ . كنت أحاول وأنا أنأمل حركاتهم ووجوههم أن أعرف الى اى نوع من البشر ينتمون وما عسى أن تكون طباعهم . كانوا يطوفون أمامى ، فبعضهم مفضن الجبين وبعضهم شديد المرح - وهذان مظهران يلاحظان دائماً فى السجن وربما كانا يميزانه - وهم يتشائمون أو يتحدثون ، أو لايزيدون على أن يسيروا منعزلين مستغرقين فى تأملاتهم فى ظاهر الأمر ، فبعضهم يبدو مهدود القوى متبلد الشعور لا يحس بشيء ، وبعضهم مختال يشعر بالتفوق والاستعلاء (حتى هنا !) ، جاعلاً طاقته على أذنه ، ملقياً معطفه فوق كتفه ، مطوّفاً نظراته الجريئة الماكرة هنا وهناك ، موزعاً أقواله الساخرة الوقحة بغير تمفف ولا حياء . قلت لنفسى : « هذه هى بيتنى الآن ، هذا هو عالمى الآن ، هذا هو العالم الذى لا أحب أن أعيش فيه ، ولكن يجب علىّ أن أعيش فيه . . . »

حاولت أن أسائل اكيم آكيمتش الذى كنت أحب أن أشرب

الشاى معه حتى لا أكون وحيداً ، وأن أستطلع أمر مختلف السجناء •
يجب على أن أذكر هنا مستطرداً بعض الاستطراد أن الشاى كان غذائى
الوحيد فى أول عهدى بالسجن • وكان آكيم أكيتمش لا يرضى على
باحساء الشاى معى ، حتى لقد كان يتولى بنفسه اشعال سماورنا البالى
الذى صنع فى السجن نفسه من الحديد الأبيض ، وكنت قد استأجرته
من م ****

كان آكيم أكيتمش يشرب قدحاً من الشاى فى العادة (ولقد كان
عنده أفداح) ، يشربه وقوراً رضياً صامتاً ، حتى اذا فرغ من شربه
شكرنى وعاد يستأنف صنع لحافى على الفور • ولكنه لم يستطع ان يقول
لى ما كنت أرغب فى معرفته ، حتى أنه لم يفهم اهتمامى هذا بمعرفة
طبائع الناس الذين يحيطون بنا • لقد أضنى الى أسئلتى وهو يتسمم
ابتسامة مأكرة ما زالت ماثلة أمامى الى الآن • قلت لنفسى : « لا • • •
لا • • • فانما يجب أن أعانى كل شئ بنفسى ، وأن لا أسأل غيرى • • »
فى اليوم الرابع اصطف السجناء صفيين فى ساعة مبكرة من
الصباح ، فى الفناء ، أمام مقر الحرس قرب أبواب السجن • وكان من
أمامهم ومن ورائهم جنود يسكون بنادقهم محشوة بالرصاص ،
مزودة بالحربة •

ان من حق الجندى أن يطلق النار على السجناء اذا حاول السجناء
أن يهرب ، ولكنه يكون فى مقابل ذلك مسئولاً اذا هو أطلق النار فى
غير حاجة مطلقة الى ذلك • ويسرى هذا على حالات العصيان والتمرد
التى قد يقوم بها السجناء • ولكن من ذا الذى يخطر بباله أن يهرب
علناً على رموس الأشهاد ؟! • • •

وصل ضابط من سلاح الهندسة يرافقه «السائق» * ، وعدد من
ضباط الصف ، العسكريين ، والمهندسين ، والجنود المفروزين للأعمال •

ونودى على السجناء • فأما الذين يذهبون الى ورشات الخياطة فقد ذهبوا أول الذاهبين : كان هؤلاء يعملون فى السجن نفسه ويمدّون الملابس لجميع السجناء • ثم جاء دور الذين يذهبون الى العمل فى المصانع ، وأخيرا جاء دور الذين يذهبون الى الاشغال الشاقة فى الخلاء • وكنت أنا بين هؤلاء ••• وكان عددا عشرين سجينا • فوراء القلعة ، على الشاطئ المتجدد ، كان يوجد سفيتان تملكهما الدولة ، وقد اصبحتا غير صالحتين للعمل ، ولا قيمة لهما البتة ، فكان علينا أن نفكهما حتى لا يضيع خشبهما سدى • الحق أن هذا الخشب لا يساوى شيئا لان حطب التدفئة كان فى المدينة زهيد الثمن ، فالمنطقة ملأى بالغابات •

وانما كانوا يكلفوننا بهذه الاعمال حتى لا نبقى عاطلين ••• وكان السجناء يعرفون ذلك حق المعرفة ، لذلك يقومون بها مترخين متكاسلين • ولا كذلك حين يكون للعمل شأنه وتكون له قيمته ، ويكون له مايسرّعه ••• أو حين يطلب الى السجين ان ينجز مهمة محددة معينة ••• فالسجناء ينشطون عندئذ ويتعشّون ويمتثلون حيوية ••• حتى لقد رأيت سجناء يرهقون أنفسهم ارهاقا شديدا لينجزوا العمل باقصى سرعة مع أنهم لا يجنون منه أية فائدة ، وذلك لأن كرامتهم أصبح لها دخل فى الامر •

على أن طلب انجاز مهمة معينة محدّدة لا يمكن أن يحدث حين يكون العمل من نوع العمل الذى تحن بصدده الآن ، أى من الأعمال التى يطلب الى السجناء أن يقوموا بها صورةً وشكلاً لا ضرورةً وحاجة • ففى مثل هذه الأحوال يستمر العمل الى أن يُقرع الطبل مؤذناً بالعودة الى السجن فى الساعة الحادية عشرة من النهار •

كان اليوم دافئا ، وكان الجو مليئا بالضباب ، ويوشك الثلج أن يأخذ بالذوبان • اتجهت جماعتنا كلها نحو الشاطئ وراء القلعة ، تهز

أغلالها • ان الأغلال المختبئة تحت الثياب ترن رنيناً واضحاً جافاً لدى كل خطوة نخطوها • ومضى اثنان أو ثلاثة من السجناء ليحيثوا بالادوات من المستودع •

سرت مع السائرين • حتى لقد انتعشت قليلاً ، لأننى كنت أتمنى أن أرى وأن اعرف نوع الأشغال الشاقة التى سنقوم بها • ما نوع هذه الاشغال الشاقة ؟ كيف ترانى سأعمل لأول مرة فى حياتى ؟

ما زلت أتذكر جميع التفاصيل • التقينا فى الطريق برجل من أهل المدينة ذا لحية ، توقف حين رانا ومد يده الى جيبيه • فسرعان ما انفصل عنا أحد السجناء ومضى اليه ماداً قبضته ، فوضع الرجل فى القبة الصدقة التى أراد أن يتصدق بها علينا وهى خبسة كوكبات ، وعاد السجين الينا مسرعاً • وقد أنفقت هذه الكوكبات الخمسة فى ذلك الصباح نفسه فى شراء أرغفة صغيرة من الخبز الأبيض 'وزعت علينا بالتساوى •

وكان بين أفراد جماعتنا أناس عابسون صموتون ، وكان بينهم أفراد مرحون لا يبالون شيئاً ولا يحفلون بشيء ••• وكان بينهم أناس اذا تكلموا فى كسل وتراخ وغير اكتراث • وكان بيننا رجل مرح راض سعيد فرح الى أقصى الحدود - لا يدري الا الله لماذا ! - فهو لا يننى يغنى ويرقص طوال الطريق ، فترن أغلاله عند كل وثبة يشبها : ان هذا السجين المربوع السمين هو ذلك الرجل نفسه الذى تشاجر يوم وصولى عند تراحم السجناء حول الماء ليفسلوا وجوههم وأيديهم ، مع رفيق من رفاقه تجراً أن يزعم أنه طائر من طيور الكاجان • ان اسم هذا الرجل هو سوراتف • وها هو ذا يأخذ أخيراً بأشاد أغنية فرحة مرحة ما زلت لازمتها باقية فى ذاكرتى :

بينما كنت بعيداً
أحمل القمح الى الطاحون يوماً
زوجوني في غيابي
دون اذني ، رغم انفي ♦
لم ينقصه الا بالالايكا ♦

وكان طبيعياً أن يستاء عدد من السجناء من مزاجه المرح ذاك ،
حتى لقد عدوا مرحة اساءة اليهم واهانة لهم ♦ فهذا أحدهم يقول بلهجة
اللوم ، رغم أن الأمر لا يعنيه في قليل ولا كثير :

– أخذ صاحبنا يعوى ♦

وهذا آخر يقول بلهجة تدرك منها أنه من روسيا الصغرى :
– ليس للذئب الا أغنية واحدة ، وقد أخذها عنه هذا التولائي
(نسبة الى مدينة تولا) ♦

فلم يلبث سكوراتوف أن أجاب على الفور :
– صحيح ♦♦♦ أنا من تولا ♦♦♦ أما أنتم يا أهل بولتافا فانكم
ما تتفكرون تزدردون لقم العجين حتى تفتسوا بها اختناقاً ♦
– كذاب ! ما الذي كنت تأكله أنت ؟ حساء الكرنب تغرفونه
بالنعال المصنوعة من قشر أشجار الزيزفون !
وقال ثالث :

– لكأن الشيطان قد أطعمك جوزاً ولوزاً ♦♦♦
فقال سكوراتوف وهو يتنهد قليلاً دون أن يخاطب أحداً بعينه ،
كأنما هو يشعر بالندم على أنه كان مترفاً :
– الحق يا رفاق أنني انسان مدلل رخو ♦♦♦ لقدنشأت منذ طفولتي

فى أحضان الترف ، فكنت آكل الخوخ اللذيذ والخبز الشهى • ولاخوتى
الآن تجارة واسعة فى موسكو • انهم من تجار الجملة ينعمون بثناء
عريض وغنى كبير ، كما ترون ! ...

- وأنت ، ماذا كنت تباع ؟

- لكن انسان سجاياهم ومزاياهم ... فأنا مثلاً حين تلقيت أول
مائتى ...

- مائتى روبل ؟ مستحيل

كذلك قاطعه سجين طُلعة انتفض مدهوشاً حين سمع كلاماً عن
مبلغ ضخمة هذه الضخامة •

- لا ... لا يا عزيزى ... لا مائتى روبل ... بل مائتى عصا !
هيه ... لوقا ! لوقا !

- بين الناس من يحق لهم أن ينادونى لوقا فقط ... أما أنت فلا
يحق لك أن تنادينى الا باسمى كاملاً : لوقا كوزمتمش •

كذلك أجاب ، فى استياء ، سجين من السجناء قصير القامة نحيل
الجسم مقررّ الأنف •
فقال له صاحبه :

- طيب ... لوقا كوزمتمش ... شيطان يأخذك !

- لا ... لا يحق لك أن تنادينى لوقا كوزمتمش ... بل يجب
عليك أن تخاطبني بقولك : يا عمى المحترم •

- شيطان يأخذ عمى المحترم ! ... حقاً انك لا تستحق أن
يخاطبك المرء بكلمة واحدة ... ولقد كنت أريد مع ذلك أن أتحدث

إليك فى مودة وعاطفة وصداقة • أما أنتم يا رفاق • فاسمعوا كيف حدث
أن لم ألبث مدة طويلة بموسكو ••• جلدوني آخر خمس عشرة جلدة
••• ثم أرسلوني الى هنا ••• ذلك ما حدث !

قال سجين كان يصنى الى قصته فى انتباه :

- ولكن لماذا نفوك ؟

- ••• لا تسأل أسئلة سخيفة ! ذلكم هو السبب فى أننى لم أصبح
غنياً ••• كنت أتلهف على ذلك تلهفاً لا تستطيعون ان تتصوروا مداه !
أخذ كثير من السجناء يضحكون •••

ان سكوراتوف واحد من أولئك المرحين الطيبين ، والمازحين
الخلّص الذين أخذوا على عاتقهم ان يسروا عن رفاقهم الحزاني
المكثين ، ولكنهم لا يتلقون فى مقابل ذلك الا الشتائم بطبيعة الحال •
انه ينتسب الى نموذج خاص من البشر قد أتحدث عنهم فيما بعد •

قال لوقا كوزمتش :

- وها هو ذا الآن سمور شجاع من سمير سيبيريا ! ••• ان
ثيابه وحدها تساوى أكثر من مائة روبل •••

كان سكوراتوف يرتدى معطفاً لا يمكن أن يرى المرء معطفاً أعتق
منه ولا أخلق ولا أبلى ••• انه مرقع فى مواضع شتى برقع متهدلة
متدلية •••

ونظر الى لوقا نظرة فاحصة من قمة الرأس الى أخمص القدمين •

ثم أجاب يقول :

- ولكن رأسى أيها الرفاق هو الذى يساوى مالا كثيراً • وحين

ودَّعت موسكو عزائى بعض العزاء أن رأسى سيرافقنى طوال الطريق
فوق كنفى *** وداعاً يا موسكو *** شكراً على حمامك النظيف ،
وهوائك الطليق *** وعلى الجلدات التى جلدتها *** أما معطفى ،
يا عزيزى ، فلست فى حاجة الى أن تنظر اليه •
- لعلك تريد أن أنظر الى رأسك !

صاح لوقا كوزمتش :

- ويا ليت رأسه له *** لقد تصدقوا عليه به فى مدينة تومين حين
مرّت بها القافلة •

- سكوراتوف ، هل كان عندك مصنع ؟

قال أحد السجناء الحزانى :

- أى مصنع يمكن أن يكون عنده ؟ لقد كان اسكافياً بسيطاً ***
يدق الجلد على الحجر •

قال سكوراتوف ، دون أن يلاحظ لهجة محدثه اللاذعة :

- هذا صحيح ، لقد حاولت أن أرفع أحذية ، ولكن مجموع
ما رقت لم يتجاوز زوجاً واحداً من الأحذية •
- وهل وجدت من يشتريه منك ؟

- نعم *** وقعت على شاب لا شك فى أنه كان لا يخشى الله ،
لا شك فى أنه لم ينل رضى أمه أو أبيه ، فعاقبه الله ، فاشترى ماصنعت !
انفجر جميع من كانوا يحيطون بسكوراتوف ضاحكين مقهقهين .
وتابع سكوراتوف يقول بهدوء لا يعكسه شيء :

- ثم عملت مرة أخرى فى سجن الأشغال الشاقة ، فركبت جلدأ
لحذاءى ستيفان فيدورتش بومورستيف ، الملازم الأول •

– هل أرضاه شغلك ؟

– لا والله يا رفاق *** بالعكس *** لقد شتني شتماً يمكن أن
يكفيني طوال حياتي *** ثم لطم قفائي بركبته ! ما كان أشد غضبه ! آه
من هذه الغادرة العاهرة *** حياتي في سجن الأشغال الشاقة ***
خانتني هذه المومس !

قال سكوراتوف ذلك ، ثم عاد يغني وهو يضرب الأرض بقدميه
راقصاً :

**ما هي الا لحظة من الزمن
إذا بزوج « آكلينا » بغتة
يفادر البيت لصحن الدار**

جمجم السجين الوافد من روسيا الصغرى يقول وهو ينظر اليه
نظرة شزاء ، وكان يسير بجانبى :

– ما اقل حياهم •

وقال آخر بلهجة جادة قاطعة :

– هذا رجل لا خير فيه !

لم أستطع أن أفهم أبدا لماذا كانوا يذمون سكوراتوف ، ولماذا كانوا
يحتقرون السجناء المرحين كما أتيح لى أن ألاحظ ذلك في هذه الأيام
الأخيرة • وقد عزوت غضب السجين الوافد من روسيا الصغرى وعزوت
غضب الآخرين الى عداوة شخصية بينهم وبين سكوراتوف • غير أنني
أخطأت الظن والتقدير • فانما هم كانوا ساخطين على سكوراتوف لأن
سكوراتوف لم يكن يصطنع هيئة الوقار الزائف التي كان يصطنعها كل
من السجن ، ولأنه كان رجلاً « لا خير فيه » على حد تعبيرهم • ومع
ذلك فقد كانوا لا يحقنون على جميع المازحين ، ولا يعاملونهم جميعاً كما

كانوا يعاملون سكوراتوف • لقد كان بين المازحين من يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم ، ولا يغفرون لأحد أن يسىء اليهم فى شيء ، فكان الآخرون يحترمونهم ويوقروهم شاءوا أم أبوا • كان بين عصبتنا واحد من هذا النوع ، فتى لطيف دائم الفرح ، لم أعرفه على حقيقته الا فيما بعد • كان شاباً فارح الطول ، حسن القامة ، على خده ثؤلول كبير جميل : وكان فى وجهه تعبير مضحك جداً ، وان يكن على جانب من وسامة الطلعة ونباهة العقل • كان هذا الشاب يدعى باسم « المستكشف » ، لأنه كان قد خدم فى سلاح الهندسة ، وهو ينتمى الآن الى القسم الخاص • وسأتحدث عنه فيما بعد •

هذا الى أن السجناء « الجادين » لم يكونوا جميعاً يفصحون عن أنفسهم كصاحبنا السجين الوافد من روسيا الصغرى ، حين يسوؤهم أن يروا الرفاق مرحين • لقد كان فى سجننا أفراد يهدفون الى الظهور ويرغبون فى التميز ويسعون الى التفوق ، سواء بما أوتوه من حذق فى العمل أو براعة فى التصرف أو القوة فى الطبع أو توقد فى الذهن • وكان عدد كبير منهم يملكون ذكاء وقوة ، ويصلون الى تحقيق الأهداف التى يرمون اليها ، ألا وهى أن يكون لهم على رفاقهم سلطان وغلبة ونفوذ • وكان هؤلاء يناصب بعضهم بعضاً أشد العداء ، وكان لهم حساد كثيرون • وكانوا ينظرون الى سائر السجناء بوقار ورسانة يمازجها لطف وتواضع ، ولا يشتجرون فى غير داعٍ الى الاشتجار • ولما كان رأى ادارة السجن فيهم حسناً ، فانهم يتولون تسيير الأعمال بمعنى من المعانى • ما من أحد منهم ينزل الى مستوى التشاجر بسبب أغان تُغنى مثلاً : أنهم لا ينجحون الى هذه الدرجة • ولقد كان جميع هؤلاء لطافاً مهذبين فى معاملتى طوال المدة التى قضيتها فى السجن ، ولكنهم لا يسارتونى كثيراً ، وسيأتى حديث هذا بالتفصيل أيضاً •

وصلنا الى الشاطئ • ان المركب العتيق الذى يجب علينا أن نفكه غاطس ، تحت ، فى جليد النهر • وعلى الطرف الاخر من النهر كانت تمتد المروج زرقاء ، ويلوح الافق حزينا مقفرا • كنت أتوقع أن أرى جميع السجناء ينفدون للعمل بجهد ونشاط وحماسة • ولكن لم يحدث شئ من ذلك ، فهم أولاء بعض السجناء يجلسون بغير اكتراث ولا مبالاة على جذوع من جذوع الشجر كانت ملقاة قرب الشاطئ • وها هم جميع السجناء تقريبا يسلمون من أحذيتهم أكياسا تحتوى على تبغ من التبغ الذى يدخنه سكان هذه المنطقة (وكان يباع فى السوق أوراقا ، سعر الرطل منه ثلاثة كويكات) ، فيأخذون يشعلون غلاينهم بينما يتحلق الجنود من حولنا ويستعدون لمراقبتنا وقد ظهرت فى وجوههم امارات الضجر وعلامات السأم •

قال أحد السجناء بصوت عال ، دون أن يتجه بكلامه مع ذلك الى أحد :

— من ذا الذى خطر بباله تقويض هذا المركب ؟ أتراهم فى حاجة الى حطب ؟

فقال آخر :

— ان من خطرت ببالهم هذه الفكرة الجميلة هم أولئك لا يخافون منا يا صاحبي !

وقال الأول بعد صمت :

— أين يذهب هؤلاء الفلاحون ؟

انه لم يسمع الجواب عن سؤاله • فهو يلقي الآن سؤالاً جديداً ، مشيراً بأصبعه الى جماعة من الفلاحين كانوا يسرون رتلاً متلاحقاً ، فى

بعيد ، فوق الثلج الذى لم تغطاه قدم بعد • التفت جميع السجناء الى تلك الجهة فى تـوان وكسل ، وأخذوا يتهمون على هؤلاء المارة تزجية للوقت • كان أحد هؤلاء الفلاحين ، وهو آخرهم فى الرتل ، يمشى مشية غريبة مضحكة ، مباعدا ذراعيه مائلا برأسه الى جانب ؛ وكان يضع على راسه قلنسوة عالية جدا لها شكل قالب من الفطير • وكان ظل قامته يرتسم ارتساماً واضحاً على الثلج الأبيض •

قال أحد رفاقى وهو يقلد نطق الفلاحين :

- انظروا الى لباس أخينا بتروفتش ما أجمله !

والغريب فى الامر أن السجناء كانوا ينظرون الى الفلاحين نظرة استعلاء وتكبر ، رغم أن أكثرهم ، هم أنفسهم ، من الفلاحين •
- وانظروا الى آخرهم خاصة ••• وكأنه يزرع فجلاً !

وقال ثالث :

- ما أضخم قلنسوته ••• لا شك أن عنده مالا كثيراً •

وأخذ السجناء جميعا يضحكون ، ولكن فى رخاوة وتوان ، كأنما هم يضحكون على مضض • وفى أثناء ذلك وصلت بائعة أرغفة من الخبز الأبيض : انها امرأة نشيطة الحركة ، يقظة الهيئة • فاشتري منها السجناء خبزاً بالكوبكات الخمسة التى تصدق عليهم بها ساكن المدينة ، واقتسموها بالتساوى •

واشتري الفتى الذى يبيع أرغفة الخبز الأبيض فى السجن ، اشتري من المرأة عشرين رغيفاً بعد أن أجرى بينه وبينها مناقشة حارة حادة فى سبيل أن تنقص له الثمن ؛ ولكنها لم تقبل ، فقال لها :

- طيب ••• ألا تعطينى « هذا » على الأقل ؟

— ما هو ؟

— هذا الذى تعاف أكله الفئران •

قالت المرأة صامته مقهقهة :

— طاعون يصيبك •

وأخيراً وصل صف الضابط المكلف بمراقبة العمل ، يحمل بيده

حصا ، فقال :

— لماذا تقعدون ؟ هيا أبدأوا العمل !

فأجابه أحد « المتزعمين » ، يقول وهو ينهض متاقلاً :

— عيّن لنا أعمالاً يا ايفان ماتفكش •

— انما عملكم أن تخرجوا المركب ، فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟

ونهض السجناء أخيراً ونزلوا نحو النهر بخطى بطيئة متاقلة •

وظهر « مديرون » كثر ، مديرون قولاً لا فعلاً ، على الأقل • كان

ينبغى أن لا يحطم القارب كيفما اتفق ، وانما يجب الاحتفاظ بالواح

الخشب سليمة لم يمسسها أذى ، ولا سيما الألواح العرضية المثبتة فى

قاع المركب على طوله ، وذلك عمل طويل مضجر •

صاح أحد السجناء يقول ، ولم يكن « مديراً » ولا « متزعماً » بل

كان عاملاً بسيطاً :

— انما يجب سحب هذا اللوح قبل كل شيء ••• هيا يا شباب ! ••

ان هذا الرجل المسالم الذى كان على جانب من غباء لم يقل قبل

الآن كلمة واحدة ؟ وها هو ذا ينحنى فيمسك بيديه لوحاً ثقيلًا من ألواح

الخشب منتظراً أن يهب الآخرون الى مساعدته ، ولكن أحداً لم يلب

نداءه •

دمدم واحد يقول من بين أسنانه :

- حاول ! إنك لن ترفعه ! ولو جاء جدك الدب لما استطاع الى رفعه

• سيلاً •

- هه ! ألا نبدأ يا اخوان ! اننى لا أعرف كيف ...

كذلك قال الرجل الذى يادر بالعمل ، كذلك قال مرتبك الهيشة

وهو يترك اللوح وينهض منتصباً •

- لن نقوم بالعمل كله وحدك فلماذا هذا التعجل ؟

فأجاب المسكين حائراً مضطرباً يقول معذراً :

- ولكننى يا رفاق ، ما قلت قولى الا هكذا ...

صرخ صف الضابط المكلف بمراقبة العمل ، وصرخ مرة أخرى

وهو ينظر الى هؤلاء الرجال العشرين الذين لا يصرفون كيف يبدأون

عملهم وبماذا يبدأونه :

- هل يجب أن ندثركم بأعطية تستدفئون بها ؟ أم هل يجب أن

ندخركم مؤونة لفصل الشتاء ؟

- ومن تأنى نال ما يتمنى ، والعجلة من الشيطان يا ايفان ماتفتش •

ليس المتسرع بمنجز عمله •

- ولكنك لا تعمل شيئاً البتة يا سافلوف ! ما لك تفضل محملاً

بعينيك ؟ أتراك تريد أن تيعهما ؟ ... هيا ابدأوا •

- ما عساي أفعل وحدى •

- حدد لنا عملاً يا ايفان ماتفتش •

– قلت لكم اننى لن أحدد لكم أعمالاً بعينها • كل ما عليكم هو أن تفكوا المركب فمتى فرغتم من ذلك انصرفتم الى المنزل • ها ابدأوا •

أخذ السجناء يعملون ، ولكنهم يعملون على مضض ، فى توان وتراخ وكسل • ان المرء ليفهم خلق الرؤساء وغيظهم حين يرى هذه الجماعة من الرجال الاشداء الاقوياء مقبلين على العمل بهذا التوانى كأنهم لا يعرفون كيف يبدأون • وما ان اتزعت العارضة الاولى وهى صغيرة جداً حتى انكسرت ، فأسرع السجناء يقولون للمفوض من قبيل التسويغ والتبرير : « انكسرت من تلقاء ذاتها • كان لا بد من العمل بطريقة أخرى ، كان لا بد من تدبر المهمة والاحتياال عليها على نحو اخر • ما العمل ؟ » • وأعقبت ذلك مناقشة طويلة بين السجناء استجالت شيئاً فشيئاً الى مسببات وشتائم • وكاد الأمر أن يمضى الى أبعد من ذلك ••• وصرخ المراقب من جديد ملوحاً بعصاه • ولكن العارضة الثانية انكسرت كما انكسرت العارضة الأولى • وأدرك الجميع عندئذ أنهم فى حاجة الى فؤوس وأدوات غير هذه الأدوات ، فأرسل الى القلعة شابان يحرسهما خفر للمجئء بالآت أخرى وجلس سائر السجناء بانتظار عودتهما على المركب جلسة هادئة مريحة وسلوا غلايينهم وعادوا يدخون •

بصق المراقب احتقاراً ثم دمدم يقول متنعصاً متأففاً :

– ان العمل الذى تقومون به لن يقتلكم ••• تباً لكم من ناس ••• تباً لكم من ناس !

قال ذلك ثم حرك يده باشارة تدل على التذمر ، ومضى الى القلعة وهو يهز عصاه ويلوح بها •

وبعد ساعة من الزمان أقبل الناظر فأصغى الى كلام السجناء بهدوء ثم أعلن أنه يحدد لهم عملاً معيناً هو أن يفكوا أربع عوارض بكاملها دون

أن تنكسر وأن يقوضوا جزءاً كبيراً بعينه من المراكب حتى اذا أنجزوا هذا العمل كان في وسعهم ان يعودوا الى المنزل • ان المهمة ضخمة في الواقع • ولكن ليتك رأيت السجناء كيف اندفعوا الى العمل اندفاعاً وكيف خفوا اليه سراعاً ! أين هذا مما كانوا فيه منذ هنيئة من كسل وتوان وتراخ وجهل ؟ هذه هي الفؤوس ترتفع وتهوى حتى لكانها ترقص ، فنخرج المسامير والأوتاد ؟ والذين لا يملكون فؤوساً يدسون تحت العوارض هراوات ثخينة فاذا بالعوارض تخرج سليمة لم يمسهها سوء • ما كان أشد دهشتي حين كنت أراها تُرفع كاملة وتُنزع صحيحة لم تنقوض ولم تنكسر ! كان السجناء يسرعون في عملهم ، وكانهم قد أصبحوا على جانب عظيم من الذكاء دفعة واحدة • هم الآن لا يتحدثون ولا يتسامون ، وكل واحد منهم يعرف حق المعرفة ما كان عليه أن يقوله وما كان عليه أن يعمل وما كان عليه أن ينصح به ، ويعرف المكان الذي يجب أن يقف فيه والموضع الذي يجب أن يكون عنده • وفرغ السجناء من انجاز المهمة التي عهد اليهم بانجازها قبل أن يقرع طبل العودة بنصف ساعة ، فرجعوا الى المنزل متعبين مكدودين لكنهم رجعوا مسرورين مبتهجين بأنهم اختصروا نصف ساعة من الوقت الذي يفرض عليهم النظام أن يعملوا أثناءه • أما فيما يتصل بى فقد لاحظت أمراً غريباً وهو أنني حينما اندسست لأعمل وأساعد العاملين شعرت أنني فى غير مكانى ، فلقد كانوا يضيّقون بى وينزعجون منى ويطردوننى من كل جهة أمضى اليها وهم ينهروننى نهراً يوشك أن يكون اهانة أو شتماً •

وهذا واحد منهم وهو أرثهم ثياباً وأحقرهم هيئة ، واحد منهم ما كان له أن يجرواً أن يتفوه بكلمة واحدة أمام السجناء الآخرين الذين هم أكثر منه ذكاء وحذقاً ، يشعر أن من حقه أن يزجرنى اذا أنا اقتربت منه زاعماً

أنتى أضايقه فى عمله • وأخيراً قال لى أحدهم وهو من أكثرهم حذقاً ومهارة ، قال لى بصراحة وفضافة :

— ما مجيئك الى هنا ؟ ما عساك تستطيع أن تعمل ؟ هيا امض ! لماذا تأتي حين لا يستدعيك أحد ولا يناديك أحد ؟ •

وسرعان ما قال آخر :

— دع عنك هذا •

وصاح ثالث يقول :

— آو لى بك أن تحمل جرة فتمضى تحمل ماءً الى المنزل الذى يبنى هناك أو أن تذهب الى الورشة التى يفرم فيها التبغ : فلا حاجة بنا اليك هنا ولا عمل لك فى هذا المكان •

اضطرت أن أتحنى • ألا ان الابتعاد جانباً حين يعمل الآخرون لأمر يشعر منه المرء بالخزى والعار • وحين مضيت الى الطرف الآخر من المركب ازدادوا شتما لى وازدراء بى وكانوا يقولون : « انظروا الى هؤلاء العمال الذين يرسلونهم الينا ! ما حاجتنا الى مثل أولئك القتيان الأشداء ؟ » •

ولقد كانوا يقولون ذلك كله عامدين • كان يسعدهم أن يسخروا ببئيل من النبلاء ، فكانوا ينتهزون هذه الفرصة ليرضوا حاجتهم الى ذلك ويحققوا رغبتهم فيه • ولا شك أن القارئ يفهم الآن لماذا كانت الفكرة الأولى التى قامت فى ذهنى عند دخولى السجن هى أنتى تساءلت كيف ينبغي أن يكون سلوكى مع هؤلاء الناس ؟ لقد كنت أحس أن حوادث كهذه الحوادث لا بد أن تتكرر كثيراً لكننى قررت أن لا أغير خطى أية كانت هذه الاحتكاكات وأية كانت هذه الاصطدامات • كنت أعلم أنتى

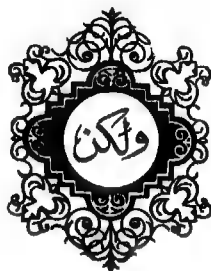
على صواب في تفكيرى هذا ، فقررت أن أحيا بينهم على بساطة واستقلال دون أن أظهر أيسر رغبة في التقرب اليهم ، ولكن دون أن أصددهم أيضا اذا هم أرادوا أن يتقربوا الى من تلقاء أنفسهم ؛ وقررت أن لا أخشى أبدا تهديدانهم وأن لا أخاف كرههم وبغضهم وأن أظهار ما أمكننى التظاهر بأننى لا ألاحظ هذه التهديدات ولا ألقى بالآ الى هذا الكره وهذا البغض ، وقررت أن أنأى عنهم فى بعض اللحظات وأن لا أشاطرهم بعض ما الفوه من عادات ، أى قررت أن لا أشد مصاحبتهم وأن لا أسعى الى مرافقتهم • لقد شعرت أنهم سيحتقرونى ان لم أسلك هذا السيل • وأيقنت فيما بعد أن محتدى النيل يخولنى فى نظرهم حق الاستلاء عليهم ويبيع لى أن أقتضيهم مداراتى ومراعاتى وأن أكون فى معاملتهم صعب المراس وأن لا أعمل يدي قط • صحيح أن مثل هذا السلوك سيحملهم على شتى وسبى فى سرهم ولكنه سيجيرهم على أن يحترمونى • غير أننى كنت عاجزاً عن تمثيل هذا الدور • لم أستطع فى يوم من الأيام أن أصطنع تلك المظاهر التى كانوا يعدونها لاثقة بالسادة النبلاء ، ولكننى عزمت عزماً قاطعاً على أن لا أتنازل عن شئ من تربيتى وعلى أن لا أفرط فى شئ من اقتناعى الحيمة • ولو قد حاولت أن أنال الحظوة عندهم برفع الكلفة بينى وبينهم لعدونى جباناً ولعاملونى كما يعامل جبان • لم يكن ... ف بالمثل الصالح الذى يجب أن أقتدى به • لقد كان يشى بهم الى الميجر فكانوا يخشونه ، ويخافون منه • ولم أكن من جهة أخرى أحرص على أن أنفر منهم وأن أبتعد عنهم مستعليا متكبرا متجبراً كما كان يفعل البولنديون • ولقد شعرت بما يحملون لى من عداوة وبغضاء ، فكنت أحاول أن أكون مفيدا نافعا بدلاً من أن أشكو حظى وأندب نفسى • ولئن كنت مقتنعا بأنهم سيغيرون رأيهم فىّ بعد حين فلقد كنت أشعر بغير قليل.

من المذلة والهوان حين كنت أرى أننى أحاول أن أعمل دون أن أعرف كيف أحتال لذلك وكيف أتدبره ، وحين كنت ألاحظ أن هذا يحملهم على ازدرائي ازدراءً مشرعاً •

حين عدت في المساء الى المنزل بعد العمل متعباً مضطرباً أستولى على حزن عميق • قلت لنفسي : « لسوف أعيش على هذا النحو نفسه آلاف الأيام » • وفيما كنت أتروض وحيداً واجماً مفكراً مع هبوط الليل على طول السور وراء الثكنات رأيت بولو يهرع نحوى قدماً على حين فجأة • ان بولو هذا كلب السجن • ذلك أن للسجن كلبه كما كان لكتائب الفرسان وفصائل المشاة وبطاريات المدفعية كلابها • انه يعيش فى هذا السجن منذ زمن طويل • وهو لا ينتمى الى أحد بعينه بل يعد كل واحد من السجناء مولاه • وهو يعيش من فضلات المطبخ وفتات الطعام • انه كلب كبير أسود ذو بقع بيضاء ، ليس بالمتن كثيراً ، له عينان ذكيتان وذنب كثيف لم يكن يلاعبه أحد ولم يكن ينتبه اليه أحد وقد جعلته صديقاً لى مسروراً مجبوراً • واذا أنه لم يرني طوال ذلك النهار أنا الذى كنت أول من خطر بباله أن يلاطفه منذ سنين فقد مضى يبحث عنى فى كل مكان حتى اذا لمحنى أسرع يلقانى وهو ينبج • لا أدري ما الذى شعرت به عندئذ ولكننى أخذت أقبله وضممت رأسه الى صدرى فوضع رجله على كتفى وأخذ يلحق وجهى • قلت لنفسي هذا هو الصديق الذى ترسله الى الأقدار • وصرت طوال الأسابيع الأولى الشاقة التى قضيتها فى السجن أمضى مع بولو كلما عدت من العمل فى المساء وقبل أن أعنى بأى شئ آخر ، أمضى مع بولو مسرعاً الى ما وراء الثكنات ، فكان بولو يتوابع

أمامي فرحاً وكنت أتناول رأسه بذراعي وأقبله ثم أقبله ثم أقبله • كان
شعور عذب جداً يستولى على قلبي وكان هذا الشعور في الوقت نفسه
ممضاً مرّاً • ما زلت أتذكر كم كان يسرني أن أتصور (لقد كنت أتلذذ
بعذابي) أنه لم يبق في هذا العالم إلا مخلوق واحد يجني ويتعلق بي
منذ وصولي اذ نفخته قطعة من الخبز • كنت اذا لابعثه جمداً في مكانه
سائناً وأخذ يلقي على نظرات وديعة ويحرك ذيله في رفق وهدوء •
هو صديقي ، صديقي الوحيد ، كلبى الوفى بولو •

أصحاب جرد بروف



الزمان كان ينقضى حتى ألفت حياتي الجديدة
شيئاً فشيئاً • أصبحت المشاهد التي أراها أمام
عيني كل يوم لا تحزنني كما كانت تحزنني من
قبل • ويمكن أن أقول بإيجاز إن السجن وسكانه
وعاداته أصبحت تتركني غير مبال ولا مكترث • صحيح أن النصائح مع
هذه الحياة كان أمراً مستحيلاً ، ولكن كان عليّ أن أقبل هذه الحياة من
حيث أنها لا محيد عنها ولا مناص منها • دفنت في أعماق نفسي جميع
أنواع القلق التي كانت تهزني وتبث الاضطراب في قلبي • • أصبحت
لا أطوّف في أرجاء السجن ضائعاً تائهاً ولا أدع للغم أن يستولى على •
وقد قلّ الفضول المتوحش الذي كان يحيطني به السجناء فأصبحوا
لا ينظرون اليّ بتلك الوقاحة المتصنعة التي كانوا ينظرون اليّ بها قبل
ذلك • أصبح أمرى لا يعينهم كثيراً • وقد أَرْضاني هذا كل الرضى •
صرت أتجول في الثكنة كأنني أتجول في منزلي • حتى إذا جاء الليل
عرفت مكاني الذي أوى اليه • حتى لقد ألفت أموراً كان تصويرها وحده
يمكن أن يبدو لي قبل ذلك أمراً لا سبيل إلى قبوله • أصبحت أذهب في

كل أسبوع الى الحلاف أسلمه رأسى ليحلقه لى • لقد كنا ندعى فى كل يوم من أيام السبت الى مقر هيئة الحرس بعضاً وراء بعض ، فكان حلاقو الفوج ينسلون جماجمنا بماء الصابون البارد فى غير شفقة ولا رحمة ثم يكشطونها بامواسهم المثلثة كسطا • اننى ما ان أتذكر هذا العذاب حتى تسرى فى جلدى رعشة • على أننى لم ألبث أن وجدت دواءً ، فان آكييم آكيتمش قد دلتنى على سجين من القسم العسكرى كان يحلق للهواة بموساه الخاصة ويتقاضى أجره على ذلك كوبكا واحدا • هذا هو مورد رزقه • كان كثير من السجناء يختلفون اليه تحاشياً للحلاقين العسكريين دون أن يكونوا مع ذلك أناساً مترفين • وكان حلاقنا يطلق عليه اسم « الميجر » لا أدرى لماذا ! ولو سألتنى عن وجوه الشبه بينه وبين الميجر لارتبكت فما أعرف بماذا أجيب • اننى وأنا أكتب هذه الأسطر أرى ذلك « الميجر » ووجهه الضامر رؤيه واضحه • انه شاب طويل القامة كثير الصمت بليد العقل دائم الاستغراق فى مهنته • ما كان يرى قط الا وفى يده سير جلدى يسن عليه فى الليل والنهار موسى حادة • لا شك أنه قد اتخذ هذا العمل غاية قصوى لحياته • ولقد كان يشعر فعلاً بسعادة عظمى حين يحسن سنّ موساه وحين يجيئه أحد يلتمس خدماته • وكانت صابونه ساخنة دائماً وكانت يده خفيفة جداً كالمخمل ليناً ورفقاً ، وكان هو يزهو بحذقه ويتباهى بمهارته حتى اذا ألقى اليه بأجره ، وهو كوبك واحد ، تناوله غير مقبل عليه ولا حافل به فكأنه كان يعمل شغفاً بالفن لا طمعاً بالأجر •

وفى ذات يوم بينما كان آ • • • فى يتكلم عن هذا الحلاق زلت لسانه فسماه بالميجر وكان ذلك بحضور الميجر نفسه من سوء الحظ فاستشاط الميجر غيظاً واستبد به حنق شديد فعاقب الرجل عقاباً صارماً • صاح يقول له وهو يهزه هزاً قوياً على عادته والزبد يرغى فى فمه :

– هل تعلم يا وغد ما معنى ميجر ؟ هل تدرك يا وغد ما قيمة الميجر؟
 فكيف تجرؤ ان تسمى باسم الميجر سجيناً حفيراً امامى وبحضورى ؟
 وكان آله • ف الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يتفاهم مع انسان
 كهذا الانسان •

لقد بدأت أحلم باطلاق سراحى منذ أول يوم من أيام اعتقالى • كان
 الشاغل الوحيد الذى أوتره على غيره هو أن أعد الايام التى سابقاها فى
 السجن ، اعداها الف مرة ومرة ، بالف طريقة وطريقة • كنت لاأستطيع
 أن أفكر فى شىء آخر • ان كل سجين محروم من حريته لأجل معلوم
 لا يفعل غير ما افعل • ذلك أمر لا يراودنى فيه شك • لا استطيع ان
 أقول هل كان السجناء يعدون الايام مثلما أعداها • ولكن جموح أحلامهم
 وطيش آمالهم واندفاعهم فى الأمنيات كان يدهشنى كثيراً • ان الآمال التى
 تداعب نفس السجين تختلف اختلافاً أساسياً عن الآمال التى يتغذى بها
 قلب انسان حر طليق • ان الانسان البحر الطليق قد يرجو تحسين أوضاعه
 او تحقيق مشروع من مشاريعه ، ولكنه بانتظار ذلك يحيا ويعمل • فالحياة
 الوافية تجره فى اعصارها ، ولا كذلك السجين : انه يحيا اذا شتم ، ولكن
 ما من سجين محكوم بالأشغال الشاقة عدداً من السنين يسلم بقدرة على
 أنه نىء حاسم ، على أنه جزء من حياته الحقيقية • تلك غريزة لديه •
 هو يحس أنه فى غير منزله ؛ هو يحسب أنه فى زيارة ان صح التعبير ؛
 هو ينظر الى السنين العشرين التى حكم عليه بها نظرتة الى سنتين فى أكثر
 تقدير ؛ هو واثق من أنه حين يقضى مدة حكمه فى الخامسة والخمسين
 من عمره لن يكون أقل نضارة ولن يكون أقل فتوة منه فى الخامسة
 والثلاثين ؛ هو يحدث نفسه قائلاً : « ما يزال أمامنا زمان طويل نحياه » ،
 وهو يطرد فى اصرار وعناد الخواطر التى تشبط المزيمة والشكوك التى
 تفت فى العضد • وحتى المحكوم بالسجن المؤبد يأمل أن يصل فى ذات

يوم أمر من بطرسبرج يقول : «انقلوا فلاناً الى مناجم نرتشنسك وحددوا موعداً للإفراج عنه • ما أجمل هذا ! أولاً لأن الوصول الى نرتشنسك يستغرق ما يقرب من ستة أشهر ولأن حياة القافلة المتجهة الى مكان من الامكنة تفضل الحياة فى السجن مائة مرة ؟ وثانياً لأنه سيقضى فترة الاعتقال فى نرتشنسك ثم • • • •

ما أكثر الشيوخ الشيب الذين يفكرون على هذا النحو !
ورایت فى توبولسك رجالاً مشدودين الى الجدران بسلاسل • ان طول السلسلة متران • وعلى مقربة منهم مضاجع يرقدون فوقها • أنهم يشدون بهذه السلاسل لجريمه ارتكبوها بعد ترحيلهم الى سيبيريا • وهم يلبثون على هذه الحال من التكيل بالأغلال خمس سنين أو عشرة • جميعهم تقريباً من قطاع الطرق • لم أر بينهم الا واحداً كان يبدو عليه أنه انسان طيب المحتد • كان فى الماضى موظفاً فى احدى دوائر الدولة • وهو يتكلم بلهجة حلوة • ويصفر أثناء حديثه • ويصطنع ابتسامة محببة • لقد أظهرنا على السلسلة التى كبل بها • وذكر لنا الطريقة المثلى للاضطجاع والرقود لا شك أنه انسان لطيف • ولقد كان جميع هؤلاء الأشقياء يسلكون سلوكاً لا غبار عليه • حتى لكأن كلاً منهم راض عما كتب له • ولكن الرعبة فى انهاء مدة التكيل تحرقه حرقاً وتأكل نفسه أكلاً • فاذا سألتهمونى لماذا ؟ قلت لأنه سيخرج عندئذ من زنزاتته الواطئة الخائفة الرطبة التى لا تعدو أن تكون نوافذها آجرات منزوعة من أماكنها • وسيستطيع عندئذ أن يخرج الى فناء السجن وأن • • • بل هذا كل شئ فلن يسمح له يوماً بالخروج من فناء السجن • انه لا يجهل أن جميع الذين كبلوا بالسلاسل لن يبرحوا السجن فى يوم من الأيام • وأنه سيقضى فى السجن عمره كله • وأنه سيقضى فيه نجه • انه يعلم ذلك • لكنه يتمنى أن يتخلص من سلسلته ؟ وهل كان يمكنه لولا هذا التمنى أن يبقى مشدوداً

الى جدار خمس سنين أو ستاً دون أن يموت أو يجن ؟ هل يمكنه أن يقاوم هذا ؟

سرعان ما أدركت أن العمل وحده يستطيع أن ينقذنى « أن يقوى صحتى وجسمى ، على حين أن القلق النفسى المستمر والاهتياج العصبى الدائم ، والهواء المحبوس المربوب فى الثكنة » سيهدمنى تهديماً • كنت أحدث نفسى قائلاً : « ان الهواء النقى والتعب اليومى وتعود حمل الانتقال لا بد أن يقوينى ، فبفضل ذلك سأخرج من السجن سليماً معافى قوى الجسم موفور الحيوية • • ولم يخطئ ظنى فان العمل والحركة قد نفعانى كثيراً •

وما أشد ما كنت أشعر به من جزع حين كنت أنظر الى أحد رفاقى (وهو سيد من السادة) فأراه يذوب كما تذوب شمعة ، مع أنه حين وصل الى السجن يوم وصولى انا كان شاباً وسيم المحيا قوى البنية صلب العود ، حتى اذا خرج من السجن كانت صحته قد تدمرت ، وكان شعره قد ابيض ، وكانت ساقاه قد ضعفتا فما تحملاه ، وكان الربو يخنق صدره خفياً • كنت حين انظر اليه اقول لنفسى : « لا ، انى أريد ان أعيش ، ولسوف أعيش » • ولقد كان من شأن حى للعمل أن جلب لى فى أول الامر احتقار رفاقى وازدراءهم بى وسخرياتهم اللاذعة منى ، ولكننى كنت لا ألقى بالاً الى هذا ، وكنت أمضى نشيطاً الى حيث أرسل للعمل من الأعمال ، كحرق الرخام ودقه مثلاً • ان هذا العمل كان من أول الاعمال التى عهد الي بها ، وهو عمل سهل • ولقد كان المهندسون يحاولون جهدهم أن ييسروا العمل على السجناء الذين ينتمون الى طبقة النبلاء • والحق أن ذلك لم يكن من قبل التسامح والمحابة ، بل كان ضرباً من العدالة والانصاف • والا أفلا يكون غريباً أن يكلف بعمل واحد بعبه رجل ألف العمل بيديه ورجل آخر لا تبلغ قواه نصف قوى الأول ولا

عمل بيديه فى يوم من الايام ؛ على ان هذا « التدليل » لم يكن مستمرا •
حتى لقد كان يتم خفيه لان الرقابه علينا كانت سديده • واد لم تكن
الاعمال المضنيه المرفهه نادره فكثيرا ما كان يتفق ان تكون المهمه فوق
ما تطيقه قوة النبلاء • فكان هؤلاء يلقون من العناء والعداب ضعفى ما كان
يلقاه منهما رفاقهم • كان يرسل لدقّ الرخام ثلاثة رجال او اربعة فى
العادة ، هم فى جميع الاحيان تقريباً شيوخ أو أشخاص ضعفاء - ونحن
من هؤلاء طبعاً ، يُضَم اليهم عامل خبير عارف بالمهنة • وقد ظل يصحبنا
الى عملنا هذا شخص واحد خلال عدة سنين هو المازوف • انه رجل
قاسٍ ، مسن ، قد لوحته الشمس ، هزيل هزالاً شديداً ؛ وهو الى ذلك
قليل الكلام صعب المراس • كان يحترقنا احتقاراً عميقاً ، ولكنه يبلغ من
قلة التعبير عن دخيلته أنه كان لا يكلف نفسه عناء شتتاً أو اهانتاً •
والسقيفة التى كنا نحرق الرخام تحتها قد بنيت على الشاطئ الوعر المنحدر
المقفر من النهر • وكان منظر النهر فى الشتاء حزيناً حيث يكثر الضباب ،
وتبدو الضفة المقابلة عندئذ بعيدة بعيدة • ان فى هذا المنظر المتوحش
المتجهم الاجرد شيئاً يقبض الصدر ويمزق القلب ، ولكن المرء يشعر
بمزيد من الحزن حين تشرق شمس ساطعة فوق هذا السهل الأبيض
الممتد الى غير نهاية • ان المرء يتمنى عندئذ لو يطير الى بعيد فى هذه
السهوب التى تبدأ عند الضفة الأخرى وتمتد الى أكثر من ألف وخمسمائة
فرسخ جنوباً ، منبسطة كأنها غطاء واسع • كان ألمانوف يأخذ فى العمل
صامتاً عابس الوجه مكفهر الأسارير ، وكنا نشعر بالخجل من أننا
لا نستطيع أن نساعده مساعدة ذات بال ، ولكنه كان ينهى عمله وحده
لا يطلب منا عوناً كأنما هو يريد أن يفهمنا ذنوبنا فى حقه وأخطائنا تجاهه
وأن يجعلنا نشعر بالحسرة والأسف من أننا أناس لا خير فينا ، ولا فائدة
منا • وكان هذا العمل هو اشغال الفرن لحرق الرخام الذى نكوّمه فيه •

حتى اذا احترق الرخام احتراقاً تاماً فى اليوم التالى كان علينا ان نخرجه من الفرن • فكان كل واحد منا يتناول مجرفة ثقيلة فميلا صندوقا من الرخام المحترق ويأخذ يدقه • ان هذا العمل لممتع ، فالرخام الهنس سرعان ما يستحيل الى تراب ابيض ساطع • انه يتفتت بسرعة وسهولة • كنا نرفع مطارقنا الثقيلة ونهوى بها على الرخام بضربات رهيبه نعجب بها نحن انفسنا : حتى اذا تعبنا شعرنا بمزيد من الخفه والنشاط • ان خدودنا تحمر وان الدم يتدفق فى عروقنا تدفقاً أسرع • وكان أرمازوف يفضل عندئذ بالنظر الينا متواضعا مترقفاً متلطفاً كأنما هو ينظر الى صبيه صغار • وكان يدخلن غليونه فى هذه الاثناء وقد لاح فى وجهه الرضى والتسامح دون أن يستطيع منع نفسه من التأفف والتذمر مع ذلك متى فتح أحد فمه • وكذلك كان امره مع جميع الناس على كل حال • وأظن أنه فى قرارة نفسه رجل طيب شهيم •

وقد كلّفت أيضاً بعمل آخر هو أن أدير رحى المخرطة • كانت هذه الرحى عالية ثقيلة ، وكان لا بد لى من بذل جهود كثيرة من أجل أن أديرها ، لا سيما حين يكون العامل (وهو من عمال ورشات سلاح الهندسة) بصدد صنع درابزين سلم أو قائمة منصدة كبيرة مما يحتاج الى جـذع شجرة كامل تقريباً • واذ لم يكن فى وسع رجل واحد أن ينهض بهذا العمل ، فقد كانوا يرسلون سجينين هما أنا والسجين ب ••• الذى كان ينتمى الى طبقة السادة فى الماضى • كان هذا العمل يقع على عاتقنا فى جميع الأحيان تقريباً خلال عدة سنين متى كان هنالك شىء يجب خراطته • وكان ب ••• ضعيف البنية هزيل الجسم ما يزال شاباً ، وكان مصابا بمرض فى صدره • لقد سجن قبلى بسنةٍ مع رفيقين آخرين هما من النبلاء أيضاً ؛ فأما الأول فكان يصلى ليل نهار (وكان السجناء يحترمونه احتراماً كبيراً بسبب ذلك) • وقد مات أثناء وجودى بالسجن • وأما الثانى فكان فتي

فى ريعان الشباب نضر الوجه زاهى اللون قوى الجسم شجاع القلب قد حمل رفيقه ب * * * * * على ظهره مسافة سبعمائة فرسخ لأن رفيقه مسقط فى الطريق من شدة التعب بعد نصف مرحلة من مراحل الرحلة • ولذلك كانت صداقتهما وثيقة قوية • ان ب * * * شاب كريم النشأة رفيع التهذيب نبيل الخلق طيب النفس لكن المرض قد أفسد روحه وجعله سريع الغضب شديد الحنق • كنا ندير الرحى متعاونين وكان هذا العمل يشوقنا ويلقى هوى من نفوسنا ، وكنت أعدده أنا رياضة ممتزة •

وكنت أحب جرف الثلج حباً خاصاً • وذلك ما كنا نفعله بعد الاعاصير التى كانت تهب كثيراً فى فصل الشتاء ، فإذا هب اعصار من هذه الاعاصير يوماً كاملاً دفن عدد من السيوت تحت الثلج حتى النوافذ ، هذا اذا لم يطمر طمرا كاملاً • حتى اذا توقفت الزوبعة وظهرت الشمس من جديد امرنا بنزع الثلج عن المباني التى غطتها اكوامه • وكنا نرسل الى هذا العمل أفواجا كبيرة وربما أرسل اليه جميع السجناء بلا استثناء • فكان كل منا يحمل مجرفة ، وكان على كل منا أن ينجز عملاً محدداً يبدو له فى كثير من الاحيان أن من المستحيل عليه أن ينجزه الى آخره • كان السجناء يشرعون فى العمل خفافاً نشطين • والثلج لا يكون قد تلبد بعد ولا يكون قد تجلد منه الا سطحه • فكنا نجرفه جرفات كبيرة نبعرها فيما بيننا ونشرها ثراً فإذا هى تستحيل فى الهواء ذرات ساطعة البريق • المجرفة تفوض بسهولة فى الكتلة البيضاء المتألثة تحت أشعة الشمس • والسجناء يقومون بهذا العمل فرحين مرحين فى أكثر الأحيان • فهواء الشتاء البارد ينعشهم ، والحركة توقف نشاطهم • كل واحد يشعر بالبهجة والحبور • وهذه ضحكات وصرخات وأمازيح تُسمع هنا وهناك • والعالمون يتراشقون كرات الثلج ولكن ذلك كان بعد مدة من الوقت يثير استياء العقلاء الرصينين الذين لا يحبون الضحك ولا يؤثرون المرح ،

فلذلك كانت هذه الحماسة التي تشمل السجناء تنتهى فى أكثر الأحيان بتبادل الشتائم والمسابات •

واتسمت دائرة أصحابى شيئاً بعد شيء ، رغم اننى لم يخطر ببالى قط أن يكون لى أصحاب : لقد كنت دائماً قلق النفس كتيب المزاج كثير الشك والحذر • وانما قامت هذه العلاقات واعتقدت هذه الصلات من تلقاء نفسها • ان أول من جاء يزورنى انما هو السجين بتروف • واذا قلت « يزورنى » فانتى ألحُ على هذه الكلمة • كان بتروف يقيم فى القسم الخاص الذى هو أبعد الثكنات عن ثكنتى • والمفروض فى ظاهر الأمر أن لا تقوم بينى وبينه أية صلة ، فما من رابطة كانت تجمعنا أو كان يمكن أن تقرب أحداً من الآخر ومع ذلك فقد اعتقد بتروف خلال الفترة الأولى من اقامتى فى السجن أن من واجبه أن يجرى الى كل يوم تقريباً فى الثكنة التى قيم فيها أو أن يستوفىنى على الأقل اثناء فترة الراحة التى كنت أقضيها وراء الثكنات ابعد مايمكن أن أكون عن جميع الأنظار • وقد أزعجنى الحاحه هذا فى أول الأمر ولكنه عرف كيف يتصرف بحيث أصبحت زيارته لى سلوى تسرّى عني رغم أنه لم يكن منفتح النفس منطلق اللسان • هو رجل قصير القامة قوى البنية نشيط الهمة خفيف الحركة حاذق • ان وجهه هو من الوجوه التى يسر مرآها : وجه شاحب اللون ناتئ الوجهتين جرى النظرة له أسنان بيضاء صغيرة منضّدة؛ وكان يعض قطعاً من التبغ دائماً يضعها بين اللثة والشفة السفلى من فمه (ان كثيراً من السجناء قد ألفوا عادة مضغ التبغ على هذا النحو) • وكان يبدو أصغر سناً من الواقع ، فلو رآه الرئى لما ظن أنه تجاوز من عمره الثلاثين ، مع أنه كان فى الأربعين • وهو يحدثنى بغير كلفة ولا تحرج • ويقف منى موقف الند للند ، مع كثير من الأدب واللفظ والذوق على كل حال ؛ فاذا لاحظ مثلاً أننى أبغى الوحدة والخلوة تحدث الى دقيقتين

انتين ثم لم يلبث أن يتركني وشائتي • وكان في كل مرة يشكر لي حسن استقبالى له ومعاملتى اياه ، وذلك أمر ما كان يفعله مع أحد قط • يجب أن أضيف الى هذا أن تلك العلاقات التى قامت بينى وبينه لم تتغير ولم تبدل لا أثناء الفترة الأولى من اقامتى فى السجن فحسب بل أثناء عدة سنين ؛ كما أنها لم تزد توثقاً وعمقاً فى يوم من الأيام رغم أنه كان مخلصاً لي كل الاخلاص حقاً • لم أستطع أن أحدد على وجه الدقة ما كان يشده من صحتى ، ولا أن أعرف على وجه الدقة لماذا كان يجيئنى كل يوم • ولقد اتفق أن سرقنى أحياناً • ولكن ذلك كان « على غير ارادة منه ، دائماً • ولم يكن يجيئنى قط لاقتراض شىء من مال : معنى ذلك أن ما كان يجذب به نحوى ويشده الىّ ليس هو المال ولا هو أية منفعة أخرى •

لا أدري لماذا كان يترأى لي أن هذا الرجل لا يعيش فى نفس السجن الذى أعيش أنا فيه وانما يعيش فى منزل آخر ، فى المدينة ، بعيدا جدا ، حتى لكأنه يزور السجن مصادفة يستطلع الأخبار ويسال عنى ويرى كيف نعيش • انه مستعجل دائماً ، كأنه ترك أحدا لحظةً من اللحظات ، وكان أحدا ينتظره بفارغ صبر ، أو كأنه هجر عملاً من أعماله الى حين فهو حريص على العودة الى العمل يستأنفه بأقصى سرعة • ومع ذلك كان لا يبدو عليه التسرع • ان فى نظره ثباتاً غريباً وتحديفاً عجيباً ، على شىء يسير من جرأة وسخرية • هو ينظر الى بعيد ، من فوق الأشياء ، كأنه يحاول أن يتبين شيئاً وراء الشخص المائل أمامه ؛ وهو يبدو دائم الذهول • كنت أسأله فى بعض الأحيان : ترى أين يذهب بتروف بعد أن يتركنى ؟ وأين يُنتظر بفارغ صبر ؟ والواقع أنه كان يذهب الى ثكنة من الثكنات أو الى المطبخ ، بخطى خفيفة فيجلس بجانب المتحدثين يصغى الى حديثهم بانتباه ويشارك فى هذا الحديث بحرارة ثم اذا هو



بتروف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

يسكت لائذاً بصمت مطبق على حين فجأة • ولكن سواء أتكلّم أم اعتصم بالصمت ، فإن المرء يقرأ في وجهه دائماً أن ذهنه منصرف الى مكان آخر وأنه ينتظر هناك ، في بعيد • وأغرب ما في الأمر أنه لم يكن يشغل نفسه بعمل من الأعمال في يوم من الأيام ، فهو فيما عدا الاشغال التي يحمل عليها في السجن حملاً ، لا يقوم بأي عمل ، بل ينفق وقته عاطلاً فارغاً • وكان لا يحسن أية مهنة • وكان لا يملك أى مال قط ، ولكن ذلك لا يحزنه ولا يهشه • فاذا سألتى الآن عمّ كان يكلمنى وفيما كان يحدثنى قلت ان حديثه كان غريباً كشخصه • وكان متى لاحظت أننى ماضٍ وحدى الى خلف التكنات استدار نحوى فجأة ، وتبغى مسرعاً • انه سريع المشى سريع الالتفات دائماً • وها هو ذا يصل الى سائراً بخطى وثيدة • رغم ما يظهر من أنه كان يركض ركضاً •

— نهارك سعيد !

— نهارك سعيد !

— هل أزعجك ؟

— كلا •

— أردت أن أسألك عن شيء يتعلق ببونابرت* • أردت أن أسألك أليس يمت بقرى الى ذلك الذى أتى البنا سنة ١٨١٢ ؟ (كان بتروف ابن جندى فهو يعرف القراءة والكتابة) •

— هو كذلك •

— يقال انه رئيس ، فأى رئيس هو ؟ ورئيس ماذا هو ؟

ان أسئلة صاحبي متمجلة متقطعة دائماً ، كأنه يريد أن يعرف ما يسأل عنه بأقصى سرعة ممكنة •

شرحت له رئاسة نابليون ، وأضفت أنه قد يصبح امبراطوراً •

- كيف ذلك ؟

أطلعته على ما أعرفه بقدر ما أمكنتني ذلك ، فكان يصغى الى " باتباء ،
وأدرك ما قلته له ادراكا تاما ، وأضاف يقول وهو يميل على بأذنه :

- هيم ••• آ ••• أردت أن أسألك أيضاً يا ألكسندر بتروفتش •

هل هناك حقاً قروود لها أيد تتدلى حتى تصل الى القدمين ، وطولها طول
انسان ؟

- نعم •

- كيف هذه هي القروود ؟

وصفتها له وذكرته له كل ما أعرفه عن هذا الموضوع ؟

- أين تعيش هذه القروود ؟

- فى البلاد الحارة • يوجد منها فى جزيرة صومطرة •

- أهذا فى أمريكا ؟ يقال أن الناس هناك يسرون على رؤوسهم •

- طبعاً لا ••• لعلك تقصد انهم على الوجه الثانى من الكرة

الأرضية •

وشرحت له ما هى أمريكا وماهما الوجهان المتقابلان من الكرة
الأرضية ، فكان يصغى الى " باتباء شديد ، كأنه لم يجئنى الا ليسألنى عن

الوجهين المتقابلين من الكرة الأرضية •

- آ ••• آ ••• لقد قرأت فى السنة الماضية قصة عن الكوتيسة

دولا فالير • كان آريفييف قد جاء بهذا الكتاب من عند المريف • أهى

حقيقة أم خيال ؟ ان الكتاب من تأليف دوما •

- هى قصة من اختراع الخيال طبعاً •

— طيب ، الوداع ■ شكراً ♦

فال بتروف ذلك ثم مضى ♦ والحق أننا ما كنا نتكلم يوماً على غير هذا النحو تقريباً ♦

لقد سألت عنه ♦ فاعتقد م ♦♦♦ أن من واجبه أن يتحدثني حين علم بهذه العلاقة القائمة بيني وبين هذا الرجل ، وقال فيما قال ان كبيراً من السجناء قد أثاروا في نفسه الكره والاشمئزاز والرعب منذ وصوله الى السجن ؟ ولكن ما من أحد ، حتى جازين ، قد أثار في نفسه من الهلع مثل الذي أثاره بتروف هذا ♦

فال لى م ♦♦♦ :

— انه أمضاهم عزيزة وأشدهم هولاً ♦ انه لا يتورع عن شيء ♦ ما من شيء يمكن أن يصده عن انقاذ نزوة من النزوات تبدو له في لحظة من اللحظات ♦ انه قد يقتلك اذا خطر بباله أن يفعل ♦ يكفي أن تدور في خلدك هذه الفكرة حتى يقدم عليها غير متردد ولا هيّاب ، فاذا فعل لم يشعر بشيء من الندامة ، وأحسب أنه لا يملك عقله ♦♦♦

همنى هذا الكلام كثيراً ، ولكن م ♦♦♦ لم يستطع أن يقول لى لماذا يرى في بتروف هذا الرأى ♦ ألا انه لشيء غريب ! لقد ظلت أرى هذا الرجل خلال عدة سنين وكنت أتحدث معه في كل يوم من الأيام تقريباً وكان صادق المودة والاخلاص لى دائماً (رغم أنني لم أدرك سبب ذلك) وفي أثناء ذلك الوقت كله كنت ازداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن م ♦♦♦ على حق رغم أن الرجل قد التزم في حياته غاية الحكمة والتعقل والاعتدال ولم يصدر عنه فعل شاذ قط ؟ وكنت أزداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن هذا الرجل ربما كان أشد من في السجن بأساً وأصعبهم مراساً وأعزهم على الضبط ♦ لماذا ؟ لا أستطيع جواباً على هذا السؤال ♦

ان بتروف هذا هو بعينه ذلك السجين الذى أراد أن يقتل الميجر حين نودى لنوفيع العقوبة فيه ، وقد ذكرت كيف أن الميجر قد « أنقذ » باعجوبة . لأنه انصرف قبل توقيع العقوبة بدقة واحدة . فى ذات مرة حين كان بتروف جندياً ، قبل وصوله الى السجن ، ضربه كولونيله أثناء التدريب ، وأحسب أنه كان قد ضرب قبل تلك المرة كثيراً ولكنه كان فى ذلك اليوم فى حالة من المزاج لا تتيح له أن يحتمل اهانة أو أن يقبل ايذاء . فها هو ذا يذبح الكولونيل فى وضوح النهار على مرأى من جميع أفراد الكتيبة أثناء التدريب . اننى لا أعرف جميع تفاصيل هذه القصة ، لأنه لم يروها لى فى يوم من الأيام . ان هذه الانفجارات لا تظهر فيه طبعاً الا حين تسيطر عليه الغرائز فينقاد لها ويندفع معها . وكانت هذه الانفجارات نادرة . أما فى الأحوال العادية فانه رجل عاقل بل وهادئ . ان أهواءه القوية المستعرة العارمة مخبئة مخفية كأنها الجمر يرقد ساكناً تحت الرماد .

لم ألاحظ فى يوم من الأيام أنه متبجح مزهو مفاخر بنفسه ككثير من السجناء الآخرين .

كان لا يتشاجر الا نادراً . ولم يكن بينه وبين أحد علاقات صداقة ، ربما باستثناء سيروتكين ، وذلك حين تكون به حاجة الى سيروتكين . ومع هذا فقد رأيته فى ذات يوم مهتاجاً احتياجاً شديداً . كان قد طالب بشئ من الأشياء فمُنِع عنه فشمع بأنه أهين ، فأخذ يتشاجر مع خصمه فى هذا الشأن . ان خصمه سجين طويل القامة قوى البنية عريض المنكبين كرياضى ، اسمه فاسيلى أنتونوف ، عُرِف بشراسة طبعه وسوء سلوكه وجهه للمشاجرة وميله الى المناكدة والمناكفة . كان هذا الرجل ينتمى الى فئة المحكومين المدنيين ، ولم يكن بالرجل الجبان قط . تصايح الرجلان فقدرت أن هذه المشاجرة لابد أن تنتهى الى ما تنتهى اليه أمثالها من المشاجرات من

– طيب ، الوداع ، شكراً •

قال بتروف ذلك ثم مضى • والحق أننا ما كنا نتكلم يوماً على غير هذا النحو تقريباً •

لقد سألت عنه • فاعتقد م • • • أن من واجبه أن يحذرنى حين علم بهذه العلاقة القائمه بينى وبين هذا الرجل ، وقال فيما قال ان كيرا من السجناء قد أثاروا فى نفسه الكره والاشمئزاز والرعب منذ وصوله الى السجن ؟ ولكن ما من أحد ، حتى جازين ، قد أثار فى نفسه من الهلع مثل الذى أثاره بتروف هذا •

قال لى م • • • :

– انه أمضاهم عزيمة وأشدهم هولاً • انه لا يتورع عن شيء • ما من شيء يمكن أن يصده عن انقاذ نزوة من النزوات تبدو له فى لحظة من اللحظات • انه قد يفتالك اذا خطر بباله أن يفعل • يكفي أن تدور فى خلدك هذه الفكرة حتى يقدم عليها غير متردد ولا هيّاب ، فاذا فعل لم يشعر بشيء من الندامة » وأحسب أنه لا يملك عقله • • •

همنى هذا الكلام كثيراً ، ولكن م • • • لم يستطع أن يقول لى لماذا يرى فى بتروف هذا الرأى • ألا انه لشيء غريب ! لقد ظلمت أرى هذا الرجل خلال عدة سنين وكنت أتحدث معه فى كل يوم من الأيام تقريباً وكان صادق المودة والاخلاص لى دائماً (رغم أنني لم أدرك سبب ذلك) وفى أثناء ذلك الوقت كله كنت ازداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن م • • • على حق رغم أن الرجل قد التزم فى حياته غاية الحكمة والتعقل والاعتدال ولم يصدر عنه فعل شاذ قط ؟ وكنت أزداد يوماً بعد يوم اقتناعاً بأن هذا الرجل ربما كان أشد من فى السجن بأساً وأصعبهم مراساً وأعزهم على الضبط • لماذا ؟ لا أستطيع جواباً على هذا السؤال •

لم أفهم لماذا يبقى فى السجن ، لماذا لا يهرب ؟ وبقينى أنه ما كان ليرتد عن الهرب أبدا لو أراد ذلك • ان العقل لا سلطان له على أناس مثل بتروف الا بمقدار ما تكون نفوسهم خالية من الرغبة فى شيء من الأشياء • حتى اذا شئت فى نفوسهم هذه الرغبة لم تحل بينهم وبين تحقيق ارادتهم أية عقبات • اننى لعلى يقين انه كان فى وسعه أن يفر من السجن بمهارة وحذق خادعا جميع الناس باقيا بلا طعام أسابيع برمتها محتبئا فى غابة أو بين أشجار الحلفاء على ضفة نهر • غير أن هذه الفكرة لم تكن قد راودته بعد ، أو هو لا يرغب فيها رغبة تامة • لم ألاحظ فيه قدرة على الحكم الصادق أو الحس السليم • ان أمثال بتروف يولدون مع فكرة تدرجهم طوال حياتهم ذات اليمين وذات الشمال على غير شعور منهم فيظنون يظفون هكذا الى أن يلتقوا بشيء يوقظ الرغبة فى أنفسهم ايقاظا عنيفا قويا • فاذا التقوا بهذا الشيء لم يبالوا أن يندفعوا اليه ولو كانت رؤوسهم ثمنا له • لقد كنت استغرب فى بعض الأحيان كيف يتسنى لرجل كان قد قتل كولونيله لأنه ضُرب ، أن يرقد بغير احتجاج من أجل أن يجلد • لقد كان بتروف يُجلد حين يقبض عليه متلبسا بجرم تهريب الخمرة الى السجن • ذلك أن بتروف ، كسائر من ليس لهم مهنة معينة ، يقوم بتهريب الخمرة الى السجن • لقد كان بتروف يستسلم للجلد كأنه يقبل هذه العقوبة ويرضاها ، وكأنه يعترف بأنه مذنب • ولولا ذلك لكان ارقاده أصعب من قتله • وقد استغربت غير مرة أن يسرقنى رغم ما يضمه لى من حب ويحمه لى من عاطفة • كان ذلك يتفق أن يصدر عنه صدور نزوات تراوده من حين الى حين • هكذا سرق فى ذات يوم توراتى التى طلبت منه أن يردّها الى مكانها • ولم يكن بينه وبين ذلك المكان الا بضعة خطوات ، لكنه التقى أثناء الطريق بمن يشتريها فباعه الكتاب • وسرعان ما أنفق ثمنه فى شراء خمرة • لعله كان يحس فى ذلك اليوم برغبة شديدة فى الشراب

•• وهو انسان اذا اراد شيئاً فلا بد ان تتحقق ارادته • ان امرأ منى بتروف لا يحجم عن قتل انسان فى سبيل الحصول على خمسة وعشرين كوبكا لا شئ الا ان ينفق هذا المبلغ فى شرب نصف لتر من الخمرة • وهو فى غير هذه الحالة يحتقر مئات الالوف من الروبلات • وقد اعترف لى فى ذلك المساء نفسه بسرقة ولكن دون ان تظهر عليه اية علامه من علامات الخجل او ايه اماره من امارات الندم • وانما ذكر الامر بلهجة بسيطه كل البساطه ليس فيها شئ من الاكترات او الاهتمام ، كان مافله حادث عادى • ولقد حاولت او اؤنيه التائب الذى يستحقه ، لانى اسفت على توراتى أشد الأسف ، فاذا هو يصغى الى كلامى هادئاً هوداً كبيراً لا يشعر بشئ من غيظ او حنق ، واذا هو يسلم لى بان التوراة كتاب مفيد جداً • واذا هو ياسف صادقاً لحرمانى من هذا الكتاب ولكنه لا يظهر فى لحظة من اللحظات اى ندم على أنه سلبنى هذا الكتاب وكان ينظر الى أثناء ذلك نظرة فيها من اللقه ما جعلنى أكف عن تقريره فوراً • لقد تحمل تأبىى لاعتقاده بأن هذا التائب أمر لا بد منه • وبأنه يستحق التبرع على مثل هذا العمل ، وأن من واجبى اذن أن أسبه وأن أشتمه لأسرى عن نفسى ولا تخفف من حزنى على فقدي الكتاب ، ولكنه كان فى قرارة نفسه يعد هذه الأمور كلها ترهات وسخافات لا بد أن يشعر أى انسان جاد بالخجل من الحديث فيها ؟ بل أغلب ظنى أنه كان يعدنى طفلاً صغيراً وصياً غراً لا يققه من شؤون هذا العالم أبسطها • كان يجينى اذا أنا حدثته فى امور أخرى غير الكتب أو العلوم • ولكنه كان يجينى عندئذ من قيل التأدب وحده ، وكانت اجابته موجزة مقتضبة • فكنت أساءل : ترى ما الذى يدفعه الى سؤالى عن الكتب بالذات ؟ وكنت أثناء الحديث أختلس النظر اليه كانما لأتأكد من أنه لا يستهزئ بى ، ولكننى لاحظت أنه كان يصغى الى جاداً كل الجد منتبهاً أشد الانتباه رغم أن هذا الانتباه لا يستمر

طويلاً فى كثير من الأحيان وكان ذلك يحقنى فى بعض الاحوال • ان
الاسئلة التى يلقيا على واضحه دقيقة دائماً ، وان الاجوبة التى كانت
تقتضيها هذه الاسئلة لم تكن تدهسنه ••• اغلب الظن انه كان قد اقتنع
افتناعاً حاسماً اننى امرؤ لا يمكن أن اخاطب كما يخاطب سائر الناس
وانى لا افهم شيئاً فى خارج نطاق الكتب •

اننى لعلى يقين أنه كان يحبنى • ولقد كان هذا يدهشنى كثيراً •
ترى هل كان يعدنى طفلاً ؟ هل كان يعدنى رجلاً لم يكتمل نفسه ؟
هل كان يشعر نحوى بذلك النوع من الشفقة التى يشعر بها كل انسان
قوى نحو انسان آخر أضعف منه ؟ هل كان يحسبني ••• لا أدري ! اننى
لعلى يقين من أنه كان يشعر نحوى بشفقة ، رغم ان هذه الشفقة لم تمنعه
من أن يسرقنى • ولا شك أنه حين كان يسرقنى كان يحدث نفسه
قائلاً : « هيه ! يا له من رجل مضحك غريب شاذ ! انه لا يجيد حتى
المحافظة على ما يملك » • وأحسب أنه كان يحبنى بسبب ذلك • قال لى
ذات يوم كأنما على غير ارادة منه :

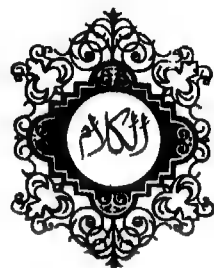
— أنت يا الكسندر بتروفتش مسرف فى الطيبة ! أنت تبلى من البساطة
والسناجة أن المرء يشفق عليك حقاً !
وأضاف يقول بعد دقيقة :

— لا تحمل كلامى محملاً سيئاً يا الكسندر بتروفتش ، فانما أنا
أقوله بحسن نية •••

ان المرء يرى أحياناً فى الحياة رجالاً مثل بتروف يظهرون ويؤكدون
أنفسهم فى لحظة من لحظات الاضطراب أو الثورة فهم يهتدون عندئذ الى
النشاط الذى يناسبهم ويجدون العمل الذى يتفق وطبيعتهم • ليس هؤلاء
الرجال رجال أقوال ، فهم لا يستطيعون أن يكونوا محرضين أو أن يكونوا

قادة ثورات ، ولكنهم هم الذين يفسدون ويعملون ، يعملون ببساطة ،
 بغير ضوضاء ، ينقضون على الحواجز أول المنقضين ، ويهجمون على
 العقبات أول الهاجمين ، ويتقدمون الى الأمام حاسري الصدور لا يمنهم
 عن الاقدام تفكير ولا تصدهم عن الاقدام خشية ، والناس جميعاً يسرون
 وراءهم ، يسرون وراءهم سيراً أعمى ، حتى يبلغوا الأسوار، حيث يلتقون
 مصارعهم فى العادة • لا أظن أن بتروف قد انتهى الى خير : ان حياته
 مهياة لخاتمة عنيفة • واذا لم يكن قد مات حتى اليوم فانما يكون 'مرد ذلك
 الى أن الفرصة لم تعرض بعد • من يدرى على كل حال ؟ قد يبلغ أقصى
 الشيخوخة ثم يموت موتاً هادئاً جداً بعد أن يكون قد طوف هنا وهناك
 دون هدف أو غاية • ولكننى أعتقد أن م • • • كان على حق ، وأن بتروف
 كان أشد من فى السجن بأساً وأصلبهم عوداً وأقواهم شكيمة •

أولو العزم لوقا



على أولى العزم صعب • انهم نادرون في المعتقل
وفي كل مكان ، يعرفهم المرء من الخوف الذي
يوجهونه الى النفوس ، ومن الحذر الذي يعاملهم
به الناس • ان شعوراً لا يقاوم قد دفعني في أول
الأمر الى التأني عن هؤلاء الرجال • ولكنني غيرت نظرتي بعد ذلك حتى
الى القتلة السفاكين الرهيئين • وهناك رجال لم يقتلوا في يوم من الأيام ،
ولكنهم أشد شراسة من أولئك الذين قتل واحدهم ستة أشخاص • ان
هناك جرائم يصعب على المرء أن يتصورها من شدة الغرابة في اقترافها ؛
وانما أقول ذلك لأن الجرائم التي يرتكبها أفراد من الشعب تكون أسبابها
باعثة على الدهشة في كثير من الأحيان •

اليكم نموذج قاتل يُصادف كثيراً : هو رجل يعيش حياة هادئة
مسألة مواءمة ، لكن قدره قاسٍ فهو يتألم ويتعذب (هو مثلاً فلاح يعمل
في أرض أو قن قد اتخذ خادماً أو واحد من سكان المدن أو جندي في
الجيش) وها هو ذا يشعر فجأة بتمزق في صدره فلا يطيق صبراً فاذا
هو يغمد سكينه في صدر الشخص الذي يضغطه ، في صدر الشخص

الذى يناسبه العداة • ان سلوك هذا الرجل يصبح بعدئذ سلوكا شاذا عجبيا يتجاوز كل حد • لقد قتل مضطهده او عدوه ، وتلك جريمة طبعاً ، لكن لها تفسيراً • لقد كان هناك سبب دفعه اليها • اما بعد ذلك فان هذا الرجل لا يقتل أعداءه وحدهم بل يقتل اى انسان ، يقتل اول قادم • يقتل للقتل ، يقتل للكلمة ساءته أو نظرة لم تعجبه ، يقتل ليجعل عدد قتلاه شعفاً لا وترأ • أو يقتل لاشئ الا أن يقول : « ابعد عن طريقى » • انه يتصرف تصرف سكران يهذى • حتى اذا تجاوز هذا الحد المرسوم وانتقل الى الجهة الأخرى لم يبق فى نظره شئ يمكن أن يعد مقدساً ؛ وقد يذهل هو نفسه من ذلك ويشده له ، فهو الآن يتخطى كل شرع ويتمدى كل سلطة ويتمتع بالحرية التى خلقها لنفسه طافحة غير ذات حدود ، يجد لذة فى ارتجاف قلبه ، فى الرعب الذى يحسه ، فى الهول الذى يشعر به • وهو يعرف أن عقاباً رهيباً ينتظره • لعل احساساته أن تشبه احساسات انسان يميل من أعلى برج على الهوة السحيقة التى يراها فيتمنى أن يلقى بنفسه منكس الرأس حتى يفرغ من الأمر بأقصى سرعة • يقع هذا لأفراد هم بين الناس أكثرهم مسالة وموادة • وليس بندر أن نرى هذا التناقض : ليس بندر أن نرى أناساً كانوا مضطهدين مروءعين فاذا هم يصبحون حريصين على أن يضطهدوا غيرهم وأن يروءوا غيرهم بمقدار ما اضطهدهم غيرهم وروءهم غيرهم • واذا نحن أمام انسان يائس مستमित يجد لذة فيما يلقى فى نفوس الناس من جزع وهلع ويجد سعادة فيما يعثه فى نفوس الناس من اشمزاز وتقزز ، فهو يندفع فى أعمال جنونية من قبيل اليأس وهو فى أكثر الأحيان ينتظر عقاباً وشيكاً ويحترق شوقاً الى أن تحل مشكلته ويحدد مصيره وينتهى أمره ، لأنه يحس أن عبء هذا اليأس أثقل من أن يستطيع ظهره وحده أن يحمله • والغريب أن هذا الهياج الشديد وهذا العدوان القوي

يظلال مستولين عليه مستبدين به الى أن ينال العقوبة ، حتى اذا نالها بدا كأن الخيط قد انقطع ، فكأن العقوبة تضع حداً لعذابه ، فاذا هو يهدأ على حين فجأة « واذا هو ينطفئ » واذا هو يصبح خرقة رخوة لانما سك فيها ، بل انه لينهار منذ توقع فيه العقوبة ، فاذا هو يستغفر الناس ويطلب الصفح والعتو من البشر ، حتى اذا صار فى سجن الأشغال الشاقة انقلب شخصاً آخر فما يتصور أحد حين يراه أشبه بدجاجة مبتلة أنه قد قتل خمسة رجال أو ستة .

بين هؤلاء المجرمين أناس لا يروضهم السجن بسهولة ، فهم يحتفظون بشيء من المباهة ، وهم يظهرون كثيراً من الادعاء ، حتى تسمع أحدهم يقول : « هيه ! اسمع ! ما أنا من تظن ! لقد بعثت الى العالم الآخر بستة ارواح ! » ولكن هؤلاء يرضخون دائماً فى آخر الامر . ولقد يسلمون أنفسهم من حين الى حين بتذكر ما قاموا به من أعمال جريئة وما اندفعوا فيه من أفعال طائشة ، حين كانوا أناساً يائسين مستميتين ؛ ولقد يحب أحدهم أن يقع على مستمع ساذج فيأخذ يتباهى أمامه بما فعل مخثلاً على احتشام ويروى له ما أقدم عليه من أعمال وهو يحاول طبعاً اخفاء رغبته فى ادعاش السامع من قصته ويختم كلامه بقوله : « ذلك ما كنت ! » . ألا ما أرففه فى التعبير عن غروره على حذر واستخفاء ! ألا ما أبرع هذا الاهمال المتوانى الذى يظهر عليه وهو يروى قصة كهذه القصة ! ان فى اللهجة نفسها وان فى كل كلمة يقولها ادعاءً يعرف كيف يغلفه بالتواضع ! ترى أين تعلم هؤلاء الناس هذا كله ؟

وقد أصغيت فى احدى الأمسيات الطويلة من الأيام الأولى التى قضيتها فى السجن الى حديث من هذه الأحاديث ، فتصورت بسبب قلة خبرتى ونقص تجربتى ، أن الشخص الذى كان يقص حكايته مجرم جبار ذو طبع من حديد بينما كنت فى ذلك الحين أكاد أزدري بتروف

وأستخف به • كان الشخص الذى يقص حكايته وهو يسمى لوقا كوزميتش قد أردى ضابطا برتبة ميجر لا لسبب اخر غير المتعة واللدّة • ان لوقا كوزميتش هذا هو بين جميع سجناء ثكنتنا اقصرهم وانحفهم وقد ولد فى الجنوب وكان قنا من الاقنان الذين لا يعملون فى الارض بل يعملون خدما فى منازل سادتهم • ان فيه حدة وتعاليا ، هو « طائر صغير لكن له مقارا ومخالب » كما يقول المثل • والسجناء يعرفون حقيقة الرجال بغريزة فطروا عليها فكانوا لا يحترمون لوقا هذا الا قليلا جدا • انه سريع التاذى كثير الغرور شديد الكبرياء • كان فى ذلك المساء جالسا على سريره يخطط قميصا ، فلقد كان يعمل فى الخياطة ؟ وعلى مقربة منه كان يجلس جاره السجن كويلين ، وهو شاب محدود الذكاء بليد الحس غبى العقل ، ولكنه طيب القلب لطيف المعشر ، الى كونه ضخم الجسم قوى البنية • كان لوقا يتشاجر مع جاره هذا فى كثير من الأحيان ، ويعامله فى استعلاء وتجبر ، ويسخر منه ويستبد به ويظنى عليه ، ولكن كويلين لا يلاحظ شيئا من ذلك كله ، لما أوتى من طيب القلب وبراعة السريرة وحسن النية • كان كويلين ينسج عندئذ جوربا ، ويصنى الى لوقا بغير اهتمام ؟ وكان لوقا يتحدث بصوت عال وكلام متميز • كان يريد أن يسمعه جميع الناس رغم أنه يتظاهر بأنه لا يخاطب الا كويلين • قال وهو يفرز ابرته :

— هكذا طُردت من بلدى بتهمة التشرد يا أخى •

سأله كويلين :

— من زمان طويل ؟

— حين تنضج الباسلاء يكون قد انقضى على ذلك عام • وصلنا ك • • ف وأودعت السجن • كان حولى دسنة من رجال هم جميعا من

روسيا الصغرى أفوياء الجسم أصحاب الأبدان سمان كأبقار ... وهائون
هائون ... وكان الطعام الذى يقدم إلينا رديئا ... كان الميجر يفعل
ما يحلو له ... وانقضى يوم ثم انقضى يوم آخر ... لاحظت أن جميع
هؤلاء الرجال الأشداء جنباء ... قلت لهم : « أتخافون من حيوان
كهذا ؟ ... » قالوا : « هيا كلمه ان استطعت ! » وانفجروا ضاحكين ،
هؤلاء البهائم . سكت ولم أجب .

وأضاف المتحدث يقول وهو يترك كوبيلين ويخاطب الآخرين :

– وكان بينهم رجل من روسيا الصغرى تافه مضحك سخي قد
أخذ يقص عليهم كيف حوكم وماذا قال للقضاة وكيف استرحمهم
واستعطفهم قائلاً ان له أطفالا وامرأة . انه رجل ضخيم الجسم أنيب
الشعر . واستمر الرجل يقص على أصحابه حكايته ، فذكر كيف كان
هنالك كلب ما ينفك يكتب ويكتب ثم يكتب ... يكتب كل ما كان يفوله
المنهم ، وكيف خاطبه المنهم بقوله : « قاتلك الله ... » فلم يزد
الآخر على أن استمر يكتب ثم يكتب ... وختم الرجل كلامه قائلاً :
« فكَذَلِكَ ذهب رأسى ... ! » .

– هات خيطاناً يا فاسيا * ان هذه الخيطان فاسدة .

أجابه فاسيا وهو يعطيه الخيطان التى طلبها :

– اليك خيطاناً اشتريت من السوق .

– ان خيطان المصنع أفضل . لقد أرسلنا نياليد منذ مدة قصيرة
ليشترى لنا خيطاناً من المصنع ، فلا أدري من عند أية امرأة دنيئة اشترى
هذه الخيطان ، انها خيطان رديئة .

قال لوقا ذلك وهو يدخل الخيط فى سم الابرة على ضوء المصباح .
– لا شك أنه اشتراها من صاحبه .

- من صاحبه حتماً •

قال كوبيلين الذى كان قد نسي تماماً :

- هيه ! والميجر ؟

ولم يكن ينتظر لوقا غير هذا السؤال • ومع ذلك لم يشأ أن يستأنف سرد حكايته فوراً كان كوبيلين لا يستحق مثل هذا الاهتمام ، ففرز ابرته بهدوء ، وتربع بتراخ وكسل ، وقال أخيراً :

- وطفقت أستفز رفاقي السخفاء وأتحدثهم حتى استدعوا الميجر • وكنت فى ذلك الصباح نفسه قد استعرت 'الليمة' (السكين) من جارى وأخفيها استعداداً للطوارئ • كان الميجر هائجاً كالسحور • وصل الميجر • قلت لهم هامسا : « ما هذا أوان الخوف يا أهل روسيا الصغرى • ولكن لا فائدة ! كانت شجاعته قد هبطت الى الأطراف من راحات أقدامهم • أخذوا يرتجفون • لقد هرع الميجر سكراناً كل السكر • قال : « ماذا هنالك ؟ كيف تجرؤون أن ... ؟ أنا قيصركم أنا ربكم » • فلما قال انه قيصرنا وانه ربنا اقتربت منه مخفياً سكينى فى كمنى وقلت له وأنا اقرب مزيداً من الاقتراب : « لا يا صاحب النبالة الرفيعة ... ذلك لايمكن أن يكون يا صاحب النبالة الرفيعة ... لايمكن أن تكون قيصرنا وأن تكون ربنا » • صرخ الميجر يقول : « ها ... اذن أنت ... أنت المحرض ... » قلت وأنا ما أنفك أزداد اقتراباً منه : « لا يا صاحب النبالة الرفيعة • كل اسان يعلم وأنت نفسك تعلم أن ربنا تبارك وتعالى لا شريك له ... وأن هنالك قيصراً واحداً لنا وضعه الرب نفسه فوقنا جميعاً فهو مولانا يا صاحب النبالة الرفيعة وما أنت يا صاحب النبالة الرفيعة حتى الآن الا ميجر ... ولست رئيساً لنا الاّ بفضل القيصر وبفضل مؤهلاتك » • قال الميجر : « ماذا ؟ ماذا ؟؟؟ » • لقد أرتج عليه

فأصبح لا يستطيع الكلام وأصبح يفأىء ويثأىء من فرط ما أصابه من دهشة • قلت له : « هو كذلك » • وهجمت عليه فأغمدت سكينى فى بطنه ، أغمدت السكين كلها ! وقد فعلت ذلك بسرعة ، فما هى الا أن ترنح وسقط على الارض مستديرا على عقيبه • قلت للرفاق بعد ان رميت سكينى : « فارفعوه الان يا رفاق ! » •

ساستطرد الان قليلاً مبتعداً عن قصتى فافول ان هذه التعابير « أنا قيصركم ، أنا ربكم » وغيرها من التعابير المشابهة كانت تستعمل كثيراً فى سالف الزمان بكل اسف • كان يستعملها كثير من الضباط • ويجب أن نعرف بان عدد الذين يستعملونها الآن قد نقص كثيرا وربما أصبح لا يستعملها أحد قط • ولنلاحظ أن أولئك الذين كانوا يخالون هذا الاختيال ويصطنعون أمثال هذه التعابير انما هم خاصة الضباط الذين ارتقوا من رتبة صف ضابط الى رتبة ضابط فاذا بالرتبة الجديدة تقلب أدمغتهم رأساً على عقب • انهم بعد أن قاسوا عناءً كبيراً وتكبّدوا مشاقاً كثيرة يرون أنفسهم على حين فجأة ضباطاً وقادة بل ونبلاء أيضاً • فاذا هم لأنهم لم يألّفوا ذلك ، يسكرون مما نالوا من ارتقاء سكرّاً شديداً ، فيالفون فى تقدير قوتهم وسلطانهم وجبروتهم • هذا مع مرؤوسيههم أما مع رؤسائهم فانهم يخضعون خضوعاً ذليلاً لا يملك المرء الا أن يثور عليه ويشمئز منه • حتى أن المتملقين المتزلفين منهم يسارعون الى الاعتراف لرؤسائهم بأنهم كانوا مرؤوسين وبأنهم « لا ينسون أصلهم » • ولكن هؤلاء هم الطغاة الى غير حد المستبدون الى غير نهاية فى معاملة الخاضعين لهم من الناس • ويجب أن نذكر أنه لا شيء يحقّق السجناء ويغيظهم ويشير حفيظتهم كما يفعل ذلك مثل هذا الاسراف • ان الانسان مهما يكن خاضعاً مستكيناً ومهما يكن صابراً مدعناً لا بد أن تستيره وأن تفقده صبره وأن تبث الحقد فى قلبه هذه الخيلاء المتبججة وهذه الكبرياء الصلفة •

من حسن الحظ أن هذه الأمور كلها قد مضت وانقضت وأصبحت من الماضي الذي أوشك أن ينساه الناس • ويجب أن نذكر أن السلطة العليا كانت في ذلك الحين تصاف أولئك المخطئين عقاباً صارماً • واني لأعرف أمثلة على ذلك •

ان ما يهيج حفيظة الرؤوسين خاصه انما هو الاحتقار والاسمئزاز الذي يعاملون به • والذين يطور انهم ليس عليهم الا ان يطعموا السجين وان يرعوه وان يتصرفوا في كل امر وفقاً للفنون ليخطئون أيضاً • فالانسان مهما يصغر سنانه ومهما يهبط قدره ومهما تهين قيمته يجب بغريزته أن تحترم كرامته من حيث هو انسان • ان كل سجين يعرف حق المعرفة انه سجين ويعرف حق المعرفة انه منبوذ ممقوت مكروه، ويعرف المسافة التي تفصل بينه وبين رؤسائه • ولكن لا القضبان ولا الأغلال تنسيه أنه انسان فلا بد أن يعامل اذن معاملة انسانية • ربه ! ألا ان في استطاعة معاملة انساينه أن تنقذ من الهوة حتى ذلك الذي اختفت من نفسه صورة الله منذ زمن طويل • الا ان « عاتري الحظ » هم الذين يجب أن يعاملوا معاملة انسانية قبل غيرهم من الناس ، فذلك هو خلاصهم ، وذلك هو فرحهم • لقد اتفق لى أن صادفت أمرين ينعمون بطبع نبيل وقلب طيب فاستطعت أن أرى مدى ما يحدثون في نفوس هؤلاء المذلين من تأثير حسن • رب كلمة طيبة يقولونها تبعث روح السجناء بعناً جديداً فاذا السجناء يفرحون بها كما يفرح الأطفال واذا هم يحضون رئيسهم حباً صادقاً • ملاحظة أخرى : ان السجناء لا يحلو لهم من رؤسائهم أن يرفعوا الكلفة بينهم وبينهم ، ولا يحبون أن يسرف رؤساؤهم فيما يعاملونهم به من طيبة ، ولا يريدون لهؤلاء الرؤساء أن يكونوا سذجاً مفرطين في السذاجة ، ذلك أنهم يحبون أن يحترموا رؤساءهم • انهم ليسعرون بكثير من الاعتزاز مثلاً حين يكون رئيسهم كثير الأوسمة

حسن الهندام مهيب المظهر وحين يحظى رئيسهم بالتقدير والاعتبار في نظر رئيس أعلى وحين يكون قاسياً وقوراً عادلاً منصفاً • وحين يشعر بكرامته شعوراً قوياً • ان السجناء يؤثرونه عندئذ على سائر من عداه ، لأنه يعرف قيمته ، ولا يهين الآخرين أو يسيء اليهم ، لذلك تجرى أموره كأحسن ما تجرى الامور •

سأل كويلين بهدوء :

— أظن أنك عوقبت على ذلك عقاباً شديداً ؟

— هه ••• أما عن العقاب فلا تسأل ••• لقد عوقبت عقاباً شديداً والحق يقال ، يا رفاق ! ••• هات المقص يا على ! ولكن قولوا : أني يكون لعب بالورق هذا المساء ؟

قال فاسيا :

— شرب المال اللازم للعب •• شرب خمرأ فلولاً أنه شرب لوجد هنا •••

قال لوقا :

— « لولا » ! ان « لولا » هذه تساوى مائة روبل في سوق موسكو • وعاد كويلين يسأل :

— فكم كان عقابك يا لوقا ؟

— خمسمائة جلدة يا صديقي العزيز •

قال لوقا ذلك ثم أردف يخاطب الآخرين مستخفاً بجاراه مرة أخرى :

— حقاً يا رفاق ••• لقد أوشكوا أن يقتلوني ! وحين جلدوني هذه الجللات الخمسمائة ، احتفلوا بي احتفالاً كبيراً • لم أكن قد جلدت قبل ذلك اليوم • تجمعت أفواج من الناس • أسرع المدينة كلها تشهد عقاب المجرم ، عقاب القاتل • ما كان أغبى أولئك الناس ! لا أستطيع أن

أصف لكم غباءهم ! خلع عني تيموشكا (الجلابد) ثيابي ، وأضجني على الأرض ، وصرخ يقول لي : « استعد ... سوف أشويك ! » انتظرت . فلما هوى عليّ بأول سوط وددت لو أصرخ ، ولكنني لم أستطع ... فأنني مهما افتح فمي لا يخرج صوت من حلقى . لقد اختنق صوتي ... فلما هوى عليّ بالسوط الثاني - صدقوا أو لا تصدقوا - فأنني لم أسمع صوت العداد قائلاً « اثنين » ... حتى اذا تاب إلى شعوى بعد مدة سمعتهم يعدون : « سبعة عشر » . وقد فكّوني أربع مرات حتى يدعوا لي أن أتنفس مدة نصف ساعة ، وحتى يفرقوني بماء بارد . فكنت أنظر إليهم جميعاً وقد كادت عيناى تخرجان من رأسى ، وأقول لنفسى : « سأفطس هنا » .

سأله كوبيلين :

- ولم تمت ؟

فألقى عليه لوقا نظرة احتقار ، وانفجبر الآخرون يضحكون مقهقهين .

- متوه حقاً .

وكان لوقا ندم على أنه تنازل فارنسي أن يكلم رجلاً أبله كهذا الرجل ، فما هو ذا يضيف قائلاً :

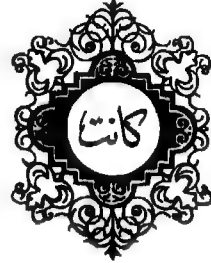
- لا شك أن في الطابق الأعلى من جسمه مرضاً .

فقال فاسيا من جهته مؤيداً :

- ان في عقله لومة .

ومع أن لوقا قد قتل ستة أشخاص ، فما من أحد في السجن قد خاف منه يوماً ، لكنه كان يهوى أن يُعدَّ رجلاً مرعباً .

أشعيا فومتش - (طما) قصة بالكلوشين



أعياد الميلاد تقترب • ان السجناء ينتظرونها في شوق عظيم واهتمام كبير • فلما رأيتهم كذلك أصبحت أنا نفسي أتوقع شيئاً خارقاً • وكان يجب أن نؤخذ الى حمام البخار قبل الأعياد بأربعة أيام فكان السجناء جميعاً سعداء بذلك وكانوا يستعدون • ان علينا أن نذهب الى الحمام بعد الغداء • يحسن أن أذكر في هذه المناسبة أننا لانعمل بعد الظهر • ولا شك أن الشخص الذي كان بين جميع السجناء أشدهم ابتهاجا وأكثرهم حركة انما هو أشعيا فومتش بومشتاين ، اليهودي الذي تكلمت عنه في الفصل الرابع من قصتي هذه • كان أشعيا يحب الاستحمام ، ويسرف في المكوث في الحمام ، الى أن يقع مفضياً عليه في بعض الأحيان • كلما نبشت كومة ذكرياتي القديمة فتذكرت حمام السجن (الذي يستحق أن لا ينسى) فان أول وجه يترامى لي انما هو وجه رفيقي في السجن ، أشعيا فومتش المجيد الذي لا تنسى ذكره • ما كان أعجبه من انسان يا رب ! لقد سبق أن قلت بضع كلمات عن هذا الرجل : هو في الخمسين من عمره • هزيل الجسم ، مضن الوجه ، على خديه وجينيه تدبات

رهينة ، أعرج ، نحيل • شديد البياض ، يشبه أن يكون جسمه
 جسم صوص • ان وجهه يعبر عن اكتفاء دائم وثقة راسخة لا تتزعزع ،
 بل لعله كان يعبر أيضا عن غبطة وجور وسعادة • أحسب أنه لم يكن
 يأسف قط على أنه اودع سجن الاشغال الشاقة • واذا كان صائغا ، واذا لم
 يكن في المدينة صائغ غيره ، فانه لم يكن يعوزه العمل • وكان يؤجر على
 عمله أجراً حسناً • لم يكن في حاجة الى شيء • حتى لقد كان يعيش حياة
 غنية • فهو ينفق عن سعة ، ولكنه لا ينفق مع ذلك كل ما يجنيه من ارباح ،
 بل يقتصد ويوفر ويدخر ، ويقترض السجناء بالربا على رهن • كان يملك
 سمائرا وفرشا ونبرا وهاجين وغطاء • وكان يهود المدينة لا يرضون عليه
 بحمايتهم ورعايتهم • وكان يذهب في كل يوم من أيام السبت الى الكنيس
 مخفورا (وذلك أمر يسيحه القانون) • كان يعيش اذن حياة رغدة مرفهة ،
 ولكنه كان يحترف شوقا الى انقضاء مدة سجنه ، وهي اثنتا عشرة سنة ،
 من أجل أن «يتزوج» • انه مزيج عجيب مضحك من سداجة وغباوة
 ومكر ووقاحة وبساطة وخجل وادعاء وزهو وشراسة • وأغرب ما في
 الأمر في نظري أن السجناء كانوا لا يسخرون منه قط • فاذا ناكدوه في
 بعض الاحيان فانما هم يناكدونه لهوا وعبثا وضحكا ، فلقد كان أشعيا
 فومتش يسرى عنهم ويسلمهم ويهيجهم • كانوا يقولون : « ليس عندنا
 الا أشعيا فومتش واحد ، فلا تمسوه » • وكان هو يزهو بخطورة شأنه
 وعلو منزلته رغم أنه يدرك حقيقة أمره ، فكان ذلك يروح عن السجناء
 كثيراً • كان أشعيا فومتش قد دخل السجن دخولا أشاع بين السجناء
 كثيراً من الضحك (وقد دخل السجن قبل وصولي ولكن دخوله الى
 السجن قد وُصف لي بعد ذلك) • ففي ذات مساء ، انتشرت في السجن
 على حين فجأة شائعة تقول ان يهوديا قد اقتيد الى السجن ، وهو الآن في
 مقر الحرس ، يُحلق له شعره • ولم يكن في السجن كله يهودي

واحد ، فانتظر السجناء دخوله عليهم بفارغ صبر ، حتى اذا اجتاز الباب الكبير أحاطوا به واحتشدوا حوله • جاء به ضابط الصف الى السجن المدنى فدلته على مكانه فوق ألواح الخشب • كان أشعيا فومتش يحمل كيسا يضم الأمتعة التى أعطيت له ، ويضم الأمتعة التى يملكها • فوضع كيسه على الأرض ، واتخذ مكانه فوق السرير • وجلس متربعا لا يجرؤ أن يرفع بصره • أخذ السجناء يضحكون من حوله ويتندرون على أصله اليهودى • وفجأة تقدم سجين شاب فابعد الجمهور واقرب من أشعيا حاملا بيده سروالا صيفيا قذرا ممزقا مهترئا مرقعا بخرق عتيقة ، فجلس بجانب اشعيا فومتش ورث على كتفه ، وقال له :

– هيه أيها الصديق العزيز ! لقد انتظرتك ست سنين طوال !
أنظر ! كم تقرضى اذا رهنـت عندك هذا السروال ؟
قال له ذلك وعرض عليه أسـمـاله الرثة •

كان أشعيا فومتش يشعر بوجل يبلغ من الشدة أنه لم يجرؤ أن ينظر الى هذه الجمهرة الساخرة ذات الوجوه المشوهة المرعبة المتحلقة حوله دائرة كثيفة • لم يكن قد نطق بكلمة واحدة من شدة جزعه وهلعـه ، فلما رأى الرهن الذى يعرضه عليه السجين الشاب ، ارتعش وأخذ يجس السروال الخلق الرث بهمة ونشاط • حتى لقد اقترب من المصباح ليفحصه فى الضوء • كان كل واحد من السجناء ينتظر ماسيقوله أشعيا •

أردف السجين الشاب يخاطب أشعيا وهو يغمز رفاقه :

– هه ؟ هل تقرضى روبلا فضة اذا رهنـت السروال لديك ؟

– روبلا فضة ؟ لا ••• بل سبعة كويكات !

هذه هي الكلمات الأولى التى نطق بها أشعيا فومتش فى السجن •
فما ان سمعها الحضور حتى ضجوا ضاحكين فى قهقهة صاخبة •
قال السجين الشاب :

- سبعة كوبيكات ؟ طيب هاتها ••• يميناً انك لحظوظ ! ولكن
حافظ على سروالى ، وحذار أن تفسده ، والآّ دفعتَ رأسك ثمناً له •
قال اليهودى بصوت متقطع متهدج وهو يدس يده فى جيبه ليخرج
منها المبلغ المتفق عليه ، وينظر الى السجناء نظرة فاحصة وجلى :
- والفائدة ثلاثة كوبيكات فيكون دينى عليك عشرة •••
كان اليهودى يشعر بذعر رهيب وهلع شديد ، ولكن رغبته فى
اتمام الصفقة الرابعة تغلبت على ذعره وهلعه •

قال السجين الشاب :

- الفائدة ثلاثة كوبيكات ••• سنوياً ؟
- بل شهرياً •
- ألا انك لطماع فظيع • ما اسمك ؟
- أشعيا فومتش •

- طيب يا أشعيا فومتش ! ستفلس هنا أيما فلاح ! الى اللقاء •
عاد اليهودى يفحص مرة أخرى الأسمال التى أقرض على رهنها
سبعة كوبيكات ، ثم طواها ودسها فى كيسه بكثير من العناية • وظل السجناء
يضحكون ضحكاً شديداً •

الحق أن جميع السجناء قد أحبوه ، ولم يسيء اليه أحد يوماً ، رغم
أنهم أصبحوا جميعاً مدينين له بأموال اقترضوها منه بفائدة باهظة • ولقد
كان على كل حال لا يحمل قلبه من الحقد والضعفينة أكثر مما يحمل

منهما قلب دجاجة • فلما رأى جميعاً من حوله يلاينونه ويلاطفونه ، أخذ يتصنع الوقار وطفق يتعالى ويتكبر ، ولكن أوضاعه هذه كلها كانت مضحكة سخيفة ، فسرعان ما كان السجناء يغفرونها له فلا يؤاخذونه عليها •

وكان لوقا الذى سبق أن عرف كثيراً من اليهود قبل دخوله السجن يناكده ويناكفه ويغظه فى كثير من الأحيان ، ولكنه لا يفعل ذلك عن سوء نية وخبث سريره ، وإنما يفعله على سبيل المزاح والتسلية والتفكه ، فهو يداعبه مداعبةً كما يداعب المرء كلباً أو بقاءً أو أى حيوان من الحيوانات المدربة • وكان أشعيا فومتش يدرك ذلك فما يستاء قط بل يسرع الى الرد عليه ويكيل له الصاع صاعين •

كان لوقا يقول مثلاً :

— سوف ترى يا يهودى ••• لأشبعك ضرباً •

فيجيبه أشعيا بقوله :

— ان ضربتنى ضربة ضربتك عشرين •

فيقول له لوقا :

— يا للأجرب الكريه !

فيجيبه أشعيا :

— فلا تكن أجرب !

فيقول له لوقا :

— يا لليهودى المعرور !

فيجيبه أشعيا :

— أجرب ! معرور ! قل ما شئت ، ولكننى غنى أملك مالا •

ويستمر الحوار •

- يا بائع المسيح !

- قل ما شئت •

- مرحى صاحبنا أشعيا فومتش ! ألا انك لدماغ ! لا تمسوه يارفاق

فليس لدينا منه الا واحد !

- هيه يا يهودى ! سوف تُجَلد وترسل الى سبيريا •

- أنا فى سبيريا منذ الآن •

- سيرسلونك الى مكان أبعد !

- أليس الله تعالى موجوداً هناك أيضاً ؟

- طبعاً •

- ليكن اذن ما يكون • فحيثما يوجد الله والمال يكن كل شئ على

ما يرام •

- ألا انه لدماغ ، صاحبنا أشعيا فومتش ! دماغ حقاً ! ذلك

واضح ...

كذلك كان يصيح السجناء من حوله •

وكان اليهودى يدرك ادراكاً واضحاً أنهم يهزأون به ويتهمون عليه • ولكن ذلك كان لا يفقده شجاعته ، فهو ما ينفك يصطنع الجرأة ويتظاهر بالجمسارة • وكان المدح الذى يكيّله له السجناء يحدث له لذة كبيرة وها هو ذا يأخذ فى الغناء بصوت نحيل يصرف فى الثكنة كلها : لا ، لا ، لا ، لا !... على لحن أبله مضحك ؛ تلك هى الأغنية الوحيدة التى سُمع صادقاً بها طوال مدة اقامته بالسجن • وحين تعرف بى حلف لى أغلظ الأيمان أن هذه الأغنية هى اللحن الذى كان يغنيه ستمائة ألف

يهودى من أصغرهم الى أكبرهم حين عبروا البحر الأحمر ، وأن على كل اسرائيلى أن يغنى هذه الأغنية بعد كل انتصار على العدو .

وكان السجناء فى عشية كل يوم من أيام السبت يجيئون الى ثكنتنا من سائر الثكنات ليروا أشعيا فومتش وهو يحتفل بعيد السبت . وكان هو من فرط امتلائه بالفور الساذج والخيلاء البريئة أن اهتمام الناس هذا به كان يسره ويطربه . ها هو ذا يمضى الى منضدته الصغيرة القابعة فى أحد الأركان فيفرش عليها غطاءً وهو يصطنع مظاهر الوقار والتفهيق والتعالم ثم يفتح كتابا ويشعل شمعتين ويدمدم ببضع كلمات سرية ، ثم يتناول مسوحة المبرقش الذى لا أكمام له والذى كان يعنى بالمحافظة عليه فى قرارة صندوقه ؟ وها هو ذا يعلق بيديه أساور من نحاس ؟ وها هو ذا ينبت على جبينه علبة صغيرة * بواسطة عصبة فكأنها قرن يخرج من رأسه ، ثم ها هو ذا يأخذ أخيراً فى الصلاة والدعاء . انه يقرأ فى بطء ويصيح ويبصق ويتمايل بحركات عنيفة مضحكة . ذلك كله تأمر به طقوس العبادة فى ديارته . وما كان لشيء من هذا كله أن يبعث على الضحك أو أن يبدو غريباً لولا الأوضاع التى يتخذها أشعيا فومتش أمامنا ولولا الهبات التى يصطنعها وهو يعرض هذه الطقوس على أنظارنا ! وها هو ذا يغطي رأسه بيديه على حين فجأة ويأخذ يقرأ ناشجاً منتحباً . ان بكاءه يزداد قوة ، وانه ليوشك من شدة ألمه أن يرقد على الكتاب رأسه المعصوب نائحا معولا ، ولكنه ما يلبث فى وسط هذه الانتحابات اليائسة أن ينفجر ضاحكاً مقهقهاً على حين بقة ، ويأخذ ينشد بصوت أحن لحناً مظفراً متصراً كأنما رقبته وأضعفه فيض من سعادة . . . كان السجناء فى بعض الأحيان يقولون لأنفسهم : « لا يفهم المرء من هذا شيئاً » . وقد سألت أشعيا فومتش ذات يوم عن معنى هذه الانتحابات وسألته لماذا ينتقل فجأة من مرارة اللوعة الى ظفر السعادة والغبطة . وكان أشعيا فومتش يحب هذه

الأسئلة كثيراً منى ، فسرعان ما شرح لى أن الدموع والانتحابات انما يستثيرها فقد أورشليم ، وأن الدين يأمر بالتأوه والالين ولطم الصدور لهذه الذكرى ، حتى اذا بلغ ذروة الكمد والحزن والكرب كان عليه فجة ، هو أشعيا فومتش ، أن يتذكر بما يشبه المصادفة (والدين نفسه يأمر بهذا التذكر «الفجائي») أن نبوة من النبوءات قد وعدت اليهود بالعودة الى أورشليم ، فعليه أن يسارع فوراً الى اظهار فرح طافح ، والى أن يغنى ويضحك ، وأن يتلو صلواته بصوت يعبر عن السعادة ، وأن يسبغ على وجهه أكبر قدر ممكن من الآبهة والنبل .

كان هذا الانتقال المفاجيء من البكاء الى الفرح يسره كثيراً ، وكان تقيده بهذا الواجب يرضى نفسه أشد الارضاء . وقد شرح لى هذه القاعدة الحكيمه من قواعد الدين بابتهاج لم يحاول أن يخفيه . وفى ذات مساء بينما كان أشعيا فومتش مندفعاً فى صلاته دخل الميجر يتبعه ضابط الحرس ويخفّره عدد من الجنود ، فسرعان ما اصطف السجّاء أمام مضاجعهم ، الا أشعيا فومتش ، فقد استمر يصيح ويتحرك . كان يعلم أن من حقه أن يتعب ، فما من أحد يستطيع أن يقطع عليه صلاته ، وانه اذا ظل يعول أمام الميجر فليس يجازف بشيء ، وليس يتعرض لخطر . كان يبهجه كثيراً أن يظل يتحرك على رأى من الرئيس . اقترب منه الميجر حتى صار على بعد خطوة . فأدار أشعيا فومتش ظهره الى المنضدة ، وانتصب واقفاً أمام الميجر ، وطفق يشد نشيد نشيد الظفر محرّكاً يديه متمايلاً بجسمه ، ملحا على بعض المقاطع ؛ حتى اذا أصبح عليه أن يسبغ على وجهه معنى السعادة والنبل ، فعل ذلك فوراً وهو يغمز بعينه ويطلق ضحكات مجلبة ويخنى رأسه متجهاً نحو الميجر . فما كان من الميجر الا أن دُهِش فى أول الأمر ، ثم انفجر مقهقهاً ، ووصف أشعيا بأنه « أبله » ، وانصرف بينما استمر اليهودى فى صراخه . وبعد ذلك بساعة

بينما كان أشعيا يتناول عشاءه ، سألته عمّا كان يمكن أن يفعله لو بدا للميجر أن ثور تآثرته • فإذا بأشعيا يسألنى :

- أى ميجر ؟

قلت :

- كيف ؟ ألم تر الميجر ؟

قال :

- لا ...

قلت :

- كان ينظر اليك وهو على مسافة قدمين منك • ولكن فوما فومتش أكد لى جاداً كل الجد أنه لم ير الميجر ، لأنه فى مثل هذه اللحظة من الصلاة يبلغ من شدة الوجد فى العادة انه لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً مما يجرى حوله •

وما زلت أرى أشعيا فومتش يتجول أيام السبت فى السجن كله محاولاً أن لا يعمل شيئاً كما تأمر الشريعة كلَّ يهودى بذلك • ألا ما أكثر ما كان يروى لى من حكايات لا تصدق ! لقد كان ، كلما عاد من كنيسة اليهود ، يحمل الىّ أبناء عن بطرسبرج ، ويحمل الىّ شاعات سخيفة ، مؤكداً أنه عرفها من أبناء ملته فى المدينة ، وأن هؤلاء قد استقوها من ينايعها •

ولكننى أطلت الكلام عن أشعيا فومتش •

لم يكن فى المدينة كلها الا حمّامان عامان • فأما الأول ، وصاحبه يهودى ، فقد كان مقسماً الى مقصورات يبلغ أجر المقصورة منها خمسين كوبكاً ، وهو الحمام الذى كان يرتاده أبناء الطبقة الأرستقراطية بالمدينة ؛ وأما الثانى الذى يرتاده أبناء الشعب فهو عتيق وسخ ضيق ، وهو الحمام الذى كان يؤخذ اليه السجناء • كان الجو بارداً والنهار مضيقاً : ان

السجناء ليفرحهم أن يخرجوا من القلعة وان يطوفوا في المدينة ، فها هي ذى ضحكاتهم وامازيحهم لا تنقطع لحظة اتناء الطريق • وقد صحبتنا سرية من الجند شاكية السلاح • هذا منظر يتسلى به سكان المدينة • فلما وصلنا الى الحمام قسمنا فئتين • لان الحمام ضيق لا يستوعب جميع السجناء دفعه واحدة ، ففئه تستحم ، وفئه تنتظر دورها في الحجرة الباردة التي سبق المبحر • ومع ذلك كانت القاعة من الضيق بحيث يصعب على المرء ان يتصور كيف يمكن ان تضم نصف السجناء • لم يتعد عنى بتروف قيد أنملة • لقد أسرع الىّ دون أن أسأله مساعدتي ، حتى لقد عرض على ان يفسلنى • وهناك سجين اخر من القسم الخاص عرض على خدماته في الوقت نفسه • انه باكلوشين • ما أزال أتذكر هذا السجين الذى كان يُطلق عليه اسم « الميجر » • لقد كان أكثر رفاقى مرحا وبشاشه • وقد جمعت بيننا الصداقه • ساعدنى بتروف في خلع ملابسى، لانتى كنت أنفق وقتا طويلاً في هذا العمل الذى لم آكن قد الفته بعد ولا تعودت عليه • ثم ان البرد في حجرة الانتظار لم يكن أقل من البرد في الخارج • انه لمن الصعب جدا على سجين مبتدىء أن يخلع ملابسه ، ذلك أن عليه أن يعرف كيف يحسن نزع السيور الموضوعة تحت السلاسل • ان هذه السيور من جلد طوله سبعة عشر سنتيمتراً ، وهى تُربط فوق الملابس الداخلية تحت الحلقة التى توثق الساق • ان ثمن الزوجين من هذه السيور ستون كوبكاً • ولا بد لكل سجين أن يشتري من هذه السيور زوجين ، لأنه لا يستطيع بدونها أن يمشى ، فان الحلقة لا تحيط بالساق احاطة كاملة دقيقة ، وفي وسع المرء أن يدخل اصبعه بين الحديد واللحم ، لذلك تلطم الحلقة الكاحل وتحكه ، فيكفى أن يمشي السجين يوماً واحداً بدون سيور حتى تجرح ساقه وينزف دمه • لا صعوبة في نزع السيور ، وانما الصعوبة في خلع الملابس الداخلية •

ولا بد لنزع الملابس الداخلية من براعة كبيرة وحنق عظيم • ان على السجين بعد نزع فردة السروال اليسرى أن يُمَرَّها كلها بين الحلقة والساق ، وأن يعيد امرارها في الاتجاه المعاكس تحت الحلقة • فبذلك تتحرر الساق اليسرى تحراً تاماً ، ويكون على السجين بعدئذ أن يُمَرَّ فردة السروال اليسرى تحت حلقة الساق اليمنى ، وأن يعيد امرارها ثانية الى الوراء مع فردة السروال اليمنى • وهذه العملية المعقدة تتم ايضا حين تبديل الملابس الداخلية الوسخة بملابس داخلية نظيفة • ولقد كان أول من علمنا ذلك هو كورنيلف ، في مدينة توبولسك ، وهو سجين كان زعيم عصابة من قطاع الطرق وحكم بالتيكيل بالسلاسل خمسة أعوام • والسجناء قد ألفوا هذه الرياضة فهم يجرونها في خفة وسرعة • أعطيت بتروف بضعة كوبكات ليشتري صابوناً وليفة • صحيح أن السجناء كانوا يُعطون قطعة صابون ، ولكن قطعة الصابون التي كانوا يُعطونها لا يزيد حجمها على حجم قطعة النقد من فئة الكوبيكين ، ولا يزيد سمكها على سمك شرائح الجبن النحيلة التي تُقدَّم بدايةً لوجبة العشاء على موائد أبناء الطبقة المتوسطة في الولايم • كان الصابون يُباع في حجرة الانتظار نفسها ، كما يباع شراب « السيتين » (المصنوع من عسل وتوابل وماء ساخن) ، وكما تباع أرغفة من خبز أبيض ، وكما يباع الماء الغالي ، لأن كل سجين من السجناء لا يأخذ الا قادوساً واحداً من الماء الغالي ، وفقاً للاتفاق المبرم بين صاحب الحمام وادارة السجن ؛ فاذا أراد أحد السجناء أن ينظف جسمه مزيداً من التنظيف كان في وسعه أن يشتري بكوبيكين قادوساً آخر يمدّه اليه صاحب الحمام من كوة مشقوقة في الجدار لهذا الغرض •

ما ان فرغت من خلع ملابسك حتى أمسك بتروف ذراعي قائلاً ان من الصعب على أن أسير بأغلالى ؛ وأضاف ينصحنى وهو يسندنى من

ابطىء كأتني شيخ عجوز : « ارفعها الى فوق ، الى ربلي الساقين • حذار هنا ! سنجتاز الآن عتبة الباب ! » • خجلت من هذه الرعاية التي يحيطني بها بتروف ، فأكدت له أنني أستطيع أن أسير وحدي ، ولكنه لم يشأ أن يصدقني • كان يرعى كما يرعى طفل صغير أخرق ينبغي لكل انسان أن يهب الى مساعدته • ولم يكن بتروف بالخادم قط • ولو قد أهنته لعرف كيف يتصرف معي • وأنا لم أعد به شيء مكافأة له على خدماته • ولا هو سألني شيئاً من ذلك ، فما الذي كان يدفعه الى هذه العناية بي وهذه الرعاية لي ؟

حين فتحنا باب المبخر خيل الى أننا ندخل الجحيم • تصوروا قاعة طولها اثنتا عشرة قدماً وعرضها مثل ذلك ، وقد حُشِر فيها مائة شخص في آن واحد ، أو ثمانون شخصاً على الأقل ، لأن عددنا كان نحواً من مائتين قسموا فثنين • أعمانا البخار • كان السخام والقذارة وضيق المكان ، كان ذلك كله يبلغ حدّاً لا نعرف معه أين نضع أقدامنا • ذُعرت وأردت أن أخرج • ولكن بتروف لم يلبث أن طمأنني • واستطعنا بعد لأي أن نشق طريقنا نحو المصاطب كيفما اتفق ، متطاولين بخطانا على رموس السجناء ، راجين اياهم أن ينحنا حتى يُتاح لنا أن نمر • ولكن جميع المصاطب كانت قد سُفِلت • فأعلمني بتروف أن عليّ أن أشتري مكاناً ، وسرعان ما أخذ يساوم في هذا سجيناً كان جالساً على مصطبة قرب النافذة • فقبل السجين أن يتنازل لي عن مكانه لقاء كوبك واحد • أخذ الكوبك من بتروف الذي كان يقبض على الكوبك بيده اذ كان قد أعدّه سلفاً من باب الاحتياط • أدخلني الى السجين مكانه ثم انسل من تحتي الى مكان مظلم قدر تراكمت فيه أوساخ علوها نصف بوصة على الأقل • حتى الأماكن التي تحت المصاطب كانت غاصة بالسجناء يتقلبون فيها ويلفظون • أما أرض الحمام فلم يكن فيها خلاء بسعة راحة اليد الا وهو

مشغول بالسجناء الذين يصبون الماء من قواديسهم • فالواقفون يغتسلون ممسكين أوانيهم بأيديهم ، فيتساقط الماء الوسخ من أجسامهم على رؤوس القاعدين الحليقة • وعلى المصطبة والدرجات المنفضية إليها قد ألقى سجناء آخرون يغتسلون متجمعين على أنفسهم متكومين ، ولكنهم قلة • والسواد الأعظم من السجناء لا يحب الاغتسال بالماء والصابون ، وانما يؤثر البقاء في جو البخار زمناً طويلاً ، ثم يصب الماء البارد على الجسم ، فهكذا كانت تستحم العامة من السجناء • وعلى أرض الحمام يرى المرء خمسين ليفة تملو وتهبط في آن واحد ، تحك أجسام المستحمين فيشعر المستحمون من ذلك بنشوة تشبه أن تكون سكرًا • والبخار يزداد في كل لحظة ، حتى ليصبح الشعور بالحرارة احسناً بالاحتراق • والصراخ والزعيق يرتفعان في كل جهة من الجهات ، ويختلطان بجلجلة الأغلال التي تفرع الأرض ••• فاذا أراد بعض السجناء أن ينتقلوا من موضع الى آخر تشابكت سلاسلهم بسلاسل أخرى، وصدمت رؤوس من يكونون تحتهم، فاذا هم يسقطون ، فيأخذون يشتمون ، واذا هم يجرون الى السقوط معهم أولئك الذين تعلقوا بهم • ان السجناء جميعا في نوع من سكر ، وفي حالة من هيجان مجنون • الصرخات والصيحات تتقاطع وتختلط • وعند الكوة التي يعطى منها الماء الساخن ، يتكدس السجناء تكديسا حتى ليكاد يسحق بعضهم بعضا • والماء الساخن يتدفق فوق رؤوس القاعدين على أرض الحمام قبل أن يصل الى حيث ينقل • وكنا نحس اننا أحرار طلقاء غير أن وجها ذا شاربين هو وجه أحد الجنود ، كن يظهر وراء كوة الحجر أو وراء الباب المشقوق ، من حين الى حين ؛ ان الجندي يحمل بندقيته حرصا على منع حدوث أية فوضى • ان رؤوس السجناء الحليقة وأجسامهم التي صبغها البخار بلون كلون الدم تبدو غريبة مزيدا من الغرابة والشذوذ • فعلى ظهورهم المحمرّة من حرارة البخار تبدو الآن،

عند قدميَّ وأعلن لي أنه مرتاح كل الارتياح • وفي أثناء ذلك اشترى لنا باكلوشين ماءً ساخناً ، فكان يحمله إلينا كلما احتجنا إلى ماء ساخن • وأعرب لي بتروف عن رغبته في أن يغسلني من القدمين إلى الرأس حتى أصبح « نظيفاً كل النظافة » • وحضني على أن ألبث في البخار زمناً • ولكنني لم أعزم أمري على ذلك • فأخذ يفرك جسمي كله بالصابون • فلما انتهى من ذلك قال : « والآن سأغسل قدميك الصغيرتين » ، فاردت أن أجيئه بأنني أستطيع أن أغسل نفسي بنفسي ، ولكنني لم أعاوزه بل استسلمت لإرادته • لم يكن في قوله « قدميك الصغيرتين » شيء من مذلة • ان بتروف لا يستطيع أن يسمى قدميَّ باسمهما ، لأن جميع الرجال العاديين لهم أقدام ، أما أنا فليس لي قدمان بل « قدمان صغيرتان » ! ••

فلما فرغ بتروف من غسلي مرة ثانية أعادني إلى الحجرة الخارجية وهو يسندني من ذراعي وينهني عند كل خطوة ، كما لو كنت من خزف • وأعانني على لبس ثيابي ، حتى إذا انتهى من تدليل هذا التدليل كله ، اندفع إلى الحمام ليستحم هو أيضاً •

فلما وصلنا إلى الثكنة قدمت إليه فنجاناً من الشاي فلم يرفضه بل حساه وشكره لي • وخطر ببالي أن أنفق ثمن قدح من الخمرة تكريماً له • فوجدت خمرة في ثكنتنا نفسها • فما كان أشد سروره بذلك ! أفرغ الخمرة في جوفه ، وتنحج رضى واغترباطاً ، وقال لي انني رددته إلى الحياة ، ثم مضى مسرعاً إلى المطبخ ، كأنما لا يمكن أن يُقرر في المطبخ شيء بدونه • فما ان غاب حتى جاءني محدث آخر : انه باكلوشين الذي سبق أن تكلمت عنه ، وكنت قد دعوته أيضاً إلى فنجان من الشاي • لا أعرف خُلُقاً آدمت من خلق باكلوشين • والحق أنه لم يكن يغفر لأحد شيئاً ، حتى لقد كان يتشاجر مع الناس كثيراً ، وكان لا يحب

أن يتدخل أحد في شئونه خاصة • الخلاصة أنه كان يعرف كيف يدافع عن نفسه • ولكن مشاجراته كانت لا تطول • وأعتقد أن جميع السجناء كانوا يحبونه • وكانت تحسن وفادته حيثما ذهب • وحتى في المدينة كان يعد اللطف انسان • انه فتى فارغ القامة ، في الثلاثين من عمره ، له وجه ينم عن ذكاء وحزم ، وهو بلحية ذقنه وسيم الطلعة جميل الميعة • وكانت له موهبة فذة هي القدرة على تشويه وجهه تشويهاً يبلغ من الاضحاك في تقليد أول قادم أن الحلقة التي تحيط به ما تلبث أن تنفجر في قهقهة شديدة • انه ممثل هزلئ بفطرته • ولكنه يرفض أن يسيء اليه اولئك الذين يصطنعون الاشمئزاز ولا يحبون أن يضحكوا • لذلك لم يكن يهمهم أحد بانه امرؤ « لا فائدة منه ولا دماغ له » • كان باكلوشين يفيض حياة وتاراً • وقد تعرف الى منذ الأيام الاولى ، فقص على سيرة حياته العسكرية جندياً في كتيبة الرواد حيث لاحظته وعنى به اناس من أعلى الرتب • وسرعان ما ألقى على عدة أسئلة عن بطرسبرج • حتى لقد كان يقرأ كتباً • فلما جاء في هذه المرة يحسب الشئى عندي أضحك جميع من في الكتنة اذ روى كيف أساء الليوتنان ش • • • • • معاملة الميجر في الصباح • وأنبأني متهجاً وهو يجلس الى جانبي أن من الجائز أن تقام في السجن حفلة تمثيلية • ان في نية السجناء أن يمثلوا مسرحية أثناء أعياد الميلاد ، وقد عثروا على الممثلين اللازمين ، وهم الآن بسبيل اعداد « الديكور » شيئاً بعد شئ • وقد وعدهم بعض الأشخاص في المدينة باعارتهم ثياب نساء للتمثيل ، حتى أن هناك أملاً في الحصول على بزة ضابط بواسطة خادم من خدام الضباط ، مع ما على البزة من شارات مذهبة ، اللهم الا أن يخطر ببال الميجر أن يمنع اقامة الحفلة كما منعها في السنة الماضية ! لقد كان الميجر في السنة الماضية معتكر المزاج لأنه خسر في القمار، هذا عدا أن شيئاً من الشعب كان قد حدث في السجن، فاذا هو

يمنع كل شيء في سورة من الغضب والاستياء • ولعله لن يجب أن يمنع إقامة حفلة تمثيلية في هذا العام • كن باكلوشين متحمساً ، وكان من الواضح انه أحد المحرضين الأوائل على إقامة المسرح المرتقب • ولقد قررت بيني وبين نفسي أن أحضر المسرحية • ان الفرح الشديد الذي ظهر على باكلوشين أثناء حديثه عن هذا المشروع قد أثر في قلبي تأثيراً قوياً • وشيئاً فشيئاً أصبحنا نتصارح وتكاشف ، فذكر لي فيما ذكر أنه لم يخدم في بطرسبرج فحسب ، وانما أُرسل أيضاً الى مدينة ر ••• برتبة صف ضابط مع فصيلة من الجيش ، ثم أضاف الى ذلك قوله :

- ومن هناك انما أُرسلت الى هنا •

سألته :

- لماذا ؟

فأجاب :

- لماذا ؟ انك لن تعجز السبب يا ألكسندر بتروفتش ! لقد أُرسلت

الى هنا لأننى عشقت •••

فقلت له ضاحكاً :

- دعك من هذا الكلام ، فما أحد ينفى لمثل هذا السبب •

فقال باكلوشين :

- الحقيقة اننى بسبب ذلك الغرام قد قتلت هناك ألمانيا بطلقة من

مسدس • ولكن هل يستحق ألمانى أن أُحكم من أجله بالأشغال الشاقة

في المنفى ؟ اننى أحتكم اليك •••

- كيف وقع هذا ؟ اقصص علىَّ القصة ، فلا شك أنها قصة

شائعة •

- هي قصة مضحكة يا ألكسندر بتروفتش !

— هلاً قصصتها على ؟

— أتريد ذلك ؟ اصغ اذن الى ...

وأصغيت الى قصة القتل ؟ ما هى بالقصة « المضحكة » ، وانما هى
فى الحقيقة قصة عجيبة جداً ...
بدأ باكوشين يروى قصته :

— اليك القصة ... كنت قد أرسلت الى ريجا « وهى مدينة كبيرة
جميلة لا يعيها الا شيء واحد هو كثرة الألمان فيها » كنت ما أزال شاباً ،
وإن رؤسائى يقدروننى ويتون على . كنت أتبحر جاعلاً قبعنى مائلاً
على رأسى حتى الاذن ، وكنت اقضى وقتى فى متعة وبهجة . وكنت اغازل
الفتيات الألمانيات ، فأعجبتى احدهن اعجاباً شديداً ، وكان اسمها لويزا .
انها تعمل مع عمتها فى تنظيف الملابس الراقية وكى الثياب الانيقة .
فأما العمة فكان شكلها أشبه بصورة كاريكاتورية ، وكانت تملك مالاً
وفيراً . لم أزد فى أول الامر على المرور تحت النوافذ ، ولكن سرعان
ما انعقدت الصلة بينى وبين الفتاة . كانت لويزا تجيد الكلام بالروسية ،
على لكنة يسيرة . وكانت بارعة الجمال فاتنة لم أصادف نظيراً لها فى
حياتى . استعجلتها فى أول الأمر بحسرة وقوة ، ولكنها قالت لى :
« لا ياساشا ، لا تطلب منى هذا ، فانى أريد أن أحتفظ ببراءتى ، لأكون
زوجة جديرة بك ! » . وكانت لا تنى تلاطفنى وهى تضحك ضحكاً
صافياً صريحاً ... وكانت طاهرة كل الطهارة ، تؤكد لك ذلك ! ...
وقد حرصتتى هى على زواجها ... فكيف لا أتزوجها ؟ هلاً قلت لى
كيف أرفض أن أتزوجها ؟ وهأنذا أتهماً للذهاب الى الكولونيل حاملاً
طلب الموافقة على ذلك . وفجأة أخلفت لويزا الموعد ، مرةً أولى ، فمرة
ثانية ، فمرة ثالثة ... بعثت اليها برسالة ... فلم تجب ... قلت لنفسى :
« ما العمل ؟ لو كانت تخدعنى ، لو كانت تخوننى لكان فى وسعها أن تذر

الرماد فى عينى فتجىء الى الموعد » • ولكنها كانت لا تعرف الكذب •
لا شك فى انها قطعت ضلتي بها اذن • هذا كل ما فى الامر • حدثت
نفسى قائلا : « تلك حيلة دبرتها عمتها » • لم أجرؤ أن اذهب الى العمة •
فرغم انها كانت على علم بعلاقتنا ، فقد كنا نتصرف تصرف من يجهل انها
على علم بهذه العلاقة ••• أصبحت كمن مسه جن ••• كتبت لها
رسالة اخيرة قلت فيها : « اذا لم تأتى ، فساذهب الى العمة بنفسى » •
فخافت وجاءت • وها هى ذى تطفق تبكى ، وتقصد على أن ألمانيا اسمه
شولتس ، وهو يمت اليها بقربى بعيدة ، ويعمل مصلح ساعات ، كما أنه
متقدم فى السن ولكنه غنى ، قد اظهر رغبته فى تزوجها من أجل أن
يسعدها على حد تعبيره ، ومن أجل ان لا يبقى بغير زوجة اثناء شيخوخته ؟
وان هذا الألمانى كان يحبها منذ زمن طويل وأنه قد منى نفسه بهذه
الفكرة سنين كثيرة ، ولكنه صمت ولم يعزم أمره على مكاشفتها ؟ ثم
ختمت كلامها بقولها : « هانت ذا ترى يا ساشا أن سعادتى رهن بهذا
الزواج لان الرجل غنى • فهل تريد ان تحرمنى من سعادتى ؟ » نظرت
اليها ••• انها تبكى ، وتقبلنى ، وتعانقنى •••

قلت لنفسى : « ألا انها لعلى حق ! فأية فائدة تجنيها من تزوج
جندى ، حتى ولو كان عريفاً ؟ » ثم قلت لها : « طيب يا لويزا ! وداعاً ••
حماك الله ورعاك ! ليس من حقى أن أحرمك من سعادتك ••• ولكن
قولى لى كيف هو الرجل ؟ أهو جميل ؟ » ، فاجابت : « لا ••• انه
مسن ، ثم ان أنفه طويل » حتى لقد انفجرت ضاحكة • تركتها • وقلت
لنفسى : « هياً ••• لم يكتب لى هذا الحظ » • وفى الغداة مررت بالقرب
من دكان شولتس (كانت قد ذكرت لى الشارع الذى يقيم فيه) ، ونظرت
من خلال الزجاج ، فرأيت ألمانياً يصلح ساعة • انه فى نحو الخامسة
والأربعين من عمره ، له أنف أقنى ، وعينان منتفختان ، وهو يرتدى

فراكاً ذا ياقة مئة عالية جداً • بصقت حين رأيته احتقاراً : كنت فى تلك اللحظة مستعداً لأن أحطم زجاج واجهة دكانه • ولكننى قلت لنفسى : « ما فائدة هذا ؟ لم يبق لى فى الأمر حيلة ! لقد انتهى كل شئ ! » • وصلت الى التكنة مع هبوط الليل ، واستلقيت على مضجعى ، وطفقت أنتحب وأنتحب • هل تصدق هذا يا ألكسندر بترفنش !

وانقضى يوم فيوم ثان فيوم ثالث • أصبحت لا أرى لويزا • ومع ذلك علمت من عجوز تعمل فى تنظيف الملابس وكيها هى أيضاً ، وكانت حبيبتى تذهب اليها فى بعض الأحيان • علمت أن هذا الألماني كان يعرف حبنا وأنه لهذا السبب قد قرر أن يتزوجها بأقصى سرعة ممكنة ، ولولا ذلك لكان يمكن أن ينتظر سنتين • ولقد أجبر لويزا على أن تحلف له أن لا تلقانى أبداً • وعلمت أن الألماني يسبىء معاملة لويزا وعمتها ، وأنه قد يغير رأيه فينكص على عقبيه وينكل عن الزواج • وقالت لى العجوز أيضاً انه دعاهما الى تناول الشاى فى منزله غداً غد ، وهو يوم أحد ، وان قريباً آخر قد يأتى أيضاً وهو رجل كان فى الماضى تاجراً وأملق الآن املاقاً شديداً فأصبح يعمل مراقباً فى مستودع للخمور • فلما عرفت أنهم سيبتون فى هذا الأمر يوم الأحد بلغت من الغضب أننى لم أستطع أن أستود هدوئى • ولم أزد فى ذلك اليوم وفى اليوم الذى يليه على أن أفكر وأفكر • لقد كان يمكن لو رأيت ذلك الألماني أن ألثمهم التهاماً فيما أظن •

فى صباح يوم الأحد لم أكن قد قررت شيئاً بعد ، ولكن ما ان انتهيت من سماع القداس حتى خرجت راكضاً فألقيت على معطفى وذهبت الى ذلك الألماني • كنت أقدر أن أراهم جميعاً هناك • أما لماذا ذهبت الى الألماني وماذا كنت أريد أن أقول فذلك أمر لم أكن أعرف عنه شيئاً أنا نفسى • وقد دسست فى جيبي مسدساً من باب الاحتياط ، وهو مسدس

صغير حقير له زناده على الطراز القديم ؛ لقد كنت أستخدمة فى الرمى أيام الطفولة ، وهو الآن لا يصلح لشيء ، ومع ذلك حشوته رصاصاً ، لانتى قدّرت أنهم قد يطردوننى وأن هذا الألماني قد يُغلظ لى القول وأنتى قد أطلق رصاص مسدسى عندئذ من أجل أن أخيفهم جميعاً • وصلت • كان السلم خالياً • انهم جميعاً فى الحجرة التى تقع خلف الدكان • وما من خادم • كانت الخادم الوحيدة غائبة • عبرت الدكان ، فرأيت الباب مغلقاً ، وهو باب عتيق يدعمه رتاج • أخذ قلبى يخفق • توفقت وأصغيت: انهم يتكلمون بالألمانية • رفست الباب بقدمى ، فانفتح ، ونظرت ، فرايت المائدة مبسوطة • كان عليها إبريق قهوة كبير تغلى القهوة فيه فوق سراج يشتعل بالكحول • وكان على المائدة بسكويت ؛ وعلى صينية أخرى كانت توجد قارورة خمرة وأسماك مجففة وسجق وزجاجة نبيذ • ان لويزا وعمتها ترتديان ثياب يوم الأحد ، وهما جالستان على الأريكة • وأمامهما كان الألماني مسترخياً على كرسى وقد بدا عليه ما يبدو على خطيب ، فهو مصفف الشعر يرتدى فراكاً ويتزين بياقة عالية • وفى الجهة الأخرى كان يجلس ألماني ثان هو شيخ منذ الآن بدين الجسم أشيب الشعر • انه صامت • اصفرت لويزا اصفراراً شديداً حين دخلت ، ونهضت العمة عن مقعدها بوثبة سريعة ثم ما لبثت أن عادت تجلس • وغضب الألماني ، فها هو ذا يقوم ويهب الى لقائى قائلاً :

— ماذا تريد ؟

كان يمكن أن أرتبك لولا أن شد الغضب أزرى • قلت :

— ماذا أريد ؟ هلا أحسنت وفادة ضيف فسقيته قليلا من الخمرة ؟

أنا انما جئتك زائراً ...

فكّر الألماني لحظة ثم قال لى :

• - اجلس

• جلست

• - اليك خمرة فاشرب

• - هلا أعطيتني من جيد الخمرة !

• وكان غضبي يزداد استعاراً •

قال :

• - هذه خمرة جيدة •

رأيت أنه ينظر الى من أعلى الى أدنى ، فأثار هذا حنقي اثاره
رهية • وكان أنكى ما فى الأمر أن لويزا ترى هذا المشهد • شربت
وقلت له :

• - هيه يا ألمانى ! لماذا تغلظ لى القول ؟ يجب أن تتعارف فأنا قد
جئتك صديقاً •

أجاب الألمانى قائلاً :

• - لا يمكن أن أكون صديقك ، فما أنت الاً جندى •

نارت عندئذ نائرتنى فصحت أقول :

• - أيها الحقير ! يا آكل السجق ! هل تعلم أن فى وسعى أن أصنع
بك ما أشاء ؟ هل تريد أن أحطم رأسك بهذا المسدس ؟

قلت ذلك وأنا أسل مسدسى وأنهض من مكانى وأضع فوهة
المسدس على صدغه • أصبحت المرأتان أقرب الى الموت منهما الى الحياة •
انهما لا تجرؤان أن تتنفسا • وأخذ الشيخ يرتجف كورقة فى مهب
الرياح وقد شحب لونه شحوباً شديداً •

دهش الألمانى ، ولكنه سرعان ما ثاب الى نفسه فقال :

- لست أخاف منك • وأنا أرجوك كرجل مهذب أن تكف فوراً
عن هذا المزاح • أنا لا أخاف منك قط •
- كذاب • انك خائف • انظروا اليه ! انه لا يجرؤ أن يحرك
رأسه من تحت المسدس •

قال :

- لا ••• أنت لا تجسر أن تفعل هذا !
- لماذا لا أجسر أن أفعله ؟
- لأنه ممنوع منعاً باتاً ، ولأنك ان فعلته عوقبت عقاباً قاسياً !
يا لهذا الألمانى الأحمق ما كان أغباه وما كان أشد بلاهته ! فلولا
أنه دفعنى الى قتله دفعاً لبقى الى الآن حياً •
قلت له :

- أنت تعتقد اذن أنني لن أجرؤ ؟
- لن تجرؤ •
- لن أجرؤ ؟
- لن تجرؤ أن •••
- طيب خذها اذن يا سجق !
قلت ذلك وأنا أطلق رصاص مسدسى فاذا هو يتهاوى على كرسيه •
وصرخ الآخرون •

أعدت مسدسى الى جيبي • وحين رجعت الى القلعة رميته فى
الأعشاب قرب الباب الكبير •

وصلت الثكنة واستلقيت على مضجعى وقلت لنفسى : « سيقبض
على فوراً » • انقضت ساعة وانقضت ساعة أخرى ولم أعقل • وعند

المساء استبد بهى حزن شديد وغم ثقيل • فخرجت • كنت أريد أن أرى
 لويزا مهما كلف الأمر • مررت أمام منزل الساعاتى ، فرأيت حشداً
 كبيراً من الناس ورأيت شرطة ••• أسرعت الى بيت المرأة العجوز وفلت
 لها : « نادى لويزا » • فما هى إلا لحظة حتى كانت لويزا ترتدى على
 عنقها باكية وتقول لى : « الذنب ذنبى فقد أطعت عمتى » • وذكرت لى
 لويزا أن عمتها قد رجعت الى الدار رأساً بعد ذلك المشهد وأنها قد بلغت
 من شدة الخوف أنها مرضت ، وأنها لم تنبس بكلمة واحدة • ولم تش
 العجوز بأحد ، حتى أنها أمرت ابنة أخيها بأن تسكت وان تكتم كل
 شيء ، لأنها كانت خائفة • وقالت لويزا : « فليفعلا ما يشاؤون • ما من
 أحد رآنا منذ وقع الحادث » • كان الساعاتى قد صرف خادمته لأنه
 يخافها كما يخاف النار ، فلو علمت أنه يريد أن يتزوج لفقات عينيه •
 ولم يكن فى الدكان أى عامل ، فان الساعاتى قد أبعد جميع العمال •
 لقد تولى بنفسه اعداد القهوة والوجبة • أما قربه فهو امرؤ صامت طوال
 حياته • لذلك تنول قبعته دون أن يفتح فمه ، وانصرف أول المنصرفين •
 أضافت لويزا تقول : « أنا على يقين من أنه سيظل صامتا » • وذلك
 ما حدث • انقضى أسبوعان ولم أعتقل ، ولا اشتبه فى فط • وكان
 هذان الأسبوعان كل سعادة حياتى ! صدق أو لا تصدق يا ألكسندر
 بترفش ! أصبحت ألقى لويزا كل يوم ، فما أشد ما تعلقت بهى ! كانت
 تقول لى وهى تبكى : « اذا نفيت فلأذهبن معك ! لأتركن كل شيء فى
 سبيل أن أتبعك » • فكان هذا يفطر قلبى شفقة • وقبض على بعد
 أسبوعين • لقد اتفق الشيخ والعمة على أن يلغا عنى ويشيا بهى •
 قلت مقاطعاً :

– ولكن اسمع يا باكوشين ! من أجل هذا الأمر لا يحكم أحد
 الاّ بعشر سنين أو باثنتى عشرة سنة ، ذلك هو الحد الأقصى للعقوبة :

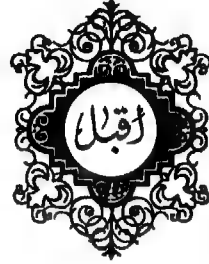
ويسجن الجانى فى القسم المدنى فمالى أراك فى « القسم الخاص » ؟
ما سبب ذلك ؟

قال باكوشين :

- تلك قضية أخرى ، فحين اقتادونى الى المجلس الحربى ، أخذ
النائب العام وهو برتبة رائد يهينى أمام المحكمه ، ويقول لى الفاظاً نابية،
فلم اطق صبراً ، فصرخت أقول له : « لماذا تشتمنى ايها الوغد ؟ الا ترى
أنك امام «مراة عدالة» ؟ » * فكان أن رفعت على قضية اخرى واعيدت
محاكمتى للجرمين كليهما فحكّم على باربعة الاف جلدة وبايداعى
« القسم الخاص » • ويجب ان أذكر لك انه حين جىء بى الى الشارع
لتلقى العقوبة قد جىء بذلك الضابط ايضا ، وكان قد حكم بتجريدته من
رتبته العسكرية وبارساله الى القوقاز جندياً بسيطاً ، وذلك لجرم
اقترفه • الى اللقاء يا ألكسندر بتروفتش : لا تتخلف عن حضور حفلتنا
التميلية •

١.

عيد الميلاد



عيد الميلاد أخيراً • ان السجناء لا يكادون يذهبون الى العمل فى اليوم السابق على العيد. الذين يعملون فى الخياطة وأمثالهم يمضون الى ورشاتهم كالعادة ؟ أما الآخرون فانهم ما ان يتجمعوا فى أماكن العمل حتى يعودوا الى الثكنة وحدانا أو جماعات. حتى اذا فرغوا من تناول غدائهم لم يعملوا بعد ذلك قط • لم يهتم القسم الأكبر من السجناء ، منذ الصباح ، الا بأعمالهم الخاصة ، أما الأعمال التى تفرضها ادارة السجن فلم يحفلوا بها : فبعض " يحتال لادخال خمرة الى السجن ، أو لطلب المزيد منها ، وبعض يطلب الاذن له برؤية أصدقائه من الرجال أو النساء ، وبعض يلم الديون الصغيرة التى له على غيره لقاء أعمال سبق أن قام بها • وكان باكلوشين والسجناء الذين يشاركون فى اعداد الحفلة التمثيلية يحاولون أن يقنعوا أصحابهم من خدم الضباط باعارتهم الملابس التى هم فى حاجة اليها •

وكان بين السجناء أناس يضطربون ذاهين آيين لا لشيء الا لأن آخرين كانوا يضطربون ذاهين آيين • ما من أحد يدين لهم بمال يتوقعون أن يتقاضوه ، ومع ذلك يبدو عليهم أنهم ينتظرون أن يتقاضوا

شيئاً • الخلاصة أن جميع الناس يأملون حدوث تغير ما ، يأملون وقوع نىء خارق • وفى المساء عاد الجنود القدماء (مشوهو الحرب) يحملون للسجناء ما أوصوهم بشرائه لهم من أنواع الأطعمة : لحماً وخنازير رضية وأوزاً • ان كثيرا من السجناء ، وحتى أكثرهم عزواً وأشدهم تقيراً • ممن ظلوا طوال السنة يكدسون كوبكاتهم ، يعتقدون أن من واجبه أن يسطوا أكفهم فى هذا اليوم وأن ينفقوا بسخاء وأن يحتفلوا بسهرة العيد احتفالاً يليق بها • ان الغد هو فى نظر السجناء عيد حقيقى لهم فيه حق ، عيد معترف لهم به بحكم القانون • لا يمكن ارسال السجناء الى العمل فى ذلك اليوم ؛ وليس فى السنة كلها الا ثلاثة أيام كهذا اليوم •

وأخيراً من ذا الذى يدرى ما هى الذكريات التى لا بد أن تستيقظ وأن تغلى وتنفور فى نفوس هؤلاء المنبوذين عند اقتراب احتفال كهذا الاحتفال ؟ ان أبناء الشعب يحفظون ذكرى الأعياد الكبرى منذ الطفولة. فلا بد لهؤلاء السجناء أن يتذكروا فى كثير من الحزن والقلق والاضطراب تلك الأيام التى يرتاح فيها المرء من الأعمال المضنية فى حضن الأسرة • ان احترام السجناء لهذا اليوم يفرض نفسه عليهم فرضاً ، فاذا الذين يسرفون فى الشراب والسكر منهم قلة قليلة ، واذا أكثرهم جادون ، حتى لتراهم منهمكين رغم أن معظمهم ليس عليه ما يعمل • وحتى الذين يسمعون لأنفسهم بالاستهتار يحتفظون بشيء من الرزانة والرصانة والوقار ••• فكأن الضحك ممنوع محظور • لقد ران على السجن ترمت لا يتهاون ولا يتسامح ، فاذا أساء أحد الى الراحة العامة والهدوء الشامل، هب السجناء ينهرونه ويردونه الى مكانه صارخين شاتمين ، وغضبوا منه أشد الغضب ، كأنما هو أخلّ بواجب احترام العيد نفسه • تلك حالة نفسية لدى السجناء واضحة بارزة بل ومؤثرة • فانهم ، الى جانب

تقدسهم الفطرى لهذا اليوم العظيم ، يحسنون أنهم اذا هم أكبروا العيد وأعظموه كانوا يتصلون بباقي العالم ، فلم يظلوا منبوذين ضائعين محقرين مهملين ، ما دام السجن يحتفل بالعيد كما يحتفل به من هم فى خارج السجن • ان السجناء يشعرون بهذا كله ، رأيت ذلك وأدركته بنفسى •

وقد قام آكيم آكىمتش أيضاً باستعدادات كبيرة للاحتفال بالعيد • ليس لآكيم آكىمتش ذكريات أسرة ، فقد ولد يتيماً فى بيت أناس غرباء • ودخل الخدمة منذ السنة الخامسة عشرة من عمره • ولم يشعر يوماً بأفراح كبيرة ، لأن حياته قد جرت على نسق واحد ووتيرة واحدة فى جو الخوف من مخالفته الواجبات المفروضة عليه • لا ولا هو بالتدين كثيراً ، لأن تقيده بالنظام قد خلق فيه جميع مواهب الانسانية ، وجميع أهوائه ، وجميع ميوله حسنة كانت أو سيئة • لذلك كان يتهاى للاحتفال بعيد الميلاد دون لهفة كبيرة أو انفعال قوى أو ضيق شديد • ما من ذكرى كانت تثير حزنه وشجته • على أن الاستعداد للاحتفال بعيد الميلاد فرصة له من أجل أن يقوم بعمله على نظام دقيق وترتيب معين يفرضهما واجب الاحتفال بعيد مقرر مفروض • ثم ان آكيم آكىمتش لا يحب التأمل كثيراً • انه حين ينفذ القواعد تنفيذاً دقيقاً لا يعنيه الموضوع وانما يعنيه الشكل ، فلو طلبت اليه فى الغداة أن ينفذ نقيض ما نفذه بالأمس ، لرأيته يكب على تنفيذه مظهرأ ذلك الخضوع نفسه وتلك الدقة نفسها التى أظهرها بالأمس • لقد أراد مرة واحدة فى حياته أن يعمل بوحى اندفاعه ، فاذا هو يرسل الى سجن الأشغال الشاقة • ذلك درس لم ينسه • فرغم أنه لم يكتب له أن يفهم ذنبه وأن يدرك جرمه فى يوم من الأيام ، فقد استخرج من مقامرته تلك قاعدة أخلاقية تضمن له السلامة ، وهى أن لا يفكر يوماً ، فى أى ظرف من الظروف ، لأن فكره لا يؤهله أبداً لأن يقضى برأى فى القضية التى يجب عليه أن يقضى فيها برأى •

انه مكب على القيام بواجبات الاحتفال بالعيد ، كإبأأ أعمى ، حتى أنه ينظر نظرة احترام إلى الخنزير الرضيع الذى حشاه جريشاً وقلاه بنفسه (لانه ملم بفن الطهو بعض الامام) ، فكان هذا الخنزير الرضيع الذى يعده طعاما للعيد ليس خنزيرا عادياً من الخنازير التى يمكن شراؤها وقلها فى كل وقت ، وانما هو حيوان لم يولد الا لعيد الميلاد . لعل آكيم اكيمنش قد أأف منذ نعومه اظفاره أن يرى على المائدة فى مثل هذا اليوم خنزيراً رضيعاً ، فاستتج من ذلك أن الخروف الرضيع شئ لا بد منه ولا غنى عنه للاحتفال بالعيد كما ينبغى الاحتفال بالعيد . وانى لعل يقين من أنه ان لم يأكل هذا النوع من اللحم فى يوم العيد لظل طوال حياته يشعر بعذاب الضمير من اخلاله بالقيام بواجباته . وكان آكيم اكيمنش ، حتى يوم العيد ، يرتدى سترته العتيقة وسرواله القديم اللذين كانا رغم ترفيعهما الدقيق المحكم يشفان عن سداهما منذ زمن طويل . وقد علمت أنه يحتفظ فى صندوقه بالرداء الجديد الذى أعطيه قبل أربعة أشهر ، وأنه لم يمسه لأنه يريد أن يرتديه فى عيد الميلاد . وذلك ما فعله . فها هو ذا ، فى ليلة العيد ، يخرج الملابس الجديدة من صندوقه ، فيفضها ، ويفحصها وينظفها ، وينفخ عليها لينفض عنها الغبار ، حتى اذا أتم ذلك كله ، جربها على جسمه . ان الرداء يناسبه تماماً . ان جميع أجزائه لائقة ، فالصدرة تعقد أزرارها حتى العنق ، والياقة مستقيمة صلبة كأنها من كرتون ، فهى تسند الذقن وترفعها الى فوق . ان تفصيلة الرداء تشبه تفصيلة الزى العسكرى . لذلك ابتسم آكيم اكيمنش ابتسامة الرضى وهو يدور على نفسه ثم يدور مختالاً أمام مرأته الصغيرة التى أكبَّ على تزينها باطار مذهب منذ زمن طويل . كان زر واحد من أزرار السترة منحرفاً عن مكانه ، فلاحظ آكيم اكيمنش ذلك فقرر أن يعدله ، فلما فرغ من عمله جرب الصدرية مرة أخرى ،

فلم يكن عليها في هذه المرة ماخذ • عندئذ طوى اكيـم اكيـمتش رداءه كما كان ، واعاده الى موضعه من الصندوق هادئ البال مرتاح النفس ، من أجل ان يرنديه في الغد • ولقد كانت جمجمته مخلوقة حلقة كافية ، ولكنه ايقن بعد أن أنعم النظر فيها انها ليست ناعمة كل النعومة ، فان سهره قد عاد فنبت على غير شعور منه ، فسرعان ما مضى الى « الميجر » ليحلق شعر راسه على نحو ما يوجب النظام ان يحلق • الحق أن أحدا لن يخطر بباله ان ينظر اليه في الغد ، ولكن اكيـم اكيـمتش يفعل ما يمليه عليه ضميره تبرئة للذمة وقياماً بكل ما يقع عليه من واجبات في ذلك النهار • ان هذا التقديس الذي يشعر به نحو اصفر زر وأيسر عروة وآتفه بريم على الكتف ، قد رسخ في عقله على أنه واجب صارم ، ورسخ في قلبه على أنه صورة أكمل جمال يمكن ويجب أن يبلغه انسان محترم • ولما كان آكيـم اكيـمتش « كبير » سجناء الثكنة من حيث أنه أقدمهم • فقد حرص على أن يأمر بتين تفرش به أرض الثكنة • كان هذا يتم في جميع الثكنات • لا أدري لماذا كانوا يلقون تينا على الأرض في عيد الميلاد دائماً • فلما فرغ آكيـم اكيـمتش من عمله ، تلا صلواته ، وركد على مضجعه ونام ذلك النوم الهادئ الذي هو نوم الطفولة • من أجل أن يستيقظ في ساعة مبكرة من صباح الغد • وهذا ما فعله سائر السجناء على كل حال • لقد رقد جميع السجناء في مضاجعهم قبل الآوان المألوف ، تاركين أعمالهم العادية في ذلك المساء • أما اللعب بالورق فما كان لأحد أن يجرؤ على الكلام عنه • ان جميع من في السجن ينتظر صباح الغد •

وجاء صباح الغد أخيراً ! ••• قرع الطبل في ساعة مبكرة جداً ، حتى قبل أن يطلع النهار • ودخل صف الضابط الذي يعد السجناء فحياتهم وتمنى لهم عيداً سعيداً • فردّ السجناء تحيته بتحية لطيفة ودود

وتمنوا له مثل ما تمنى لهم • وأسرع أكيم أكيمتش وغيره ممن كان لهم
اوزات وخنازير رُضّع ، أسرعوا الى المطبخ بعد أن تلو صلواتهم على
عجل ، من أجل أن يروا فى اى مكان كانت ذبائحهم وكيف كانت تقلى •
فمن خلال التوافد الصغيرة التى كان يغطى الثلج والجليد نصفها ، ترى
من الثكنة ، فى الظلمات ، النيران القوية التى تتلظى فى المطبخين وقد
أنشعلت موافدهما الستة ؛ وها هم أولاء السجناء قد ألقوا معاطفهم على
أكفاهم أو ارتدوا ثيابهم كاملةً ، وظهروا فى فناء السجن مسرعين فى
اتجاه المطبخ • ان عدداً قليلاً منهم قد استطاع أثناء ذلك ان يزور بانى
الخمرة • هؤلاء هم بين السجناء أقلهم صبرا • ان السجناء يتصرفون
اليوم فى حشمة وهذوء وأدب أكثر مما عهد فيهم من ذلك فى العادة •
فلا مشاجرات ولا شتائم • ان كل واحد يعلم ان هذا اليوم يوم عظيم ،
وأنة عيد كبير • حتى لقد كان بعضهم يذهبون الى الثكنات الأخرى
بحيون زملائهم ويتمنون لهم عيداً مباركاً سعيداً • لكن نوعاً من الصداقة
قد قام بينهم فى هذا اليوم • كنت قد لاحظت عرضاً أن السجناء لاتكاد
تنشأ بينهم فى السجن روابط ، لا عامة ولا خاصة • كان يندر أن
يرتبط سجين بسجين آخر كما يحدث ذلك فى العالم الحر • كنا ، على
وجه العموم ، قساةً خشنين فى علاقات بعضنا ببعض ، باستثناء حالات
قليلة نادرة • تلك قاعدة عامة يلتزمها السجناء ولا يجيدون عنها •
وخرجت أنا أيضاً من الثكنة • كان النهار قد بدأ يطلع • شجبت النجوم •
ان ضباباً خفيفاً متجلداً يعلو فوق الأرض ، وان سحاب حلزونية من
دخان المدافى يتصاعد دائراً • لقينى عدة سجناء فهأنونى بالعيد فى كثير
من اللطف والمودة ، فشكرت لهم تهنئتهم ورددتها بمثلها ، وكان بينهم
أناس لم يسبق أن خاطبوني قبل ذلك بكلمة واحدة •
فلما صرت قرب المطبخ أدركنى سجين من سجناء الثكنة العسكرية .

كان ملقياً فروته على كنفه • لقد لمحني في وسط الفناء فأخذ
يناديني صائحاً : « ألكسندر بترفش ! ألكسندر بترفش ! » ، وأسرع
يركض صوبَ المطبخ • وقت أنتظره • انه شاب مدوّر الوجه ، رقيق
العينين ، قليل الكلام مع الناس ، لم يوجه الىّ منذ دخولي الى السجن
كلمة واحدة ، ولا التفت الىّ حتى الآن أيّ التفات ، حتى انني كنت
لا أعرف اسمه • هرع نحوي لاهتاً لاهتاً شديداً ، وتسمّر أمامي ينظر
اليّ مبتسماً ابتسامة بلهاء وقد لاحت في وجهه معاني السعادة • سأله
شيء من الدهشة :

— ماذا تريد ؟

فظل واقفاً أمامي مبتسماً ، ينظر الىّ بكل عينيه ، دون أن يبدأ
الحديث مع ذلك • ثم جمجم يقول :

— كيف ؟ اليوم عيد •••

وأدرك هو نفسه أن ليس عنده ما يقوله لي غير ذلك ، فتركني
ومضى مسرعاً الى المطبخ •

ويجب أن أذكر أننا لم نكد نلتقي بعد ذلك ، وأننا لم نتخاطب
حتى ساعة خروجي من السجن •

حول موافد متأججة بالمطبخ كان السجناء المنهمكون يضطربون
ويتزاحمون • ان كل واحد منهم يراقب رزقه • وكان الطباخون يعدون
الطعام العادي الذي يقدم للسجناء ، ذلك أن الغداء يتناول اليوم قبل
الموعد المألوف • ولم يكن أحد قد أكل شيئاً بعد ، رغم أنهم كانوا يتمنون
جميعاً لو يأكلون ، ولكنهم يراعون المواضعات أمام الآخرين • انهم
ينتظرون الكاهن ، فالصيام لا ينتهي قبل وصوله • وما ان طلع النهار
حتى سُمع صوت العريف ينادي من وراء باب السجن قائلاً : « الطهاة ! »

وظلت هذه النداءات تتكرر متصلةً غير منقطعة خلال ساعتين • ان الطهارة ينادون لاستلام الصدقات التي كانت تتقاطر من جميع أركان المدينة مقادير ضخمة : هي أرغفة من خبز أبيض ، وفطائر ، ومعجنات ، وحلوى ، وأنواع أخرى من الأطعمة • اعتقد أنه ما من بائعة وما من ساكنة من ساكنات المدينة بأسرها الا وأرسلت شيئاً الى السجناء «التساء» من قيل المباركة بالعيد • كان بين هذه الصدقات صدقات ثمينة : عدد كبير من أرغفة الخبز المصنوع من فاخر الدقيق ؛ وكان بينها أيضاً صدقات زهيدة : رغيف من خبز أبيض ثمنه كوبكان ، أو رغيفان من خبز أسود دُهننا بقليل من القشدة • تلك هدية الفقير للفقير انفق فيها الأول آخر كوبك يملكه • وكانت هذه الصدقات تقبل بامتنان واحد ، دون تفريق بينها في القيمة أو في المصدر • وكان السجناء الذين يستلمون الهدايا يرفعون قبعاتهم عرفاناً بالجميل ، ويشكرون لأصحاب الهدايا هداياهم وهم يحيونهم ويتمنون لهم عيدا سعيداً ثم يقنون الصدقات الى المطبخ • حتى اذا اجتمعت أكداس كبيرة من الخبز نودى السجناء القدامى من كل ثكنة ، فتولوا توزيع الخبز على جميع الأقسام أنصبةً متساوية • وهذه القسمة لا تثير أية مشاجرات أو مشاتومات ، وانما هي تتم بالعدل والقسطاس • وقد تولى آكيم آكيمنش ، متعاوناً مع سجين آخر ، توزيع النصيب الذي نالته ثكنتنا ، فقسمه بين السجناء وكان يناول كل سجين ما يستحقه بيده • كان كل واحد من السجناء راضياً مقتبلاً ، فما من احتجاج يسمع ، وما من مطالبة تشب ، وما من حسد يظهر ؛ ولا خطر بال أحد أن يفش أو يختلس • وحين فرغ آكيم آكيمنش من اعماله في المطبخ مضى يعني بزيتته عنايةً شديدة ، فارتدى ثيابه بكثير من الاحتفال والاهتمام والأبهة ، عاقداً جميع أزرار سترته لم يستن منها واحداً ، حتى اذا انتهى من ارتداء ملابسه الجديدة ، طفق يتلو صلواته ،

ودام هذا زمنا طويلاً • ان كثيراً من السجناء كانوا يقومون بواجباتهم الدينية ، ولكن أكثر هؤلاء كانوا من المسنين ، اما الشباب فكانوا لا يكادون يصلون ، وكانوا فى احسن الاحوال لا يزيدون على ان يرسموا اشارة الصليب حين ينهضون من نومهم ، حتى ان هذا نفسه كانوا لا يفعلونه الا فى ايام الاعياد •

حين انتهى اكييم أكيتمش من صلاته اقترب منى ليبر الى عن التهانى المألوفة • فدعوته الى احتساء الشاي معى ، وردت الى هذه الملاحظة بدعوتى الى تناول شئ من لحم خنزيره الرضيع • وما هى الا برهة قصيرة حتى هرع الى بتروف يعرب الى عن تحياته وتمنياته • أحسب أنه كان قد شرب قليلاً • ورغم انه قد وصل الى لاهتاً ، فانه لم يكذب يحدثنى بشئ • بل لبث واقفاً أمامى بضع لحظات ، ثم أسرع يعدو الى المطبخ • كان السجناء فى ثكنة القسم العسكرى يستعدون فى تلك الآونة لاستقبال الكاهن • ان هذه الثكنة لم تكن مبنية على طراز سائر الثكنات • ان المضاجع فيها مصطفة على طول الجدران لا فى وسط القاعة كسائر الثكنات ، فهى بفضل ذلك الثكنة الوحيدة التى لا يزدحم وسطها • ولعلها قد بنيت بهذه الطريقة من أجل أن يتسنى جمع السجناء فيها عند الضرورة • وقد نصب السجناء مائدة فى وسط الثكنة ، ووضعوا على المائدة أيقونة وأشعلوا أمام الأيقونة سراجاً • ووصل الكاهن آخر الأمر ، يحمل الصليب والماء المقدس • فصلّى ورتل أمام الأيقونة ، ثم التفت نحو السجناء فأخذوا يتوافدون بعضاً وراء بعض فيقبلون الصليب • وطاف الكاهن بعد ذلك بالثكنات الأخرى جميعها ، يرشها بالماء المقدس • فلما وصل الى المطبخ امتدح خبز السجن الذى كانت له شهرة فى المدينة ، فسرعان ما أظهر السجناء رغبتهم فى أن يرسلوا اليه رغيفين ما يزالان ساخنين ، وكلفوا أحد مشوهى الحرب بأن يحملهما اليه فوراً • وشيّع

السجناء الصليب بمثل ما استقبلوه به من احترام واعظام وما هي الا برهه قصيرة حتى وصل الميجر وأمر السجن • وكان السجناء يحبون الامر كثيراً ، حتى لقد كانوا يحترمونه • طاف الامر بالثكنات يصحبه الميجر • وهنا السجناء بالعيد ، ثم دخل المطبخ وذاق حساء الكرنب • كان الحساء طيباً جداً فى ذلك اليوم : لقد كان لكل سجين حق فى نحو نصف رطل من اللحم وقد أُعدّ بالإضافة الى ذلك جريش لم يسخل عليه بالسمن • شيع الميجر أمر السجن الى الباب ، وأصدر أمره الى السجناء بتناول طعام الغداء • كان هؤلاء يتحاشون أن يراهم الميجر ، فلقد كانوا لا يحبون نظرتة الخبيثة التى لا تنى تفتشهم وتتجسس عليهم من وراء النظارتين ، متجهةً الى اليمين والى الشمال ، كأنها تبحث عن فوضى تقوم أو عن مذنب يعاقب •

وتغدى السجناء • وكان خنزير آكيم أكيتمش رائح القلى • لم أستطع أن أفهم كيف أمكن بعد خروج الميجر بخمس دقائق أن يكون بين السجناء كل هذا العدد الكبير من السكرارى بينما كان الجميع أثناء حضوره هادئين وادعين • ما أكثر الوجوه الحمراء المتألقة ! وسرعان ما ظهرت آلات ألبالاىكا • وهذا هو البولندى القصير يتبع سجيناً كان قد استأجره ، فيفلل يعزف وراءه على الكمان طول النهار ، ويضرب له ألحان رقص مرحة • وأخذت الأحاديث بين السجناء تزداد صخباً وضجيجاً • ومع ذلك انتهى الغداء دون فوضى كبيرة • شيع الجميع • وهذا عدد من الشيوخ الرضيين الوقورين يمضون يرقدون على مضاجعهم فوراً • • • وكذلك فعل آكيم أكيتمش الذى لعله كان يؤمن بأن على المرء أن ينام بعد الغداء حتماً فى أيام الأعياد • وهذا تقى ستارودوب يصعد على المدفأة • بعد أن غفا قليلاً ، فيفتح كتابه ويأخذ يقرأ فيه طول النهار وجزءاً من الليل ، دون أن ينقطع عن ذلك لحظة واحدة • كان

منظر هذا «العار» يثقل على نفسه ويحز في قلبه على حد تعبيره • ومضى الشراكسة جميعاً يجلسون على العتبة • كانوا ينظرون بكثير من الفضول وبشيء من الاشتئاز الى هؤلاء السكارى • وصادفت نورا ، فقال وهو يهز رأسه ممتعضاً مستاءً : « أمان ••• أمان ••• أمان ••• لسوف ينضب الله ••• » • أما أشعيا فومتش فقد أشعل في ركنه شمعةً ، وهو يصطنع كثيراً من الكبرياء والخيلاء والعناد ، وأخذ يعمل ، حتى يبين للناس أن هذا اليوم ليس في نظره عيداً • وانهقدت حلقات اللعب بالورق هنا وهناك • كان السجناء لا يخشون الان مشوهى الحرب من الجنود ، ومع ذلك وضعوا خفراء يحرسون الباب ، مخافة ان يداهمهم صف الضابط على حين فجأة ، ولكن صف الضابط هذا كان يحاول ان لا يرى شيئاً • أما ضبط الحراسة فانه لم يقم الا بثلاث جولات : فسرعان ما كان السكارى من السجناء يخبثون ، وسرعان ما كان ورق اللعب يخفى ، في مثل ومض البرق • وأغلب ظنى أن ضابط الحراسة كان في قرارة نفسه يعتمد أن لا يلاحظ المخالفات التي لا يعدها ذات شأن • ان السكر ليس اثماً كبيراً في ذلك اليوم • واستولى المرح على جميع السجناء شيئاً بعد شيء • وبدأت المشاجرات تنشب بينهم • غير أن أكثرهم كان هادئاً وديعاً مسالمًا • والحق أن رؤية السكارى وحدها كانت تبعث على الضحك • كان هؤلاء السكارى يشربون بغير قصد أو اعتدال • وكانت تبدو على جازين أمائر الانتصار ، فهو يتجول راضياً مسروراً قرب مضجعه الذي أخفى تحته خمره ، وكان قد دفن الخمر تحت التلج وراء التكنات في موضع سرى • انه يتسم ابتسامات مأكرة وهو يرى المستهلكين يقبلون عليه ذرافات • وكان هو صاحباً لم يشرب قطرة واحدة ، لأنه كان ينوى أن يقصف في آخر يوم من أيام العيد ، بعد أن يكون قد أفرغ جيوب جميع السجناء • وأخذت الأغاني تدوى في أرجاء التكنات • اشتد

السكر اشتداداً رهيباً ، وأصبحت الأغاني تشارف على البكاء • كان السجناء يتجولون جماعات جماعات وهم يوقعون على آلات الببالاايكا ألحانهم الأثيرة ، وقد ظهرت في وجوهم معنى التائر وألقوا معاطفهم على أكافهم في غير اكتراث • حتى لقد تألفت في «القسم الخاص» جوفة قوامها ثمانية أشخاص أو عشر • فكان هؤلاء يصدحون بأغانيهم صداها عالياً ، ترافقهم آلات القيثارة والببالاايكا • كانت الأغاني الشعبية حقاً نادرة ، ولست أتذكر منها الآن الا أغنية واحدة أجودوا غناها اجادة رائعة :

• انا الفتاة الصبية •

قد كنت في الحفل أمسى •••

وفي السجن انما سمعت صورة جديدة لهذه الأغنية لم أكن أعرفها من قبل ، وقد أضيفت الى نهايتها بضعة أبيات :

في منزلى رتبت كل شيء

ملاعقي غسلتها

حساؤنا سكبته

وبابنا نظفته

طعامنا طبخته •

ان الأغاني التي كان يفتنيها السجناء خاصةً انما هي الأغاني التي تسمى « أغاني السجناء » • ان مطلع احبداها هو : « حدث في غابر الأيام ••• » ، وهي أغنية هزلية تروى قصة انسان كان فيما مضى يلهو ويعبت ويعيش كما يعيش السادة الكبار ، ثم أُرسل الى سجن الأشغال الشاقة • فينما كان يأكل في الماضي طيب الأطعمة ويشرب فاخر الخمرة أصبح اليوم يقول :

أشرب اليوم حساء

يملا البطن ويمضي للأذن

وهذه أغنية أخرى معروفة جداً كان يغنيها السجناء أيضاً :

كنت في الماضي صبياً مترفاً

يعشق اللهو ويختال غنيا

ثم ضيعت ثرائي في الصبا

وأنا اليوم أسير في السجون

الى آخر ما هنالك ...

وكان بين هذه الأغاني أغاني حزينة أيضاً ، منها هذه الأغنية المعروفة التي أعتقد أنها من أغاني السجناء حقاً :

• طلع الفجر ، فهذا الطبل يقرع •

• لنقوم •

• وسمعنا الباب يفتح •

• دخل الحارس يدعونا ... نهضنا •

• لا يرانا أحد خلف الجدار •

• لا يرى أحد كيف نعيش •

• ربنا يرحم من بالسجن يحيا في قبور •

• ربنا ينجي ، فلن نفنى هنا ...

• الخ الخ •••

وهناك أغنية أخرى أبست على الحزن والكآبة ، أغنية رائعة اللحن ولكن كلماتها تافهة ركيكة ملأى بالأخطاء اللغوية • اننى أتذكر منها بضعة أبيات :

لن ترى عيني بلادي
لن أرى مسقط رأسي •
دون ذنب قد جنيته
شأت الأقدار ان أقضى حياتي كلها
في عذاب وشقاء •
تنعق الغربان في بيتي بأصوات كئيبة ،
فاذا الغابات حوله
ترجع الأصوات أصداً حزينة •
فاض قلبي شجنا •
لن أرى بيتي يوما •

كان السجناء يرددون هذه الأغنية كثيراً ، ولكنهم لا يفنونها جماعة
بل يصدحون بها فرادى • يفرغ أحد السجناء من عمله مثلاً ، فيخرج
من الثكنة ويجلس على درجات المدخل ، ويسترسل في تفكير عميق
مسنداً ذقنه الى يده ، ثم اذا هو ينطلق في غنائها ، فيصفي اليه رفاقه ،
ويشعرون بشيء يتحطم في قلوبهم • لقد كان بين السجناء من يملكون
أصواتاً جميلة رخيمة •

هبط الفسق • ان الضجر والسأم والحزن والألم ، ان ذلك كله
يعود الى الظهور الآن من خلال السكر والعريضة • ان السجين الذي
كان منذ ساعة يمسك خاصرته من فرط الضحك ، يجهش الآن باكياً
في ركن من الأركان وقد أخذ منه الثمل كل مأخذ • وهؤلاء سجناء
آخرون قد وصلوا الى حد التماسك بالأيدي مراراً ، أو راحوا يطوفون
في أرجاء الثكنات مترنحين صفرَ الوجوه يسعون الى مشاجرة ويبحثون

عن مشاتمة • أما الذين يلقبهم السكر الى الحزن فانهم يمضون الى
أصدقائهم ليتخففوا من آلام سكرهم بالبكاء • لقد كان هذا العالم البأس
كله يريد أن يفرح وأن يمرح ، وأن يقضى يوم العيد العظيم فى بهجة
ونشوة ، ولكن ما كان أشق ذلك اليوم على السجناء جميعاً ، سبحان الله !
••• كانوا قد أمضوا ذلك النهار آملين أن يستمتعوا بهناء كبيرة ، ولكن
الهانة لم تتحقق لهم • ولقد هرع بتروف الىّ مرتين : كان صاحباً لأنه
لم يشرب الا قليلاً • ولكنه ظل الى آخر لحظة ينتظر شيئاً لا بد أن
يحدث • شيئاً خارقاً فرحاً مسلياً • لم يعبر عن توقعه هذا بكلمة ، ولكن
المرء يدرك ذلك فى نظريته • كان يركض من ثكنة الى ثكنة بغير تعب
ولا كلال ••• ولم يحدث شيء ••• لم يحدث شيء غير السكر شمل
الجميع ، وغير الشتام البلهاء يتبادلها السكرارى ، وغير الطيش يذهب
بهذه الروس المشتعلة الملتهبة • وكان سيروتكين يتجول هو أيضاً هنا
وهناك ، متزيناً بقميص أحمر جديد كل الجدة ، ينتقل من ثكنة الى
ثكنة ، فتى جميلاً على العهد به ، نظيفاً نظافة تخطف البصر • وكان هو
أيضاً ينتظر وقوع شيء ما ، ينتظر ذلك فى رفق وهدوء ، وسداجة
وبراءة • وشيئاً فشيئاً أصبح المشهد لا يُطاق ، أصبح المشهد يثير
الاشمئزاز والتقزز ، ويبعث فى النفس الغثيان • كان هنالك ما يحمل
على الضحك مع ذلك ، ولكننى كنت حزينا كل الحزن دون أن يكون
نمة سبب ظاهر • كنت أشعر بشفقة عميقة على جميع هؤلاء الرجال ،
وكنت أشعر أننى بينهم أحتق اختناقاً • هذان سجينان يتشاجران فهذا
يزعم أن على الآخر أن يسقيه ، والثانى يدعى أن الأول هو الذى يجب
عليه أن يسقيه • انهما يتشاجران منذ مدة طويلة • وقد كادا أن يتماسكا
بالأيدى • ان لأحدهما سنّاً تركب سنّاً أخرى ، فها هو ذا يتشكى متأثراً
ويحاول أن يبرهن لصاحبه على أنه قد ظلمه حين باع فى السنة الماضية

معطفاً وأخفى عنه المال ••• ذلك عدا أمور أخرى ••• ان المشتكى
 سنا ب فارع الطول مقتول العضلات رابط الجأش ، ليس بالغبي ، ولكنه
 منى سكر أصبح يحب أن يتخذ لنفسه أصدقاء وأن يعبر عن آلامه في
 أحضانهم • فها هو ذا يشي بخصمه ويشهر به ويذكر عيوبه واساءاته
 اليه وهو ينوي في قرارة نفسه أن يصلحه بعد ذلك • أما الثاني فرجل
 يدين قصير قوى البنية مدوّر الوجه مكر مكر ثعلب ، ولعله شرب من
 الخمرة أكثر مما شرب صاحبه ، ولكن لا يبدو أن السكر قد بلغ منه
 الا قليلاً • ان لهذا السجين طبعاً قوياً واردة صلبة ، وهو يعد بين
 السجناء على جانب من الغنى • ولعله كان يرى أن من مصلحته أن
 لا يُحرق رفيقه ، فها هو ذا يقوده الى بائع الخمرة • ان صديقه الذي
 يكثر من الكلام يؤكد أنه مدين له بمال ، وأن عليه أن يسقيه « اذا كان
 دلي شيء من شرف » •

وهذا بائع الخمرة يتناول قدحاً فيملؤه خمرأً ، وهو يظهر للمشتري
 بعض الاحترام ، ولا يخفى شيئاً من الاحتقار لرفيقه ، لأن الرفيق يشرب
 على حساب غيره ويقصف بمال غيره • قال الرفيق الذي يكثر من
 الكلام :

— لا يا سبتكا ، عليك أنت أن تدفع ثمن الشراب ، لأنك مدين لي
 بمال •

فأجابه صاحبه :

— طيب طيب ! لا أريد أن أتعب لساني بالكلام مكل !

قال الأول وهو يتناول القدح التي مدّها اليه بائع الخمرة :

— لا يا سبتكا ! أنت تكذب ، انك مدين لي بمال • لا بد أنك خال
 من الضمير ، لا شك أنك لا ذمة لك • حتى عينك ليستا لك ، وانما أنت

استدتهما كما تستدين كل شيء * اذهب يا ستبكا ! أنت وغد ***
يا ستبكا *** الخلاصة أنك وغد ! ***

صاح بائع الخمرة يقول للرفيق الذى يكثر من الكلام :

- ما بالك تتباكى ؟ أنظر ** لقد سفحت خمرك ** هلاً شربت
ما دام أحد يسقيك بعاله ! لا يتسع وقتى لأن أنتظر الى الغد *

- سأشرب ، لا تخف *** ولكن لماذا تصيح هذا الصباح ؟ لك
أطيب تمنياتى بمناسبة العيد ياستيان دوروفتش !

كذلك قال الرجل فى كثير من الأدب وهو ينحنى أمام ستبكا
ممسكاً الكأس بيده ، مع أنه كان يصفه منذ دقيقة بأنه وغد ، وأضاف
يقول :

- أسأل الله أن يمتعك بالصحة والعافية ، وأن تعيش مائة سنة عدا
السنين التى عشتها حتى الآن !

ثم شرب الخمرة ، وأطلق من صدره زفرة رضى وارتياح ، وجفف
فمه بيده * ثم لم يلبث أن قال بلهجة رضية وقور ، مخاطباً جميع
الحضور دون أن يتجه الى واحد منهم بعينه :

- ما أكثر ما شربت فى الأيام الخوالى ، ولكن قد انتهى زمانى !
شكراً يا ستيان دوروفتش !

- العفو *

- والآن دعنى أتم كلامى * أنت فى نظرى وغد كبير ، ولكننى
سأقول لك عدا ذلك ***

- اليك اذن ما سأقوله لك أيها السكير الحقيق ***

كذلك قاطعه ستبكا وقد نفذ صبره ، وتابع كلامه يقول :

- اسمع وانتبه : لنقسم العالم نصفين ، فأخذ أنا نصفه وتأخذ أنت نصفه الآخر ، ثم تدعنى وشأنى هادىء البال •

- ألا تنوى اذن أن تردّ الىّ مالى ؟

- أى مال تريد أيضاً يا سكران ؟

- حين ستردّه الىّ فى العالم الآخر فلن آخذه • ان أموالنا هى عرق جباهنا وجسأة أيدينا • لنندمنّ على فعلك فى الحياة الآخرة ، لسوف تشوى فى النادر شيئاً لأنك استوليت على كوبكاتى الخمسة •

- اذهب شيطان يأخذك !

- لماذا تهمزنى ؟ ما أنا بحصان !

- هيّا امض !

- وغد حقير !

- سجين قدر !

وأخذت الشتائم تنهمر أغزر مما كانت تنهمر قبل أن يسقى الرجل صاحبه خمراً •

وهذان صديقان قد جلسا منفصلين على مضجعين من مضاجع السجن ، أحدهما طويل القامة قوى البنية بدين الجسم كجزار : ان وجهه أحمر ، وهو يكاد يبكى ، لأنه متأثر متأثراً شديداً • والثانى ضامر نحيل مزهو بنفسه ، له أنف كبير كأنه مصاب بزكام دائم ، وله عينان صغيرتان كعيني خنزير ، مطرقتان الى الأرض : انه رجل مرهف مهذب،

قد كان فى الماضى كاتباً فى قلم المحكمة ، وهو يعامل صديقه بشئ من
الازدراء ، وهذا ما يسوء صديقه • كان الرجلان قد شربا معاً طوال
النهار •

صاح الرجل البدين يقول وهو يهز بيده اليسرى كفف رفيقه هزاً
قوياً :

— لقد تجرأ على !

ان قوله « تجرأ على » يعنى أنه ضربه • وهذا السجين الذى كان
فى الماضى صف ضابط يحسد جاره فى سرته ، لذلك كان الرجلان
بصطنعان فى أحاديثهما الرقة والرشاقة •

قال السجين الذى كان كاتباً فى قلم المحكمة ، قال فى وقار وهو
بطرق الى الأرض اطرافاً عنيداً دون أن ينظر الى محدثه ، قال بلهجة
حازمة قاطعة :

— انك أنت المخطئ •••

فتابع الثانى كلامه وهو يهز رأس صاحبه بمزيد من القوة :

— لقد ضربنى ! ألا تسمع ؟ انك الانسان الوحيد الذى بقى لى فى
هذه الحياة الدنيا ، هل تفهم ؟ لذلك أقول لك انه تجرأ على •

— وأنا أعود فأقول لك ان اتتحال عذر كهذا العذر الواهن لايزيد
على أن يشينك •

هكذا أجاب السجين الذى كان كاتباً فى قلم المحكمة ، قائلاً ذلك
بصوت تحيل ولهجة مهذبة ، وتابع يقول :

— فأعترف يا صديقى العزيز بأن هذه القصة الناشئة عن السكر
انما مردّها كلها الى قلة ثباتك •

ترنج الصديق السمين وهو يتراجع الى وراء ، وألقى من عينيه
النملتين على صاحبه المطمئن الراضى نظرة بلهاء ، ثم اذا هو يهوى بقبضة
يده الضخمة على خده النحيل فجأة ، باذلاً في هذه اللطمة كل ما اوتى
من قوة • كذلك انتهت صداقة ذلك النهار • لقد غاب الصديق العزيز
تحت مضاجع السجن طائش اللب فاقد الوعي •

دخل الى ثكنتنا رجل ممن كنت أعرفهم ، وهو سجين من القسم
الخاص ، طيب القلب كثير المرح ، رجل ليس بالنسى قط • بسيط جدا ،
ساخر بغير سوء نية • انه ذلك الرجل الذى كان عند وصولى السجن
يبحث عن فلاح غنى ، والذى أعلن أنه امرؤ ذو أنفة وكرامة ، وانتهى
الى مشاركتى احتساء الشاي • انه فى الأربعين من عمره ، له شفة ضخمة
وأنف كبير سمين ذو بشور • كان يحمل آلة بالالاىكا فهو ينقر على
أوتارها فى اهمال وتوان ؟ وكان يتبعه كظله سجين قصير جداً ، ضخم
الرأس ، لم أكن أعرفه الا قليلاً جداً ، ولا كان ينتبه أحد اليه على كل
حال • ان هذا الرجل القصير شخص غريب الأطوار ، كثير الشكوك
والهواجس ، مطبق الفم الى الأبد فلا يتكلم ، مفرط فى الجذ فلا يهزل •
كان يعمل فى ورشة الخياطة ، ويحاول أن يعيش معتزلاً الناس لا يتصل
بأحد • لكنه بعد أن سكر الآن قد ارتبط بصاحبنا فارلاموف حتى أصبح
كظله ، فهو يتبعه حيثما يتوجه ، منفعلاً أشد الانفعال ، محرراً يديه ،
لاطمأ بقبضته جدار الثكنة ومضاجع السجن : انه يكاد يبكى • وكان
فارلاموف لا يلاحظه ولا ينتبه اليه كأنه لا وجود له • وأغرب ما فى
الأمر أن هذين الرجلين لا يتشابهان أى تشابه ، فلا قرابة بين مشاغلهما
ولا بين طبيعتهما • وهما ينتميان الى قسمين مختلفين وقيمان فى ثكنتين
منفصلتين • وكان هذا السجين القصير يسمى : بولكين •

ابتسم فالاموف حين رآنى جالساً فى مكانى قرب المدفأة • ووقف

على بعد بضعة خطوات منى ، وفكر لحظةً « وترنج ، واتجه نحوى
بخطى متفاوتة وهو يختال ويتبحر ، ثم أخذ ينقر على أوتار آلة
الموسيقية ، وطقق يغنى بلهجة الانشاد وهو يقرع الأرض بقدمه قرعاً
هيناً خفيفاً :

حببتي

حببتي بيضاء مستديرة الوجه
تغنى بصوت كصوت الشحرور
ما أجملها فى ثوبها الحريرى المزركش

فما كان من هذه الأغنية الا أن أخرجت بولكين عن طوره ، فاذا
هو يلوح بذراعيه ، ويصرخ مخاطباً جميع الناس :
- انه يكذب أيها الاخوة ، انه يكذب ، ليس فى كل ما يقوله ظل
من حقيقة !

- آيات الاحترام « للشيخ » ألكسندر بتروفتش !

كذلك قال فارلاموف ملجلجاً •
أحسب أنه أراد أن يقبلنى • لقد كان نملاً • أما قوله « آيات الاحترام
للشيخ فلان» فهو تعبير تستعمله عامة الناس فى سيريا كلها ، حتى عند
مخاطبة رجل فى العشرين من عمره • فكلمة «الشيخ» تعبر عن الاحترام
أو التبجيل أو المجاملة وتقال لرجل يحظى بالتقدير والاعظام •

- هيه يا فارلاموف ، كيف حالك ؟

- بين بين ! السعيد بالعيد سكران منذ الصباح • عفوك ومعدرتك !

كذلك قال فارلاموف وهو ينظر الى « ضاحكاً ضحكة مأكرة ؛ بل

صاح بولكين وهو يضرب المضاجع مكروباً يائساً :

— انه يكذب ! انه يكذب من جديد !

كأن فارلاموف قد آلى على نفسه أن لا ينتبه الى بولكين • وذلك بعينه أبعت ما فى المشهد على الضحك ، فان بولكين لم يتعد عن فارلاموف قيد أنملة منذ الصباح ، دون أن يكون هناك أى داع الى ذلك ، لا لشيء الا لأن فارلاموف « كان يكذب » فيما يترأى له • كان يتبعه كظله ، ويشاكسه فى كل كلمة ، ويعقف يديه غيظاً ، ويلطم بقبضتيه الباب والسُرُر الى أن تدميا ، ويتألم ، يتألم ألماً واضحاً لاقتناعه بأن فارلاموف « كان يكذب » • ولو قد كان على رأسه شعر اذن لتفقه حتماً من شدة ألمه وعمق حنقه • حتى لكأنه قد تعهد بأن يكون مسئولاً عن أفعال فارلاموف ، فضميره يعانى أشد العذاب حين يرى عيوبه ونقائصه • والأمر المضحك أن فارلاموف ظل لا يبالى تمثيلية بولكين ولا يلاحظها ولا يعباؤها •

— انه يكذب ! يكذب ! يكذب ! لا شيء مما يقوله حق !

كذلك كان يصيح بولكين •

سأله السجناء ضاحكين :

— فيم يعنيك هذا ؟

وقال فارلاموف فجأة :

— أؤكد لك يا ألكستندر بتروفتش أنتى كنت فى أيام صباى فتى

بارع الجمال ، وأن البنات كانت تحببني كثيراً ، كثيراً ...

فقاطعه بولكين يقول متنهداً زافراً :

— انه يكذب ! ها هو ذا يكذب أيضاً !

• وانفجر السجناء يضحكون •

- وكنت أنا أترين لهن • كان لى قميص أحمر ، وسروال عريض
من مخمل • وكنت أنام حين أشاء ، مثل الكونت دولابوتيل ، وكنت
أسكر مثلما يسكر رجل من السويد ••• الخلاصة : كنت أعمل كل
ما يخطر ببالى أن أعمله •

قال بولكين مصرأ :

- انه يكذب !

- وكنت قد ورثت عن أبى منزلاً مبنياً بالحجارة ، منزلاً ذا طابقين ،
فما انقضت ستان الا وقوضت الطابقين ، ولم يبق لى الا باب بغير عمودين
ولا مصراعين ! ماذا تريد ؟ المال يأتى ويذهب كالحمام ، يحط ثم
يطير ! •••

قال بولكين جازماً مزيداً من الجزم :

- انه يكذب !

- وبعد وصولى الى هنا بضعة أيام أرسلت رسالة الى أهلى أطلب
اليهم فيها أن يعثوا الى بعض المال • يظهر أننى كنت قد تصرفت
تصرفاً يخالف ارادة أهلى ، وأننى لم أظهر لهم ما يستحقون من احترام •
وها قد انقضى على ارسال الرسالة سبع سنين ! •••

سألته متسماً :

- وما من جواب حتى الآن ؟

- ما من جواب حتى الآن !

كذلك قال ضاحكاً هو أيضاً ، مقترباً بأنفه من وجهى مزيداً من
الاقتراب ، ثم أضاف قوله :

- لى هنا خليلية يا ألكسندر بتروفتش !

- أنت ؟ لك هنا خليلية ؟

- قال أوفوفريف منذ زمن قصير : « لئن كانت خليلتى أنا مجدورة الوجه دميعة ، فهى تملك ثياباً كثيرة ؛ أما خليلتك فهى جميلة ولكنها مسنولة تحمل على كتفها خرجاً » ♦

- أهذا صحيح ؟

- صحيح ! انها مسنولة تستعطى الصدقات !

قال ذلك وخنق ضحكاً همّ أن يخرج من صدره ؛ وضحك سائر الحضور أيضاً ♦ كان السجّاء يعرفون أنه على صلة بشحاذة أعطاها عشر كوبكات فى أكثر تقدير ، خلال ستة أشهر ♦

- طيب ! ماذا تريد منى ؟

كذلك سألته ، لأننى أردت أن أتخلص منه ♦

فصمت ثم قال لى بصوت رقيق وهو ينظر الى متوسلاً :

- أن تسقىنى قدحاً من خمر ، فانى لم أشرب منذ الصباح حتى. الآن الا الشاى ؛ وهذا الشاى (كذلك تابع يقول بصوت عذب وهو يتناول المال الذى مددته اليه) يؤذنى كثيراً حتى لأكاد أصاب منه بداء الربو ♦ ان بطنى تفرقر من كثرة شرب الشاى ، كما يفرقر الماء فى زجاجة !

حين تناول المال الذى مددته اليه بلغ بولكين من الكرب والكد حدّاً لا يوصف ، فكان يتواهب ويتحرك كمن مسّه جن ، وصاح يخاطب النكته المبهوتة قائلاً :

- أيها الناس الأخيار ، هل رأيتم الى كذبه ؟ ان كل ما يقوله كذب ، ان كل ما يقوله كذب ! ...

فصاح السجناء يسألونه وقد أدهشتهم حماسته الشديدة :

- فِيمَ يَخِينُكَ هَذَا ؟ أَلَا إِنَّ أَمْرَكَ لَغَرِيبٌ !

فتابع بولكين يقول وهو يجيل عينيه بينهم ، ويضرب ألواح السرر' بقبضه يده بكل ما أوتي من قوة :

- لَنْ أَسْمَحَ لَهُ بِأَنْ يَكْذِبَ ! لَا أُرِيدُ أَنْ يَكْذِبَ !

ضحك الجميع • وحيّاني فارلاموف بعد أن أخذ المال ، وأسرع يَمْضِي إِلَى الْخَمَارِ مَكْشَرًا • وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ انْمَا لَاحِظَ بُولَكِينَ • قَالَ لَهُ وَهُوَ يَقِفُ عَلَى عَتَبَةِ التَّكْنَةِ « كَأَنَّ بُولَكِينَ شَخْصٌ لَا غْنَى لَهُ عَنْهُ فِي تَنْفِيزِ مَشْرُوعٍ قَائِمٍ فِي ذَهْنِهِ :

- هَيَّا بَنَا !

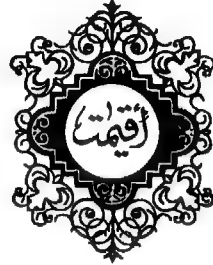
ثم أضاف يقول له باحتقار وهو يدفعه أمامه :

- هَيَّا أَيُّهَا الْكَرَّةُ !

وعاد يعدّز أوتار آلتة الموسيقى ، البالايكا ...

فِيمَ اسْتَرْسَلَ فِي وَصْفِ هَذَا الْجُنُونِ كُلِّهِ ؟ لَقَدْ انْتَهَى ذَلِكَ النَّهَارُ الْخَائِقُ أَخِيرًا • نَامَ السَّجْنَاءُ عَلَى مَضَاجِعِهِمْ نَوْمًا ثَقِيلًا • انْهَمَ يَتَكَلَّمُونَ وَيَهْزُونَ أَثْنَاءَ نَوْمِهِمْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَكْثَرَ مِمَّا كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ وَيَهْزُونَ أَثْنَاءَ نَوْمِهِمْ فِي غَيْرِهَا مِنَ اللَّيَالِي • وَبَقِيَتْ حَلَقَاتُ مِنْهُمْ تَلْعَبُ بِالْوَرَقِ • لَقَدْ انْقَضَى الْعِيدُ الَّذِي طَالَمَا انْتَظَرُوهُ بِصَبْرٍ فَارِغٍ • وَغَدًا يُسْتَأْنَفُ الْعَمَلُ الْيَوْمِي ، غَدًا تُسْتَأْنَفُ الْأَشْغَالُ الشَّاقَّةُ ...

التمثيل



حفلة التمثيل الأولى على مسرحنا فى مساء اليوم الثالث من أيام العيد • ولقد بذلت جهود كثيرة فى سبيل اقامة هذه الحفلة ، ولكن المثلين هم الذين أخذوا كل شىء على عاتقهم ، فكان سائر السجناء لا يعرفون الى أين وصل الاستعداد لاقامة الحفلة المقبلة ، ولا كانوا يعرفون ما الذى كان يجرى ؛ حتى لقد كنا لا نعرف على وجه الدقة ما الذى سيمثله الممثلون • كان المثلون ، أثناء هذه الأيام الثلاثة ، يتوسلون بأنواع الحيل لجمع أكبر مقدار ممكن من الملابس ، وذلك حين ذهابهم الى العمل • كان باكوشين ، كلما التقيت به ، يقطع أصابعه غبطةً وابتهاجاً ، ولكنه لا يذكر لى شيئاً • أعتقد أن الميجر كان طيب المزاج مشرق النفس • على اننا كنا نجهل جهلاً تاماً هل وصل الى مسامعه شىء عن الحفلة التمثيلية ، وهل أذن بها أم هو قرر أن يصمت وأن يغمض عينيه عن نزوات السجناء بعد أن تأكد من أن كل شىء سيجرى على خير ما يرام ، ولن يخل بالنظام • أظن أنه قد سمع عن الحفلة التمثيلية ، ولكنه لم يشأ أن يتدخل فى الأمر ، لأنه كان يدرك أن الأمور قد تتجرى مضطربة مختلفة اذا هو منع اقامة هذه الحفلة ؛ وأن السجناء قد يعمدون الى الشغب والسكر والعريضة ، فمن الأفضل اذن أن

يشغلوا أنفسهم بشيء ما • ولئن كنت أفدّر أن الميجر قد فكّر على هذا النحو ، فلان هذا هو الشيء الطبيعي ، حتى ليتمكن القول ان على ادارة السجن ان تتولى بنفسها ايجاد تسليّة ما اذا لم يقيم السجناء حفلة تمثيلية • ولكن لما كان الميجر يتميز باراء تعارض اراء سائر افراد الجنس البشرى ، فان من الواضح اننى اتحمل مسؤولية كبيرة حين اؤكد أنه كان على علم بمشروعنا وانه قد اذن به • ان رجلاً مثله لا بد له دائماً من ان يسحق انساناً ، أن يخلق مخلوقاً ، أن ينتزع شيئاً ، أن يحرم احداً من حق ؟ أى أن يفرض النظم فى كل مجال • وهو معروف بهذا فى المدينة كلها • كان لا يهمه قط أن تثير أعماله حفيظة السجناء وأن تحدث فى السجن اضطرابات وعصيانات ، فان لمثل هذه الذنوب التى قد يرتكبها السجناء عقوبات تنزل فيمن يرتكبها (هناك أناس يفكرون على طريقة هذا الميجر) ، وما ينبغي أن تستعمل مع هؤلاء السجناء الأوغاد الا قسوة لا ترحم ، وحسب المسؤولين عن تنفيذ القانون أن يطبقوا القانون بلا هوادة وكفى ! ••• ان هؤلاء العجزة المسؤولين عن تطبيق القانون لا يدركون أبداً أن تطبيق نصوص القانون بغير فهم لروح القانون يؤدي الى الاضطرابات رأساً • انهم يقولون : « ذلك ما ينص عليه القانون ، فماذا تريدون زيادةً على ذلك ؟ » ، حتى لقد يدهشهم حقاً أن تطلب منهم ، عدا تنفيذ القانون ، أن يكون لهم شيء من صدق الاحساس وسلامة التفكير • وسلامة التفكير هذه هى التى تبدو لهم زائدة لا محل لها بوجه خاص ، فهى فى نظرهم ترف لا لزوم له ، ترف يثير موجدتهم ويوقظ حقهم ويعزز تعصبهم •

مهما يكن من أمر فان صف الضابط لم يعارض فى اقامة الحفلة ، وذلك كل ما كان يرجوه السجناء • وأستطيع أن أقول صادقاً كل الصدق انه ان لم يكن قد حدث فى السجن طوال أيام العيد أى اضطراب ذى

بال ، ان لم يكن قد حدث شيء من مشاجرات دامية أو سرقات ، فيجب أن نعزو ذلك الى أن السجناء قد أذن لهم بأقامة حفلة التمثيل • لقد رأيت بعيني رأسى كيف كان السجناء يجمعون الاضطراب الذى يحدثه رفاقهم ممن أسرفوا فى الشراب ، وكيف كانوا يحولون دون تشوب الفتن والمشاحنات ، مخافة أن يؤدى ذلك الى منع اقامة الحفلة التمثيلية • لقد استقطع صف الضابط السجناء عهدا على انفسهم أن يكون سلوكهم حسنا وان يتقيدوا بالنظام وأن يجرى كل شيء هادئا بغير اضطراب • وارتضى السجناء أن يقطعوا على أنفسهم ذلك العهد ، ثم وفوا بالعهد حق الوفاء : لقد كان يسرهم كثيرا ويرضى كرامتهم أشد الارضاء أن تصدق الجهود التى يقطعونها على أنفسهم • يُضاف الى هذا أن حفلة التمثيل لا تكلف ادارة السجن أية نفقة على الاطلاق • ولم يكن ثمة حاجة الى اخلاء مكان معين لنصب المسرح ، فقد جعل المسرح قابلا لأن ينصب وأن يُفك فى أقل من ربع ساعة • وستدوم المسرحية ساعة ونصف ساعة ، فاذا صدر الأمر فجأة بوقف التمثيل كان فى الامكان أن يختفى الديكور فى مثل لمح البصر سرعة • وقد خُبئت الملابس فى صناديق السجناء • وسأعمد الآن ، قبل كل شيء ، الى الكلام على المسرح كيف بنى ، وعلى الملابس كيف كانت ؟ وسأتكلم على البرنامج ، أى على المسرحيات التى يراد تمثيلها •

الحق أنه لم يكن هنالك برنامج مكتوب ؟ ولم يظهر برنامج مكتوب الا للحفلة الثانية أو الثالثة ، وهو برنامج كتبه باكلوشين للسادة الضباط وغيرهم من نبلاء الزوار الذين يتنازلون الى حيث يشرفون حفلة التمثيل بحضورهم ، وهم : ضابط الحرس الذى جاء مرة واحدة ، وأمر سرية الجراسة ، ثم ضابط من سلاح الهندسة • فكريما لهؤلاء الزوار انما كتب البرنامج •

كان السجناء يفترضون أن مسرحنا ستذيع شهرته بعيداً في القلعة، حتى لقد تطير سمعته في المدينة كلها ، لا سيما وأن مدينة ن . . . ليس فيها مسرح واحد . كل ما هنالك أن بعض الهواة قد أقاموا حفلة تمثيلية في المدينة ذات يوم . كان السجناء يقتبطون لأيسر نجاح يصيبونه . كانهم أطفال صفار ، وكانوا يباهون بأنفسهم ويمدحون أعمالهم . كانوا يقولون لأنفسهم: «لقد تعلم الرؤساء بالامر فيجئون يشاهدون» . وسوف يعرفون عندئذ قيمة السجناء ، لان الحفلة التمثيلية التي سنقدمها ليست كحفلة يقيمها الجنود ويعرضون فيها مراكب طافية ودبة وتبوساً ، وانما هي مسرحية يقدمها ممثلون ، ممثلون حقيقيون يقدمون تمثيلات هزلية كتبت لعلية القوم . لن يكون في المدينة كلها مسرح كمسرحنا ! يقال ان الجنرال آبرويسوف قد أقام في منزله حفلة تمثيلية ، وان حفلة أخرى ستقام أيضاً ! طيب . . . لقد يتفوقون علينا في فخامة الملابس . . . ذلك جائز . . . أما « الحوار » فشأنه شأن آخر . . . وسنرى من الذي يتفوق فيه . . . لقد يسمع الحاكم نفسه بالحفلة التمثيلية التي سنقدمها . ومن يدري ! قد يجيء لمشاهدتها . ليس عندهم مسرح في المدينة » .

والخلاصة أن خيال السجناء ، ولا سيما بعد النجاح الأول ، قد مضى بعيداً حتى صور لهم أن مكافآت قد توزع عليهم ، وأن أشغالهم الشاقة سينقص عدد ساعاتها ، فما هي الا لحظة حتى كانوا بعد ذلك أول الضاحكين من هذه الأخيلة التي نبتت في رعوسهم . الحق أنهم كانوا أطفالاً رغم أن بينهم من بلغ الأربعين من العمر . اننى أعرف موضوع التمثيلية التي كانوا يريدون أن يقدموها ، أعرفه على وجه الجملة ، رغم أنه لم يكن ثمة برنامج معلن . ان عنوان المسرحية الأولى هو : «الغريمان فيلادكا وميروشكا»* . ولقد كان باكلوشين يتباهى أمامى قبل موعد الحفلة بأسبوع على الأقل بأن دور فيلادكا الذى سيتولى تمثيله سينجح نجاحاً

لم ير أحد مثله من قبل ، حتى ولا على مسارح سان بطرسبرج ! كان
 باكלוшин يتجول فى الثكنات فى زهو وخيلاء ، وقد بدت فى وجهه
 امارات الطيبة رغم كل شيء . فاذا اتفق أن ألقى بعض الاقوال التى
 ينضمها دوره « على الطريقة المسرحية » انفجر الناس جميعاً ضاحكين »
 سواء أكانت هذه الاقوال مضحكة أم لم تكن مضحكة ، فانما كان الناس
 يضحكون من هذه الاقوال لأن باكلوшин هو فائلهما . يجب أن نعترف
 على كل حال ان السجناء كانوا يحسنون ضبط أنفسهم والمحافظة على
 وفارهم فالذين يتحمسون لأقوال باكلوшин انما هم الشبان الأغرار الذين
 لا يعرفون كيف يكظمون مشاعرهم أو هم السجناء العظماء الذين
 لا يخشون على سلطتهم القوية ومراكزهم الراسخة أن تتزعزع اذا هم
 عبروا عن احساساتهم أية كانت هذه الاحساسات . أما من عدا هؤلاء
 فقد كانوا ينصتون الى الضججات والناقشات صامتين لا يلومون ولا
 يعارضون ، وانما يحاولون أن يتصرفوا تصرفاً فيه شيء من الاستخفاف
 والاحتقار ازاء المسرح ؟ ولم يظهر جميع السجناء اهتماماً بما سيرونيه على
 المسرح وبما سيفعله رفاقنا الا فى آخر لحظة ، أى فى يوم التمثيل نفسه .
 وكانوا يتساءلون : ترى ما عسى يكون رأى الميجر ؟ ترى هل تبجح
 الحفلة كما نجحت الحفلة التى أقيمت منذ سنتين ؟ الخ ... الخ ...
 وقد أكد لى باكلوшин أن جميع الممثلين « قد أحسن اختيارهم على خير
 وجه » وأن المسرح ستكون له ستارة وأن سيروتكين هو الذى سيمثل
 دور خطيبته فيلادكا . وأضاف باكلوшин يقول وهو يغمز بعينه ويصنق
 بلسانه سقف فمه : « لسوف ترى كم هو جميل فى ثياب امرأة ! »
 وذكر باكلوшин ان الجارة المحسنة سترندى ثوباً له تخاريم وتخاريج
 وأنها ستحمل مظلة صغيرة وأن الجار سيرتدى بزة ضابط لها على
 الكتفين شارات وسيحمل بيده عصا . أما المسرحية الثانية التى تشمل

بعد الأولى فنوانها : « كدريل الشره » * . وقد حيرنى هذا العنوان كثيراً . ولكننى رغم جميع ما ألقته من أسئلة لم أستطع أن أعرف عن التمثيلية شيئاً قبل تقديمها . كل ما عرفته أن هذه المسرحية لم تكن مطبوعة ، وإنما هى نسخة مخطوطة أخذت من صف ضابط محالٍ على المعاش فى الضاحية كان قد اشترك هو نفسه فى تمثيلها حتماً فى الماضى على مسرح عسكرى بمكان من الأمكنة . والواقع أن لدينا فى المدن البعيدة والأقاليم النائية تمثيلات كثيرة من هذا النوع لم يعرف بها أحد قط ، ولم تطبع فى يوم من الأيام ، وإنما هى ظهرت من تلقاء نفسها فى الوقت المناسب لتندى المسرح الشعبى فى بعض الأماكن الروسية .

وإذا قلت « المسرح الشعبى » فانه من المفيد جداً أن يهتم الباحثون الذين يدرسون الأدب الشعبى بالقيام بدراسات دقيقة مستعينة عن هذا المسرح الذى قد لا يكون تافها الى الحد الذى يتصوره بعض الناس . أنا لا أستطيع أن أصدق أن كل مارأيته فى سجننا كان من عمل السجناء ، فإن هذا الذى رأيت لا بد له من تقاليد سابقة وقواعد مقررة ومعارف تتناقلها الأجيال . وهى تقليد وقواعد ومعارف يجب التماسها لدى الجنود وعمال المصانع فى المدن الصناعية وحتى لدى أبناء الطبقة المتوسطة فى بعض المدن الصغيرة الفقيرة المجهولة . هى تقاليد حُفظت فى بعض القرى وفى عواصم الأقاليم لدى خدم بعض كبار السادة من أصحاب الأراضى بل اتنى لا أعتقد بأن نسخ كثير من المسرحيات القديمة إنما تعددت وتكاثرت وانتشرت بفضل هؤلاء الخدم . لقد كان لقدماء أصحاب الأراضى ولكبار السادة فى موسكو مسارح خاصة يمثل عليها أقاتهم . وذلك هو أصل مسرحنا الشعبى الذى لا سبيل الى المصاراة فى امارات نشأته وملامح أصله . أما مسرحية « كدريل الشره » فأتنى رغم فضولى الشديد لم أستطع أن أعرف عنها شيئاً ، اللهم الا أن الشياطين تظهر على

المرح وتقود كدريل الى الجحيم • ولكن ما معنى اسم « كدريل » هذا ؟ لماذا سمي « كدريل » ولم يُسمَ « كيريل » ؟ هل أحداث المسرحية روسية أم هي أجنبية ؟ لم أستطع أن أجلو هذا السؤال • وقد أعلنوا أن المسرحية ستتهى بمشهد « تمثيل صامت » تصاحبه موسيقى • ذلك كله يبشر بأن الحفلة ستكون شائقة • كان عدد الممثلين خمسة عشر ممثلاً ، وكانوا جميعاً على جانب عظيم من الخفة والنشاط والعزم • كانوا جميعاً يتحركون كثيراً ، وكانوا يتمرنون على التمثيل كثيراً ، وكانت التمرينات تتم وراء الثكنات فى بعض الأحيان ، والممثلون يتوارون عن الأنظار ، ويبدون الناس بمظاهر السر والتخفى • الخلاصة أنهم كانوا يريدون أن يفاجئونا بشيء خارق لا نتوقعه •

كانت الثكنات فى أيام العمل تغلق فى ساعة مبكرة مع هبوط الليل ، ولكن أيام عيد الميلاد تستثنى من هذه القاعدة • ففى أيام عيد الميلاد لا توضع الأقفال الا فى نحو الساعة التاسعة • وقد سُمح بهذا خاصة من أجل الحفلة التمثيلية • ولقد ظل المشرفون على التمثيل يرسلون الرسل فى كل مساء من أيام العيد ضارعين الى ضابط الحرس فى كثير من المذلة أن « يأذن باقامة الحفلة التمثيلية وأن لا يغلق باب الثكنة قبل الأوان » ، مضيفين الى ذلك قولهم ان حفلة قد أقيمت فى الليلة البارحة فلم يحدث شيء يعكر صفو الأمن أو يخل باستتباب النظام • فكان ضابط الحرس يفكر فى الأمر على النحو التالى : لم تقع أية فوضى ، ولم تحدث أية مخالفة للنظام فى يوم الحفلة ؛ وما داموا قد قطعوا على أنفسهم عهداً بأن سهرة الليلة ستجرى كما جرت سهرة البارحة ، فسوف يكونون هم أنفسهم شرطة تحافظ على استتباب الأمن ، وهم فى هذا أقوى شرطة • ثم ان ضابط الحرس كان يعلم حق العلم أنه لو منع الحفلة فان هؤلاء الرجال (ومن يدري ما عسى أن يفعله سجناء !) قد

يرتكبون حماقات تضع ضباط الحرس فى حرج هم فى غنى عنه • وثمة سبب آخر كان يشجع ضابط الحرس على الاذن باقامة الحفلة التمثيلية ، هو أن الحراسة مملة جداً ، فاذا هو اذن بتمثيل المسرحية الهزلية استطاع أن يسرّى عن نفسه بمشاهدة تمثيلية لا يمثلها جنود بل سجناء ، وذلك أمر شائق ما فى ذلك ريب ، وسيكون فى وسعه أن يشهد الحفلة • فاذا اتفق أن وصل أمر الحرس فسأل عنه كان فى الامكان أن يجاب بأن الضابط قد مضى يمد السجناء ويغلق الثكنات ، وذلك جواب صحيح وتبرير سهل • ولهذا انما سمح مراقبونا باقامة حفلة التمثيل فى جميع أمسى العيد • فكانت الثكنات لا تغلق مساءً الا فى موعد النوم ؛ وكان السجناء يعلمون سلفاً أن الحرس لن يعارضوا فيما عقدوا النية عليه ، وكانوا من هذه الناحية مطمئنين •

فى نحو الساعة السادسة جئنى بتروف ، فذهبنا معاً الى القاعة التى سيجرى فيها التمثيل • كان جميع سجناء ثكنتنا تقريباً حاضرين ، باستثناء متعبد تشرنيجوف والبولنديين • فان هؤلاء لم يعزموا أمرهم على حضور التمثيل الا فى آخر مساء ، وهو مساء اليوم الرابع من كانون الثانى (يناير) ، بل انهم لم يعزموا أمرهم على ذلك الا بعد أن اقتنعوا بأن كل نىء كان لائقاً مرحاً هادئاً لا مأخذ عليه ولا مطعن فيه • وكان ما يظهره البولنديون من تعالٍ واحتقار لا يثير سخط السجناء قط ، لذلك استقبلهم السجناء فى مساء اليوم الرابع من كانون الثانى (يناير) فى كثير من الأدب واللفظ ، حتى لقد أجلسوهم فى أحسن الأماكن • أما الشراكسة وأشعيا فومتش فقد سُرّوا بالتمثيل أشد السرور ، وابتهجوا له أكبر الابتهاج • وكان أشعيا فومتش يدفع فى كل مرة ثلاثة كوبكات ، بل لقد أسرف فى اليوم الأخير فوضع فى الصحن عشر كوبكات لا ثلاثاً ، وكانت السعادة مرتسمةً على أسارير وجهه واضحةً كل الوضوح •

كان السجناء قد قرروا أن يدفع كل مشاهد من المشاهدين المبلغ الذى يشاء • وكان المفروض أن يغطى ريع الحفلات نفقات اقامتها، وأن يوزع الفائض على المثليين • وقد أكد لى بتروف أنتى ساًخص بمكان من أحسن الامكنة ، مهما يكن المسرح غاصاً بالمشاهدين ، أولاً . لأنتى أغنى من الآخرين ، فمن الممكن أن أتبرع بأكثر مما يتبرع به الآخرون ، وثانياً لأنتى أفهم فى شئون التمثيل أكثر مما يفهم أى واحد • وقد تحققت نبوءة بتروف • ولكن فلأصف القاعة وبناء المسرح قبل كل شئ • •

ان نكتة القسم العسكرية التى جعلت قاعةً للمسرح ، يبلغ طولها خمس عشرة قدماً ؛ ومن فناء السجن ، يدخل المرء إليها على درجات المدخل ماراً بحجرة تقع بعد المدخل • وهذه الثكنة الطويلة مبنية على طراز خاص كما سبق أن ذكرت ذلك ، فالمضاجع تصطف فيها على الجدار ، تاركةً فى الوسط مكاناً خالياً • ولقد جعل النصف الأول من الثكنة للمشاهدين ، أما النصف الثانى الذى يتصل بمبنى آخر فقد جعل مسرحاً • والستارة هى التى أثارت دهشتى وعجبى أكثر من أى شئ آخر • انها تقسم الثكنة قسمين ، على طول عشرة أقدام ، وهى معجزة من المعجزات يحق للمرء أن يعجب بها أشد الإعجاب • لقد رسمت عليها بألوان الزيت رسوم شتى : أشجار وأكواخ وغدران ونجوم • وهى ملفقة من أقمشة جديدة وملابس قديمة تبرع بها السجناء : قمصان وأعصبة مما يتخذها فلاحونا جوارب لأقدامهم ؛ وقد خيط ذلك كله بعضه ببعض خياطة محكمة فتألف منه بساط كبير ؛ وحيث نقص القماش استعاض عنه بورق استعطاء السجناء قطعةً قطعةً من مختلف الادارات والدواوين • وقد تولى الرسامون منا (وبينهم برولوف أى آ • • • ف) زخرفة الستارة كلها ، فكان منظرها رائعاً حقاً ، سرّاً به السجناء سروراً

عظيماً ، حتى لقد حظى باعجاب أكثرهم كآبة وأعظمهم تشدداً وتزمتاً • على أن هؤلاء أنفسهم قد ظهروا منذ بداية التمثيل كالأطفال حقاً ، يستوون في هذا مع المندفمين والمتحمسين ولا يختلفون عنهم • لقد كانوا جميعاً مسرورين ، حتى لقد كانوا يشعرون بغير قليل من الزهو • وكانت الأضائة تتألف من بضعة شموع قسمت قطعاً صغيرة • ولقد جرىء من المطبخ بمقعدين طويلين وضعا أمام الستارة • كما استعيرت من غرفة ضباط الصف ثلاثة كراسي أو أربعة من باب الاحتياط ليجلس عليها الضباط الكبار اذا هم حضروا الحفلة • أما المقعدان الطويلان فهما لضباط الصف وجنود الهندسة ونظار الأعمال وسائر الرؤساء الذين يشرفون على السجناء دون أن تكون لهم رتب ضباط والذين قد يجيئون لالقاء نظرة على حفلة التمثيل • والحق أن المسرح لم يعوزه الزوار • لقد كان عددهم يختلف قلة وكثرة باختلاف الايام ، ولكن المقاعد لم يبق فيها مكان واحد خالٍ في الليلة الأخيرة • ووراء المقاعد كان يزدهم السجناء واقفين حاسري الرؤوس احتراماً للزوار • مرتدين صدرات أو فروات قصيرة ، رغم الحر الخانق الذي يملأ جو القاعة • وكما تتوقعون ، كان المكان أضيق من أن يتسع لجميع السجناء • فكانوا يتكدسون بعضهم فوق بعض ، ولا سيما في الصفوف الأخيرة ، حتى لقد احتلوا المضاجع وشغلوا الكواليس • وكان هناك هواة حرصوا على أن يختتموا وراء المسرح في الثكنة الأخرى ، فكانوا يشاهدون التمثيلية من آخر الكواليس •

اقتادونا أنا وبتروف الى مكان قريب جداً من المقاعد ؟ فمن كان في ذلك المكان استطاع أن يشاهد التمثيل خيراً مما يستطيع ذلك من كان في آخر القاعة • لقد كنت في نظرهم حكماً ممتازاً ، كنت في نظرهم انساناً خيراً رأي مسارج أخرى كثيرة : كان السجناء قد لاحظوا أن

بأكلوشين تداول معى الرأى فى أحيان كثيرة ، وانه أظهر كثيراً من الاحترام لنصائحي ، فقد رآوا أن عليهم أن يكرموني وان يخصوني بمكان من أحسن الأماكن . ان هؤلاء الرجال أناس مغرورون طاشون، ولكن ذلك هو من الأمر ظاهره . لقد كانوا يسخرون منى فى العمل ، لأننى كنت عاملاً رديئاً مخففاً . وكان من حق ألمانوف أن يحتقرنا ، نحن السادة ، وأن يتباهى بحذقه فى حرق الرخام . ان هذه الاستهزاءات وهذه الاستفزات يرجع سببها الى الأصل الذى تنتمى اليه ، فنحن اناس تنتمى بأصلنا الى طبقة سادته القدامى الذين لا يمكن أن يحتفظ بذكري حسنة عنهم . ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يخصوتنى هنا ، فى المسرح ، بمكان ممتاز ، لأنهم يعترفون لأنفسهم بأننى فى هذا المجال أدرى منهم وأعلم . وحتى الذين كانوا يضيقون بى ويحملون لى شيئاً من الكره (أعرف ذلك من مصدر موثوق) كانوا يريدون أن يسمعونى ممتدحاً مسرحهم ، وكانوا ينزلون لى عن مكانهم دون أن يكون فى هذا شئ من مذلة أو خنوع . اننى أقضى فى هذا الأمر الآن على أساس ما أحسست به أيامذاك . لقد أدركت حينئذ أن هذه المعاملة العادلة لم تكن تشتمل على أى استكانة منهم . بالعكس . . . لقد كانت تحمل معنى الشعور بكرامتهم . ان السمة التى يتميز بها شعبنا انما هى احساسه بالعدل وظمؤه اليه . ان الشعب لا يشعر بغرور كاذب ، ولا يحس بكبرياء حمقاء تدفعه الى احتلال الصف الأول دون أن يكون له فى ذلك حقوق . ان الشعب لا يعانى هذه الآفة ولا يتصف بهذا العيب . انزعوا عنه قشرة الفظاظه الظاهرة وادرسوه بلا أحكام سابقة وانظروا اليه من قرب تروا فيه مزايا لم تخطر لكم يوماً على بال . ليس هنالك الا أشياء قليلة يستطيع حكمائنا أن يعلموها للشعب بل أزيد على ذلك فأقول ان عليهم هم أن يتعلموا فى مدرسة الشعب .

حين قادني بتروف الى المسرح قال لي ببساطة وسذاجة انهم
 سيخصوتني بمكان في المقدمة ، لأنني سأعطى مالا أكثر مما يعطى
 غيرى . لم يكن للأماكن أسعار محددة ، بل كان كل مشاهد من المشاهدين
 يعطى ما يجب اعطاه وما يستطيع اعطاه . وقد وضعوا جميعا قطعة من
 النقد في الصحن حين جمعت التبرعات . واثني لأساسا : لئن قدموني
 على غيرى أملا في أن أدفع من المال أكثر مما يدفع غيرى ، أفليس
 يشتمل هذا على شعور عميق بالكرامة الشخصية ؟ لكنهم كانوا يقولون
 لي : « انت أغنى منا ، فاحتل المكان الأول ! صحيح أننا هنا متساوون ،
 ولكنك تدفع أكثر من غيرك ، ويترتب على ذلك ان مشاهداً مثلك يسر
 الممثلين ، فلك أن تحتل المكان الأول ، لا لأننا نحب هنا المال ونخصه
 بالتعظيم والاحترام ، بل لأن علينا أن نصنف أنفسنا ، فاذا كل واحد
 يحتل المكان الذى يستحقه ! » . يا لها من كبرياء نبيلة تلك التى تشتمل
 عليها هذه النظرة الى الأمور ، وتشتمل عليها هذه الطريقة فى السلوك !
 ليس المال كل شئ هنا ، وانما الأمر أمر احترام للنفس فى التحليل
 الأخير ! كن السجّاء لا يسرفون فى تقدير الثراء . ولست أذكر أن
 أحدا منا قد أذل نفسه يوماً فى سبيل الحصول على مال . أستطيع أن
 أؤكد هذا ولو استعرضت جميع من كانوا فى السجن . ولئن استطائى
 بعضهم أحيانا فلقد فعل ذلك من باب المكر والدهاء والحيلة أكثر مما
 فعله فى سبيل الربح نفسه . كان ذلك اشارة من امارات مرح النفس
 وحسن المزاج وبراعة الطبع . لست أدري ، على كل حال ، هل وفقت
 الى التعبير عما أردت التعبير عنه بجلاء ووضوح ولكن أراينى قد
 نسيت المسرح فلأعد اليه .

كانت القاعة قبل رفع الستارة تمثل مشهداً غريباً مليئاً بالحركة
 والحياة . الحشد متراس متراس متدافع فى كل جهة من الجهات ،

ولكنه صابر ينتظر ابتداء التمثيل مشرق الوجه متهلل الأسارير • وفي الصفوف الاخيرة تتراكم كتلة مضطربة من السجناء : ان كثيراً منهم قد جاءوا من المطبخ يحطب أسندوه الى الجدار وتسلقوا عليه • لقد فضوا ساعتين كاملتين وهم على هذا الوضع المتعب متكئين بأيديهم على أكتاف رفاقهم راضين كل الرضى عن أنفسهم وعن أماكنهم • وهؤلاء آخرون قد وضعوا أقدامهم فيما يشبه القوس أو القنطرة على آخر درجة من درجات المدفأة ثم لبثوا على هذه الحال طوال مدة التمثيل يسندهم أولئك الذين كانوا أمامهم فى آخر القاعة قرب الجدار • وعلى المضاجع ، فى جانب ، تكدّس كذلك جمهور كثيف متراس ، لأن هذه الأماكن كانت خير الأماكن • وهؤلاء خمسة سجناء هم أحسنهم حظاً فد صعدوا فوق المدفأة ووقفوا عليها وأخذوا ينظرون الى تحت : لقد كان هؤلاء يسبحون فى غبطة عظيمة ونشوة كبيرة • وعلى الطرف الآخر كان يزدحم المتأخرون الذين وصلوا بعد غيرهم فلم يجدوا أماكن جيدة يستقرون فيها • وكان الجميع يراعون قواعد الحشمة وآداب السلوك فلا ضجة ولا جلبة ولا ضوضاء • وكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بمظهر حسن أمام السادة الذين يزورون المسرح • ان انتظاراً ساذجاً بريئاً يرسم على هذه الوجوه الحمراء التى خضلتها الحرارة الخانقة بعرق غزير • ما أروع هذا الفرع الطفولى ! ما أرشق هذا السرور الخالص الذى لا تشوبه شائبة فى تلك الوجوه المفضنة وعلى هذه الجباه والخدود الموشومة التى كانت قبل ذلك قاتمة مظلمة كالحلة جهمة والتى كانت تسطع أجائناً بنار رهية ! ولقد كانوا جميعاً حاسرى الرؤوس • واذ كنت فى الجهة اليمنى فقد بدا لى أن رؤوسهم مخلوقة تماماً • وفجأة سُمعت على المسرح ضجة وقامت جلبة ••• سوف تُرفع الستارة ••• أخذت الأوركسترا تعزف ••• ان هذه الأوركسترا

تستحق أن أتكلّم عنها قليلاً • هم ثمانية موسيقيين جلسوا على المضاجع :
اثنان يعزفان على الكمان (ان احدى الكمانين كانت ملكا لاحد السجناء
أما الكمان الأخرى فقد استعيرت من خرج القلعة ، والفنانون جميعا من
السجناء) ، وثلاثة يعزفون على آلات بالالا يكا صنعها السجناء بانفسهم ،
واثنان يعزفان على القيثارة • وواحد يضرب على دف • فاما الكمانان
فكانتا لا تزيدان على الاين والصرير ، وأما القيثارتان فلا قيمة لهما :
ولا ذلك آلات بالالا يكا فقد كانت رائعة ! كانت أصابع الفنانين تتحرك
بخفة ورشاقة يمكن أن يعتز بهما أبرع الحواة • كاد الموسيقيون ان
لا يعزفوا الاّ ألحان رقص • وكانوا في اللحظات المندفعة من عزفهم
يقرعون بالاصبع ألواح آلاتهم على حين فجأة ؛ وكان عزفهم كله اصيلاً
شخصياً ، منسجم الايقاع ، رفيع الذوق ، محكم الضرب ، متسلسل
النغم • وكان أحد العازفين على القيثارة يملك ناصية الله • انه ذلك
الفتى الذي قتل أباه • أما الضارب على الدف فقد كان معجزا حقا • كان
يدير الدف على أصبع من أصابعه أو يجبر ابهامه فوق الجلد فاذا نحن
نسمع ضربات متكررة واضحة رتيبة سرعان ما تتكسر على حين فجأة
ثم اذا هي تعود تتدفق نغمات صماء صغيرة موشوشة متواثبة • وقد انضم
الى هذه الأوركسترا في آخر الأمر موسيقيان يعزفان على آلتى هارمونيكاه
حقاً اننى لم أكن أتصور ما يمكن استخراجه من هذه الآلات الشعبية
الغليظة الفظة • فلما سمعت هذه الموسيقى دهشت أشد الدهشة ! لقد
استطاع هؤلاء العازفون أن يؤدوا الألحان على أحسن وجه ، فاذا هي
لا تخلو من براعة الانسجام وحسن التناغم وجمال العزف ، واذا هي
تمتلى بالتعبير خاصة ، وتجيد إبراز النغم ابرازاً رائعاً • لقد أدركت
عندئذ حق الادراك ، لأول مرة ، ما يتدفق في ألحان رقصاتنا الشعبية
وأغانينا الرائجة من قوة هائلة واندفاع عظيم • ورفعت الستارة أخيراً •

تجرك كل من فى القاعة • والذين كانوا فى آخر الصفوف انتصبوا على رؤوس الأقدام • وهذا واحد يسقط عن قطعة الحطب التى كان متسلقاً عليها • وفتر الجميع أفواههم وحملقوا بأعينهم : ان صمتاً كاملاً يسود القاعة كلها *** لقد بدأ التمثيل •

كنت جالساً غير بعيد عن « على » الذى كان فى وسط الحلقة التى تنأف من اخوته ومن الشراكسة الآخر • كان هؤلاء مولعين بالمرح ولما شديدا ، فلم يتخلفوا عن الحضور مرة واحدة • لقد لاحظت ان جميع المسلمين ، من تتر وغيرهم ، كانوا يحبون التمثيل بجميع أنواعه حبا عظيماً • وعلى مقربة من هؤلاء كان يوجد أشعيا فومتش • انه منذ رفعت الستارة أصبح كله عيونا تبصر وأذانا تسمع • كان وجهه يعبر عن انتظار ساذج نهم شره الى معجزات ومباهج ومسررات ومتع ، فلو قد خاب أمله لشعرت من ذلك بحسرة كبيرة ولوعة شديدة • وكان وجهه على الفاتن الأخاذ يسطع بفرح يبلغ من التعبير عن براعة الطفولة وطهارتها أنتى كنت سعيداً كل السعادة من مجرد النظر اليه • وكنت كلما ترجعت أصداء ضحكة عامة لنكتة بارعة أو رد هزلى التفت نحوه على غير ارادة منى لأرى وجهه • لم يكن على « يلاحظنى » ان هناك أشياء أخرى تشغله عن التفكير فى ! وعلى مقربة من مكانى على اليسار كان هناك سجين متقدم فى السن مظلم الوجه ساخط النفس كثير النقد • لقد لاحظت هو أيضا الفتى علياً فكان يختلس النظر اليه من حين الى حين مبتسماً بعض الابتسام ، فالى هذا الحد كان الفتى الشرسى فاتنا ! ان هذا السجين كان يطلق على علي دائماً اسم « على سيميويتش » لا أدري لماذا ! بدأ التمثيل بمسرحية « فيلادكا وميروشكا » • فكان دور فيلادكا الذى مثله باكلوشين رائعا كل الروعة • لقد مثل باكلوشين هذا الدور على أكمل وجه • كان واضحاً أنه يزن كل جملة يقولها وكل حركة يجريها • لقد استطاع أن

بضفى معنى على أيسر كلمة وأيسر حركة ، معنى يصوّر طبع الشخصية
التي يمثلها أصدق تصوير. أضف الى هذه الدراسة الدقيقة مرحاً لا تكلف
فيه ، ولا سبيل الى مغالبتها ومقاومته ، وبساطة لا تعمل فيها وانطلاقاً
طبيعياً بغير اصططاع . فلو شاهدتم باكلوشين وهو يمثل هذا الدور
لاعترفتم حتماً بأنه ممثل كبير خلق للتمثيل وأوتى موهبة عظيمة . لقد
شهدت مسرحية فيلادكا على مسارح موسكو وبطرسبرج غير مرة ،
ولكنى أستطيع أن أؤكد جازماً أننى لم أر فى هاتين العاصمتين فناً واحداً
بضارع باكلوشين براعةً فى تمثيل هذا الدور . كان الممثلون هنالك
يمثلون أدوار فلاحين يمكن أن تنسبهم الى أى بلد من البلاد ، ولا
يمثلون فلاحين روسيين حقيقين (موجيك) . كانت رغبتهم فى «تمثيل»
أدوار الفلاحين تمثيلاً ، واضحة مسرفة فى الوضوح ، ظاهرة مفرطة
فى الظهور . ولا كذلك باكلوشين . وكان التنافس يحض باكلوشين
ويثير حماسه ، ذلك أن المشاهدين كانوا يعرفون أن السجين بوتسياكين
يمثل دور كدريل فى المسرحية الثانية ، وكانوا يعتقدون – لا أدري
لماذا – أن بوتسياكين موهوب أكثر من باكلوشين . فكان باكلوشين يتألم
من تفضيل صاحبه عليه كما يتألم طفل من الاطفال . كم من مرة جاءنى
فى الأيام الأخيرة ليفصح لى عن عوالج نفسه ومرارة قلبه ! وقد انتابت
الحمى باكلوشين قبل بدء التمثيل بساعتين . فلما كان الجمهور ينفجر
ضاحكاً ويصيح قائلاً : « مرحى باكلوشين ! انك لمثل قدير ! » كان
وجهه يتألق بسعادة ، وكان يسطع فى عينيه الهام حقيقى . وحين ظهر
المشهد الذى يتعاقب فيه ميروشكا وفيلادكا ويقبل كل منهما الآخر ،
فيفصح فيلادكا قائلاً لصاحبه : « جفنى فمك » انفجر الناس ضاحكين
ملء صدورهم من براعة الفكاهة . ان المشاهدين هم الذين شدوا انتباهى
أكثر من كل شئ ، وهم الذين شاقنى أمرهم أكثر من غيرهم . لقد

استرخوا جميعاً واستسلموا للمرح استسلاماً صريحاً لا تحفظ فيه ، وكانت صيحات الاستحسان ما تنفك تزداد قوة . هذا سجين يلكر رقيقاً بكوعه وينقل اليه مشاعره على عجل دون أن يهमे أن يعرف من ذا الذي كان الى جانبه . حتى اذا بدأ مشهد هزلى ثانٍ التفت سجين آخر الى وراء ، بقوة وعنف ، وهو يحرك يديه ويلوح بذراعيه ، كأنما ليهب برفاقه أن اضحكوا ، ثم ما لبث أن استدار نحو المسرح . وهذا سجين ثالث يصفق سقف فمه بلسانه ولا يستطيع أن يبقى ساكناً ولا أن يستقر على حال . ولكن المكان ضيق فهو لا يملك أن يغير وضعه فلا يسهه الاً أن يقرع الأرض باحدى قدميه . ولقد بلغ المرح أوجه فى ختام المسرحية . الناس جميعاً يضحكون مقهقهين . لست أبالغ فى شيء ! تصوروا السجن ، والسلاسل التى تكبل الأرجل ، والأسر الذى يجبس الرجال ، والسنين الطويلة التى تنقضى نفيّاً وسخرة وأشغلاً شاقة ، والحياة الرتيبة التى تجرى على وتيرة واحدة وتتساقط قطرة قطرة ان صح التعبير ، والأيام المظلمة القاتمة من أيام الخريف ، تصوروا هذا كله وتصوروا هؤلاء السجناء المكبوتين وقد أُذن لهم على حين فجأة أن يفرحوا وأن يمرحوا وأن يتفلسوا ملء صدورهم خلال ساعة ، وأن ينسوا كوابيسهم وأن ينظموا حفلة يا لها من حفلة ، حفلة تثير حسد المدينة كلها واعجاب المدينة كلها ، فاذا الناس بالمدينة يقولون : «انظروا الى هؤلاء السجناء !» لقد كان كل شيء يشوق هؤلاء السجناء ويستثير اهتمامهم نشد انتباههم . الملابس مثلاً : ما كان أشد فرحهم حين يرون فانكا أو تسفياتايف أو باكوشين فى رداء آخر غير الرداء الذى كان يرتديه كل منهم منذ سنين طويلة . « هو سجين . . سجين حقيقى تحلحل السلاسل فى قدميه حين يمشى وها هو ذا مع ذلك يدخل المسرح لابساً رديجوتاً واضعاً على رأسه قبة مدورة متدثراً بمعطف كواحد من المدنيين . وقد

اتخذ لنفسه شعراً مستعاراً وشاربين مصنوعين وهو يخرج من جيبه
 منديلاً أحمر فيفضه كما يفعل سيد من السادة وشريف من الأشراف» •
 لذلك بلغت حدة المشاهدين أقصاها ووصلت إلى ذروتها • ويظهر
 « الملاك المحسن » لباساً بزة عسكرية هي بزة عتيقة خلقة رثة والحق
 يقال ، لكن على كتفيها شارات مذهبة ، وفوقها قبعة ذات ريش : لقد
 أحدث ظهوره اثراً لا يوصف • هل تصدقون أن اثنين من السجناء قد
 اختصا وتشاجرا كطفلين ، متنافسين على تمثيل هذا الدور من فرط
 حبهما لارتداء هذه البزة العسكرية ؟ لقد كانا كلاهما يجهان أن يظهر
 بزة ضابط ذات شارات ؟ • لقد تشاجر الرجلان حقا واوشكا أن يقتتلا
 ولكن الممثلين الآخرين فصيلوا بينهم وحالوا دون قتالهما ، وقررت
 أكثرية أصواتهم أن يعهد بهذا الدور إلى تسفياتايف ، لا لأنه مؤهل
 بمزاياه لتمثيل هذا الدور أكثر من صاحبه ، ولا لأنه أقرب منه شياً
 بسادة من السادة، ولكن لأنه أكد لهم جميعاً أنه يملك عصا من خيزران
 سيلوح بها أثناء التمثيل ويديرها هنا وهناك ويقرع بها الأرض كما يفعل
 شريف من الأشراف ، أنيقاً على آخر موضة ، وذلك أمر لا يستطيع أن
 أن يحاوله فانكا أو تسياتين الذي لم يعرف أناساً من طبقة النبلاء في يوم
 من الأيام • وقد حدث ذلك فعلاً • فحين دخل تسفياتايف إلى المسرح مع
 زوجته • طفق يرسم على الأرض دوائر سريعة بعصاه الخفيفة التي
 لا يدرى أحد من أين جاء بها • لا شك أنه كان يعد ذلك علامة المحتد
 والنبيل والترية الراقية والأناقة الرفيعة • لعله كان في طفولته أيام لم
 يكن الا فتناً حافى القدمين قد افتن بحذق سيد من السادة في إدارة
 عصاه • فرسخت هذه الذكرى في خياله إلى الأبد لا تمحى ولا تزول ،
 ثم اذا هي الآن تستيقظ في ذاكرته وهو في الثلاثين من العمر ، فيريد
 أن يفتن بها هو أيضاً رفاق سجنه • لقد بلغ تسفياتايف من استغراقه في

هذه المهمة أنه كان لا ينظر الى أحد حتى لقد كان ينطق بكلامه ويلقى أجوبته دون أن يرفع عينيه ، فان طرف عصاه والدوائر التي كان يرسمها هي التي كانت تشغله وتصرفه عن كل ما عدا ذلك . وكان دور الجارة المحسنة رائعا أيضا . ظهرت على المسرح فى ثوب عتيق مهترى من المسلمين . يشبه أن يكون أسملا رثة باليه ، وكانت عاريتها الذرايع والعنق ، مثقلة الوجه بالمساحيق ، واضعة على راسها قبعة صغيرة من نسيج قطنى تشدها خيوط معقودة عند الذقن ، حاملة باحدى يديها مظلة صغيرة وباليده الأخرى مروحة من ورق ملون ما تنفك تحركها أمام وجهها . لقد استقبل الجمهور ظهور هذه السيدة العظيمة بضحك مجلجل مجنون فلم تملك هي نفسها أن تكظم مرحها فانفجرت ضاحكة غير مرة . ان السجين ايفانوف هو الذى قام بهذا الدور . أما سيروتكين الذى كان يرتدى ثياب فتاة ، فقد كان جميلاً جداً ؛ وقد أحسن الممثلون تبادل الحوار والقاء الشعر . الخلاصة ان المسرحية قد انتهت على رضى الجمهور عنها وابتهاجه بها واغباطه لها ولم يتصد أحد بكلمة نقد واحدة . وأنتى لأحد أن يوجه أى نقد على كل حال !

وعزفت الأوركسترا الافتتاحية مرة أخرى « غرفتى الصغيرة » ، يا غرفتى الصغيرة * . وأعيد رفع الستارة . سيمثلون الان مسرحية « كدريل الشر » . ان مسرحية كدريل تشبه مسرحية دون جوان . وهذا التشبيه صحيح ، لأن الشياطين تخطف السيد والخدام وتمضى بهما الى الجحيم فى آخر المسرحية . ولقد تلى نص المخطوطة كاملاً . ولكن كان واضحاً أن النص الذى تلى لم يكن الا جزءاً من المسرحية . فأغلب الظن أن بداية المسرحية وخاتمها قد ضاعت ، لأن ما شهدناه لم يكن له رأس ولا ذنب . ان المشهد يجرى فى نزل يقع فى مكان ما من روسيا . وصاحب النزل يدخل سيّداً من السادة الى غرفة بالنزل ، والسيد يرتدى

معطفاً ويضع على رأسه قبة مدوّرة مشوّهة ؛ والخادم كدريل يتبع سيده ، حمالاً حقيبة ودجاجة ملفوفة بورق أزرق • ان الخادم يرتدى فروة قصيرة ، ويضع على رأسه طاقية وصيف • وهذا الخادم هو الرجل الشر • ان السجين بوتسيابكين ، منافس باكوشين ، هو الذى يمثل هذا الدور • أما شخصية السيد فقد مثلها ايفانوف الذى كان يمثل دور السيدة العظيمة فى المسرحية الأولى • ان صاحب المنزل (تسفياتايف) ينه التزيل الى أن الغرفة يسكنها جن ، ثم يمضى لشأنه • والسيد التزيل حزين مهموم ، وها هو ذا يجمع قائلاً بصوت عالٍ انه يعرف ذلك منذ زمن طويل ، وها هو ذا يأمر كدريل بفض الحزم واعداد العشاء • وكدريل شره نهم ، وجبان رعديد ، فما ان سمع كلاماً عن الجن الذين يسكنون الغرفة حتى اصفر وجهه وأخذ يرتجف كورقة فى مهب الريح ؛ وهو يتمنى لو يفر ، ولكنه يخشى مولا ، ناهيك عن أنه جائع • انه انسان يحب اللذات ، وهو غبى ، لكنه ماكر على طريقته الخاصة ، وهو نذل لئيم ، ما ينفك يخدع مولا فى كل لحظة ، لكنه يخشاه مع ذلك كما يخشى النار • انه نموذج فذ من نماذج الوصفاء ، فيه السمات الأساسية التى يتصف بها ليبوريلو ، لكنها مختلطة بمهمة غير متميزة • وقد أحسن بوتسيابكين أداء هذا الدور وتصوير هذا الطبع إحساناً كبيراً ، فهو امرؤ يملك موهبة عظيمة لا مرأى فيها ولا يمكن جحودها ، موهبة تفوق فى رأى على موهبة باكوشين نفسه • غير أننى قد أخفيت رأى هذا عن باكوشين حين التقيت به فى الغداة ، لأننى لو أفصحت له عن هذا الرأى لساء ذلك ولأحزنه حزناً شديداً قاسياً •

أما السجين الذى مثل دور السيد فان تمثيله لم يكن رديئاً جداً • ان كل ما قاله لم يكن له كبير معنى ، ولا يشبه شيئاً من الأشياء ، ولكن الالتقاء كان فصيحاً واضحاً ، وكنت الاشارات والحركات مناسبة موفقة •

وبينما كان كدريل عاكفاً على الحقيقة ، كان سيده يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ، ويعلن أنه سيكف عن الطواف في العالم منذ اليوم • ويصغى كدريل الى كلامه ، ويصعّر وجهه ، ويضحك المشاهدين بملاحظاته وخواطره التي يعلنها للجمهور على حدة دون أن يسمعها مولاه • انه لا يشفق على سيده ولا يرأف به ، ولكنه سمع كلاماً عن الشياطين ، فهو يريد أن يعرف ما هم الشياطين وكيف يكونون ، وها هو ذا يأخذ يسائل في ذلك مولاه ؛ فيذكر له مولاه أنه حين ألمّ به في يوم من الأيام خطر الموت ، استنجد بالجحيم ، فاذا بالشياطين تهب الى نجدة وتنفذ ، غير أن زمان حرّيته قد انصرم ، فاذا جاءت الشياطين في هذا المساء ، فانما تجيء لتقبض روحه ، كما تم الاتفاق بينه وبينها على ذلك في عهد مقطوع وميثاق مبرم • أخذ كدريل يرتجف خوفاً ورفقاً ، ولكن سيده لا يفقد شجاعته ولا تبارحه رباطة جأشه ، وها هو ذا يأمر كدريل باعداد طعام العشاء • فاذا سمع كدريل بالطعام ردت الى روحه وانبعثت فيه حميته ، فها هو ذا يفض الورقة التي لُفّت بها الدجاجة ، وها هو ذا يخرج زجاجة من خمر فيأخذ يشرب ويأكل خلصةً • ان الجمهور يغرق في ضحك شديد • ولكن الباب يصير ، فان الرياح قد هزّت مصراعيه ، فيرتجف كدريل ، ويسارع ، على غير شعور منه تقريباً ، فيخفي في فمه لقمة كبيرة من لحم الدجاجة يعجز عن بلعها • وينفجر الجمهور ضاحكاً من جديد • صاح يسأله مولاه الذي كان يذرع الغرفة طولاً وعرضاً : « هل أعددت الطعام ؟ » • فيجيبه كدريل قائلاً : « حالا ياسيدي • أنا • • بسيل اعداده لك » • يقول كدريل ذلك وهو يجلس الى المائدة ويمضى في التهام العشاء • ان الجمهور مفتون بمكر هذا الحاد الذي يضحك على سيد من السادة بمثل هذا الحذق وهذه البراعة • ولقد عرف كيف ينطق بقوله : حالاً يا سيدي • أنا • • بسيل اعداده

لك * * * لقد قال كدريل هذه الجملة بمهارة تبعث على أشد الإعجاب *
ويمضي كدريل يزدرد الطعام * ولكنه يرتجف عند كل لقمة يتناولها ،
مخافه أن يتنبه اليه مولاه ؛ فكلما التفت سيده اختبأ تحت المائدة ممسكاً
الدجاجة بيده * فلما هدا جوعه قليلاً كان عليه أن يفكر في مولاه *
فلما صاح به صاحبه « هلاً فرغت من اعداد الطعام يا كدريل » ، هتف
كدريل يقول في جراءة : « الطعام جاهز » ، بعد أن لاحظ أن لم يكده
يبقى من الدجاجة في الصحن شيء ، الا فخذاً واحدة * والسيد ما يزال
مظلم الوجه مهموم النفس ، فها هو ذا يجلس الى المائدة دون أن يلاحظ
شيئاً ، وها هو ذا كدريل يقف وراءه حاملاً على ذراعيه منشفة * ان كل
كلمة يقولها الخادم ، وكل حركة يجريها ، وكل تكشيرة يصطنعها ،
متجهاً الى الجمهور ، مستهزئاً بمولاه ، تثير في هؤلاء المشاهدين من
السجناء ضحكاً شديداً لا يغال * وما ان يبدأ السيد الشاب في تناول
طعامه حتى يدخل الشياطين * هاهنا يصبح كل شيء غامضاً مستعصياً على
الفهم * ان هؤلاء الشياطين لا يشبهون البشر في شيء ، ولا يمتون الى
الأرض بصلة * لقد فتح الباب الجانبي ، فظهر شبح متلفع بالياض من
أعلى الى أدنى ، رأسه مصباح عليه شمعة ، ووراءه شبح آخر فوق رأسه
سراج وفي يده منجل * ترى لماذا تلفع الشبحان بالياض ، ولماذا يحملان
منجلاً وسراجاً ؟ ما من أحد يستطيع تحليل ذلك * والحق أن الحضور
لم ينعوا بهذا كثيراً ، ذلك أمر محقق * وهبَّ السيد يواجه الأشباح
بشجاعة ، ويهتف قائلاً انه متأهب وان في وسعهم أن يأخذوه * ولكن
كدريل ، الجبان كأرب ، يختبئ تحت المائدة ، ولا ينسى رغم جزعه
ولهله أن يأخذ معه زجاجة الخمر * ويغيب الشياطين لحظة ، فيخرج
كدريل من مخبئه ، ويشرع السيد في أكل دجاجته فيدخل الى الغرفة
ثلاثة شياطين ويقبضون عليه ليقودوه الى جهنم * فيصيح : « انقذني

يا كدريل ! ، ولكن لكدريل هموماً غير هذه الهموم ، فقد أخذ الزجاجة والصحن وحتى الخبز في هذه المرة واندس تحت المائدة • ها هو ذا الان وحيداً ، فقد مضى الشياطين ، ومضى مولاه أيضاً • ويخرج كدريل من تحت المائدة ، ويأخذ ينظر في جميع الجهات ، فتشرق في وجهه ابتسامة ، ويفغم بعينه غمزة رجل ماهر محتال ، ويجلس في مكان مولاه ، ويهمس قائلًا للجمهور بصوت خافت :

— هيّا ! ••• أنا الآن وحدي سيد ••• أنا الآن بغير سيد !
ويضحك جميع الناس من رؤيته بغير سيد • ويضيف هو بصوت خافت ولهجة تحمل معنى البوح ، يضيف قائلًا وهو يطرف بعينه فرحاً مبتهجاً :

— أخذته الشياطين ! •••

اشتدت حماسة المشاهدين الى غير حد ! لقد نطق كدريل بهذه العبارة نطقاً فيه من اللؤم والخبث ، وفيه من تصعير الوجه ومعاني السخرية والانتصار ما يستحيل على المرء معه أن لا يصفق • ولكن سعادة كدريل لا تدوم طويلاً • فما ان تناول زجاجة الخمر وسكب منها كأساً حملها الى شفتيه حتى عادت الشياطين واندست وراءه وقبضت عليه • أعول كدريل كمن مسّه طائف من جنون • ولكنه لا يجرؤ أن يلتفت • انه يود لو يدافع عن نفسه ، ولكنه لا يستطيع ذلك ، فان يديه مشغولتان بالزجاجة والكأس ، وهو لا يريد أن ينفصل عنهما • وها هو ذا يظل ينظر الى الجمهور محمق العينين فاغر الفم ، وفي وجهه هلع وجبن بلبغان من شدة الاضحاك أن هذا الوجه خالق بأن يصوره حقاً رسام • وتجرحه الشياطين أخيراً ، وتسير به ، وهو يحرك ذراعيه وساقيه ، وما يزال ممسكاً بالزجاجة ، وهو يصرخ ثم يصرخ ؛ ويظل عوبله يُسمع من وراء الكواليس • وتُسدل الستارة • والناس جميعاً يضحكون

مفتونين معجيين مسحورين ... وتطفق الأوركسترا تعزف رقصة الكارامنسكيا •

بدأ العزف هادئاً رقيقاً ، ولكن اللحن لم يلبث أن اشتد ، والايقاع لم يلبث أن تسارع ؛ وأخذت ضربات على ألواح البالاايكا تدوى وتجلجل • انها أنغام رقصة الكارامنسكيا في أقوى اندفاع لها* • ألا ليت جلنكا يسمع عزف هذا اللحن في سجننا • وبدأ التمثيل الايمائي الصامت بمصاحبة الموسيقى • وكانت أنغام الكارامنسكيا هي التي تصاحب التمثيل طوال مدة التمثيل • ان المشهد يمثل كوخاً في الداخل • والكوخ يضم رجلاً وامرأته ، فاما الرجل فعاكف على لباس يرقعه ، وأما المرأة فتغزل خيوط كتان • كان سيروتكين هو الذي يمثل دور المرأة ، وكان تسفياتيف هو الذي يمثل دور الطحان •

كان ديكور المسرح فقيراً جداً ؛ فكان لا بد ، في هذه المسرحية الايمائية كما في المسرحيتين السابقتين ، أن يتولى الخيال اكمال ما يفتقر اليه الواقع • كان المشاهد يرى في آخر المسرح سجادة أو غطاءً ، بدلاً من أن يرى جداراً • وكان في الجهة اليمنى حواجز ، أما في الجهة اليسرى فلم يكن المسرح مسدوداً فكان المشاهد يرى مضاجع السجناء • ولكن المشاهدين ليسوا متشدددين في مطالبهم ، فهم يكتفون بالسير ويعملون خيالهم في اكمال النواقص وتدارك الثغرات • وذلك أمر سهل عليهم لأن السجناء أناس ألفوا أن يطلقوا العنان لخيالهم ، وتعودوا أن يحلموا كثيراً • • • فمتى قيل هذه حديقة تصوروا حديقة ، ومتى قيل هذه غرفة أو هذا كوخ تصوروا غرفة وتصوروا كوخا • • • ليس ذلك بالأمر العسير عليهم ، انهم أناس لا يحفلون كثيراً بالمظاهر • • • ولقد كان سيروتكين رائعاً في ثياب المرأة ، التي كان يرتديها ! ويفرغ الطحان من عمله في ترقيع لباسه فيتناول قبعته وسوطه ، ويدنو من المرأة ، ويشير

لها بالايماء أنه سيعرف كيف يتصرف معها اذا هي استقبلت أحداً أثناء غيابه ... فعل ذلك وهو يظهرها على السوط الذى بيده • وتصنى المرأة الى كلام زوجها فتعز رأسها مؤمنة عليه • لا شك أنها تعرف هذا السوط، ولا شك أنها قاست منه ، فذلك ما تدل عليه هيئة المرأة الفاجرة! ويخرج الزوج • فما ان يستدر على عقيقه حتى تشيعه بقبضة يدها وراء ظهره ! ويقرع الباب ، فتفتح المرأة الباب ، فيدخل الجار ... انه هو أيضاً طحان ، فلاح له لحية ويرتدى قفطاناً ... انه يحمل للمرأة هدية هي منديل أحمر ... تبسم المرأة • ولكن ما ان يهم الرجل بتقبلها حتى يُسمع قرع الباب من جديد • أين تراها تخبىء الرجل ؟ ها هي ذى تخفيه تحت المائدة ، وتعود الى مغزلها • ان القادم الجديد هو البيطار وقد ارتدى بزة صف ضابط • لقد جرت المسرحية الايمائية الصامتة حتى ذلك الحين مجرى حسناً جداً ، فالحركات سليمة لا مأخذ عليها ولا عيب فيها ، حتى ليسكن أن يعجب المرء لهؤلاء الممثلين الذين لم يتدربوا على التمثيل كيف يستطيعون أن يؤدوا أدوارهم هذا الأداء الصحيح الجميل ، ثم اذا هو يقول لنفسه على غير ارادة منه : « ما أكثر المواهب التى تضع هباء فى بلادنا روسيا ، ما أكثر المواهب التى تدفن بغير أن تستغل ، فى غياهب السجون وأعماق المنافى ! » • أغلب ظنى أن السجين الذى مثّل دور البيطار كان قد شهد تمثيلاً فى مسرح من مسارح الأقاليم أو فى مسرح هواة • فكان يقدّر أن جميع هؤلاء الممثلين من السجناء لا يفقهون من أمور التمثيل شيئاً ، ولا يسيرون كما يجب أن يسيروا • فها هو ذا يدخل المسرح كما كان يدخله الأبطال القدامى من مثلى المسرح الكلاسيكى القديم ، متقدماً بخطوة عريضة، ثم هاهو ذا يرد رأسه وجسمه الى وراء حتى قبل أن يرفع ساقه الأخرى، وها هو ذا يجيل طرفه حوله فى كبر واستعلاء ، ويتقدم خطوة أخرى فى عظمة

وأبهة وجلال • لئن كان مشى " كهذا المشى يبدو سخيلاً لدى الأبطال الكلاسيكيين ، فهو أشد سخفاً في مشهد هزلى يمثلته عسكرى • ولكن جمهور المشاهدين رأى هذه المشية طبيعية جداً فارتضاها ، ولم يجد بأساً في هذا المظهر المتكبر المظفر ، بل عده أمراً ضرورياً فلم ينتقده • وقرع الباب مرةً أخرى بعد دخول القادم بلحظة قصيرة • طاش صواب ربة المنزل • أين عساها تخبىء المعجب الجديد ؟ فلتخبئه فى الصندوق ، الذى كان لحسن الحظ مفتوحاً ! اختفى القادم الثانى فى الصندوق ، وأغلقت عليه المرأة الغطاء • ان القادم الثالث عشيق كسائر العاشقين ، ولكنه عشيق من نوع خاص • انه براهمى * يرتدى مسوح الكاهن • استقبله الجمهور دخوله بضحك شديد هائل • ولم يكن هذا الكاهن الا السجين كوشكين الذى أجاد تمثيل دوره اجادة تامة ، لأن وجهه يشبه وجه كاهن ، ولأنه يعبر عن حبه لزوجة الطحان باشارات كاشارات كاهن ، رافعاً ذراعيه الى السماء ثم ضاماً يديه على صدره ••• ومرة أخرى يطرق الباب ••• انه طرق قوى عنيف فى هذه المرة • هو رب البيت من غير شك • ذعرت امرأة الطحان ذعراً رهيباً وطاش صوابها ، وأخذ الكاهن يركض طائر اللب فى كل جهة من الجهات ، متوسلاً الى المرأة أن تخفيه • وها هى ذى المرأة تساعده على الاندساس وراء الخزانة ، وطفقت تغزل وتغزل ناسيةً أن تفتح الباب • انها ماضية فى عملها دون أن تسمع طرقات الباب التى تتكاثر وتشتد ؛ والحق أنها أصبحت لا تغزل ، وانما هى تقوم بحركات الغزل ، تعقف خيطاً وهمياً وتحرك مغزلاً لا وجود له ، لأن المغزل قد سقط من يديها فهو يرقد الآن على الأرض • لقد مثل سيروتكين هذا الذعر تمثيلاً رائعاً • ويذهب صبر الزوج ، فيقتحم الباب ويقترب من زوجته وفى يده سوطه • لقد لاحظ كل شئ ، لأنه كان يتجسس على الزوار • وها هو ذا يفهم

زوجته بالايماء أن لديها ثلاثة زوار مختبئين • ثم يأخذ يبحث عنهم •
 فيعثر أولاً على الجار ، فيطرده من الغرفة بضربات من قبضة يده •
 ويخاف العسكرى فيريد أن يهرب فيرفع برأسه غطاء الصندوق فيفصح
 نفسه ، فيهوى عليه الطحان بسوطه يجلدّه جلدًا ، ويخرج الرجل من
 الصندوق بحركات ليست كالحركات التي دخل بها المسرح ، بحركات
 ليس فيها شيء من الخلاء والغطرسة التي رأيناها منذ قليل • بقي الكاهن
 البراهمي الذي بحث عنه الزوج طويلاً دون أن يثر له على أثر ، ولكنه
 وجده أخيراً في ركنه وراء الخزانة ، فحيّاه تحية مهذبة ، وشده من
 لحيته الى وسط المسرح ، وأراد الكاهن أن يدافع عن نفسه فصرخ يقول :
 « لعنك الله ، لعنك الله ! » (وهي الكلمات الوحيدة التي قيلت طوال
 المسرحية الايمائية الصامتة) ، ولكن الزوج لا يسمع له ، ويتصفف
 لعرضه منه • وأدركت الزوجة أن قد جاء دورها فرمت مغزلهما وولت
 هاربة من الغرفة ، وفيما هي تجري اصطدمت بأصيص فانقلب فانكسر •
 وانفجر السجناء ضاحكين • تناول على " يدى دون أن ينظر الى " وقال لى :
 « هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ يا لهذا الكاهن البراهمي ! » • كان من فرط
 اغراقه فى الضحك لا يستطيع أن يستقر قائماً • وأسدلت الستارة ، وبدأ
 مشهد آخر

مُثِّل مشهدان آخران أو ثلاثة • كانت جميع المشاهد مضحكة
 جداً مريحة جداً • لم يؤلفها السجناء أنفسهم ، بل اقتبسوها اقتباساً •
 ولكنهم أضافوا اليها من عندهم • كان كل ممثل من الممثلين يرتجل
 شيئاً جديداً ، فاذا المشهد الواحد لا يُمثَّل تمثيلاً واحداً فى مساعين
 اثنين • وكان المشهد الايمائى الأخير من نوع خيالى ملء بالتهاويل ، وقد
 انتهى برقصة باليه • ان موضوع هذا المشهد هو دفن ميت • قام الكاهن
 البراهمي يتلو الصلوات على جثمان المتوفى • وسمع أخيراً لحن « الشمس

الغاربة » فإذا بالميت يبعث الى الحياة ، واذا بجمهرة الحضور تأخذ ترقص فرحةً جذلى . ويرقص الكاهن البراهمى مع الميت ، ولكنه يرفص على طريقته الخاصة ، على الطريقة البراهمية . فهذا المنظر تنتهى التمثيلية الايمائية .

تفرق السجّناء فرحين مسرورين يمدحون المثلين ويشكرون صف الضابط . لم تُسمع مشاجرة واحدة . كانوا جميعاً راضين ، بل أستطيع أن أقول انهم كانوا جميعاً سعداء . مضوا الى مضاجعهم هادئى النفس مطمئنى البال ، وناموا نوماً لا يشبه ما ألفوا من نوم . ليس ما أقوله الآن طيفاً من أطيايف الخيال ، وانما هو الحقيقة ، الحقيقة خالصة . لقد أتبح لهؤلاء البؤساء أن يعيشوا بضع لحظات كما يحبون ، أن يستمتعوا بتسليه انسانية ، أن يتحرروا ساعةً من ظروف السجين . ان المرء لتغير روحه عندئذ ولو بضع دقائق

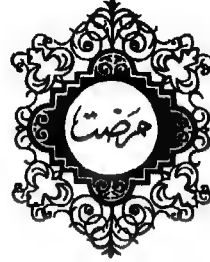
اشتدت ظلمة الليل . شعرت برعدة « واستيقظت من نومى عرضاً ومصادفة : ان المتعبد الشيخ ما يزال على المدفأة يصلى ، وقد ظل يصلى حتى مطلع الفجر . ان علياً ينام قربى نوماً هادئاً . تذكرت أنه حين نام كان لا يزال يضحك ويتحدث مع اخوته عن المسرح . نظرت الى وجهه الوداع على غير ارادة منى . وشيئاً فشيئاً تذكرت كل شيء ، تذكرت اليوم الماضى ، وتذكرت أعياد الميلاد ، وتذكرت ذلك الشهر كله رفعت رأسى مرتاعاً ونظرت الى رفاقى الذين كانوا نائمين تحت ضوء مرتجف هو ضوء شمعته وضعتها فى الثكنة ادارة السجن . نظرت الى وجوههم الشقية ، الى سرهم الفقيرة ، الى هذا العرى وهذا البؤس .. نعم نظرت الى هذا كله وأقنعت نفسى بأن ذلك ليس حلماً ثقيلاً « ليس كابوساً رهيباً ، بل هو الواقع ، الواقع نفسه . نعم انه الواقع نفسه .

وسمعت أنياً * ان أحد السجناء يشى ذراعه فى ثقل ، فتجلىل سلاسله •
وهذا سجين آخر يضطرب فى حلم ويتكلم أثناء النوم بينما الشيخ
يصلى ويدعو الله لجميع «المسيحيين الأورثوذكس» • سمعت دعاءه المتصل
المطرد ، الهادى ، العذب ، البطىء بمض البطء : « ارحمنا يا يسوع
المسيح ! » •••

قلت لنفسى : « لن أحيا هنا الى الأبد ، بل بضع سنين » ، ثم عدت
أسند رأسى الى الوسادة •

الجزء الثاني

المستشفى



بعد عيد الميلاد بقليل ، فاضطرت أن
أذهب الى مستشفىنا العسكرى الذى يقع بعيداً
على مسافة نحو نصف فرسخ من قلعنا • هو
مبنى ذو طابق واحد ، طويل جداً ، مطلى بلون

أصفر • ان ادارة المستشفى تنفق فى كل صيف مقداراً كبيراً من التراب
الأصفر لاعادة طلائه • وفى فائه الواسع ملحقات شتى هى مساكن
للأطباء ، وفيه مباني ضرورية أخرى ، أما المبنى الرئيسى فلا يضم الا
القاعات المخصصة للمرضى ، وهى قاعات كثيرة • ولكن السجناء ليس لهم
الا قاعتان اثنتان ، لذلك كانت هاتان القاعتان مزدحمتين فى جميع الأوقات
تقريباً ولا سيما فى فصل الصيف ، ولم يكن نادراً أن تضطر ادارة
المستشفى الى أن ترصّ الأسرة فيها • كانت هاتان القاعتان تفصان
« بالأشقياء » من كل نوع : ففيهما أولاً سجناء قلعنا ، وفيهما موقوفون
عسكريون صدرت فى حقهم أحكام ؛ وفيهما آخرون تجرى محاكمتهم ،
وفيهما معتقلون عابرون ، واليهما يُرسل أيضاً مرضى من المحالين الى
الفرقة التأديبية وهى فرقة مسكنة تضم الجنود الذين ساء سلوكهم
وفسدت أخلاقهم ، فهم يلحقون بهذه الفرقة لاصلاحهم ، ولكنهم

يخرجون منها بعد سنةٍ أو سنتين وهم أحط من يمكن أن يحملهم ظهر الأرض من سفلة مجرمين •

كان السجناء الذين يشعرون بأنهم مرضى يبلغون صف الضابط أمر مرضهم منذ الصباح • فيسجل هذا أسماءهم على بطاقات يعطيهم إياها ، ويرسلهم الى المستشفى في حراسة جندي خفير ، حتى اذا وصلوا الى المستشفى تولى فحصهم طبيب من الأطباء ، فأذن ببقائهم في المستشفى اذا أيقن أنهم مرضى حقاً • ولقد سجل صف الضابط اسمي على بطاقة • وفي نحو الساعة الواحدة ، حين مضى جميع رفاقي الى الشغل ، ذهبت الى المستشفى • كان كل سجين من السجناء يحمل معه الى المستشفى ما يستطيع حمله من مال وخبز (اذ يجب عليه أن لا يتوقع أن يتناول طعامه في المستشفى ذلك اليوم) ، ويحمل معه غليوناً صغيراً جداً وكيساً فيه تبغ وقداحة وقنبلة • وكان السجناء يخفون هذه الأشياء كلها في أحذيتهم • دخلت سور المستشفى وأنا أشعر ازاء هذا الجانب الجديد الذي لم أعرفه من حياة المعتقل ، بغير قليل من الاستطلاع •

كان اليوم حاراً متلبداً بالقيوم حزيناً كثيراً • هو يوم من تلك الأيام التي تكسو منازل كالمستشفى بمظهر خاص يبعث على النفور والسأم والاشمئزاز • دخلنا أنا وخفيري الى غرفة الانتظار • ان في الغرفة حمامين من نحاس • ووجدنا هنالك سجينين كانا ينتظران فحصهما مع خفيري • ودخل ممرض من الممرضين فنظر إلينا في غير اكتراث ، نظرةً تدل على شعوره بأنه قوام علينا ، ثم مضى يبلغ الطبيب المناوب عن وصولنا بمزيد من قلة الاكتراث أيضاً • فما هي الا لحظة حتى وصل الطبيب ، ففحصنا وهو يعاملنا معاملة لطيفة ، ثم أعطانا أوراقاً سُجِّلت عليها أسماءنا • ان على الطبيب العادي المهود اليه بالقاعتين المخصصتين للسجناء أن يشخص المرض ، وأن يعين الأدوية الواجب تجرعها ، وأن

يحدد النظام الغذائي الواجب اتباعه ، الخ • (سبق أن سمعت السجناء يكيلون المديح لأطبائهم ، حتى لقد قالوا لى عنهم حين تقرر دخولى المستشفى : « انهم لنا كالآباء ! ») • خلعنا ثيابنا لترتدى رداءً آخر ، وأخذوا ملابسنا الداخلية التى كنا نلبسها حين وصولنا ، وأعطونا ملابس من المستشفى أضافوا اليها جوارب طويلة ونعالاً وقبعات من قطن ومعاطف منزلية مصنوعة من جوخ بنى سميك ومبطنة لا بقماش بل بشيء يشبه أن يكون من اللصقات التى تضمد بها الجروح • والحق أن المعطف كان قدراً قذارة رهية ، ولكننى سرعان ما أدركت فائدته •

أخذنا بعد ذلك الى قاعات السجناء التى تقع فى آخر دهليز طويل عالٍ جداً نظيف جداً • ان النظافة الخارجية مرضية كل الارضاء • ان كل ما يُرى كان يلتمع التماعاً ، أو هذا على الأقل ما تراه لى بعد القذارة التى كنت أُنقلب بينها فى السجن • دخل الموقوفان القاعة التى تقع من الدهليز على الشمال ، بينما دخلت أنا القاعة التى تقع على اليمين • ان ديدباناً على كتفه بندقية كن يتجول أمام الباب المقفل بقفل ؛ وغير بعيد منه كان يقف الحارس الذى ينوب عنه ويحل محله • أمر العريف (وهو من حرس المستشفى) بادخالى قاعة المرضى ، فاذا أنا أجد نفسى فجأة فى غرفة طويلة ضيقة قد صُفّت أمام جدرانها سُرُورٌ عددها اثنان وعشرون ومنها ثلاثة أو أربعة ما تزال خالية • كانت هذه السرر الخشبية مطلية بلون أخضر ، ولا شك أن البق يسكنها ، كما يسكن سائر سرر المستشفيات ، وذلك أمر معروف فى روسيا كلها • استقررت فى ركن من الأركان قرب النوافذ •

سبق أن ذكرت أن بعض سجناء قلعنا كانوا هنالك ، وكان بعضهم يعرفنى ، أو كان قد رآنى على أقل تقدير • ولكن المرضى الذين تجرى

محاكمتهم والمرضى الذين ينتمون الى فرقة التأديب كان عددهم أكبر كثيراً .

ولم يكن بين السجناء الا قلة قليلة مصابة بأمراض خطيرة تلزمها الفراش . أما أكثرهم فكانوا ناهيين أو كانوا متوعكين قليلاً ، فهم راقدون على مضاجعهم أو متجولون في القاعة طولاً وعرضاً . ان الفراغ بين صفى الأسرة يتسع لطوافهم ذاهبين آيين . وكان جو القاعة خانقاً تملؤه الرائحة الخاصة التى تملأ جو المستشفيات عادة : انه جو موبوء بنسئ أنواع الروائح التى تخرج من أجسام البشر ، وهى جميعاً كريهة، ذلك عدا روائح الأدوية والعقاقير ، رغم أن المدفأة تظل مشتعلة طول النهار .

كان سريرى مغطى بغطاء مخطط . رفعت الغطاء ، فوجدت تحته بادة من جوخ مبطنة بشماش ، ومفارش وسخة من قطن . والى جانب السرير توجد منضدة صغيرة عليها جرة وكأس من صفيح ، وفوق الكأس منشفة صغيرة عهد بها الى . وللمنضدة رف كان المرضى الذين يشربون الشاى يضعون عليه غلايتهم ، والكوز الخشبي الذى يشربون به شراب الكفاس أو غيره . ولكن هؤلاء الأثرياء قلة قليلة . وكانت القلائين وأكياس التبغ تحباً تحت الفراش (ان جميع السجناء يدخلون حتى المصدورون منهم) . وقلما كان الطبيب أو غيره من الرؤساء يقومون بالتفتيش ، فاذا فاجأوا سجيناً من السجناء والغليون فى فمه تظاهروا بأنهم لم يروا شيئاً . وكان السجناء حذرين جداً على كل حال، فهم لا يكادون يدخلون الا وراء المدفأة . انهم لا يسمحون لأنفسهم بالتدخين وهم على أسرّتهم الا فى الليل ، اذ ما من أحد يقوم بجولة تفتيشية أثناء الليل ، الا ضابط الحرس ، وكان هذا لا يقوم بجولته التفتيشية الا فى القليل النادر .

لم يسبق لى حتى ذلك الحين أن دخلت أى مستشفى من المستشفيات مريضاً • لذلك بدا لى كل ما حولى جديداً كل البدة • لاحظت أن دخولى قد أثار فضول بعض السجناء • كانوا قد سمعوا عنى • وما هم أولاء ينظرون الىّ بغير تحرج ، بل يظهرون شيئاً من ذلك الشعور بالتفوق الذى يحسه تلاميذ مدرسة من المدارس حين يفد اليهم تلميذ جديد ، أو يحسه موظفو دائرة من دوائر الحكومة حين يدخل عليهم مراجع من المراجعين • كان يرقد على يمينى سجين كان فى الماضى سكرتيراً ، وهو ابن غير شرعى لضابط متقاعد ، وقد اعتقل بتهمة القيام بصنع نقود مزيفة : انه يقيم فى المستشفى منذ أكثر من عام • ولم يكن مريضاً البتة ، ولكنه يؤكد للأطباء أنه مصاب بتورم فى شرايين القلب • وقد بلغ من اقناعهم بذلك أنه لم يرسل الى العمل يوماً ، ولا أنزلت فيه العقوبة الجسدية التى حُكم عليه بها • وقد أرسل بعد ذلك بسنة الى مدينة تـ • • • • • حيث ألحق بمستشفى من المستشفيات • انه فى قوى البنية فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، مقتول العضل ، شديد المكر والدهاء • عالم بالقوانين فكأنه محام من المحامين • وهو ذكى حلو العشرة • لكنه على جانب عظيم من الاعتداد بالنفس ، شديد الأثرة تكاد تكون أنانيته مرضاً • كان مقتنعاً بأنه ليس فى العالم كله انسان أشرف منه ولا أعدل ، فلم يعترف بذنبه ولم يقر بجريمته قط • وقد حافظ على هذه الثقة بنفسه طول حياته • ان هذا الشخص قد خاطبني أول المخاطبين ، وأخذ يسألنى فى شئونى مستطعلاً مستخبراً ، وراح يذكر لى ما يسود المستشفى من عادات وأخلاق • وطبعى أنه قد ذكر لى قبل كل شيء أن أباه ضابط برتبة نقيب • كان يحرص حرصاً شديداً على أن أعده من طبقة الأشراف ، أو من طبقة النبلاء فى أقل تقدير • وبعد ذلك بقليل جاءنى مريض من الفرقة التأديبية فأكد لى أنه يعرف كثيراً من النبلاء الذين كانوا فى المنفى

حتى لقد سماهم لى بأسمائهم وأسماء آباءهم ليزيدنى اقتناعاً بصدق ما يقول • انه ليكفيك أن ترى وجه هذا الجندى الأشيب حتى تدرك أنه يكذب كذباً كريهاً مقيتاً • ان اسمه تشيكونوف • وقد جاء يلاطفنى لأنه كان يقدر أن معى مالا • فلما لاحظ أن عندى صرة فيها شئى وسكر أسرع يعرض علىّ خدماته قائلاً انه سيأتينى بغلاية وسيغلى لى الماء • كان م • • • كى قد وعدنى بأن يرسل الىّ غلايتى فى الغداة مع أحد السجناء الذين يعملون فى المستشفى ، ولكن تشيكونوف تدبر الأمر فهياً لى كل شئ ، وجاءنى بحلة من صفح أعلى فيها الماء للشئى ؛ وبلغ من فرط حماسه فى خدمتى أن ذلك سرعان ما أحنق عليه أحد المرضى فأخذ هذا يستهزئ به ويتهكم عليه ، وهو مصدور كان سريره يقع أمام سريرى • ان اسمه أوستياتسف ، وهو بعينه ذلك الجندى المحكوم عليه بالجلد ، الذى بلغت شدة جزعه من السوط أنه أفرغ فى جوفه زجاجة من الخمر أعلى فيها مقداراً من التبغ ، فأصابه من ذلك مرض السل : لقد سبق أن تحدثت عن هذا السجين • كان الى ذلك الحين صامناً لا يتكلم ، راقداً على سريره يتنفس بكثير من العناء ، ناظراً الىّ يتفرسنى بجد واهتمام، متابعاً ببصره تشيكونوف الذى أحقته مذله لى • ان ما يظهر فى وجهه من معانى الوقر الشديد يجعل استياءه مضحكاً • وها هو ذا ينفد صبره أخيراً فيقول :

– انظروا الى هذا الخادم الذى عثر على سيده !

قال ذلك مباعداً بين الكلمات ، ناطقاً اياها بصوت مخنوق من الضعف والوهن ، لأن ذلك حدث قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بزم قصير •

التفت اليه تشيكونوف وسأله مستاءً متعظاً وهو يلقي عليه نظرة احتقار :

– من هو الخادم ؟

فأجاب أوستياتسيف :

– أنت الخادم ! اسمعوا أيها الناس ! انه لا يريد أن يصدقني !
انظروا الى الفتى الشجاع كيف يعجب ويدهش !

– ما شأنك أنت ؟ ألا ترى « أنهم لا يعرفون » استعمال « أيديهم » ؟
« انهم لم يتعودوا أن يعيشوا بغير خادم » ! فلماذا لا أخدمه ؟ يا لك من
أحمق أزغب البوز ؟

– أزغب البوز ؟ من ؟

– أنت !

– أنا أزغب البوز ؟

– نعم أنت أزغب البوز

– أما أنت فجميل حقاً طيب لئن كنت أنا أزغب البوز »
ان لك وجهاً كأنه بيضة غراب !

– يا لأزغب البوز ! لقد أنصفك الله ، فخير لك أن تبقى هادئاً الى أن
تفطس ! لماذا تتدخل فيما لا يعنك ؟

– لماذا ؟ اننى أوتر أن أسجد لحذاء جيد على أن أسجد لنعل
حقير . ما سجن أبى يوماً ، ولا أمرنى أن أسجد ! أنا أنا ..

أراد المصدر أن يكمل كلامه ، ولكن نوبة شديدة من السعال
هزته هزاً عنيفاً ، وأخذ يبصق دماً ، وتقاطر على جبينه المكدود عرق بارد
من فرط الاعياء . لولا أن السعال منعه من الكلام ، اذن لظل يسب ويدم .
كان ذلك واضحاً فى نظريته . ولكنه عجز عن الاستمرار فى الكلام ، فلم
يزد على أن أخذ يلوّح بيده ، فلم يلتفت اليه تشيكونوف بعد ذلك .

أحسست أن حق هذا المصدر كان ينصب على أكثر مما ينصب على تشيكونوف • فما كان لأحد أن يغضب من تشيكونوف ولا أن يحتقره بسبب الخدمات التي يقدمها لي والدريهمات التي يحاول أن يقتصها مني • كان كل مريض يدرك حق الإدراك أن تشيكونوف لا يفعل ذلك كله الا في سبيل الحصول على شيء من مال • ان أبناء الشعب لا يتأذون من هذا الأمر ، فهم يعرفونه على حقيقته • كل ما هنالك أن أوستاتسيف قد استاء مني ، واستاء من الشاي الذي استمتع به ؛ والشاي الذي أحققه خاصة هو أنني انتمى الى طبقة السادة ، رغم السلاسل التي تقيد باقي ، وأنتى لا أستطيع الاستغناء عن خادم يخدمنى • على أنني لم أرغب فى أن يكون لى خادم ، ولم أسع الى أن يكون لى خادم ؛ بل كنت أحرص على أن أفعل كل شيء بنفسى ، حتى لا أظهر لأحدٍ بمظهر رجل مدلل أبيض اليدين ، وحتى لا أمثل دور السيد العظيم • والحق أن قد كان فى حرصى هذا شيء من أثره • ذلك أنني كنت كلما أحاط بى المملقون والمراون ، وتعلقوا بى من تلقاء أنفسهم ليخدمونى ، أصبح فى آخر الأمر منقادا لهم أسيراً بين أيديهم فإذا أنا الخادم واذا هم المخدمون (لا أدري كيف كان يتم ذلك) • مهما يكن من أمر فقد كنت فى نظر الناس ، شئت أم أبيت، سيداً لا يستطيع أن يستغنى عن خدمات الآخرين ، ويحرص على مظاهر الأبهة والعظمة • فكان هذا يفيظنى ويخفقنى • كان أوستياتسيف رجلاً مصدوراً، فكان بسبب ذلك حاد الطبع شديد التأذى • أما المرضى الآخر فانهم لم يظهروا لى الا قلة الاكثرا ، مع شيء من الازدراء • ولقد كان يشغل بالهم أمر يعود الآن الى ذاكرتى : لقد عرفت وأنا أصغى الى أحاديثهم أن سجيناً سيؤتى به الى المستشفى فى ذلك المساء نفسه بعد أن يكون قد تم جلده • انه يُجلد الآن ، والسجناء ينتظرون

وصوله الى المستشفى بكثير من الفضول • وقد ذكروا على كل حال أن عقوبته سيرة : خمسمائة جلدة لا أكثر •••

نظرت حولى • كان أكثر السجناء ، المرضى حقاً ، مصابين بداء الاسقربوط وبعلل فى الأعين ، وهى أمراض مستوطنة فى تلك البلاد • وكان ثمة سجناء آخرون ، مرضى حقاً ، يعانون الحمى ويشكون من السل ويتوجعون من آلام أخرى • ولم تكن الامراض المختلفة معزولة بعضها عن بعض فى قاعات السجناء ، بل كانت مجتمعة كلها فى قاعة واحدة ، حتى الأمراض الزهرية • ولئن قلت « المرضى حقاً » ، فلأن بعض السجناء قد جاءوا الى المستشفى دون أن يكون بهم مرض ، جاءوا الى المستشفى « هكذا » من أجل أن « يرتاحوا » • وكان الأطباء يقبلونهم فى المستشفى من باب الرأفة وحدها ، لاسيما حين يكون ثمة سرر خالية • ان الحياة فى السجن تبلغ من القسوة اذا قيست بالحياة فى المستشفى أن كثيراً من السجناء يؤثرون أن يظلوا راقدين رغم الهواء الخائق الذى يتنفسونه ورغم أنهم ينعون من الخروج منعاً باتاً • حتى لقد كان هنالك هواة لهذا النوع من المعيشة : وهؤلاء ينتمون جميعهم تقريباً الى فرقة التأديب •

أنعمت النظر الى رفاقى الجدد مستطلعاً • فخطف أحدهم بصرى على نحو خاص • انه مصاب بالسل ، وانه فى حالة نزع • كان سريره أبعد قليلاً من سرير أوستاتسيف ، فى مواجهة سريري تقريبا • ان اسمه ميخائيلوف • كنت قد رأيته فى السجن قبل ذلك بأسبوعين • وكان مرضه خطيراً منذ ذلك الحين • كان ينبغي له أن يعالج نفسه منذ زمن طويل ، ولكنه تحدى المرض وكابر وعاند ، ولم يذهب الى المستشفى الا قليل عيد الميلاد ، ليموت بعد ثلاثة أسابيع بسل سريع اختطفه اختطافاً • لكن هذا الانسان قد احترق احترق شمة • وما أدهشنى فيه خاصة

انما هو وجهه الذى تبدل تبديلاً تاماً - لأننى كنت قد رأيته منذ دخولى السجن - فخطف بصرى حين رأيته الآن • والى جانبه كان يرفد جندى من فرقة التاديب ، وهو شيخ كالح الوجه مقرز الظهر • ولكننى لا اريد أن أعدّد جميع المرضى ... ولئن تذكرت الان هذا الشيخ فما ذلك الا لأنه أحدث فى نفسى عندئذ أثراً خاصاً ، ولأنه أطلعنى دفعةً واحدة على بعض الخصائص التى تتميز بها قاعة السجناء • كان هذا الشيخ مصاباً بزكام رهيب مزمن فهو يعطس فى كل لحظة (ظل يعطس اسبوعاً بكامله) ، حتى أثناء نومه ، خمس مرات متتالية أو ست مرات متتالية ، حتى لكان عطسه طلقات بندقية ؟ وكان كلما عطس يكرر قوله : « يارب ! ما هذا القصاص ! » • وكان يحشو أنفه بذرور التبغ ، جالساً على سريره ؛ يفعل ذلك بشراهة ونهم ، من أجل أن يزداد عطسه قوة واطراداً • وكان يعطس فى منديل قطنى ذى مربعات ، منديل هو ملك له ، قد حالت ألوانه من طول ما غُسل • وكان حين يعطس يتجمد أنفه الصغير تجمداً خاصاً ، متخذداً بعدد لا نهاية له من غضون صغيرة ، وكان يكشف عن أسنان مثلمة نخرة سوداء كل السواد ، وعن لثتين حمراوين يبللهما اللعاب • حتى اذا انتهى من العطس فض منديله ونظر الى مقدار المخاط الذى خرج من أنفه ، ثم سارع يمسح المنديل بمعطف المنزل الذى يرتديه ، فاذا بالمخاط كله يتعلق بالمعطف ، بينما المنديل لم يكذ يبتل • ان هذه المداراة لمتاع شخصى ، على حساب المعطف الذى هو ملك المستشفى ، لا يوقظ لدى السجناء أى احتجاج ، رغم أن بعضهم قد يضطر الى ارتداء هذا المعطف نفسه فيما بعد • ان المرء لا يكاد يستطيع أن يصدق أن العامة عندنا يمكن أن يبلغوا هذا المبلغ من قلة التقزز فى هذه الأمور • وقد أزعجنى هذا كثيراً ، فأخذت أفحص ، على غير ارادة منى ، بكثير من الاستطلاع والاشمئزاز ، المعطف الذى كنت قد ارتديته •

كانت تفوح منه رائحة قوية كريهة • فانه ، وقد دفاه جسمى ، أخذت
تنتشر منه روائح الأضمة والعقاقير • لكنه لم يبارح أكثاف المرضى منذ
عهد سحيق لا أول له • لعل بطاقته قد غسلت فى يوم من الأيام ، ولكننى
لا أستطيع أن أؤكد ذلك جازماً : ومهما يكن من أمر فانه كان حين
لبسته مبللاً بجميع أنواع السوائل والمراهم واللصقات التى يمكن أن
يتصورها الخيال • كان السجناء المحكوم عليهم بالجلد يجيئون الى
المستشفى بعد انزال العقوبة فيهم ، وقد دميت ظهورهم؛ واذا كانوا يعالجون
بالمراهم فان المعطف الذى كانوا يلبسونه على القميص المبتل يمتص كل
شئ ويحتفظ بكل شئ • اننى طوال مدة اقامتى بالسجن كنت كلما
ذهبت الى المستشفى (وهذا ما كان يحدث كثيراً) أرتدى المعطف الذى
أعطاه شاعراً بكثير من الاشمزاز والتخوف والريبة • وكان لهذه
الريبة منشأ آخر هو القمل الذى كان يتكاثر تكاثراً عظيماً • • • كان
السجناء يتلذذون بتعذيب هذا القمل اذ يفسونه باظفرى الابهامين من
أصابعهم ، فاذا نظرت الى وجوههم أثناء ذلك رأيت أنهم يشعرون بارتياح
واضح • واذا كان السجناء لا يحبون البق أيضاً ، فقد كان يحلو لهم أن
يطاردوه وأن يسحقوه أثناء سهرات الشتاء الكالحة الطويلة التى لا نهاية
لطولها • ان كل شئ فى قاعتنا كان يمكن - باستثناء الرائحة الكريهة -
أن يبدو من الظاهر نظيفاً نظافة كافية • أما من الباطن فما كان ينبغى للمرء
أن ينعم النظر • • • وكان المرضى يعدون ذلك أمراً طبيعياً لا غرابة فيه •
ولم يكن النظام نفسه يحض على النظافة أو يلزم بها كثيراً على كل حال
• • • ولكننى سأعود الى الكلام عن هذا •

ما ان هياً لى تشيكونوف الشاى (يجب أن أذكر مستطرداً أن ماء
قاعتنا كان يؤتى به للنهار كله ، فسرعان ما كان يفسد بتأثير الهواء
الفاقد) حتى فتح الباب ، فاذا بالجندى الذى أنزلت فيه عقوبة الجلد

يدخل علينا بحراسة خفيرين اثنين • تلك أول مرة أرى فيها انساناً أنزلت فيه عقوبة الجلد منذ قليل • • ولكننى رأيت هذا المنظر مراراً بعد ذلك • كان يؤتى إلينا بالمجلودين حتى حين تكون عقوبتهم شديدة مسرفة فى الشدة • وكان هذا المنظر يسلى المرضى كثيراً فى كل مرة • كان هؤلاء الأشقياء يُستقبلون استقبالاً فيه من الوقار والجد والرصانة ما يختلف باختلاف أوضاعهم • وكان هذا الاستقبال يتوقف دائماً على خطورة الجريمة التى ارتكبها المجلود ومن ثمّ على عدد الجلادات التى تلقاها • فأما السجناء الذين جلدوا أشد جلد واشتهروا بأنهم مجرمون عتاة فقد كانوا ينعمون باحترام واتباه لا ينعم بمثلهما شخص لم يرتكب من الذنوب الا الفرار من الجندية ، كصاحبنا هذا الذى أننى به الآن • ومهما يكن من أمر ، سواء فى هذه الحالة أو تلك ، لا يظهر السجناء كثيراً من العطف على المجلود أو من المشاركة فى ألمه ، لا ولا يقولون ملاحظات مثيرة أيضاً : انهم يعالجون المسكين فى صمت ، ويساعدونه على الشفاء ، ولا سيما اذا كان عاجزاً عن معالجة نفسه بنفسه • وكان المرضى أنفسهم يعلمون أنهم يهدون هؤلاء المجلودين الى أيدٍ حاذقة متدربة • والمعالجة المعتادة هى الاكثار من وضع قميص أو قماش مبلل بالماء البارد على ظهر المجلود • وينبغى كذلك أن تُستخرج من الجروح ، بحذق ومهارة ، ألياف العصى التى تكسرت على ظهره • وتلك عملية تؤلم الرجل ايلاماً شديداً • ما أشد ماذهلتنى قوة الصبر التى كان يظهرها المجلودون فى احتمال الآلام • لقد رأيت عدداً كبيراً من هؤلاء المجلودين ، وكان بينهم أناس جلدوا جلدأ قاسياً رهيباً ، أؤكد لكم ذلك • • فما أذكر أننى سمعت واحداً منهم يشن مرة • كل ما هنالك أن الرجل بعد مثل هذه العملية يتشوه وجهه ويصفر لونه وتلتئم عيناه وتزيف نظيرته وتخلج شفتاه اختلاجاً يبلغ من القوة أنه يعضمهما فى بعض الأحيان عضاً شديداً

حتى تنزفا دما • كان الجندى الذى دخل علينا بعد جلده فى الثالثة والعشرين من العمر : انه قوى العضلات ، وسيم الطلعة ، حسن القامة • فارع الطول ، ملوَّح اللون بسمرة : كان ظهره العارى حتى الحصر قد ضرب ضرباً مبرحاً • وهذا جسمه يرتجف من الحمى تحت القماش المبتل الذى غطى به ظهره • لقد ظل ما يقرب من ساعة ونصف ساعة لا يزيد على أن يسير فى القاعة طولاً وعرضاً • نظرت الى وجهه ، كان يبدو أنه لا يفكر فى شيء • ان فى عينيه تعبيراً غريباً متوحشاً متهرباً • لا تستقر نظراته على شيء الا فى كثير من العناء • خيَّل الى أنه يحدث الى الشاى الغالى الذى أعد له لى تشيكونوف • ان بخاراً ساخناً يتصاعد من الفنجان المألن : كان المسكين يرتعش وتصطك أسنانه ، فدعوته أن يشرب ، فالتفت نحوى كتلة واحدة دون أن يقول شيئاً ، فتناول فنجان الشاى وأخذ يشربه وافقاً ، دون أن يضع فيه شيئاً من سكر • كان يحاول أن لا ينظر الى • حتى اذا فرغ من احتساء الشاى ردد الفنجان الى مكانه صامتاً ، حتى دون أن يومئ لى بحركة من رأسه ، واستأنف طوافه فى القاعة طولاً وعرضاً : كان ألمه أشد من أن يخطر بباله أن يكلمنى أو يشكرنى ! أما السجناء فقد امتنعوا عن القاء أى سؤال عليه ، فانهم بعد أن وضعوا له كماداته لم يزيدوا على أن يتبهنوا اليه • لعلهم كانوا يقدرون أن الأفضل أن يدعوه وشأنه ، وأن لا يضايقوه بأسئلتهم و « شفقتهم » • ولاح لى أن الجندى كان مرتاحاً الى قرارهم هذا راضياً عنه •

وكان الليل يهبط أثناء ذلك ، فأشعل المصباح • ان بعض المرضى يملكون شموعاً خاصة بهم ، غير أن هؤلاء قلة • وجاء الطبيب يقوم بزيارة المساء ، ثم جاء صف الضابط فعدَّ المرضى وأغلق القاعة التى حُملت اليها قبل ذلك آنية للتبول والتنوط أثناء الليل ••• وعرفت مدهوشاً أن هذه

الآية ستظل في القاعة طول الليل، مع أن المرحاض يقع على مسافة خطوتين من الباب. ولكن تلك هي العادة التي جرى عليها المستشفى. ففي النهار لا يسمح للسجناء بالخروج الا دقيقة واحدة في أكثر تقدير. أما في الليل فما ينبغي لأحد أن يفكر في الخروج البتة. ان المستشفى بالنسبة الى السجناء لا يشبه مستشفى عادياً: فالسجين المريض ينال فيه عقاب السجن رغم كل شيء. لا أدري من الذي وضع هذه السنة. ولكن الشيء الذي أعلمه حق العلم هو أن هذا الاجراء لا فائدة منه البتة، وان سحق التقيّد بالشكليات لا يبدو واضحاً في أى مجال وضوحه في هذا المجال. ليس الأطباء هم الذين سنوا هذه القاعدة أو فرضوا هذه العادة. أعود فأقول ان السجناء كانوا لا يملون من كيل المديح لأطبائهم. انهم ينظرون الى أطبائهم نظرتهم الى آباء، وهم يحترمونهم أعظم الاحترام. كان هؤلاء الأطباء يعرفون دائماً كيف يقولون لهؤلاء المتبوزون كلمة طيبة تواسي قلوبهم، وكان السجناء يقدرّون هذه الكلمة الطيبة تقديرأ عظيماً لا سيما وأنهم يشعرون بكل ما فيها من صدق.

نعم، لقد كانت هذه الكلمات الطيبة صادقة حقاً؛ اذ ما من أحد كان يمكن أن يؤاخذ هؤلاء الأطباء اذا هم كانوا غلاظاً جفاة، واذا هم تخلّوا في معاملتهم للسجناء عن الروح الانسانية: لقد كانوا يحسنون معاملة السجناء بدافع الروح الانسانية وحدها. كانوا يدركون ادراكاً تاماً أن حق السجين المريض في تنفس الهواء النقي لا يقل عن حق أى مريض آخر في ذلك، ولو كان هذا المريض الآخر شخصية عظيمة. كان الناقهون في القاعات الأخرى يجوز لهم أن يتجولوا أحراراً في الممرات، وأن يثروا وأن يتنفسوا هواءً أقل فساداً من هواء قاعاتها التي تملؤها المصفونة نتيجةً لاغلاقها، والتي تملؤها رائحة النفايات تخرج من الأجساد.

لا يمكن أن يتصور المرء ما هو أسوأ من الرائحة المقززة التي تشيع في قاعتنا متى وضعت فيها الآنية المخصصة للتبول في الليل • وكلما تقدم الليل شعر المرء مزيداً من الشعور بعناء استنشاق الهواء ، نتيجةً لاشتداد الحرارة وكثرة الحاجة الى التبول والتغوط لدى المصابين بأمراض معينة • لئن قلت ان السجين يظل يعاقب حتى أثناء مرضه ، فأننى لا أقول ذلك لأوهم بأن القانون لا يهدف الى غير العقوبة • والا كنت متجنباً ••• فما ينبغي ان يعاقب مريض • ولا بد اذن أن هناك ضرورة صارمة تفرض على الادارة اتخاذ اجراءات قاسية هذه القسوة • ولكن ما هى تلك الضرورة على وجه الدقة ؟ ان الشيء المزعج هو أن المرء لا يستطيع أن يتصور تعليلاً واضحاً • فيم هذه التدابير - وغيرها من التدابير أيضاً - التي تتصف بحماقة كاملة وسخف تام ؟ هل يتصورون أن المعتقلين يمارضون لا لشيء الا لتضليل الأطباء والتسلل ليلاً من المستشفى ومحاولة الهرب ؟ ان هذا الافتراض لا يصمد للاعتراض • فمن أين يستطيع المرضى أن يهربوا وبأى ثياب يهربون ؟ انه لا يسمح للمرضى أن يخرجوا في النهار الى المرحاض الا واحداً واحداً ، فلماذا لا يفعل هذا في الليل ؟ ان أمام الباب ، قرب المراحيض ، خفيراً مسلحاً من حقه أن يتبع المريض وأن لا يدع له أن يغيب عن بصره • أضف الى ذلك أن نافذة المراحيض لها طبقتان من القضبان الحديدية المربعة ، فمن أراد من السجناء أن يهرب منها فلا بد له أن يحطّم هاتين الطبقتين من القضبان • فأنى سجين يستطيع ذلك ؟ هب سجيناً من السجناء استطاع أن يقتل الخفيرون أن يتنبه اليه أحد : فأننى له بعد ذلك أن يحطم تينك الطبقتين من القضبان الحديدية ! وللتذكر عدا ذلك أن الحرس ينامون على مسافة قريبة جداً من قاعة السجناء ، وأن أمام القاعة الأخرى خفيراً مسلحاً آخر ، مع رديفه ، أفليس هذا العدد كله من المراقبين كافياً

اذن ؟ والى أين عسى يذهب فى جو الشتاء البارد بجوربين وخفين ومبذل وطاقية من قطن ؟ فاذا كان احتمال الهرب ضعيفاً الى هذه الدرجة كما ترون فلماذا هذه القسوة كلها فى معاملة المرضى مع انهم أحوج الى الهواء النقى من الأصحاء ؟ لماذا ؟ اننى لم أستطع أن أفهم هذا الأمر يوماً •

ولكن ما دمت بصدد القاء هذا السؤال : لماذا ؟ فاننى لا أستطيع أن أمتنع عن الاشارة الى مسألة أخرى لم أجدها حلاً فى يوم من الأيام ، ألا وهى مسألة السلاسل التى لا يعفى منها أى سجين من السجناء مهما يكن مرضه خطيراً • ان المصدورين أنفسهم قد ماتوا أمام بصرى وسيقانهم مكبله بالأغلال • لقد ألف جميع الناس هذا الأمر فهم يعدونه أمراً طبيعياً لا جدال فيه • وأحسب أنه ما من أحد ، حتى ولا الأطباء ، قد خطر بباله أن يطالب باعفاء السجناء المصابين بأمراض خطيرة أو السجناء المصدورين على الأقل من عناء حمل السلاسل فى أقدامهم • الحق أن السلاسل لم تكن مفرطة فى الثقل ، فان وزنها يتراوح على وجه العموم بين ثمانية أرتال واثنى عشر رطلاً • وذلك ثقل يمكن أن يحتمله انسان صحيح الجسم • ومنع هذا قيل لى ان سيقان السجناء تضمر وتهلك بعد حمل الأغلال عدداً من السنين ، ولست أدري أهذه حقيقة أم لا ، ولكننى أميل الى الاعتقاد بأنها حقيقة ، فان حملاً من الأحمال ، مهما يكن صغيراً ، ولو كان لا يتعدى عشر أرتال ، لا بد له ، اذا هو نُبِتَ فى الساق الى الأبد ، من أن يزيد ثقل العضو زيادة غير طبيعية ، ولا بد بعد زمن من أن يكون له تأثير ضار فى نمو هذا العضو ••• ولنسلم مع ذلك بأن هذا ليس شيئاً ذا بال بالنسبة الى سجين صحيح معافى ، فهل هو كذلك بالنسبة الى مريض ؟ ان أيسر قشة هى بالنسبة الى المصابين بأمراض خطيرة ، كالمصدورين الذين تصوَّح أيديهم وأرجلهم من تلقاء نفسها ، لهى حمل لا يطاق • لذلك أعتقد أن الادارة

الطية تحسن احسانا كبيرا اذا هي طلبت بحل القيود عن أرجل المصدورين • فان قيل ان السجناء اناس مجرمون لا يستحقون الشفقة ■ قلت فهل يجب أن نضاعف العذاب لمن سبقت يد الله الى تعذيبه بالمرض ؟ ان المرء لا يستطيع أن يصدق أن الغاية من مضاعفة العذاب هي معاقبة السجين • ان المصدورين تعفيهم المحكمة من العقوبات الجسدية • لذلك فانا لا أفهم تلك الحكمة الخافية العجيبة الهامة التي تملي ابقاء الاغلال في أرجل المصدورين • أن المرء لا يصدق ولا يمكن أن يصدق أن المصدور قد يهرب من المستشفى • من ذا الذي يمكن أن تخطر بباله هذه الفكرة ، ولا سيما اذا كان الممرض قد بلغ درجة معينة ؟ ومن المستحيل تضليل الأطباء وايهامهم بأن سجيناً من السجناء الاصحاء رجل مصاب بالسل ، فالسل مريض يعرف من أول نظرة • ثم – ولنقل هذا ما دامت فرصة الهرب قد تعرض – هل تستطيع القيود أن تمنع السجين من الهرب ؟ أبداً ••• ان الأغلال اذلال واهانة وعار يجلل به السجين ، هي عبء جسمي وروحي – أو ذلك ما يقدره الناس على الأقل – ولكنها لا يمكن أن تعوق أحداً عن الهروب • ان أقل السجناء حذقاً وأقلهم ذكاءً يستطيع أن ينشرها بمنشار أو أن يحطم حلقاتها بصخرة في غير عناء • فالقيود اذن احتراس لا فائدة له ولا جدوى منه ، فاذا كان السجناء ياكلون بها من باب المعاقبة لهم على جرائمهم أفليس من الواجب أن يعفى من هذا العقاب انسان يحتضر ؟

ان صورة رجل محتضر تبرز الآن في ذاكرتي وأنا أكتب هذه السطور • انه رجل مصدور ، هو ميخائيلوف نفسه الذي كان يرقد أمام سريري تقريباً ، غير بعيد من أوستياتسيف ، والذي مات بعد وصولي الى المستشفى بأربعة أيام فيما أظن • اننى حين تكلمت منذ قليل عن المصدورين لم أزد على أن صورت الاحساسات وعبرت عن الخواطر التي

غزت نفسى عند موته • هو فى الخامسة والعشرين من العمر على أكثر تقدير ، قصير القامة نحيل الجسم جميل الوجه جدا • لقد كان يتسمى الى « القسم الخاص » ، ويتميز بانه صموت لا يكاد ينطق بكلمة ، ولكنه كان عذب الطبع دمث الخلق حزين النفس : لكأنه قد « ذوى » فى السجن على حد تعبير السجناء الذين حملوا له أجمل ذكرى • أذكر أنه كانت له عينان جميلتان جداً ، ولا أدري لماذا أتذكر هذا الأمر تذكرأ واضحاً هذا الوضوح كله • لقد مات فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، فى يوم مفعى جاف • كانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة المواربة من خلال زجاج النوافذ الضارب لونه الى خضرة ، والمتجلد من شدة البرد : ان سيلاً من الضياء كان يغمر هذا البائس الذى غاب عنه شعوره وظل يحتضر عدة ساعات • لقد اضطربت عيناه منذ الصباح فأصبح لا يتعرف على من يقتربون منه • تمنى السجناء لو يخفون عنه ، لأنهم لاحظوا أنه كان يتألم كثيراً • كان تنفسه شاقاً عميقاً مبوحاً ، وكان صدره يعلو بقوة وعنف كأنما يعوزره الهواء • نضا عنه فى أول الأمر غطاء وثيابه ورماها بعيدا عنه ثم أخذ يمزق قميصه كأنه حمل ثقل لا يطاق • نزع عنه القميص • ما كان أشد الارتياح الذى يشعر به المرء حين يرى هذا الجسم الطويل طويلاً خارقاً ، وهاتين اليدين والساقين التى تشبه أن تكون عظاماً لا يكسوها لحم ، وذلك البطن الضامر وذلك الصدر النائم الذى تظهر أضلاعه ظهوراً واضحاً كأضلاع هيكل عظمى • لم يبق على هذا الهيكل العظمى الا صليب وكيس صغير ، والا السلاسل التى كان يمكن أن تملص منها ساقاه الداويتان بغير صعوبة • هدأت الضجة فى قاعتنا قبل موته برع ساعة • أصبح السجناء لا يتكلمون الا همساً ، ولايسرون الا على رعوس الأصابع فى كثير من المحاذرة • انهم يتبادلون الكلام بين الفينة والفينة فى مواضيع أخرى، ويختلسون النظر الى المحتضر من حين

الى حين • كان المحتضر يحشرج حشرجة ما تنفك تزداد صعوبة ومشقة •
وها هو ذا أخيراً يلمس صليبه على صدره بيد مرتعشة متعثرة ، ويحاول
انتزاعه : كان الصليب يثقل هو نفسه على صدره ويخفه خفقا • نزعوا
عن صدره الصليب • ومات الرجل بعد ذلك بعشر دقائق • وعندئذ قرع
بعض السجناء الباب من أجل أن يلبثوا الخفير موته • فدخل أحد
الحرس وألقى على المتوفى نظرة مرتاعة ثم مضى يستدعى الممرض • ان
الممرض فتى طيب القلب ، لعله مسرف في الاهتمام بمظهره ، ولكنه دمت
الطبع على كل حال • وصل الممرض بعد قليل • اقترب من الجثمان
بخطى كبيرة ، فأحدثت خطاه ضجة في القاعة الخرساء • وأخذ يجس
نبض المتوفى وهو يصطنع نوعاً من قلة الاكتران يوجب الموقوف في
نظره • ثم حرك يده بإشارة غامضة مبهمه وخرج • أبلغ مركز الحرس
وفاة السجين • ذلك أن ميخائيلوف سجين ذو خطر (انه ينتمى الى القسم
الخاص) ، لذلك كان لا بد لاثبات وفاته من التقيد بقواعد خاصة والترام
اجراءات معينة • وفيما كنا نتظر دخول العريف قال أحد السجناء بصوت
خافت ان من المستحسن انغماض عيني المتوفى • وسمع سجين آخر هذه
النصيحة فاقرب من ميخائيلوف صامتاً وأغمض له عينيه ؛ فلما لمح على
الوسادة الصليب الذي كان قد نزع عن عنق ميخائيلوف تناوله فنظر اليه
ثم أعاده الى مكانه من عنقه • وكان وجه الميت يتخشب أثناء ذلك • ان
شعاعاً من ضياء ساطع يتراقص الآن على هذا الوجه ويغير منه صفين من
أسنان بيضاء فتية تتألاً بين الشفتين النحيلتين اللتصقتين باللتين من الفم
المشقوق • ووصل صف الضابط أخيراً شاكي السلاح واضعاً خوذته على
رأسه مصطحباً جنديين • اقترب من ميخائيلوف متألف الخطى مضطرب
المشية ، وتفرس بطرف عينيه في هؤلاء السجناء الصامتين الذين كانوا
ينظرون اليه وقد أظلمت وجوههم ؛ حتى اذا صار على بعد خطوة من

الميت وقف فجأة كأن أماً مفاجئاً قد سمّره في مكانه تسميراً • ان هذا الجسد العارى اليا بس المتقل بالسلاسل قد أثر في نفسه : فما هو ذا يحمل نطقه ويرفع خوذته (وذلك أمر لم يكن في حاجة الى فعله البتة) ويرسم اشارة الصليب • انه رجل قاسى الوجه أشيب الشعر له رأس جندى خدم فى الجيش زمناً طويلاً • أتذكر الآن أن قد كان الى جانبه تشيكونوف الذى كان هو أيضاً شيخاً أشيب الشعر • كان تشيكونوف ينظر الى العريف طول الوقت ويتابع ببصره حركاته متنبهاً اليها انتباهاً شديداً عجيباً • التقت نظرنا الرجلين ، ورأيت شفة تشيكونوف السفلى ترتجف • عض تشيكونوف على شفته السفلى ، وكرّ أسنانه وقال للعريف فيما يشبه المصادفة وهو يومئ برأسه الى الميت :

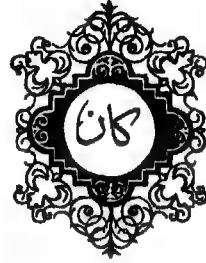
— كان له هو أيضاً أم •••

نفذت هذه الكلمات فى قلبى ••• لماذا قالها وكيف خطرت بباله هذه الفكرة ؟

أنهض الجثمان مع الفراش • خشخش القش ، وانفجرت السلاسل على الأرض ترن رنيناً واضحاً ••• فرُفعت وأخرج ميخائيلوفتش من القاعة • وفجأة أخذ الجميع يتكلمون بصوت عالٍ • وسمع صوت العريف الذى أصبح فى المر ، سُمع صوته أيضاً يأمر أحدهم صائحاً بالحضار الحداد • كان يجب فلك الأغلال عن ساقى الميت •••

ولكننى استطردت خارج الموضوع •••

المسشفى تمة



الأطباء يزورون القاعات في الصباح ، فهم
يظهرون في نحو الساعة الحادية عشرة موكباً
واحداً يتقدمه رئيسهم ، وقبل وصولهم
ساعة ونصف ساعة يكون الطبيب المولج بقاعتنا قد قام بجولته • انه شاب
جم اللطف دائم المرح كان السجناء يحبونه كثيراً وكان يتقن فيه اتقاناً
عظيماً • ان السجناء لا يرون فيه الا عيياً واحداً هو أنه « مسرف في
الرقه » • والواقع أنه كان قليل الكلام ، حتى يبدو عليه أنه يشعر أمامنا
بشيء من الخجل والاضطراب ، ولقد يحمر وجهه أحياناً • وهو يأمر
بزيادة مقدار الطعام متى طالب المرضى بذلك ، وأحسب أنه كان مستعداً
لأن يصف للمرضى الأدوية التي يرغبون فيها : انه انسان رائع على كل
حال • ان كثيراً من الأطباء في روسيا ينعمون بحب الشعب لهم واحترامه
اياهم ، وهم يستحقون هذا الحب وهذا الاحترام ، في حدود ما أتيح لى
أن ألاحظ ذلك • أنا أعلم أن كلامى هذا قد يبدو مفارقاً لا سيما اذا
تذكرنا ما يشعر به هذا الشعب نفسه من شك في الطب وارتياب في

العقاير الأجنبية • فالحق أن أفراد الشعب ، حتى حين يعانون مرضاً خطيراً ، يظلون يؤثرون خلال سنين عدة أن يتجهوا الى ساحرة أو أن يستعملوا أدوية تصفها لهم امرأة عجوز (وهى أدوية ما ينبغي احتقارها على كل حال) على أن يستشيروا طبيباً أو أن يذهبوا الى المستشفى • غير أن علينا ، والحق يقال ، أن نعزو هذا التخوف الى سبب عميق لا شان له البتة بالطب ، ألا وهو شك الشعب فى كل ما يتصف بطابع حكومى رسمى • وما ينبغي أن ننسى أيضاً أن الشعب يخشى ويحاذر المستشفيات بسبب ما يسمع من أقاصيص عجيبة عن الأحوال الرهيبة التى يروى أنها تجرى فى المستشفيات (وهذه الاقاصيص تقوم مع ذلك على أساس من صحة) • غير أن الشيء الذى يكرهه شعبنا أكثر ما يكره انما هو العادات الألمانية الشائعة فى المستشفيات ، وتصوره أن أناساً أجانب هم الذين يعالجون المريض فى المستشفى ، وتخله قسوة الحمية التى ستفرض عليه ، وأخيراً ما يروى له من حكايات عن فظاظة المرضى والأطباء • وعن بتر الأعضاء وتشريح جثث الموتى وما الى ذلك • ثم ان الطبقة الدنيا من الشعب تقول لنفسها ان أناساً من طبقة السادة هم الذين سيعالجونهم (ذلك أن الاطباء يتمون فى نظرهم الى طبقة السادة مهما يكن من أمرهم) • حتى اذا عرفوا هؤلاء الأطباء (وهناك استثناءات طبعاً لكنها نادرة) تبذرت جميع المخاوف : فالى أطبائنا انما يجب أن ننسب هذا النجاح ، والى الشباب منهم خاصة ، لأن أكثرهم يعرف كيف ينال من الشعب احترامه وحبه • واذا قلت ذلك فانما أنا أتكلم ، على الأقل ، عما رأيته وشعرت به مرات كثيرة ، فى أماكن شتى ، ولست أحسب أن الأمور تجرى على غير ذلك فى أماكن أخرى • صحيح أن الأطباء فى بعض المناطق النائية يتناولون الرشوات ويستغلون مستشفياتهم ويهملون مرضاهم ، بل كثيراً ما ينسون فنهم نسياناً تاماً • ان ذلك ما يزال يحدث ■

ولكننى انما أتحدث عن الأكرية التي تحركها روح كريمه تحيى فن
 الطب فى بلادنا الان • أما المارقون ، أما الذئاب الذين يرتمون فى حظائر
 الحملان ، فانهم مهما يتعللوا بالأعذار الواهية ومهما ينسبوا الذنب الى
 «البيئه» التي تحيط بهم مدّعين أنها قد أفسدتهم ، فانهم لا يمكن أن تقصر
 لهم خطاياهم ، ولا سيما اذا افتقدوا كل روح انسانية ، فان هذه الروح
 الانسايه وهذا العطف الاخوى على المريض وهذه المحبة له هى خير
 دواء يمكن ان يغفل فيه وأن يحسن اليه • لقد آن لنا أن نكف عن
 الشكوى من البيئه زاعمين انها هى التي أفسدتنا • قد يكون فى هذه
 الشكوى شيء من صدق ، ولكن الأوغاد المسكرة الذين يعرفون كيف
 يلجون ويخرجون لا يعجزون عن اتهام البيئه التي يعيشون فيها تسويفاً
 لخطاياهم ، ولا سيما اذا كانوا ممن يحسنون استعمال القلم أو اللسان
 فى فصاحة وبلاغة • هأنذا ابتعدت عن موضوعى مرة أخرى : كنت أود
 أن أكتفى بالقول ان عامة الشعب لا يشعرون بالشك والحذر والكره
 نحو الأطباء أنفسهم بل نحو الادارات الطبية ؛ حتى اذا رأوا الأطباء
 أثناء قيامهم بعملهم تبدد كثير من أوهامهم • ان ادارة مستشفياتنا ليست
 على اتفاق وانسجام مع روح شعبنا ، بل قل انها تناقض عادته • • ولن
 نستطيع ما بقى الأمر كذلك أن تفسوز بثقة الشعب ولا باحترامه • ذلك
 على الأقل ما أستطيع أن أستخلصه من مشاعرى الشخصية •

كان طيبنا يقف عادةً أمام سرير كل مريض ، فيسائله بكثير من
 الجود والاهتمام والانتباه ، ثم يصف له الأدوية التي يجب أن يتجرعها
 والحمية التي يجب أن يتبعها • وكان يلاحظ فى بعض الاحيان أنه رب
 مدعٍ مرضاً ما هو بالمريض البتة ، وانما هو سجين جاء يرتاح من الأشغال
 الشاقة ، وينام على سرير فى غرفة مدفأة ، سرير أفضل من المضاجع التي
 تتألف من ألواح خشبية عارية فى ثكنة رطبة تتكدس فيها كتلة كبيرة من

سجناء صفر الوجوه محطى الأجسام (يجب أن نذكر أن الأشقياء المعتقلين في روسيا اعتقالاتاً احتياطياً يكادون يكونون دائماً صفر الوجوه محطى الأجسام ، وذلك دليل على أن العناية الجسمية والنفسية بهم أدعى إلى الرثاء وأبعث على الشفاق من العناية بأولئك الذين صدرت في حقهم أحكام القضاء) • لذلك كان طيبنا يسجل على بطاقة التمارض أنه مصاب « بالتهاب في أغشية المدة » ويأذن له أحياناً بالبقاء في المستشفى أسبوعاً • وكان الجميع يسخرون من «التهاب الأغشية» هذا ، لأنهم كانوا يعلمون حق العلم أن هذه العبارة تعنى تواطؤاً مضمراً بين الطبيب والمريض على أن المرض تمارض وأنه « مفص كاذب » على حد تعبير السجناء الذين كانوا يترجمون عبارة « التهاب الأغشية » هذه الترجمة ؛ بل كثيراً ما كان التمارض يستغل شفقة الطبيب ليقى في المستشفى إلى أن يتم اخراجه عنوة • فياليتكم ترون طيبنا عندئذ ! كان الطبيب يخجل من عناد المريض ، فلا يعزم أمره على أن يعلن له صراحة أنه قد شفى ، وعلى أن ينصحه بطلب بطاقة الخروج ، رغم أن من حقه أن يخرج به بغير تحليل البتة ، مسجلاً على ورقته باللاتينية : « عوفى » ، وإنما كان يلجأ له أولاً إلى أنه قد آن له أن يترك قاعة المرضى ، ويرجوه ملحاً بقوله : « عليك أن تصرف يا صاحبي ، فقد شفيت الآن ، والسرر غير كافية ، والقاعة في ضيق ، الخ ••• » ، إلى أن يشعر السجين بشيء من الخجل ، فيطلب أخيراً أن يخرج • ولم يكن هذا شأن رئيس الأطباء ، فانه رغم ما كان يمتاز به من رحمة ورأفة وشرف واستقامة (ولقد كان جميع المرضى يحبونه أيضاً) كان أقسى كثيراً وأحزم كثيراً من طيبنا المختص بقاعتنا ؛ حتى لقد كان في بعض الأحوال يظهر قسوة كبيرة تجتذب له احترام السجناء • كان يصل إلى قاعتنا مصطحباً جميع أطباء المستشفى بعد أن يكون الطبيب الذي يعمل برئاسته قد قام بجولته ، فيقوم بتشخيص كل

حالة على حدة • وكان يطيل الوقوف على المصابين بأمراض خطيرة ،
 ويعرف كيف يقول لهم كلمة طيبة مشجعة تشد أزرهم وتبث جنانهم
 وترك في نفوسهم أجمل الاثر • وكان لا يطرد السجناء الذين يصلون
 الى المستشفى « بمنص كاذب » ، ولكن اذا أصر أحدهم على البقاء في
 المستشفى سجل على بطاقته أنه قادر على الخروج ، وقال له : « هلم
 يا رفيق ! لقد أصبت خطأ من راحة » فامض الان ، وليس يحسن بك ان
 تبالغ ! • • • • • والسجناء الذين كانوا يصرون على البقاء في عناد ، انما
 هم أولئك الذين ضاقوا بالأشغال الشاقة ولا سيما أثناء الحر الشديد في
 فصل الصيف ، أو أولئك الذين حكم عليهم بالجسد فهم ينتظرون ان
 يجلدوا • اذكر ان الأطباء قد اضطروا الى قسوة خاصة لطرد واحد من
 هؤلاء • كان قد جاء الى المستشفى لمداداة مرض في عينيه اللتين كانتا
 محمرتين احمرارا شديدا ، وكان يقول انه يشعر بالحمى كاد في
 أجفانه • وقد عولج الرجل بطرق شتى ؛ استعملت في مداواته كمادات
 ولبائخ وعلقات وقطرات ومحاليل وغير ذلك ، ولكن شيئا من هذا كله لم
 ينفعه ، فما زال العضو المريض على حاله نفسها لم يتغير • وأدرك الأطباء
 أخيراً أن المرض تمارض ، فان الالتهاب لم يتفاقم ولا تماثل للشفاء ،
 فالحالة اذن مشبوهة • وكان المرضى يعرفون منذ زمن طويل أن المريض
 كان يمثل تمثيلية هزلية ، وأنه يخادع الأطباء رغم أنه لم يشأ أن يعترف
 بذلك • انه شذب قوى البنية حسن الهيئة ، ولكنه أحدث في نفوس جميع
 رفاقه شعوراً بعدم الارتياح • كان شديد التخفى كثير الحذر قائم المزاج
 لا ينظر الا من تحت ولا يكلم أحداً ويظل مبتعداً عنا كأنه يشك فينا
 جميعاً • وانى لأذكر أن كثيراً منا كانوا يخشون أن يقوم هذا الشاب
 بعمل عنيف • كان وهو جندي قد امتدت يده الى سرقة ضخمة ، فحكم
 عليه بأن يضرب بالعصا ألف ضربة ، وبأن ينقل بعد ذلك الى فرقة

تأديبية • وقد سبق أن قلت ان السجناء يقررون أحياناً في سبيل تأخير لحظة العقاب ، أن يقوموا بأعمال رهيبة ، فاذا بأحدهم يغمد خنجرآ في بطن رئيس أو رفيق ، قبل موعد تنفيذ العقوبة بيوم • من اجل ان تعاد محاكمته ، فيتأخر تنفيذ العقوبة بذلك شهراً أو شهرين ، فيحققون غايتهم ، لا يعنيهم أن يتضاعف الحكم عليهم مثني أو ثلاث في ختام هذين الشهرين ، فانما هم يبتغون ارجاء اللحظة الرهيبة الى حين ، مهما يكلفهم ذلك ، فالى هذه الدرجة تعوزهم الشجاعة اللازمة لمواجهة تلك اللحظة الرهيبة !

ارتأى عدد من المرضى أن يراقب القادم الجديد ، لانه قد يعمد الى قتل احد اثناء الليل من فرط يأسه • ولكنهم اكنفوا مع ذلك بالاقوال ، فلم يحترس أحد أى احتراس ، حتى ولا أولئك الذين كانوا ينامون الى جانبه • غير أنهم لاحظوا أنه كان يحك عينه ليلاً بكلس الحائط وبشيء آخر أيضاً حتى تبدوا حمراوين حين يحىء الطبيب • وأخيراً أنذره رئيس الأطباء بأنه سيستعمل في مداواته طريقة الخرم • لقد كان الأطباء حين يستعصى مرض من أمراض العينين على أى وسيلة من الوسائل العلمية ، يعمدون الى استعمال الخرم ، تماماً كما تستعمل هذه الطريقة في علاج الخيل • ولكن الفتى أصرّ على أن لا يشفى • فاما أنه كان عنيداً شديد العناد واما انه كان جباناً شديد الجبن • والخرم مهما يكن أليماً ، فستان بينه وبين الجلد على كل حال • ويتم الخرم كما يلي : يمسك جلد المريض من مكان قرب العنق ، ويشد الى وراء ما أمكن الشد ، ويحدث فيه شق مزدوج عريض طويل ، وتسدس في الشق فتيلة من قطن بشخن اصبع ، وتشد هذه الفتيلة في ساعة معينة كل يوم الى أمام والى وراء كأنما ليشق الجلد من جديد حتى يظل الجرح متقيحاً فما يلثم قط • تحمل المسكين هذا العذاب الذى سبب له آلاماً

رهية خلال عدة أيام • ثم قرر أخيراً أن يطلب الخروج من المستشفى •
فما هو الا يوم أو بعض يوم حتى شفيت عياه شفاء تاماً ، فلما التأم جرح
عقه ارسل الى السجن ، ففادره مع الغد لتنفيذ فيه عقوبه ضربه بالعصا
ألف ضربة •

ما أشق تلك الدقيقة التي تسبق تنفيذ العقوبة ! لعلى كنت مخطئاً
حين وصفت الخوف الذي يشعر به السجناء بأنه جبن • لا بد ان يكون
هذا الخوف رهيباً حتى يقرر السجناء أن يجازفوا فيضاعفوه منى وثلاث
لا لشيء الا أن يرجئوه • وقد تحدثت مع ذلك عن سجناء كانوا يطلبون
ترك المستشفى من تلقاء أنفسهم قبل ان تلثم الجروح الناشئة عن الضربات
الاولى التي نالوها ، وذلك في سبيل ان يوقع فيهم باقى العقوبة وان يضربوا
الضربات الأخيرة فيخلصوا من حالة الاعتقال التي هم فيها ، ذلك أن
الحياة في مقر الحرس أسوأ من أية أشغال شاقة ولا شك • ثم ان اعتياد
تحمل الجلد وتلقى العقوبة يساهم أيضاً في خلق ما نراه لدى بعض
السجناء من شجاعة وثبات • فالذين جلدوا مراراً كثيرة تقسو ظهورهم
ونفوسهم ، فاذا هم آخر الأمر ينظرون الى العقوبة على أنها انزعاج عابر ،
واذا هم لا يخشون بعد ذلك شيئاً • لقد حدثني أحد سجناء القسم
الخاص ، وهو كلموكى متصرف اسمه الكسندر أو الكسندرين كما كان
السجناء يسمونه في السجن (هو فتى قوى الجسم غريب الأطوار ،
شديد المكر كأنه الشيطان دهاء ، شجاع رابط الجأش نبت الجنان ،
لكنه مع ذلك طيب القلب) حدثني كيف أنزلت فيه العقوبة فتحمل أربعة
آلاف جلدة • كان لا يتكلم عن هذه العقوبة الا ضاحكاً مازحاً ، ولكنه
حلف لى جاداً كل الجد أنه لو لم يكن قد نشباً في قبيلته على ضربات
السوط منذ نعومة أظفاره - ولقد كانت الندبات التي تغطي ظهره ولم
يمكن أن تزول تشهد بصدق ما يقول - اذن لما استطاع أبداً أن يحتمل

هذه الأربعة آلاف جلدة • فهو لذلك يبارك تلك التربة التي أخذ بها منذ طفولته فعلته تحمل فرعت السوط • قال لى ذات مساء بينما كنا جالسين على مضجعى أمام النار : « كنت أضرب لأيسر سبب يا ألكسندر بتروفتش ! ولقد ضربت بغير سبب البتة خلال خمسة عشر عاماً عدة مرات فى اليوم : كان يضربنى من شاء أن يضربنى ، فتعودت السوط وألفته تماماً • » لا أذكر الآن ما هى المصادفة التي جعلته جندياً (ولعله كان يكذب ، فلقد كان رجلاً أفاقاً متشرداً ، ولكننى أذكر القصة التي رواها لنا ذات يوم عن الفزع الذي انتابه حين حكم بجلده أربعة آلاف جلدة لأنه قتل رئيسه ، قال : « كنت أقدرّ طبعاً أنى سأعاقب عقاباً قاسياً ، وكنت أقول لنفسي : مهما أكن قد تعودت السوط ، فربما فطست فى مكانى • • • هى أربعة آلاف جلدة • • • ما ذلك بمزاح • • • ثم ان جميع رؤسائى كانوا حاقدين علىّ حقداً شديداً بسبب تلك القصة • • • كنت أعلم أن الأمور لن تجرى هيئة لينة • • • بل كنت أعتقد أنى سأموت تحت السياط • • • حاولت أولاً أن أعتق النصرانية قائلاً لنفسي : قد يدفعهم ذلك الى أن يغفروا ، فلنرَ ما عسى يكون • • • وكان رفاقى قد نبهونى قبل ذلك الى أن هذا لن ينفعنى فى شئ ، لكننى قلت لنفسي : « من يدرى ؟ فقد يغفرون لى ! لا بد أن رأفتهم بنصرانى أكبر من رأفتهم بغيره » • عمّدونى ، وأسمنونى الكسندر ، ولكن هذا لم يعفنى من العقوبة • • ما أظن أنهم كانوا سينقصون عددها ضربة واحدة • • أغاظنى ذلك • فقلت لنفسي : « انظروا • • • لأعرفن كيف أخدعكم وأضحك عليكم ! » فهل تصدق يا ألكسندر بتروفتش ؟ لقد خدعتهم وضحكت عليهم حقاً ! كنت أتقن التظاهر بالموت • • • لا أقصد أنى أستطيع أن أظهر بمظهر من مات تماماً ، بل بمظهر من يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه حتماً ! أخذونى الى أمام الكتبية ، فضربونى الضربات الألف الأولى • • حرقنى

الضرب حرقاً • أخذت أعول • ضربوني الضربات الألف الثانية • قلت
لنفسى : « أذقت نهايتى » • كانوا قد أفقدوني وعيى ، وكانت ساقاى
كالمنكسرتين ••• كراك ••• هأنذا أسقط على الأرض وعيناى كعيناى
ميت ، وجهى أزرق تماماً ، فمى ممتلئ زبدًا • أصبحت لا أنتفس •
وصل الطبيب وقال اننى سأموت • حملونى الى المستشفى • صحت فوراً •

ضربونى بعد ذلك مرتين • ما أكثر ما كانوا غاضبين ! ما أشد
ما كانوا حاققين ! ومع ذلك استطعت أن أخدعهم فى تلك المراتين
الآخرين : ضربونى الضربات الألف الثالثة ، ففطست من جديد •
ولكننى أقسم لك أن كل ضربة من الضربات الألف الثالثة كانت كسلاث
ضربات ، كانت كسكين تخترق قلبى •• أوف •• ما أكثر ما ضربونى !
كانوا متحمسين فى ضربى أشد الحماسة • يا لتلك الألف الأخيرة ما كان
أقطعها ! انها تساوى الآلاف الثلاثة الأولى مجتمعة • فلولا أننى تظاهرت
بالموت حين بقى منها مائتان ، اذن لأجهزوا علىّ فيما أعتقد • ولكننى لم
أتهالك بل خدعتهم مرةً أخرى متظاهراً بالموت : ظنوا مرةً أخرى أننى
أوشك أن ألفظ أنفاسى الأخيرة ؛ وهل كان فى وسعهم أن لا يظنوا
ذلك ؟ ان الطبيب نفسه كان موقناً أننى مشرف على الهلاك • ولكن بعد
ذلك ، حين أنزلوا بى المائتى ضربة الباقية لم أكثرث ولم أعبأ ، رغم أنهم
استعملوا كل ما أوتوا من قوة حتى لكأنها ألفان • لم أحفل اذن بضرباتهم ،
ولم يستطيعوا أن يقضوا علىّ • لماذا ؟ لأننى نشأت وترعرعت على ضربات
السياط • هذا هو السبب فى أننى ما زلت حياً ! « آه •• لظالمات ضربت
فى حياتى ! » • كذلك ردد ألكسندر يقول واجماً مطرقاً حين أنهى
قصته • وكان يبدو فى وجهه أنه يتذكر ويعد الضربات التى تلقاها ! ثم
أضاف يقول بعد صمت : « لا ••• انها لا تعد ••• لا تكفى الأرقام
لعدّها واحصائها ! » • قال ذلك ثم نظر الىّ ومضى عنى وهو ينفجر فى

صحكه تبلغ من الطيبة اننى لم املك الا ان اجيبه عليها بآبسامه * « هل تعلم يا الكسندر بتروفتش ؟ انا ان حلمت فى الليل فأنما احلم باننى أضرب ، ولا أحلم بغير ذلك » * كذلك قال * والواقع أن الكسندر كان يتكلم اثناء نومه ، ويعول ملء حلقه ، فيبلغ من شدة الاعوال أنه يوقظ السجناء من نومهم ، فيصيحون قائلين له : « ما هذا الزعيق يا شيطان ؟ » * ان هذا الرجل القوى البنية ، القصير القامة ، البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً ، الخفيف الحركة ، المرح المزاج ، كان على تفاهم مع جميع السجناء ، رغم أنه كان يجب أن تمتد يده الى كل ما ليس له ، ورغم أنه ضُرب بسبب ذلك مراراً * ولكن من ذا الذى كان بين هؤلاء السجناء لا يسرق ، ومن ذا الذى لم يُضرب بسبب سرقاته ؟

يجب أن أضيف الى هذه الملاحظات اننى كنت أظلم مذهولاً من البساطة العجيبة والطيبة الخارقة ومن فقدان الحقد لدى هؤلاء الأشقياء حين يتحدثون عن عقوباتهم وعن الرؤساء المكلفين بانزالها فيهم * ان المرء الذى يسمع ما يقصونه عن هذه العقوبات التى كان الحديث عنها كثيراً ما يجعل قلبى يخفق خفقاناً شديداً ، لا يلاحظ عند روايتها ظلاً من كره أو أثرة من حقد ؛ حتى لقد كانوا يضحكون من أعماق قلوبهم حين يروونها ، كما يضحك الأطفال * غير أن هذه الحالة لم تكن حالة * * * كى * حين حدثنى عن العقوبة التى أنزلت فيه * لقد جلد هذا الرجل (وليس هو من طبقة النبلاء) خمسمائة جلدة * ولم يحدثنى عن هذا الأمر يوماً * فلما سألته هل صحيح أنه جلد ، أجاب موجزاً بأن ذلك صحيح ، دون أن ينظر الى ، وقد احمر وجهه وبدا أنه يعاني ألماً نفسياً شديداً ، حتى اذا رفع عينيه رأيت فيهما شعلة من حقد ، وكانت سفتاه ترتعشان من فرط الاستياء * أحسست أنه لن ينسى هذه الصفحة من حياته وأنه لن يستطيع أن ينساها فى يوم من الأيام * ولا

كذلك رفاقنا الآخر (لست أضمن انه ليس بينهم استثناءات) ، فانهم كانوا ينظرون الى هذه المغامرة التي مروا بها نظرة مخنّلة عن هذه النظرة كل الاختلاف . كنت أقول لنفسي أحياناً : « انه ليستحيل أن يشعروا بعدالة قصاصهم ، ولا سيما حين لا يكونون قد اجرموا في حق رفاقهم بل في حق رؤسائهم » . وكان أكرهم لا يعترفون بانهم اجرموا قط . وقد سبق ان قلت انني لم لاحظ فيهم ايه ندامه ولم ألاحظ انهم يعانون شيئاً من عذاب الضمير حتى حين يكونون قد اترفوا جريمهم في حق أناس من طبقته . أما الجرائم التي ارتكبوها في حق رؤسائهم فلست أتكلّم عنها . لقد بدا لي أن لهم بالنسبة الى هذه الجرائم رأياً خاصاً بهم ، رأياً عملياً ، فهم يعدونها حوادث طارئة وقعت فضاءً وهدراً ، دون تفكير ودون شعور ، فهي معتفرة ، ولا جناح عليهم فيها . . . كذلك هم يعتقدون . . . ان السجين لا يلوم نفسه على الجرائم التي يرتكبها في حق رؤسائه ، ولا يجعل هذه القضية محلّ تساؤل ، ولا يعدها مشكله من المشكلات . ولكنه مع ذلك يعترف لنفسه عملياً بأن رؤساءه لا يشاطرونه رأيه وأن عليه من ثمّ أن ينال عقاباً ، وأنه لا يصبح بريئاً الا بعد أن يُنزل فيه العقاب .

ان الصراع بين الادارة والسجين صراع عنيف . ومما يساهم في تسوية جريمة السجين في نظره اعتقاده بأن البيئة التي ولد فيها وعاش فيها لا تدينه ، فهو واثق من أن الطبقة الدنيا من الشعب لن تحكم عليه بأنه ضاع ضياعاً نهائياً ، اللهم الا أن تكون جريمته التي ارتكبها جريمة في حق أناس من هذه البيئة نفسها ، في حق أناس هم اخوته . انه مطمئن من هذه الناحية كل الاطمئنان ؛ وما دام ضميره راضياً فلن يفقد راحة النفس ، وذلك هو الشيء الأساسي . انه يحس أنه واقف على أرض صلبة ، وهو لذلك لا يحقد على الشياطين التي تنزل على ظهره ،

وانما يعدها أمراً لا مفر منه ؟ وهو يعزى نفسه قاتلاً انه ليس أول من يتلقى هذه السياط ولا آخر من يتلقاها ، وأن هذا الصراع السلبي الأصمّ العنيد سيدوم زمناً طويلاً . هل الجندى يكره التركي الذى يقاتله ؟ أبداً ... ومع ذلك فان هذا التركي يضربه بالسيف ويطعنه بالخنجر ويقتله .

ما ينبغي أن نظن مع ذلك أن رواة هذه الحكايات كانوا جميعاً يروونها بهدوء وبغير اكتراث . فحين كان السجناء يتحدثون عن الملام جيريأتيكوف ، كانوا يتحدثون عنه دائماً باستياء مكظوم . لقد عرفت هذا الملام جيريأتيكوف فى أول اقامتى بالمستشفى - عرفته من الحكايات التى قصّها علىّ السجناء طبعاً . ورأيت بعد ذلك مرةً بينما كان يقود الحرس الى السجن . انه فى الثلاثين من العمر ، طويل القامة ، شديد البدانة ، قوى الجسم ، له خدان أحمران متهدلان من السمّة ، وأسنان بيضاء ، وضحكة رهيبة تشبه ضحكة نوزدريوف* . اذا رآه الرائي أدرك أنه أقل انسان على وجه الأرض قدرةً على التفكير . كان مولعاً أشد الولع بانزال السياط على الظهور ، وكان يفرحه كثيراً أن يكلف بتنفيذ هذه العقوبة . يجب أن أسارع فأذكر أن الضباط الآخرين كانوا يعدون جيريأتيكوف انساناً شاذاً ، وأن رأى السجناء فيه كان هو هذا الرأى نفسه . لقد عرف الزمان الماضى الذى ليس موعلاًً فى القدم والذى « ما تزال ذكراه حية ولكن الناس يصعب عليهم أن يصدّقوها » ، عرف جلاًّدين يعيشون القيام بهذا العمل عشقا قوياً . غير أن أكثر الذين كانوا يتولون تنفيذ عقوبة الجلد كانوا يقومون بعملهم فى غير حماسة خاصة ، وفى غير اندفاع شديد ، وانما هم يقومون به هادئين .

ولا كذلك هذا الملام ، فقد كان يجد فيه لذة مرهفة ومتعة عظيمة ، وكان يحسن القيام به خبيراً يتقن أسرارهِ ويعرف دقائقهُ . كان مولعاً

بفنه ، يحبة لذاته • فكأنه واحد من أولئك الجلادين المحترفين الذين عرفتهم روما الامبراطورية ، فهو ينشد فى هذا الفن ملذات لطيفة ومباهج تخالف الطبيعة ، دغدغةً واثارةً لنفسه الفارقة فى الشحم •

يقاد أحد السجناء لتنفيذ عقوبة الجلد فيه • ان جيريأتيكوف هو الضابط الذى سيتولى الاشراف على تنفيذ العقوبة ؛ فهو الآن مشرف الوجه ملهم الروح من مجرد رؤية ذلك الصف الطويل من الجنود المسلحين بسياط ضخمة • ها هو ذا يستعرض الجنود منبسطة الاسارير مهياً بكل واحد منهم أن يعنى بالقيام بواجبه على أكمل وجه ، والا ••• والسجناء يعرفون مقدماً ماذا تعنى كلمة « والا » هذه ••• يحضر السجن • فإذا كان لا يعرفون جيريأتيكوف بعد ، وإذا كان غير مطلع على السر ، فان الملازم يكرر به عادة على النحو التالى (ذلك اختراع من اختراعات جيريأتيكوف البارع جداً فى مثل هذا النوع من الاختراعات) : ان كل سجين ، حين يعرّى ظهره ويربطه ضباط الصف بحمالة البندقية لشدده بها بعد ذلك على طول « الشارع الاخضر » ، يأخذ يتوسل الى الضابط بصوت ضارع داعم أن يأمر بجعل الضرب أقل قوة ، وأن لا يضعف العقوبة بقسوة لا داعى اليها • فهو يهتف قائلاً : « ارحمنى يا صاحب النبالة ، كن أباً رعوفاً ، اجعلنى أدعو لك الله طوال حياتى ، لا تمتنى ، اشفق علىّ » • وان جيريأتيكوف ينتظر هذا ، فيها هو ذا يشرع فى محاورة السجن على النحو التالى بلهجة عاطفية مؤثرة :

– ولكن ماذا يجب علىّ أن أفعل يا عزيزى ؟ لست أعاقبك أنا وانما يعاقبك القانون !

– يا صاحب النبالة ••• فى استطاعتك أن تفعل ما تشاء ، فارحمنى واشفق علىّ ! •••

– أظن أننى لا أشفق عليك حقاً ؟ أظن أن رؤيتك وأنت تجلد

شيء يسرنى ويحدث لى لذة ؟ أنا انسان على كل حال • أنا انسان أم لا ؟

- لا ريب فى هذا يا صاحب النبالة ! ان الناس ليعلمون حق العلم
أن الضباط آباؤنا وأنا أبناءهم • فكُن لى بمثابة أب •
كذلك يصيح السجين مؤملاً أن يفلت من العقوبة • فيقول له
الملازم :

- أنظر فى الأمر بنفسك يا صديقى ، ان لك دماغاً فى وسعك
أن تفكر • انتى أعلم حق العلم أن الروح الانسانية تملى على أن أكون
بك رءوفاً رحيماً أنت الخاطى •

- ما تقول يا صاحب النبالة الا الحقيقة •

- نعم •• على أن أكون بك رءوفاً رحيماً مهما تكن مذنباً •
ولكن ••• ولكن لست أنا الذى يعاقبك وانما يعاقبك القانون • فكّر
قليلاً : انتى أخدم الله والوطن فاذا خففت العقوبة التى حدتها القانون
كنت أرتكب اذن اثماً عظيماً •

- صاحب النبالة ! •••

- ما العمل ؟ على كل حال ، لك هذه المرة ما تشاء ••• سوف
أرأف بك فأعاقبك عقاباً خفيفاً رغم علمى انتى بذلك اقترف اثماً •••
ولكن ألت أسيء اليك اذا أنا رأفت بك وعقبتك عقاباً خفيفاً ، فظننت
انتى فى المرة القادمة سأرأف بك أيضاً ، فترتكب حماقات جديدة ؟ هه ؟
ان ضميرى •••

- معاذ الله يا صاحب النبالة ! انتى لاقسم لك أمام عرش رب السماء
أنتى •••

- طيب طيب *** تقسم لى أنك ستسلك سلوكاً حسناً ***
- ألا فليمتنى الله فوراً ، وليعذبني في الحياة الآخرة عذاباً مقيماً
إذا أنا ***
- لا تحلف هكذا *** ذلك اثم *** سأصدقك اذا أنت عاهدتني
فحسب ***
- صاحب النبالة ! ***
- طيب ! اسمع ! اننى أرأف بك رحمةً بدموع اليتيم التى تذرفها.
أنت يтим ، أليس كذلك ؟
- يтим من الأب والأم يا صاحب النبالة ، أنا فى هذا العالم وحيد
ليس لى أحد ***
- طيب *** أنا أشفق عليك رحمةً بدموع اليتيم التى تذرفها •
ولكن حذار *** هذه آخر مرة • خذوه !
- كذلك يضيف الملازم قائلاً بصوت يبلغ من الرقة والحنان أن
السجين لا يعرف كيف يشكر لله أنه أرسل اليه مثل هذا الضابط •
ويسير الموكب الرهيب ويأخذ الطبل يدق • ويهزّ أوائل الجنود سياطهم؛
ويصبح جيريبياتيكونف قائلاً ملء خنجرته : « اضربوه ! ألهبوا ظهره !
اضربوا اضربوا ! قشّروا جلده ! اسلخوا جلده ! مزيدا مزيدا ***
اضربوا هذا اليتيم بمزيد من القوة ، ناولوه ! ناولوا هذا الوغد ! مزيداً
من القوة ! هشموه تهشيماً ! تهشيماً ! » •
- ويهوى الجنود بضرباتهم على ظهر الشقى بكل ما أوتوا من قوة ■
ذراعاً بعد ذراع *** فتفدح عينا الشقى شرراً ، ويأخذ يعول ، بينما
يجرى جيريبياتيكونف وراءه ، أمام الصف ، ممسكاً خاصرته من شدة
الضحك • انه يحنق ضحكا ، ويطرب طرباً عظيماً ، ولا يستطيع أن

يبقى منتصب القامة ، حتى لتأخذك بهذا الانسان العزيز شفقة • انه سعيد بأن يجد الأمر مضحكاً الى أبعد حدود الضحك ، فهو يضحك ضحكاً رهيباً مجلجلاً مدوياً ، ويردد من حين الى حين صيحته : « اضربوه ! قشّروه ! اسلخوا جلد هذا اللص قاطع الطريق ، هسموا الى هذا اليتيم ! ».

وكان جيرياتيكوف قد ابتكر أنواعاً شتى من هذه الطريقة • فإذا جرىء اليه بأحد السجناء لتففيذ العقوبة فيه ، وأخذ السجين يتضرع الى الملازم أن يراف به ، عدل الملازم في هذه المرة عن الموقف المخادع السابق بل قال له بل رياء ولا تعمل :

– اسمع يا عزيزى ، سوف أعاقبك كما يجب أن تعاقب ، لأنك تستحق العقاب • ولكننى أستطيع أن أنعم عليك بشئ : لن أوثقك بحماله البندقية ، بل أدعك طليقاً تتحرك كما تشاء ، فما عليك الا أن تركض أمام صف الجنود بكل ما أوتيت من قدرة على الاسراع فى الركض • صحيح أن كل سوط سيصيبك ، ولكنك بذلك ستنتهى من نيل العقوبة بسرعة فما رأيك ؟ هل تريد أن تجرب هذه الطريقة ؟

ان السجين الذى أصفى الى كلامه بكثير من الشك والحدري يقول لنفسه : « من يدرى ؟ لعل هذه الطريقة خير من الأولى • فإذا ركضت بكل ما أوتيت من قوة دام ذلك مدة أقصر خمس مرات ، وقد لا تصيبنى جميع السياط » ؛ ثم يقول السجين للملازم :

– موافق يا صاحب النبالة !

– وأنا أيضاً موافق •

هكذا يقول له الملازم ثم يصيح بالجنود :

– هيا أتم ، اتبهوا •

ان الملازم يعلم أن ظهر الشقى لن يفلت من سوط واحد ؛ وان كل جندى يعلم أنه اذا أخطأ سوطه ظهر الرجل فلسوف يكون له مع الملازم شان • ويحاول السجين أن يركض فى « الشارع الاخضر » . ولكنه لا يتجاوز خمسة عشر زوجاً من الجنود ، فان السياط تنهمر على ظهره المسكين كحبات البرد وفرة ، وكومض البرق سرعة ، فاذا هو يسقط على الأرض والأين يخرج من صدره ، ثم هو لا يتحرك بعد ذلك ، فكأنه سمّر بالأرض أو قتل برصاصة •

فاذا استطاع أن ينهض بعدئذ فى كثير من المشقة أصفر اللون مذعور السحنة قال للملازم :

- لا يا صاحب النبالة ! اننى أوتر أن أضرب على الطريقة التى يوجبها النظام •

والملازم يعرف نهاية هذه المهزلة مقدما ، فهو ممسك بخصريه منفجر ضحكاً • ولكننى لا أستطيع أن أذكر جميع التسليلات التى اخترعها خيال هذا الملازم ، ولا أن أروى جميع ما كان يحكى عنه •

وكان السجناء فى قعتنا يتحدثون أيضا عن ملازم اسمه سميكالوف كان يشغل منصب آمرٍ للموقع قبل وصول الميجر الحالى : ولئن كانوا يتحدثون عن جيرياتيكوف فى غير اكترات وفى غير كره ، ولكن دون أن يمتدحوا أعماله لانهم كانوا يحرقونه ، فلقد كانوا مجمعين على امتداحه والثناء عليه والتحمس له • لم يكن ذلك الملازم من الناس المولعين بالسياط الهائمين بالعصى ، ولم يكن فيه شئ من طبع جيرياتيكوف ولا من أخلاقه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يحقر السيط • فكيف كان السجناء اذن يذكرون عهده ويذكرون تنفيذه للعقوبات فى شئ من الرضا الهادى والارتياح العذب ؟ كيف استطاع أن يفوز برضا السجناء ؟ لماذا

ذلك ؟ كيف أمكنه أن ينال مثل هذه المحبة بين رفاقنا السجناء ؟ لقد كان رفاقنا السجناء ، كسائر الشعب الروسى ، مستعدين لأن ينسوا آلامهم اذا قيلت لهم كلمة طيبة (اتنى أثبت هذه الواقعة دون أن أحللها ودون أن أدرسها) لذلك لا يصعب الفوز بمحبة هذا الشعب ، ولا يصعب الحصول على احترامه . لقد استطاع سميكالوف أن ينال « شعبية » خاصة ... فكان السجناء لا يجيئون على ذكر تنفيذه للعقوبات فيهم الا ويشعرون بشئ من الحنين اليه . حتى لقد كانوا فى بعض الأحيان ، حين يقارنون بين رئيسهم القديم والميجر الحالى ، يقولون متهمدين : « كان طيباً كآب » . لقد كان سميكالوف رجلاً بسيطاً ، ولعله كان طيباً على طريقته . ومع ذلك فان بين الرؤساء أناسا ليسوا طيبين فحسب ، بل رحماء أيضاً ، ثم هم مكروهون لا يحبهم أحد ، بل يسخر منهم الجميع . ولا كذلك سميكالوف فقد بلغ من حسن التصرف أن جميع السجناء كانوا يعدونه « رجلهم » . تلكم مزية نادرة ، تلكم صفة فطرية لا يشعر بها أصحابها الذين يتصفون بها ، فى كثير من الأحيان . شئ غريب : هنالك أناس ليسوا من الطيبة فى شئ ، ثم هم أوتوا موهبة الحصول على مودة البشر . انهم لا يحتقرون الشعب الذى يترأسونه . وأحسب أن هذا هو السبب الذى ترجع اليه « شعبيتهم » . الناس لا يرون فيهم سادة كباراً ، لانهم لا يحسون أنهم من طينة غير طينتهم ، وأنهم طبقة على حدة ؟ ان فيهم رائحة من الشعب ... ان فيهم هذه الرائحة بالفطرة ... وسرعان ما يشم الشعب هذه الرائحة . وهو مستعد لأن يفعل كل شئ فى سبيل هؤلاء . انه يؤثر الرئيس القاسى جداً على ألطف انسان وأودع انسان ، متى كان فى ذلك الرئيس شئ من رائحة الشعب . فاذا كان هذا الرئيس ، عدا ذلك ، لين الطبع دمث الخلق طيب القلب ، على طريقته الخاصة طبعاً ، أصبح فى نظر المسجون انسانا لا يقدر بشئ ! لقد كان

الملازم سميكالوف ، كما ذكرت ، ينزل في السجناء عقوبات فاسيه جدا في بعض الاحيان ، ولكنه كان يبلغ من حسن الصرف حين ينزل فيهم هذه العقوبات انهم كانوا لا يحملون له اى حقد . بالعكس : لقد كانوا يتذكرون « حكايات » سباطه ضاحكين . . . على ان هذه الحديات لم تكن كثيرة والحق يقال ، ذلك أنه لم يكن على جانب كبير من سعه الخيال الفنى . . . انه لم يخترع الا مزحة واحدة ، واحدة لا اكثر ، ظل يتهج بها قرابه عام كامل فى سجننا ، ربما لانها كانت واحدة ، ولم تكن تحلو من مرح وفكاهة . كان سميكالوف يشهد تنفيذ العقوبه بنفسه ، ممازحا السجين ضاحكا عليه ، فهو يلقي عليه أسئلة غريبة . كان يسأله عن سئونه الشخصية فى السجن . انه لا يفعل ذلك لهدف معين او نية ميته ، وانما يفعله « لانه يحب أن يكون على علم بشئون هذا السجين » . كان يؤتى اليه بكرسى ، ويؤتى اليه بالسياط التى ستستعمل فى معاقبه المذنب ، فيجلس على الكرسي ويشعل غليونه الطويل ، والسجين يتوسل اليه ضارعا ، فيقول له الملازم : « هيه ! لا . . . يارفيق . . . هلم ارقد . . . ماذا بك ؟ » . فيتنهّد السجين ويرقد على الأرض . فيسأله الملازم : « طيب يا عزيزى ! هل تحسن تلاوة الصلوات ؟ » ، فيقول السجين : « كيف لا يا صاحب النبالة ؟ اننى مسيحي ، وقد تعلمتها منذ طفولتى ! » ، فيقول الملازم : « اتل أدعيتك اذن ! » . والسجين يعرف سلفاً ما الذى سيتلوه من أدعية ، وكيف ستنتهى هذه التلاوة ، لأن هذه المزحة قد تكررت أكثر من ثلاثين مرة ؛ بل ان سميكالوف يعرف هو أيضاً أن السجين على علم . بأمر هذا الاختراع فليست تنطلى عليه الحيلة ، وكذلك الجنود الذين أشرعوا سياطهم فوق ظهر الضحية الشقية . ويأخذ السجين بتلاوة الصلوات ، ويبقى الجنود المسلحون بالسياط وقوفاً ساكنين . وينقطع سميكالوف عن التدخين ، ويرفع يده مرتقباً وصول السجين من

أدعيتة الى العبارة التى ينتظرها ؟ وبأخذ السجين فى تلاوة صلواته حتى اذا بلغ منها قوله : « ليأت ملكوت السماء » كان ذلك كل ما يريده الملازم فاذا هو يصيح بالسجين قائلاً : « كفى ! » ، وقد احمر وجهه احمراراً شديداً ، واذا هو يقول للجندى المشرع سوطه : « عليك به ! جئه بملكوت السماء ! » ، يقول ذلك وهو يحرك يده باشارة ملهمة ! ...

ثم ها هو ذا ينفجر ضاحكاً • ويتسم الجنود الواقفون ويتسم الجالد ، ويتسم المجلود نفسه ! غفر الله لى ! ... يتسم المجلود نفسه رغم أن السوط ، حين صاح الملازم قائلاً : « انشر ظهره ! » قد صفر فى الهواء صفيراً قوياً ، وهوى على ظهر المذنب الشقى يقطعه كأنه موسى ! ... ان سميكالوف سعيد جداً ، لأنه هو الذى اخترع هذه المزحة ، لأنه هو الذى ابتكر هذه النكتة • فاذا انتهى انزال العقوبة فى السجين انصرف الملازم راضياً ، وانصرف السجين نفسه راضياً عن نفسه وعن الملازم ومضى يقص على رفاقه مزحة سميكالوف للمرة الاحدى والثلاثين ، خاتماً كلامه بقوله : « ان قلبه طيب حقاً ... يحب المزاح ويعشق الدعابة ! » •

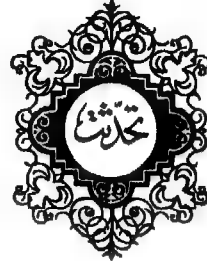
ما أكثر ما كان المرء يسمع من السجناء ثناءً عاطفياً رقيقاً على الملازم الطيب •

حدث أحد السجناء يقول وقد أشرق وجهه ابتهاجاً بذكرى ذلك الانسان الشهم :

— فى بعض الأحيان ، أثناء الذهاب الى العمل ، رأيته جالساً الى نافذته بثوب المنزل يحسبى الشاى ويدخن الغليون • فرفعت قبعتى

احتراما فسألنى : « الى أين أنت ذاهب يا أكسينوف ؟ » فقلت له : « الى
الشفل يا ميخائيل فاسيلتشس ، ولكن يجب علىّ أن أذهب أولاً الى
الورشة » ، فكان وهو يسمع كلامى يضحك ضحكا سعيداً كل السعادة .
ما أطيب قلبه ! ما أطيب قلبه حقاً !
وأضاف أحد السامعين يقول :
- أمثال هذا الرجل لا يبقونهم مدة طويلة ! ...

المستشفى تمه



هنا عن العقوبات* وعن الذين يتولون تنفيذها
لأن الفكرة الأولى الواضحة عن هذه الأمور قد
قامت في ذهني أثناء إقامتي بالمستشفى • كنت
الى ذلك الحين لا أعرف هذه الأمور الا عن
طريق السماع • كان يؤتى الى قاعتنا بجميع من صدر الحكم عليهم بالجلد
وجميع سجناء الأقسام العسكرية المقيمة في مدينتنا وفي المديرية التابعة
لها • وكنت في الأيام الأولى أنظر الى ما يجرى حولى بشراة تبلغ من
القوة أن هذه العادات الغربية وهؤلاء السجناء الذين جلدوا أو الذين
سيجلدون قد أحدثوا في نفسى شعوراً رهيباً • كنت مضطرباً أشد
الاضطراب ، مروّعاً أعظم الترويع • وكنت اذا سمعت الأحاديث أو
الأقاصيص التى يتبادلها السجناء الآخرون حول هذا الموضوع ، ألقى على
نفسى أسئلة أحاول أن أجدها أجوبة • كنت أحرص الحرص كله
على أن أعرف جميع درجات الأحكام والعقوبات وجميع طبقاتها ، وأن
أعرف رأى السجناء أنفسهم : حاولت أن أتصور الحالة النفسية التى
يكون عليها المجلودون • سبق أن ذكرت أن من النادر أن يكون أحد
السجناء هائى النفس مطمئن البال قبل اللحظة الحاسمة ، ولو كان قد

ضرب قبل ذلك مراراً • ان السجين يشعر بفزع رهيب ، ولكن هذا
 الفزع جسمى محض ، فزع لا يعيه صاحبه لأنه يكون قد أطاش لبه
 وذهب بصوابه • لقد استطعت أثناء السنين التى قضيتها فى السجن أن
 أدرس • على مهل، السجناء الذين كانوا يطلبون خروجهم من المستشفى،
 بعد أن مكثوا فيه زمناً لمعالجة ظهورهم التى أصيبت بجراح من انزال
 نصف العقوبة فيهم؛ لقد أتضح لى أن أرى عدداً كبيراً منهم يطلب الخروج
 من المستشفى فى الغداة لانزال باقى العقوبة فيه • ان التوقف عن اتمام
 انزال العقوبة انما يكون دائماً بأمر الطبيب الذى يشهد التنفيذ • فاذا
 كان عدد الضربات أكبر من أن يحتملها السجين دفعةً واحدة قسّم هذا
 العدد نصفين أو ثلاثة ، وفقاً للرأى الذى يبديه الطبيب أثناء التنفيذ ،
 فالطبيب هو الذى يقول هل يستطيع السجين أن يحتمل العقوبة كلها أم
 أن حياته أصبحت فى خطر • فاذا كانت العقوبة خمسمائة جلدة أو حتى
 ألف جلدة أو ألفاً وخمسمائة جلدة ، فان السجين يتلقاها دفعةً واحدة،
 أما اذا كانت ألفى جلدة أو ثلاثة آلاف جلدة فانها توزع على دفعتين أو
 ثلاث • فالذين اندملت جراح ظهورهم وأصبح عليهم أن يتلقوا باقى
 العقوبة يكونون قبل خروجهم من المستشفى بيوم حزاني النفوس قاتمى
 الوجوه صامتين لا يتكلمون • ان الناظر اليهم يلاحظ فيهم نوعاً من
 الانصاع ، وضرباً من الذهول الغريب • انهم لا يشرعون فى أى
 حديث ، بل يلزمون الصمت طوال الوقت تقريباً • أمر عجيب : ان
 السجناء يتحاشون أن يخاطبوا أولئك الذين سيجلدون ، وهم خاصةً
 لا يشيرون أية اشارة الى العقوبة التى سيتم انزالها فيهم • انهم لا يحاولون
 أن يواسوهم وأن يعزّوهم وأن يشجعوهم بكلمات زائدة وأقوال لا محل
 لها ولا داعى اليها ••• حتى أنهم لا يلتفتون اليهم ولا يظهرون شيئاً من
 الاكتراث بهم ، ولا شك أن السجين الذى سيُجلد يؤثر ذلك ويفضّله •

غير أن هناك استثناءات • مثال ذلك السجين أورلوف الذى سبق أن تحدثت عنه • لقد ساء أورلوف أن جراح ظهره لم تندمل بسرعة أكبر ؛ انه يستعجل طلب الخروج من المستشفى ، ويريد أن يفرغ من انزال باقى العقوبة فيه ، وأن يُرسل الى السجن ، لأنه ينو أن يهرب أثناء الطريق • ان أورلوف جامع النفس عفيف الطبع لا يشغله الا الهدف الذى يجب عليه بلوغه ، وهو اسان على جانب عظيم من شدة المكر وسعة الحيلة • كان يبدو عند وصوله مسروراً كل السرور ، وكان فى حالة احتياج شديد ؛ انه رغم اخفائه مشاعره ، قد ظن أثناء توقيعه العقوبة فيه أنه لن ينهض من مكانه وأنه ستبقى نحيبه حتى قبل استيفاء نصف العقوبة • كان قد سمع كلاماً عن الاجراءات التى ستتخذها الادارة فى حقه ، وذلك حين كان لا يزال يحاكم ؛ ولهذا كان يتوقع أن يموت • حتى اذا فرغوا من انزال نصف العقوبة فيه استرد شجاعته واستعاد أمله ورجعت اليه رباطة جأشه • لم أكن قد رأيت فى حياتى جروحاً حين وصل الى المستشفى ، ولكن الرجل كان فرحاً كل الفرح ، فهو يأمل الآن أن يبقى حياً • ان الشائعات التى بلغت مسامعه كانت اذن كاذبة ، ما دام انزال باقى العقوبة فيه قد أرجىء • وأخذ أورلوف أثناء حبسه الاحتياطى الطويل يحلم بالرحلة ، بهربه المقبل ، بالحرية ، بالحقول ، بالغابة ••• وبعد يومين من خروجه من المستشفى عاد الى المستشفى ليموت على ذلك المضجع نفسه الذى شغله طوال مدة اقامته • انه لم يحتمل النصف الثانى من العقوبة • ولكن سبق أن تحدثت عن هذا الرجل •

ان جميع السجناء بغير استثناء ، حتى أشدهم جنباً وأكثرهم جزعاً ، حتى أولئك الذين يرضيهم انتظار عقوبتهم ويمضهم ليلاً ونهاراً ، كانوا يتحملون العقوبة صابرين • كان نادراً أن أسمع أحياناً فى الليلة التى

تعقب تنفيذ العقوبة • ان الشعب على وجه العموم يعرف كيف يحتمل
 الالم • وقد سألت كثيراً من رفاقي عن هذا الالم بغية أن أحدد طبيعته
 على وجه الدقة ، وأن أعرف ما هو العذاب الذي يمكن أن يشبه به •
 لم يكن يدفعني الى ذلك فضول سخييف واستطلاع لاه • فلقد سبق ان
 قلت اننى اضطربت أشد الاضطراب ورُوعت أشد الترويع • ولكننى
 رغم الاسئلة الكثيرة التى القيتها على رفاقي لم اظفر من أحد منهم بجواب
 سافٍ مرضٍ • كانوا يجيبوننى اجمالاً بقولهم : « ذلك يحرق الظهر
 كالنار » : لان هذا جوابهم جميعاً • وقد حاولت فى أول الأمر أن أسأل
 م • • • كى ، فقال : « ذلك يحرق الظهر كالنار ، كججم • يحس المرء
 أن على ظهره فرنًا مشتملاً » • لقد كانوا يعبرون بهذا عن كل شيء •
 ولاحظت فى أحد الأيام ملاحظة غريبة لا أضمن صدقها ولا أكلل
 صحتها ، رغم أن رأى جميع السجناء يؤيدها ، وهى أن عقوبة الجلد
 بالسوط أقطع أنواع التعذيب المستعملة فى بلادنا • قد يبدو هذا فى
 أول الأمر مستحيلًا غير معقول • ومع ذلك فان خمسمائة جلدة بالسوط
 وربما أربعمائة جلدة قد تكفى لقتل انسان • حتى اذا تجاوز العدد
 خمسمائة أو شك الموت أن يكون محققاً ان أقوى الناس جسماً وأصلبهم
 عوداً لا يقدر أن يحتمل ألف سوط ، على حين أن المرء يستطيع أن
 يتلقى خمسمائة ضربة بالعصا دون أن ينهار انهياراً شديداً ، ودون أن
 يتعرض لخطر الموت • ان فى وسع الرجل المتوسط القوة أن يحتمل
 ألف ضربة بالعصا دون أن يتعرض لخطر ؛ ولا يمكن لألفى ضربة
 بالعصا أن تقتل انساناً متوسط القوة سليم الجسم • لقد أكد جميع السجناء
 أن السوط أسوأ من العصي • كانوا يقولون : « ان السياط تكوى وتعذب
 أكثر من العصي • • • » • وانه لأمر بديهي أن تكون السياط أشد تعذيباً
 من العصي ، فهى تهيج الجهاز العصبى وتثير اثاره قوية • لا أدرى

ألا يزال يوجد في أيامنا أناس من أولئك السادة (لكننى أعرف أنه كان يوجد منهم في زمن غير بعيد) الذين يجدون لذة عظيمة ومتعة كبيرة في جلد ضحية من الضحايا • انهم يذكرون بالمركز ساد وبالمركزية برنفليه* • أحسب أن مرد هذه اللذة الى اضطراب نفسى • وأن هؤلاء السادة لا بد أن يشعروا بلذة والم في ان واحد • ان هناك اناسا هم كالنمور شراة الى الدم • يحبون ان يلغوه • ان الذين اوتوا سلطانا لا حدود له على اجسام البشر ودمائهم وارواحهم ؛ الذين اوتوا هذا السلطان على من هم في شريعة المسيح اخوتهم ؛ الذين شعروا بهذا السلطان وامكنهم ان يذلوا ويمتهنوا ويحقروا الى اقصى الحدود اناسا اخر خلق على صورة الله ••• ان هؤلاء عاجزون عن كبح رغباتهم ومقاومة ضميرهم الى معاناة الاحساسات الشديدة • والطفاني والاستبداد عادة يمكن أن تستفحل وأن تتفام حتى تسمى مع الزمن مرضا • انى اؤكد ان خير انسان في العالم يمكن ان يقسو قلبه وان يتوحش طبعه الى درجة لا يمكن معها تمييزه عن حيوان كاسر مفترس • ان الدم والسلطة يسكران • ويساعدان على نمو القسوة والفتش والفجور • فاذا الروح والعقل يصابان بالشذوذ واذا هما يجدان في أغرب الأمور عن الطبيعة الانسانية السليمة لذات كبيرة • ان الانسان والمواطن يخفيا الى الابد من نفس الطاغية المستبد • فتصبح العودة الى الكرامة الانسانية وتصبح الندامة والتوبة والانبات الأخلاقي أموراً يكاد يستحيل تحقيقها • أضف الى ذلك أن هذه الاباحية يمكن أن تسرى عدواها الى المجتمع بأسره : ان مثل هذه السلطة مغرية • والمجتمع الذى ينظر الى هذه الأشياء بغير اكترات يكون قد أصيب بهذه العدوى حتى بلغت منه النخاع • وأقول بايجاز : ان منح أحد الناس حق انزال عقوبات جسمية في أقرانه هو جرح من جروح المجتمع • وهو أضمن وسيلة الى قتل روح التعاطف مع الناس ؛ وهذا الحق يضم،

على صورة البذور ، عناصر انحلالٍ وشيك لا مفر منه ولا معدى عنه .
 والمجتمع يحتقر الجلاد المحترف لا « السيد الجلاد » . لقد أراد
 بعضهم فى الآونة الأخيرة أن يدعى نقيض ذلك ، ولكن بطريقه نظرية
 لفظية . والذين عبروا عن هذا الراى لم يكن قد اتسع وقتهم بعد لخلق
 غريزة السيطرة فى نفوسهم . ان كل صاحب مصنع وكل مقاول لابد أن
 يكون قد شعر مرارا بنوع من الرضى الشديد والارتياح العظيم حين
 أحس أن عمالاً عائلين هم رهن به وحده . أنا على يقين من أن جيلاً
 من الاجيال لا يستطيع ان يستأصل ما فيه من أمور موروثه ، يمثل هذه
 السرعة . ان الانسان لا يستطيع أن يتخلى عما يجرى فى دمه ، عما
 رضعه مع حليب أمه . ليس يكفى أن يعترف المرء بذنبه ، بخطيئته
 الأصلية ... ذلك قليل ، قليل جداً ... وانما ينبئ له أن يجتث هذه
 الخطيئة أيضاً ، وذلك لا يتم بسرعة .

لقد تكلمت عن الجلاد . واننى لأقول ان بنور غرائز الجلاد تكاد
 توجد فى كل فرد من افراد مجتمعنا المعاصر . ولكن غرائز الانسان
 الحيوانية لا تنمو نمواً واحداً ، فاذا خنقت هذه الغرائز جميع الملكات
 الأخرى أصبح الانسان مخلوقاً مشوهاً كريهاً . فالجلادون نوعان :
 الجلادون بارادتهم ، والجلادون بحكم الواجب ، بحكم الوظيفة . فأما
 الجلاد بارادته فهو من جميع النواحي أخط من الجلاد الماجور الذى
 يثير مع ذلك كل هذا الاشتزاز فى نفوس الشعب ، ويوقظ فيه تفرزاً
 شديداً وفزعاً لا شعورياً يوشك أن يكون غيباً . فما مرد هذا الكره
 الرهيب الخرافى الذى يشعر به الناس نحو الجلاد المحترف بينما هم
 يقفون من الجلاد بارادته موقف من لا يحفل به ولا يكثر له بل يتسامح
 معه ؟ اننى أعرف أمثلة غريبة على أناس شرفاء طيبين يقدرهم مجتمعهم
 ثم هم يجدون أن من الضرورى أن يعول المحكوم عليه بالجلد احوالاً

شديداً وأن يتبهل ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة • ذلك فى نظرهم أمر مقبول ، بل امر لا بد منه • حنى اذا رفض المجلود ان يصرخ فان الجالد الذى أعدّه فى أى ظرف آخر انساناً طيباً يرى فى ذلك اهانة لشخصه • لقد كان لا يريد فى اول الامر الا انزال عقوبة خفيفة ، لكنه منذ لم يسمع التوسلات والضراعات المألوفة المعتادة ، كقول المجلود : « رحماك يا صاحب النبالة ، اشفق علىّ وكن لى أبا ودع لى ان أدعو لك الله طوال حياتى » ، غلا حنقه واستشاط غيظه وامر للمسكين بخمسين جلدة زيادة ، آملاً أن يصل بذلك الى سماع الصراخات والضراعات ، وهو يصل الى سماعها فعلاً • قال لى واحد من هؤلاء ذات يوم فى كثير من الجدد : « مستحيل بغير ذلك • انه وضح مسرف فى الوقاحه » • اما الجلاد بحكم الواجب فانه منفى من المنفىين عهد اليه ان يقوم بهذه الوظيفة • انه يتعلم هذه المهنة من جلاد قديم ، حتى اذا اتقنها ظل طون حياته فى السجن فاطناً فى مكان على حدة • ان له غرفة لا يقاسمه اياها أحد ، حتى لقد يكون له فى بعض الأحيان مسكن خاص ، ولكنه يظل مخفوراً طول الوقت على وجه التقريب • وليس الانسان بألة • فهذا الجلاد ، رغم أنه يجلد بحكم الواجب ، يعصف به الغضب أحياناً ، ويشعر حين الجلد بشيء من اللذة • ولكنه لا يحمل لضحيته أى كره • ان رغبته فى اظهار براعته وحذقه ، وابرار علمه وفنه ، تستحث غروره وتشجذ كبريائه وتحرض حبه لنفسه ؛ انه يعمل للفن • هو يعلم حق العلم أنه انسان مكروه ، وأنه يثير فى كل مكان رعباً خرافياً ، فيستحيل أن لا يكون لهذا الظرف تأثير فيه ، وأن لا توقظ هذه الظروف غرائزه البهيمية • ان الأطفال أنفسهم يعرفون أن هذا الرجل قد استغنى عن أمه وأبيه ••• شىء غريب : ان جميع الجلادين الذين عرفتهم كانوا أناساً على جانب من الذكاء والفهم ، وكانوا أناساً مفرطين فى كبريائهم وحبهم

لأنفسهم • ان الصلف ينمو لديهم نتيجةً للاحتقار الذى يلقونه فى كل مكان ، ولعله يشتد ويقوى من شعورهم بالخوف الذى يوظفونه فى نفوس ضحاياهم ، وبالسلطان الذى يملكونه على هؤلاء الأشقياء . ولعل الاخراج المسرحى لقيامهم بوظائفهم العامة هذه يسهم فى نفخهم بشيء من الغرور . لقد أتيج لى خلال مدة من الزمن أن ألقى وأن ألاحظ واحدا من هؤلاء الجلادين • كان رجلاً فى الأربعين من عمره متوسط القامة قوى العضلات جافاً له وجه لطيف ذكى يعلوه شعر مصفور • انه رزين وفور هادىء مسالم يشبه مظهره أن يكون مظهر شريف من الأشراف • كان يجيب عن الأسئلة التى تلقى عليه اجابات فيها فهم وتعقل وفيها وضوح وجلاء غير أن فيها نوعاً من اظهار التواضع كأنه يتنازل لمحدثه عن شيء من الأشياء • كان ضابط الحرس يخاطبونه بشيء من الاحترام ، وكان هو يلاحظ ذلك ويدركه حق الادراك ؛ ولهذا كان أمام رؤسائه يضاعف تأدبه وجفافه وزراته • وكلما تودد اليه هؤلاء مزيداً من التودد ، ازداد هو تكبراً ، دون أن يفقد مع ذلك تأدبه المرفه • انى لملى ثقة من أنه كان فى تلك اللحظات يعد نفسه فوق مخاطبه كثيراً فلا مجال للمقارنة بينه وبينه • ذلك يُقرأ فى وجهه • كان هذا الرجل يكلف أحياناً ، فى فصل الصيف ، أثناء الحر الشديد ، بقتل كلاب المدينة ، فيرسل الى المدينة مخفوراً ليقتل هذه الكلاب برمح طويز مسنون • كانت هذه الكلاب تتكاثر بسرعة هائلة وتصبح خطرة فى فترة القيظ ، فكان الجلاد مكلفاً بقتلها بقرار من السلطات • ان هذه الوظيفة الحقيرة لم تشعره بشيء من الضعة قط • ليتك رأيت ذلك الوقار الذى كان يبدو فى وجهه حين كان يطوف شوارع المدينة مع حارسه المتعب المكدود المرهق ، وليتك رأيت كيف كن يخيف النساء وبروَّع الأطفال بنظرة واحدة ، وكيف كان يلقى على المارة نظرات استعلاء وعظمة !

والجلادون يعيشون فى بحبوحة ، فهم يملكون مالا ، ويقومون
 برحلات مريحة ويشربون خمرا • وهم يستمدون مواردهم هذه من
 الرشوات التى يدسها فى أيديهم أهل اليسار من المسجونين المدنيين ؛
 والجلادون هم الذين يحددون مقدار الرشوة تبعاً لما يملكه السجين من
 غنى ، فربما طلبوا ثلاثين روبلاً وربما طلبوا أكثر من ذلك • صحيح
 ان الجلاد لا يملك حق الرأفة بالمجلود ، والا كان يعرض ظهره هو
 للجلد ؛ ولكنه يتعهد ، لقاء رشوة مناسبة ، أن لا يسرف فى القسوة أثناء
 الجلد • والسجناء يستجيبون لمطالبه فى جميع الاحيان تقريباً ، لأنهم
 اذا رفضوا الاستجابة لها عمد فى ضربهم الى وحشية رهية ، وذلك أمر
 يملكه • حتى لقد يتفق أن يطلب مبلغاً ضخماً من سجين فقير جدا •
 وعندئذ ترى جميع أقرباء السجين يتحركون ، فهم يسامون الجلاد ،
 ويستعطفونه ويتوسلون اليه • وويل لهم ان لم يستطيعوا أن يرضوه :
 ان الخوف الخرافى الذى يثيره الجلادون فى النفوس يفيد الجلادين
 كثيراً • لقد حدثنى بعض الناس ان فى هؤلاء الجلادين وحشية رهية •
 حتى لقد أكد لى السجناء أن فى وسع الجلاد أن يجهز على الضحية
 بضربة واحدة • أهذه حقيقة مستمدة من تجربة ؟ ربما ! ••• من
 يدرى ! ••• ان لهجة الذين ذكروا لى ذلك كان فيها من قوة التأكيد
 والحزم ما يجعلنى أستبعد أن لا يكون الأمر أمر حقيقة مستمدة من
 تجربة • وقد أكد لى الجلاد نفسه أن فى وسعه أن يفعل ذلك • وذكر
 لى بعضهم أيضاً أن فى وسع الجلاد أن يحتال فاذا هو يهوى على ظهر
 المجلود بضربة قوية لا تشعر المجلود بأى ألم ولا تخلف فيه أى أذى •
 ولكن حتى حين يكون الجلاد قد تناول رشوة فى سبيل أن لا يسرف فى
 شدة الضرب فان الضربة الأولى التى ينزلها فى المجلود تكون فى العادة
 قوية جداً • تلك سنة لا تتخلف • وبعد تلك الضربة الأولى التى لا بد

أن تكون قوية ، ينزل الجلاذ في المجلود ضربات أقل قسوة ، لا سيما اذا كان قد تقاضى رشوة طيبة + لا أدري لماذا يفعل الجلاذون ذلك : أهم يفعلونه من أجل أن يهينوا المجلود لاحتمال الضربات التالية التى ستظهر له أخف وطأة وأيسر ألماً متى كانت الضربة الأولى قاسية + أم هم يفعلون ذلك لارهاب المجلود بغية أن يعرف شدة بأسهم وفرط سطوتهم ؟ أتراهم يريدون أن يبرهنوا على قوتهم وأن يستمدوا من ذلك زهواً وافتخاراً ؟ مهما يكن من أمر فإن الجلاذ يكون قبل انفاذ مهمته مهتساجاً بعض الاحتياج ؟ انه يشعر بقوته وسطوته : هو فى تلك اللحظة ممثل أمام جمهور ، والجمهور يعجب به ويخاف منه + لذلك تراه يصيح بضحيته قائلاً فى غير قليل من الرضى والزهو : « استعد + لتسلخك الضربة سلخاً » . تلك كلمات معتادة تسبق الضربة الأولى + ألا ان من الصعب على المرء أن يتصور مدى ما يمكن أن ينحدر اليه انسان من تشوه !

كنت فى الأيام الأولى من افامتى فى المستشفى أصغى باتباه الى هذه الأفاصيص التى يرويها السجناء فيقطعون بها رتابة الأيام الطويلة التى يقضونها راقدين على مضاجعهم ، والتى تجرى متشابهة على وتيرة واحدة + وكانت الجولة التى يقوم بها الأطباء سلوةً لنا وفرجه + وبعد جولة الأطباء يحين وقت الفداء + لا شك أنك تقدر أن الطعام أمر أساسى فى حياتنا الرتيبة التى تنقضى ساعاتها مطردة رتيبة + ان وجبات الطعام التى تقدّم للمرضى تختلف باختلاف طبيعة الأمراض : فبعض السجناء لا يعطون الا حساءً ببقول ، وبعضهم لا يعطون الا بقلولاً ؛ ومنهم من يعطى برغلاً + + + وذلك طعام له عشاق كثيرون + وكان السجناء يترهلون مع الزمن ويصبحون ذواقين متأقين فى شئون الطعام + وكان الناقهون يعطون قطعة من لحم مسلوق أو من « بقر » على حد تعبير رفاقى + وكان خير الطعام ما يقدم للمرضى المصابين بداء

الاسقربوط • كن هؤلاء يعطون لحماً مقلياً مع البصل والفجل وربما أعطوا فى بعض الأحيان شيئاً من خمر • والخبز يكون أسود أو أسمر تبعاً لنوع المرض ، ولكنه حسن النضج فى جميع الأحوال • وكانت هذه الدقة التى يلتزمها المستشفى فى توزيع وجبات الطعام تضحك المرضى : لقد كان بين المرضى من لا يكاد يأكل شيئاً من قلة شهوته الى الطعام • وكان بينهم أناس شروهون شراهة قوية ؟ فكان بعضهم يتبادل الوجبات الموزعة ، فاذا الطعام المخصص لأحدهم يرمى الى شخص اخر دائماً • والذين فرضت عليهم الحمية من بينهم فلا يعطون الا وجبة خفيفة ، كانوا يشتررون من المصابين بداء الاسقربوط لحماً ، ويحصلون على شيء من شراب « الكفاس » أو من بيرة المستشفى ، من المرضى الذين كانوا يعطون شراباً • كان بعض السجناء يأكل وجبة مضاعفة • وكانت الوجبات تباع بمال • واللحم أعلى المأكّل سعراً ، حتى لقد تباع القطعة منه بخمسة كوبكات • فاذا لم يوجد فى قاعتنا من يجب أن يبيع نصيبه أرسل المراقب الى القاعة الثانية يسأل عن بائع ، فاذا لم يجد شيئاً فى القاعة الثانية مضى الى قاعة الجنود أى الى قاعة « الأحرار » كما كنا نسميهم نحن • كان يوجد دائماً مرضى يسرهم أن يبيعوا نصيبهم من الطعام • وكان الفقر عاماً شاملاً ، لكن الذين يملكون بضع دريهمات كانوا يرسلون من يشتري لهم من السوق خبزاً أبيض أو حلوى • وكان الحراس يشتررون لهم ما يشاءون غير طمعين فى أى نفع •

وكانت أقسى فترة من النهار هى الفترة التى تعقب الغداء • كان بعض السجناء ينامون اذا لم يكن ثمة ما يعملونه ، وكان بعضهم الآخر يشررون أو يشتجرون أو يتبادلون رواية الأقاصيص بصوت عالٍ • فاذا لم يؤت الى القاعة بمرضى جدد أصبح الضجر ثقيلًا لا يحتمل ولا يطلق • حتى اذا جئ بمرضى جديد تحركت القاعة واضطربت ، ولا

سيما اذا كان لا يعرفه أحد من السجناء الراقدين فيها ، فهم الآن
 بتفرون فيه ويحاولون أن يعرفوا من هو ومن أين جاء وما الذى أتى
 به الى السجن . وكان المرضى العابرون هم الذين يثيرون الانتباه ويوقفون
 حب الاطلاع أكثر من غيرهم ، فلقد كان هؤلاء يملكون دائماً مايقصونه
 على السجناء . طبعى أنهم كانوا لا يتكلمون عن شئونهم الخاصة ، واذا
 لم يشرعوا فى حديث عن شئونهم الخاصة من تلقاء أنفسهم ، لم يسألهم
 أحد فى ذلك ، وانما تلقى على أحدهم أسئلة من هذا القيل : « من أين
 جئت ؟ مع من جئت ؟ أى طريق سلكت ؟ الى أين تذهب ؟ » الحج ...
 وكان رفاقنا حين يسمعون ما يقصه القادمون الجدد يتذكرون الأحداث
 التى مرت بهم ، فيأخذون يقصون هم أيضاً ما رأوا وما عملوا ، متحدثين
 خاصة عن القوافل والرؤساء والمراقبين والحراس وما الى ذلك . وفى
 تلك الفترة أيضاً ، قيل المساء ، كان يؤتى بالسجناء الذين تم جلدتهم .
 سبق أن قلت ان ظهور هؤلاء المجلودين كان يوقظ الانتباه ويشحذ
 الاهتمام ويحدث أثراً فى النفوس ، ولكن كان لا يؤتى بمجلودين فى
 كل يوم ، فكنا نشعر بضجر رهيب وسامة قاتلة حين لا يحدث ما يخرجنا
 من الخمول ويخلصنا من الكسل ، فاذا المرضى عندئذ كأنما يحقن كلاً
 منهم أن يرى جاره ، واذا هم فى بعض الأحيان يختصمون ويشجرون .
 وكان يبهج سجناءنا ويفرحهم أن يؤتى الى الفحص الطبى بمجنون ؟
 وكان السجناء الذين يحكم عليهم بالجلد يتظاهرون أحياناً بالجنون ،
 أملاً فى العفو عنهم ، فكانت حيلتهم تفضح ، أو كانوا يقررون من تلقاء
 أنفسهم أن يعدلوا عنها ، فاذا هم بعد أن ظلوا خلال يومين أو ثلاثة
 يقومون بأعمال شاذة غريبة يصبحون على حين فجأة أناساً عقلاء جداً ،
 واذا هم يهدأون ويطلبون الخروج من المستشفى وقد أظلمت وجوههم ؟
 ولم يكن أحد لا من بين السجناء ولا من بين الأطباء يعيب عليهم حيلتهم

أو يذكرهم بجنونهم وانما كانت تسجل أسماؤهم في صمت ويقادون في صمت ، فما هي الا بضعة أيام حتى يعودوا إلينا وقد دمت ظهورهم • على أن الحالات التي من هذا القبيل كنت نادرة • وفي مقابل ذلك كان وصول مجنون حقيقى كارثة تنزل على القاعة ؛ فإذا كان الجمنون مرحاً فراحاً نشيط الحركة يصرخ ويرقص ويفنى استقبله السجناء في أول الأمر بحماسة قائلين وهم ينظرون الى تصعيراته وتكشيراته وتلوياته : « سيكون هذا مسلياً ••• » ولكن المنظر أليم محزن رهيب • اتى لم أستطع في يوم من الأيام أن أنظر الى المجانين محافظاً على هدوئى • وها هي ذى تصعيرات المجنون المستمرة وحركاته المضطربة ما تلبث بعد يومين أو ثلاثة أن تثقل على السجناء فيضيقون بها ويتململون منها • لقد احتفظت في قاعتنا بأحد المجانين مدة ثلاثة أسابيع فأصبحنا لا نعرف أين نخبئ • وانا كذلك اذا بهم يجيئوننا بمجنون ثان أحدث وصوله في نفسى تأثيراً شديداً • حدث ذلك في السنة الثالثة من سجنى • كنت في السنة الأولى من اقامتى بالسجن أو فل في الأشهر الأولى - فقد وقع ذلك في الربيع - قد ذهبت الى الشغل مع جماعة من السجناء صنّاع الأجر لأعمل معهم معاوناً ؛ ذهبت مع تلك الجماعة الى ورشة لصنع القريميد كان ينبغي لنا أن نصلح فرنها اعداداً لأشغال الصيف • وكان ••• كى و «ب» قد عرفانى في ذلك الصباح بمراقبنا العريف أوستروسكى • انه بولندى في نحو الستين من عمره ، طويل القامة نحيل الجسم حسن الهيئة بل وقور مهيب • انه يعمل جندياً في سبيرييا منذ زمن طويل جداً • وكان ••• كى و «ب» * يحبانه ويقدرانه رغم أنه ينتمى الى الطبقة الدنيا من الشعب (انه من عصاة سنة ١٨٣٠) ؛ وكان يرى في جميع الأحيان عاكفاً على التوراة مستغرقاً في قراءتها • تحدثت اليه ، فرأيت في كلامه تعقلاً ورأيت فيه لطفاً • وكانت له في سرد القصص

طريقة شائقة ، وكان شريف النفس طيب القلب ، ثم لم أره بعد ذلك خلال سنتين ، ولكننى سمعت أنه رهن التحقيق ، ثم جىء به ذات يوم الى قاعتنا : كان قد جن . دخل علينا صائحاً ضاحكاً مقهقماً ، وطفق يرقص فى وسط الفرقة وهو يجرى حركات بذئبة تذكر بالرقصة التى تسمى كامارنسكايَا ابتهج السجناء وتحمسوا أما أنا ففكرت بحزن شديد ، لا أدري لماذا ! وبعد ثلاثة أيام أصبحنا لا نعرف ماذا نصنع : انه يشاجر الناس ويقتل معهم ، ويثن ، ويغنى فى وسط الليل ، ثم أصبحت أفواله المقرزة تثير فىنا الغيان كان لا يخشى أحداً وقد قيّد بالأغلال عنوةً ، ولكن وضعنا لم يتحسن من ذلك ، لأنه ظل يشتجر ويقتل مع جميع الناس . وبعد ثلاثة أسابيع أجمعت القاعة كلها على أن تضرع الى رئيس الأطباء أن ينقله الى القاعة الثانية المخصصة للسجناء . ولكن ما ان انقضى يومان حتى أعيد الى قاعتنا تلبيةً لطلب المرضى الذين كانوا فى القاعة الثانية . واذ كان هناك مجنونان فى أن واحد ، كلاهما يجب المشاجرة ويثير القلق ، فقد أصبحت كل قاعة من القاعتين ترسل مجنونها الى الأخرى ، ثم انتهت القاعتان الى تبادل مجنونيهما . ولكن الثانى كان أسوأ من الأول . وقد تنفس جميع المرضى الصعداء حين نقل المجنونان لا ندري الى أين

وما زلت أتذكر مجنوناً ثالثاً غريباً كل الغرابة . فى ذات يوم من أيام الصيف جىء الى قاعتنا برجل يظهر عليه أنه قوى البنية شجاع . انه فى الخامسة والأربعين من عمره . كان وجهه مظلماً حزيناً قد شوّهته بثور الجدري ، له عينان حمراوان محترقتان احتقاناً شديداً . جلس الرجل الى جانبى . انه وديع هادىء مسالم ، لم يخاطب أحداً ، فهو دائم التفكير فى شىء ما كان يشغل باله . فلما هبط الليل اتجه الى بالكلام دون تمهيد ، وأسرع يقول لى ، وقد ظهر عليه أنه يفضى الى

بسر كبير ، ان عليه أن يُضرب فى الغداة ألفى ضربة بالعصا ۞ ولكنه ليس خائفاً ، لأن ابنة الكولونيل ج ٠٠٠ تقوم بمساعٍ فى سبيله . فنظرت اليه مدهوشاً وأجبت به أن حالة كهذه الحالة لا يمكن أن تنفع فيها شفاة ابنة كولونيل ، فى رأيى ٠٠٠ لم أكن قد أدركت بعد أن الرجل الذى أحدثه مجنون ۞ ذلك أنهم قد جاءوا به الى المستشفى مريضاً جسم لا مريض عقل . وسألته عندئذ عن مرضه ، فقال انه لا يعرف عنه شيئاً ، ولكن صحته جيدة ، وان ابنة الكولونيل قد وقعت فى غرامه ، ذلك أنها قد مرت بمركز الحرس منذ أسبوعين ، بينما كان هو ينظر من خلال القضبان الحديدية ، فما ان رآته حتى هامت بحبه . ومنذ تلك اللحظة جاءت الى مركز الحرس ثلاث مرات منتحلة أعذاراً شتى : ففي المرة الأولى جاءت مع أبيها بحجة أنها تريد أن ترى أخاها الذى كان ضابطاً مناوباً ، وفي المرة الثانية جاءت مع أمها بحجة توزيع صدقات على السجناء ، فلما مرت أمامه همست تقول له انها تحبه وانها ستخرجه من السجن . روى لى هذه السخافة ذاكرة تفصيل دقيقة كثيرة ، وكانت القصة كلها من اختراع عقله المختل . كان يؤمن ايما ما كاملاً بأنه سيعفى من العقوبة ؛ وكان يتكلم بكثير من الهدوء والثقة عن الحب الملتهب الذى تضمه له تلك الأنسة . ان هذا الاختراع الخيالى الغريب ، وهو أن تحب فتاة راقية رجلاً فى نحو الخمسين من عمره دميماً هذه الدمامة متجهماً هذا التجهم مشوها هذا التشوه ، يدلنا دلالة واضحة على مدى الفزع الذى أثارته العقوبة فى نفس هذا الانسان الوجل . لعله قد رأى أحداً من بين القضبان حقاً ، فاذا بالجنون الذى بذره الخوف المتعظم فى نفسه ، يأخذ عندئذ شكله ؛ واذا بهذا الجندى الشقى الذى لعله لم يفكر يوماً فى الآفات ، يخترع روايته هذه على الفور ، ثم اذا به يتشبث بهذا الأمل تشبث الفريق بقشة . أصغيت الى كلامه صامتاً ۞

ثم رويت القصة للسجناء الآخرين • فلما سأله هؤلاء عن حقيقة الأمر مستظلمين مدهوشين لزم الصمت ولم يجب بشيء ؛ واستجوبه الطبيب من القد فأكد له المجنون أنه ليس بمريض ، واذ لم يكشف الفحص عن وجود مرض فيه ، سجل الطبيب على بطاقته أنه صالح لمغادرة المستشفى • ولم نعلم بأن الطبيب قد كتب على البطاقة كلمة « معافى » الا بعد خروجه ، فلم نستطع أن نقول له شيئاً • ثم اتنا نحن أيضاً لم تكن نعرف ما به على وجه الدقة ، فانما الذنب الذنب الادارة التى أرسلته إلينا دون أن تشير الى السبب الذى أرسل من أجله الى المستشفى • لقد ارتكبت الادارة بذلك اهمالاً لا يغتفر • ان الذين أمروا بنقل المريض الى المستشفى لا بد أن يكونوا قد لاحظوا عليه شيئاً ما ، ما داموا قد أرادوا أن يوضع المسكين تحت المراقبة • مهما يكن من أمر فقد اقتيد بعد يومين للجلد • ويظهر أنه قد بُهت لهذا العقاب الذى لم يكن فى حسبانته ، فقد كان الى آخر لحظة يعتقد أنه سيحظى بعفو ، فلما جعل أمام صف الجنود طفق يصرخ مستجيراً مستجيداً • ولم يعيدوه فى هذه المرة الى قاعتنا التى لم يكن فيها سرير خال ، وانما أخذوه الى القاعة الأخرى • وقد سألت عنه فعلمت انه ظل خلال ثمانية أيام لا ينطق بكلمة واحدة من شدة شعوره بالخجل والحزن ••• فلما شفى ظهره أرسلوه لا أدري الى أين ، ثم لم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك قط •

فيما يتعلق بالعلاج والأدوية ، أستطيع أن أقول اذا صدق حكى ان أولئك الذين لم يكن بهم مرض خطير كانوا لا يكادون يتبعون أبداً أوامر الأطباء ولا يتجرعون أدويتهم ، على حين أن المصابين بأمراض ذات بال كانوا يحبون أن يعالجوا أنفسهم ، فهم يتناولون أدويتهم شراباً وسفوفاً بانتظام ، مع اثارهم المعالجات الخارجية • كانوا يصبرون على الحجامة والعلق والفصد واللبائح ويشعرون من احتمالها بشيء من اللذة،

فالى هذا الحد يؤمن الشعب ايماناً أعمى بهذه الأنواع من المداواة • وقد لفت نظرى وأثار اهتمامى أمر آخر: ان بعض الناس الذين كانوا يصبرون صبراً جميلاً على آلام العصى والسياط الكريهة لانوا يعضون على شفهم ويشنون حين تجرى لهم حجابة بسيطة • أتراهم قد ألفوا الدلال أم تراهم يمثلون تمثيلاً ؟ يجب أن نعترف أن الحجابة فى مستشفانا كانت تتم بطريقة خاصة ، وفى عهد لا يتذكره الآن أحد ، تلفت الآلة التى يُشقُّ بها الجلد فوراً - أتلفها الممرض أو تلفت من تلقاء نفسها - فأصبح لا بد من الاستغناء عنها بالمبضع • ان حجابة واحدة تحتاج أن يحز الجلد اثنتى عشرة حزة • وهذه الحزات لا تؤلم كثيراً اذا تم اجراؤها بالآلة ، فان للآلة اثنتى عشرة شفرة تشق الجلد دفعة واحدة قبل أن يتسع الوقت للشعور بالألم • ولا كذلك المبضع الذى يشرط الجلد ببطء ويحدث ألماً كبيراً • فاذا احتاج المريض الى الحجابة عشر مرات مثلاً ، كان ينبغي أن يحز جلده مئة وعشرين حزة على التوالى • ولا بد أن يصبح هذا شاقاً أليماً ؟ ولقد عانيت به بنفسي ، فلاحظت أنه مزعج حقاً ، ولكنه ليس مزعجاً الى الحد الذى يستحيل معه على المرء أن يمسك عن التوجع والأنين • لا شئ أبعد على الضحك من رؤية رجال أقوياء يتشكون ويتفجعون ويتلوون على هذا النحو • ألا ان فى وسع المرء أن يشبههم بأولئك الرجال الذين لا يهزمهم انفعال فى شان من الشئون الخطيرة ثم اذا هم فى بيوتهم أصحاب نزوات ، لا يكفون عن الشكاة والشجار لأنفه الأمور ، يرفضون ما يقدم اليهم من طعام ، ويؤنبون ويقرعون وينهرون ، ويمدون كل شئ معوجاً مقلوباً، وتفضيهم وتهينهم وتعذبهم أيسر الترهات ، فكأن فرط الشحم قد أبطرهم كما تقول العامة • ان أصحاب هذه الطباع كثيرون فى السجن ، بسبب الإقامة المشتركة الاجبارية • ولقد كان السجناء يأخذون فى التندر على البطر

من هؤلاء البطرين ، أو يكتفون باغراقه بسيل من الشائم ، فإذا هو
عندئذ يسكت ، كأنه كان لا ينتظر الا ذلك حتى يلزم الصمت . وكان
أوسيتاسيف خاصة يكره التصعيرات والتشكيرات ، فلا تعرض فرصة
من الفرص الا ويتنزهها للتهجم على أصحاب الجلد الرقيق هؤلاء ؛ ثم
انه كان لا ينسى قط أن يرد الناس الى التزام النظام واتباع الأصول .
تلك حاجة لديه ولّدها المرض كما ولّدها الغباء . فكثيراً ما كان يتفق
له أن ينظر اليك محدقاً ، ثم يأخذ يلقنك الدرس بصوت هادئ مقتنع .
وكان يبلغ من اجادة التقرير أن المرء يمكن أن يحسب أنه مكلف
بالاشراف على استتباب النظام . كان السجناء يقولون عنه ضاحكين :

— لا بد له أن يدس أنفه فى كل شىء ! ...

ولكن السجناء كانوا يتحاشونه ويتجنبون أن يتشاجروا معه ولا
يسمحون لأنفسهم بأكثر من سخرية خفيفة ، بين الفينة والفينة .

— ما أكثر ما يتوجع ! انك لتستطيع أن تملأ بشكاواه ثلاث
عربات !

— ان المرء يضع لعبه سدى مع أبله كهذا الأبله . ضربة واحدة
بالمبضع تجعله يجأر ... هلاً صبر قليلاً ! بعد الحرّ يأتى البرد ...
— ما شأنكم أتم آخر الأمر ؟

هكذا جرى الحديث ذات مرة ، فإذا بواحد من السجناء يقاطع
الآخرين قائلاً على حين فجأة :

— لا يا أبنائى ! ليست الحجامه شيئاً ذا بال ... لقد جربتها ...
وانما أصعب التعذيب أن تشد الأذن مدة طويلة ...
فانفجر الجميع مقهقهين .

- فهل شُدَّتْ أذناك مدة طويلة ذلك الطول كله ؟
- طبعاً •

- أفسبب هذا تنصبان اذن عاليتين هذا العلو ؟
ان هذا السجين ، واسمه شابكين ، كان له أذنان طويلتان منتصبتان
حقاً • انه متشرد قديم ، ما يزال شاباً ، وهو ذكى هادىء ، يتكلم مازحاً ،
ولكن مزاحه اللطيف يختفى تحت مظهر من الجدد ، فيضفى ذلك على
أقاصيصه كثيراً من الفكاهة والهزل •

وهذا أوستياتسييف ينهض واقفاً ويستأنف كلامه مستاءً فيقول :
- كيف أستطيع أن أعرف أن أذنك قد شدت أيها النقيب ؟
اتجه اوستياتسييف الى شابكين رغم أن شابكين كان يخاطب الجميع •
ولكن شابكين لم يرض أن يأبه له أو أن يلتفت اليه •
سأله أحدهم :

- من الذى شد أذنك ؟

- من الذى شد أذننى ؟ رئيس الشرطة يا عزيزى ، بسبب التشرد
أيها الرفاق • كنا قد وصلنا الى مدينة ك • • • أنا ومتشرد آخر اسمه
افيم (هذا هو اسمه كله فانه لم يكن له اسم أسرة) • كنا قد استطعنا
أثناء الطريق أن نسطو على شىء عند فلاح فى قرية تولينا • • • نعم توجد
قرية تسمى هكذا • • • تولينا • • • فلما وصلنا الى المدينة ، أخذنا ننظر
حولنا عسى نستطيع أن نضرب ضربة ثم نهرب • ان الانسان فى الحقول
حر كالهواء ، ولا كذلك فى المدينة • • • دخلنا أولاً الى خمارة • • •
ألقينا نظرة ونحن نفتح الباب • • • هذا فتى يقبل علينا • • • انه يرتدى
رداءً ألمانياً مثقب الكمين عند الكوعين • • • تكلمنا فى أمور شتى • • •
قال لنا :

— هل عندكما أوراق ؟ *

— لا *** ليس عندنا أوراق •

— ونحن أيضاً ليس عندنا أوراق • ان معى رفيقين يعملان فى خدمة الجنرال « وقواق » * *** لقد أنفقنا كثيراً فلم يبق معنا قرش واحد ، فهل لى أن أسألكما أن تطلبا لنا لترأ من الخمر ؟
أجبناه :

— على الرحب والسعة ***

شربنا معا • دلتونا عندئذ على مكان نستطيع أن نضرب فيه ضربه طيبة • هو بيت فى آخر المدينة ، يملكه غنى من الأغنياء • فى البيت أشياء كثيرة • قررنا أن نقتحم البيت فى الليل ، فما ان حاولنا أن نفعل ذلك نحن الخمسة • حتى قبضوا علينا واقتادونا الى المركز ثم الى رئيس الشرطة • قال رئيس الشرطة :

— سأستجوبكم بنفسى •

وأخرج غليونه وجيء له بفنجان من الشاي • انه فتى قوى الجسم على عارضيه لحيان جميلتان • جلس رئيس الشرطة • كان هناك ، عدانا نحن الخمسة ، ثلاثة متشردين آخرون قد اقتيدوا الى مركز الشرطة منذ قليل • غريب أمر المتشرد يا رفاق ! انه ينسى كل ما يعمل ؟ ولو هويت على رأسه بهراوة غليظة لأجابهك مع ذلك بأنه لا يعرف شيئاً وبأنه نسي كل شيء • التفت رئيس الشرطة نحوى وسألنى بلهجة حازمة :

— من أنت ؟

فأجبت به بما يجب به جميع المتشردين • قلت له :

— لا أتذكر شيئاً يا صاحب النبالة •

قال :

- انتظر ! ان لى معك لحديثاً ! أنا أعرف هذا الوجه •
- وأخذ يتفرسنى محدقاً • لم أكن قد رأيته مع ذلك فى أى مكان.
- واتجه الى الثانى يسأله :
- ما اسمك ؟
- اسمى يا صاحب النبالة هو « اذهب من هنا » •
- اسمك « اذهب من هنا » ؟
- هكذا يسموننى يا صاحب النبالة !
- طيب انت اسمك « اذهب من هنا » وأنت ؟
- كذلك سأل الثالث فأجابه :
- اسمى يا صاحب النبالة « معه »
- ولكن ما اسمك ؟
- اسمى يا صاحب النبالة « معه » •
- من سماك بهذا الاسم يا وغد ؟
- أناس طيبون يا صاحب النبالة • ما أكثر الناس الطيبين على هذه الأرض ! صاحب النبالة يعرف هذا حق المعرفة
- ولكن من هم هؤلاء الناس الطيبون ؟
- نسيت قليلاً يا صاحب النبالة ! كن كريماً فاغفر لى هذا النسيان!
- اذن نسيتهم جميعاً هؤلاء الناس الطيبين ؟
- جميعاً يا صاحب النبالة •
- لقد كان لك مع ذلك أهل • كان لك أب وأم فهل تتذكرهما ؟

- لا بد أن قد كن لي أهل يا صاحب النبالة • ولكنني نسيت هذا أيضا ! ••• ربما كان لي في الماضي أهل يا صاحب النبالة •
- ولكن أين عشت حتى الآن ؟
- في الغابة يا صاحب النبالة !
- دائماً في الغابة ؟
- دائماً في الغابة •
- وفي الشتاء ؟
- ليس لي شتاء يا صاحب النبالة •
- طيب وأنت ما اسمك ؟
- اسمي « الفأس » يا صاحب النبالة •
- وأنت ؟
- « المِسْنَرُ » يا صاحب النبالة •
- وأنت ؟
- اسمي يا صاحب النبالة « اخرج ولا تخف » •
- ونسيت جميعاً كل شيء ؟
- كل شيء •

ويأخذ رئيس الشرطة في الضحك واقفاً ، ويأخذ الآخرون في الضحك متى رأوه يضحك • غير أن الأمور لا تجري دائماً على هذه الصورة ، فربما انهالوا عليك أحياناً بقبضات أيديهم يضربونك ضرباً يكسر أسنانك • ما أقواهم وما أسمنهم هؤلاء الرجال ! •••

قال رئيس الشرطة :

- خذوهم الى السجن سأهتم بهم فيما بعد •
وأضاف يقول لى :
- أما أنت فابق ! اجلس هناك ! ...
نظرت فرأيت ورقاً وريشة وجبراً • قلت لنفسى : « ما عساه يريد
أن يعمل أيضا ؟ »
كرر يقول لى :
- اجلس ! امسك الريشة و اكتب !
وها هو ذا يقبض على أذنى ويشدها • نظرت اليه كما ينظر
الشیطان الى كاهن ، وقلت له :
- لا أعرف الكتابة يا صاحب النبالة !
فقال :
- اكتب •
قلت :
- رحماك يا صاحب النبالة !
قال :
- اكتب كما تستطيع ! اكتب !
وظل يشد أذنى ، يشدها ويعقفها • آه يا رفاق ! لو خيرت بين
شد الأذن هذا وبين تلقى ثلاثمائة جلدة لآثرت الثانية • عذاب كعذاب
جهنم ! وظل يقول لى : اكتب ! ...
سأل السجناء صاحبهم شابكين :
- أترأه جن ؟
فأجاب شابكين :

- لا يا أصحابي ! ان أحد الموظفين كان قبل ذلك بزمان يسير قد ضرب ضربة في مدينة توبولسك •• سرق صندوق الحكومة وفسر بالمال ! كان له هو أيضاً أذنان طويلتان • وقد أبلغت جميع مراكز الشرطة النبأ فكانت أوصافى تتفق وأوصاف السارق ! ذلكم هو السبب في أنه عذبنى ذلك التعذيب بقوله : اكتب ! أراد أن يعرف هل كنت أحسن الكتابة وكيف كانت كتابتى •••

صاح أحد السجناء يقول :

- يا للماكر ! هل أوجعك ؟

- لا تذكرونى •

وانفجر الجميع يقهقهون • سأل أحدهم :

- وهل كتبت ؟

- ماذا كان فى وسعى أن أكتب ؟ لقد أجريت قلمى على الورق فما زلت أجريه حتى كف عن تعذيبى : انهال على بدسته من الصفحات المتنازة ثم تركنى أذهب ••• الى السجن طبعاً •

- وهل تحسن الكتابة حقاً ؟

- نعم كنت أحسن الكتابة • كيف لا ؟ ولكننى منذ استعملت الأفلام

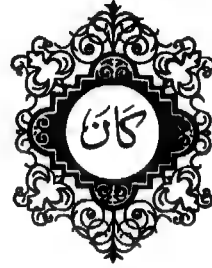
نسيت نسياناً تاماً ! •••

تلكم هى الحكايات أو قولوا الثرائرات التى كنا نقتل بها الوقت • رباه ! ياله من ضجر رهيب ! يا له من سأم مميت ! كانت الأيام طويلة خائفة رتيبة ! كانت متشابهة تشابهاً فظيماً ! ليتنى كنت أملك كتاباً على الأقل ! ومع ذلك كنت أذهب الى المستشفى أحياناً كثيرة ، ولا سيما فى بداية عهدي بالسجن ، اما عن مرضى واما تشدناً للراحة وابتغاء للخروج من السجن • كانت الحياة فى السجن أليمة ، كانت أشد ايلاماً من الحياة

فى المستشفى ، ولا سيما من الناحية النفسية • فى السجن كانت تقابلنى دائماً تلك البغضاء وتلك العداوة وتلك الرغبة فى المشاجرة والاستفزاز والتحدى التى تتأجج فى نفوس السجناء حين يروننا نحن النبلاء *** كنت أرى دائماً تلك الوجوه المهددة المتوعدة الكارهة المبغضة • أما فى المستشفى فنحن نعيش على الأقل رفاقاً متساوين • وكانت الأمسيات وبدايات الليل أقسى لحظات اليوم • كنا نرقد فى ساعة مبكرة *** هذا سراج أَدخَن تَهتز أشعته فى اخر القاعة قرب الباب كنقطة ساطعة ، ونحن فى ركننا غارون فى ظلمة توشك أن تكون تامة • الهواء فاسد موبوء خائق • بعض المرضى لا يجدون سيلاً الى النوم ، فهم ينهضون ويلبثون جالسين على سررهم ساعة كاملة مطرقين كأنهم يفكرون فى شئ • انتى أنظر اليهم وأحاول أن أحزر ما يفكرون فيه بغية أن أقتل الوقت ، ثم آخذ أحلم ، أحلم بالماضى ، فيعرض لخيالى لوحات قوية عريضة ، وأتذكر تفاصيل ما كان لى أن أتذكرها فى ظرف آخر وما كان لها أن تحدث فى نفسى تأثيراً عميقاً كالتأثير الذى تحدثه فى نفسى الآن ؟ وأحلم بالمستقبل فأُتسائل : « متى سأُخرج من السجن ؟ أين سأُضى ؟ ما الذى سيحدث لى حينذاك ؟ هل أعود الى بلدى مسقط رأسى ؟ *** » • وأفكر ثم أفكر ويأخذ الأمل ينبت فى نفسى • وفى مرة أخرى أخذت أعد : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، الخ ، بغية أن أنام أثناء العد • كنت أصل أحياناً الى ثلاثة آلاف ثم لا أستطيع أن أغفو ! هذا اوستيانيسيف يسعل ذلك السعال الفاسد المتفسخ المعهود فى المصدورين ، ثم هذا هو يشن أنينا ضعيفاً ويتمم كل مرة قائلاً : « رباه قد أئمت ! » يالهذا الصوت المريض الواهى المضعف المتكسر ما أشد الذعر الذى يثيره سماعه فى النفس وسط الهدوء الشامل ! وهؤلاء مرضى فى ركن من الأركان لم يستطيعوا أن يناموا بعد ، فهم يتحدثون بصوت خافت

مضطجعين على مراقدهم • ان واحداً منهم يقص ماضيه ، يروي أشياء بعيدة منقضية ، يتكلم عن تشرده ، عن أولاده ، عن امرأته ، عن عاداته القديمة • ويدرك السامع من لهجة الرجل أن لا شيء من هذا كله سيعود بعد الآن ، وأن لا شيء من هذا كله سيوجد بالنسبة إليه في يوم من الأيام ، وأنه عضو من الأعضاء بُتر ورمى • ان سجيناً آخر يصفي إليه • الحديث يجرى وشوشة ضعيفة ، همساً واهناً ، كخزير الماء في مكان ما ، هناك ، بعيداً جداً • • • أذكر أنني في ذات مرة ، أثناء ليلة طويلة من ليالى الشتاء لا نهاية لطولها ، سمعت قصة بدت لي في أول الأمر حلماً يتمم به وائي أثناء كابوس ، حلماً يراه صاحبه أثناء نوبة حمى ، أثناء هذيان • • • •

زوج الرجل قصة



ذلك فى وقت متأخر من الليل ، بعد الساعة
الحادية عشرة • كنت قد نمت منذ زمن فاذا أنا
أستيقظ منتفضا • ان الضوء الكابى الضعيف
الذى ينشره السراج البعيد لا يكاد يضىء
الغرفة ••• وكان جميع الناس تقريباً قد ناموا ، حتى اوستيانسيف *
كنت أسمع فى هدأة الليل تنفسه الشاق الصعب ، وأسمع حشرات
حلقه عند كل شهيق • لقد ترجع فى حجرة المدخل وقع الأقدام الثقيلة
البعيدة ، أقدام دورية الحراسة التى كانت تقترب • وهذا أخمص بندقية
يقرع الأرض قرعاً أصم • فُتح الباب ، وعدَّ العريف المرضى وهو يسير
محاذراً ، فما هى الا دقيقة حتى عاد يفلق الباب • وحل محلّه عسس
جديد • ابتعدت الدورية وران الصمت من جديد • عندئذ فقط لاحظت
على مسافة غير بعيدة منى سجينين لم يناما وكأنهما يتهاوسان بشيء • انه
ليتفق أحيانا لسجينين يرقد أحدهما الى جانب الآخر ، دون أن يكونا قد
تبادلا كلمة واحدة خلال أسابيع بل خلال أشهر بكاملها ، أن يشرعا فى
حديث على حين غرة وسط الليل فاذا بأحدهما يقص على صاحبه ماضيه •

لعلهما كانا يتحدثان منذ مدة طويلة • اننى لم أسمع بدايه
حديثهما ولا أدركت كل شيء من الوهلة الاولى • ولكننى ألفت هذا
الهمس شيئاً فشيئاً ففهمت القصة كاملة • لم تكن بى رغبة فى النوم فما
عساي افعل الا ان أصغى ؟ • • • كان أحد الرجلين يقص على صاحبه
حكايته بجرارة ، راقداً على سريره نصف رقداً ، رافعاً رأسه ، مائلاً
به نحو صاحبه • كان واضحاً أن فى نفسه غلياناً شديداً واهتياجاً قويا •
كان يحب أن يتكلم • أما صاحبه فقد كان جالساً على سريره مظلم
الوجه قليل الاكتراث باسطاً ساقيه على الفراش يجيب رفيفه من حين الى
حين ببضع كلمات من قبيل اللبافة ويستشقى فى كل لحظة شيئاً من
سقوط يتناوله من علبة خاصة • انه الجندى تشيريفين الذى
ينتمى الى فئة التأديب ، وهو امرؤ متحلق متجهم الوجه بارد
الشعور مباحك غبى أنانى ؟ أما صاحبه الذى كان يروى قصته فهو
سجين مدنى اسمه شيشكوف ، فى نحو الثلاثين من عمره ، لم التفت اليه
قبل ذلك فى يوم من الأيام ، ولا شعرت نحوه طول مدة اقامتى فى السجن
بشيء من الاهتمام ، ذلك أنه كان رجلاً ضحل العقل طائش اللب • كان
فى بعض الأحيان يلبث صامتاً أسابيع بكاملها كئيب المزاج فظ المعاملة
شرس الطبع ثم اذا هو يتدخل فى امر من الأمور على حين فجأة فيشير
الضجة والصخب ويتحمس لأتفه الترهات ويهرف بما لا يعرف ويتنقل
من ثكنة الى ثكنة يفتاب الناس ويرسل هاجر القول ويبدو خارجاً عن
طوره ، حتى اذا ضربوه عاد يلزم الصمت من جديد • واذ كان نذلاً
جباناً فقد كان السجناء يعاملونه باحتقار • انه رجل قصير القامة نحيل
الجسم له عيان زائعتان أو قل حالمتان على غباوة وبلاهة • كان اذا حكى
شيئاً من الأشياء اندفع يتكلم بجرارة وحرك ذراعيه ثم اذا هو يتوقف
عن الكلام فجأة أو ينتقل الى موضوع آخر فيضيع فى تفاصيل جديدة ثم

ينسى أخيراً الموضوع الذى كان يتكلم فيه • وكان شيشكوف كثير المشاجرة ، حتى اذا أخذ يعاتب خصمه تكلم بلهجة عاطفية ، وأوشك أن يبكى • وكان يحسن العزف على البالايكا ويحبها حباً عظيماً حتى لقد كان يرقص فى أيام الأعياد فيحسن الرقص اذا دعاه الى الرقص أحد أو حضه عليه ••• (ما أسرع ما كان يستطيع غيره أن يحمله على فعل ما يشاء لا لأنه كان طبعاً بل لأنه يحب ان يكون له رفاق وان يرضيهم) •

لبث زمناً لا أستطيع أن أفهم ما كان يقصه شيشكوف • وكان يبدو لى أنه لا ينفك يترك موضوعه ويمضى يتكلم فى موضوع آخر • لعله كان قد لاحظ أن تشيريفين لا يصنى الى قصته كثيراً ولكننى أعتقد أنه كان يريد أن يتجاهل قلة الاكترات هذه من جانب تشيريفين وان لا يتأثر بها أو يستاء منها •

تابع كلامه يقول :

- ••• فكان اذا مضى الى السوق حيّاه جميع الناس وعظموه وبعجلوه ••• رجل واسع الثراء عريض الغنى ! •••
- قلت انه كانت له تجارة ؟

- نعم تجارة ! الصناع عندنا فقراء : هم الفاقة بعينها • النساء يذهبن الى النهر فيجئن بالماء من مكان بعيد جداً يسقين به حدائقهم ويضنن أجسادهن ويرهقن أنفسهن ومع ذلك لا يملكن حين يأتى الخريف ما يصنعن به حساءً بالكرب • هى حالة دمار كامل • ولكن ذلك الرجل كان يملك قطعة كبيرة من الأرض يفلحها عماله الثلاثة ، وكان يملك عمائر نحل يبيع عسلها وكان يتعاطى تجارة الماشية ••• الخلاصة كان الناس عندنا يحترمونه ويكبرونه • وكان طاعناً فى السن أشيب الشعر تماماً • انه فى السبعين من عمره • فعظامه الهرمة تنوء بحمل

هذه السن • كان اذا جاء الى السوق مرتدياً فروته المصنوعة من جلد الثعلب حيّاه جميع الناس قائلين :

• - يومك سعيد يا أنكوديم تروفيتمش •

• - يومك سعيد ، كيف صحتك ؟

• كن لا يحقر أحداً •

• - أطل الله بقاءك يا أنكوديم تروفيتمش !

• - كيف أحوالك ؟

• - حسنة بمقدار ما يكون السخام أبيض وكيف أحوالك أنت

يا أنكوديم تروفيتمش ؟

• - نعيش لخطايانا ... تعب كاهل الأرض ...

• - أطل الله عمرك يا أنكوديم تروفيتمش •

• كان لا يحقر أحداً • كانت نصائحها ثمينة • كل كلمة من كلماته

تساوى روبلاً • وكان قراءاً من الطراز الأول ، لأنه كان عالماً ... كان

لا ينفك يقرأ كلام الله ... كان ينادى امرأته المعجوز فيقول لها :

• - اسمعي يا امرأة ! افهمي ما أقوله لك ...

ثم يمضي يشرح لها • ولم تكن المعجوز ماريّا ستيانوفنا عجوزا ان

شئت ، فهي امرأته الثانية تزوجها لينجب منها ، لأن امرأته الأولى لم

تلد • كان له ابنان ما يزالان صغيرين ، فان الثاني فاسيا قد ولد حين

شارف أبوه على الستين ، وكانت ابنته آكولكا • كبرى أولاده ، في الثامنة

عشرة من عمرها •

سأل تشيريفين صاحبه شيشكوف :

- هي زوجتك ، أليس كذلك ؟

- انتظر لحظة • أخذ فيلكا ماروزوف يضح ويصخب • قال
لأنكوديم :

« - هلمّ نقسم! أرجع الىّ روبلاتى الأربعمائة ! أنا لست أجيرك،
ولا أحب أن أتاجر مذك ، ولن أتزوج ابنتك آكولكا ! أريد أن أقصف،
ولأشربنّ خمراً بمالى كله بعد أن مات أبواى ؛ ثم أوّجر نفسى ، أى
أخسر جندياً فى الجيش ، فما هى الاّ عشرة سنين حتى أعود الى هنا
ضابطا كبيرا برتبة فيلد مارشال •

رد اليه أنكوديم ماله ، رد اليه كل ما كان له عنده • ذلك انه كان
فى الماضى يتاجر مع والد فيلكا برأس مال مشترك • رد اليه ماله
وقال له :

« - أنت يا بنى رجل ضائع •

فأجابه الشاب :

« - سواء أكنت ضائعاً أم لم أكن ياذا اللحية الشيباء ، فانك أكبر
يخيل عرفته فى حياتى ! انك تريد أن تصنع فروة بأربعة كوبيكات !
تضم القرش الى القرش وتلتقط من الأرض كل الأوساخ التى يتصورها
الخيال لتستعملها وتتفع بها ! اننى أريد أن أبصق على هذا ! انك تدخر
وتكنز لا يدري الاّ الشيطان لماذا ! أما أنا فصاحب ارادة قوية وعزيمة
جبارة ! ولن أتزوج ابنتك آكولكا ! يكفينى أننى نمت معها ... »

« - كيف تجرؤ أن تلتطخ بالعار أباً شريفاً وفتاة شريفة ؟ متى نمت
معه يا شحم أفعى ، يا دم كلب ؟

كذلك قال له أنكوديم وهو يرتجف غضبا (ان فيلكا هو الذى
روى ذلك فيما بعد) • وأردف فيلكا يقول للشيخ :

« - لن يكفينى أن لا أتزوج ابنتك بل سأفصل كل ما يجب أن أفعله من أجل أن لا يتزوجها أحد حتى ولا ميكتا جريجورينش ، لأن شرفها قد تلطخ ! لقد عاشرتها منذ الخريف الماضى . ولكننى لن أتزوجها بحال من الأحوال • لو أعطيتنى ملك الدنيا ما تزوجتها ! ... »

وأخذ الفتى يلهو ويقصف مستكبراً مستعلياً مدلاً بنفسه ! وصاحت المدينة كلها متفجعة متوجعة • وأصبح للفتى رفاق يحشدون حوله لأنه يملك مبلغاً كبيراً من المال • وظل ثلاثة أشهر ينفق متلفاً مبدراً حتى أتى على آخر قرش فى يده • كان يقول : « أريد أن أرى نهاية هذا المال ، وبعد ذلك سأبيع البيت ، وسأبيع كل شىء ، ثم أنخرط جندياً فى الجيش ، أو أضرب فى الارض متشرداً » • كان يسكر من الصباح الى المساء ويتنزه فى عربة يجرها حصانان وتجلجل فيها أجراس وكانت الفتيات هى التى تحبه لأنه كان يجيد العزف على التوربا ... »

سأل شيريفين رفيقه :

- هل صحيح أنه كان قد عاشر آكولكا تلك ؟

- انتظر ! رجعت من دفن أبى • كانت أمى حينئذ تصنع كعكاً • كنا نعمل لحساب أنكوديم فكان هذا يدر علينا ما يقيم الأود • غير أن حياتنا كانت شاقة • كن لنا أرض وراء الغابة نزرعها قمحاً • ولكن حين مات أبى رحلت ألهو وأقصفت فكنت أجبر أمى على أن تعطينى مالاً بضربها ضرباً مبرحاً ... »

- أخطأت اذ ضربتها ! ذلك اثم كبير ! ... »

- كنت فى بعض الأحيان أظل ثملاً طوال النهار • وكان لنا بيت لا بأس به • صحيح أنه متداع عفن ، ولكنه ملك لنا • وكنا نتصور جوعاً

... كانت تنقضي أسابيع بكاملها ونحن لا نملك ما نسد به رمقنا • وكانت أمي ترهقني بسخافاتنا وتقتلني بحماقاتها ولكنني لم أكن أبالي • • • كنت لا أترك فيلكا ماروزوف • وانما نبقى معاً في الليل والنهار • كان يقول لي :

« - اعزف لي على القيثارة ، وسأظل أنا مضطجماً وسأرمي لك مالا »
لأنني رجل غني •

كان لا ينفك يتكرر ويخترع ، ولكنه لا يمد يده الى مال مسروق ، فهو يقول :

« - ما أنا بسارق ! أنا رجل شريف !

وكان يهيب بنا قائلاً :

« - هلموا نلطح باب آكولكا بالقطران * لأنني لا أريد أن تتزوج ميكيثا جريجوريتش ! أنا أحرص على هذا الآن أكثر مما كنت أحرص عليه في أي وقت مضى • • •

وكان الشيخ يريد منذ زمن طويل أن يزوج ابنته ليكيثا جريجوريتش : هو رجل متقدم في السن ماتت عنه امرأته ، يعمل تاجراً ويضع على عينيه نظارتين • • • فلما سمع ما أشيع عن سوء سلوك آكولكا قال للشيخ :

« - سيكون ذلك عاراً كبيراً عليّ يا أنكوديم تروفيمتش • ثم انني لا أريد أن أتزوج الآن فقد تجاوزت سن الزواج •

لطحنا باب آكولكا بالقطران • وضربوا آكولكا في البيت بسبب ذلك حتى كادت تموت • كانت أمها ماريا ستيانوفنا تصيح قائلة : « لسوف يقتلني هذا العار قتلاً • • » وكان أبوها الشيخ يقول : « لو أننا في عهد

البطارقة لكان من حقى أن أقطعها تقطيعاً ولكن كل شيء فى هذا الزمان قد استحال عفونة وفساداً على هذه الأرض * وكان الجيران فى بعض الأحيان يسمعون عويل آكولكا من أول الشارع الى آخره * كان أهلها يجلدونها من الصباح الى المساء * وكان فيلكا ينادى فى السوق قائلاً لجميع الناس :

« - ما أحسن هذه البنت آكولكا رفيقة سكر ! ... لقد صفعتهم على بوزهم ولسوف يتذكروننى ما عاشوا !
وفى ذات يوم صادفت آكولكا ذاهبة تملأ قواديسها ماءً فصحت أقول لها :

- نعمت صباحاً يا آكولينا كوديموفنا ! تحية لطهارتك ! قولى لى مع من تعيشين ومن أين تعيشين بالمال حتى تتبخرى هذا التبخر ؟
قلت لها ذلك ولم أضف شيئاً * فنظرت الى محملقة بعينين واسمتين * كانت قد نحلت نحولاً شديداً حتى أصبحت كالعود هزلاً * لم تزد على أن نظرت الى * ولكن أمها التى ظنت أنها كانت تمازحنى صاحت تناديه من على عتبة الباب قائلة لها :

- ما حديثك معه يا قليلة الحياء ؟
وعادت فى ذلك اليوم تضربها من جديد *
كانت تضربها فى بعض الأحيان ساعة كاملة وتقول : « أنا أجلبدها لأنها لم تعد بنتى » *

سأله تشيريفين :
- كانت اذاً فاجرة ؟

- انتظر حتى أحكى لك يا صاحبى ! كنا لا نريد على أن نسكر مع فيلكا * وفى ذات يوم ، بينما كنت راقداً ، جاءت أمى وقالت لى :

– لماذا تظل راقداً أيها الوجد ، أيها اللص ؟
شتمتني في أول الأمر ثم قالت لي :
– تزوج آكولكا ! لسوف يسرهم أن يزوجوكها ولسوف يدفعون
لك بائنة قدرها ثلاثمائة روبل •

فأجبتها بقولي :

– ولكن جميع الناس يعلمون الآن أن شرفها ملطخ •
– حيوان ! هذا كله يزول متى وضع على رأسها اكليل الزواج !
ثم ان ذلك سيجعل حياتك معها أفضل ، فستظل ترتعد خوفاً منك طول
عمرها ، وسنعيش من مالها في يسر وبجـوحة • لقد كلمت ماريا
ستيانونفنا في أمر هذا الزواج واتفقنا •

قلت لها :

– اذا أعطيتني عشرين روبلاً على الفور تزوجتها •
لك أن لا تصدق اذا شئت ، ولكن الحقيقة هي أنني ظلمت سكراناً
الى يوم الزواج • وكان فليكا ماروزوف ما ينفك يهددني ويتوعدني
ويقول لي :

– لأحطمن أضلاعتك أيها الحقير الذي ارتضى أن يكون خطيب
آكولكا ، ولأضاجنّها كل ليلة اذا شئت !

أجبتة بقولي :

– أنت تكذب يا كلب •

لقد جللني بالعار أمام جميع الناس في الشارع • هرعت الى البيت •
أصبحت لا أريد أن أتزوج ما لم أعط خمسين روبلاً على الفور •

قال تشيريفين :

- وهل زوجوك اياها ؟

- زوجوني اياها ؟ لم لا ؟ نحن أناس لم يدنس شرفنا • ان حريقاً هو الذى دمر أبى قبل موته بقليل ، حتى لقد كن أبى أغنى من أنكوديم تروفيتمش • قال لى الشيخ أنكوديم :

- خليك بمن كان مثلك بلا قميص أن يسمده كثيراً أن يتزوج ابنتى •

فأجبهته :

- هل نسيت أن بابك قد لطح بالقطران ؟

- ما هذا الذى تقوله ؟ برهن لى على أن شرفها قد دنس • • اليك الباب على كل حال ، فاذهب ان شئت ! ولكن ردّ الى المال الذى أعطيتك اياه •

قررنا عندئذ مع فيلكا باروزوف أن نرسل مثرى بيكوف الى الأب أنكوديم ليقول له اننى سأشهّر بابنته أمام جميع الناس • وظللت حتى يوم الزواج لا أفيق من السكر • ولم أصح الا فى الكنيسة • حين أرجعونا من الكنيسة أجلسونا وقال عمها متروفان ستينانتش :

- لقد تم الأمر وانتهى رغم أنه غير نظيف •

كان الشيخ أنكوديم جالساً يبكى والدموع تسيل على لحيته البيضاء • واليك أيها الرفيق ما كنت قد فعلته أنا : وضعت سوطاً فى جيبى قبل الذهاب الى الكنيسة عازماً على أن أبهج قلبى باستعماله بغية أن يعلم الناس أن أحداً لم يستطع أن يغربى وأن يخذعنى وبغية أن يعرفوا هل أنا غبى حقاً •

قال تشريفين :

- مرحى ... وبغية أن تدرك هي ماذا ينتظرها *

- مهلاً يا صاحبي ! لقد جرت العادة عندنا أن يقاد الزوجان بعد حفلة الزواج رأساً الى غرفة على حدة ، بينما يبقى الآخرون يشربون منتظرين عودتهما * تركونا نختلى * كنت آكولكا ممتعة الوجه صفراء اللون مذعورة ذعراً شديداً ليس في خديها قطرة من دم * وكان شعرها ناعم اللمس أشقر اللون وكانت عيناها واسعتين جداً * ان آكولكا تصمت في جميع الأحيان تقريباً ، لا تكاد تتكلم ، حتى لقد يُظن أنها خرساء * عجبية آكولكا هذه ! لك أن تتصور الموقف : كان سوطى مهياً على السرير * فهل تعلم ما الذي اكتشفته ؟ اكتشفت أنها بريئة ... بريئة كل البراءة ... لا أستطيع أن آخذ عليها شيء ... لقد كانت عذراء ...

- غريب !

- فعلاً ! كانت عذراء كأية فتاة عذراء شريفة * فلماذا أيها الأخ * لماذا تحملت ذلك العذاب كله ؟ لماذا شهّر بها فيلكا ماروزوف مفتشياً عليها ؟

- حقاً ! لماذا ؟

- عندئذ نزلت عن السرير ، وركعت أمامها ضاماً يديَّ احداهما الى الأخرى ، وقلت لها :

- غفرانك يا آكولينا كوديموفنا ! سامحيني ، فقد كنت في غاية الحماقة والغباء والبلاهة حين صدقت تلك الوشائيات كلها ! عفوك عفوك ... ان أنا الا وغد ! ...

كانت جالسة على السرير تنظر الى ، فوضعت يديها على كتفي ،

وأخذت تضحك ، ومع ذلك كنت الدموع تسيل على خديها ••• كانت
تتشجع وتضحك في آن واحد ••• ثم خرجت الى الناس وقلت لهم
جميعاً :

– ويل لفيلكا ماروزوف ! لو رأيته لاتنقل فوراً الى العالم الآخر !

فرح الأبوان فرحاً لا يوصف حتى أصبحا من شدة الفرح لا يعرفان
ماذا يقولان • أوشتك أم آكولكا أن ترمي على قدمي ابنتها وكانت
تشجع شجيعاً قوياً • وقال الشيخ لابنته : « لو علمنا وعرفنا هذا كله
يا ابنتنا الحبيبة ! ارتضينا لك مثل هذا الزوج » • ليتك رأيت ملابسنا
ونحن نخرج من الكنيسة في أول أحد من ايام الأحاد بعد زواجنا •
كنت أنا أردى قفطاناً من فاخر الجوخ وأضع على رأسي فبعة من فراء
وأزين أكمامي برائع المخمل ، وكانت هي تلبس معطفاً جديداً من
فراء الأرنب وتجلل رأسها بوشاح من حرير • زوجان متكافئان • كان
الناس جميعاً ينظرون إلينا معجبين • كنت حسن المظهر وسيم الطلعة •
وكذلك كانت آكولينوشكا • ما ينبغي للمرء أن يمتدح نفسه وأن يفاخر
بها ولكن ما ينبغي له أيضاً أن يفرض من قدره وأن يحط من قيمته ••
ليس بين الأزواج دستات كثيرة منا •••

– طبعاً

– طيب ! اسمع التهمة • في غداة زواجنا هربت من ضيوفى رغم
سكرى وطفقت أركض في الشوارع صائحاً : « أين ذلك الوغد فليكا
ماروزوف ! اتنوى بهذا الحقير ؟ ألا فليجئ الى هذا النذل ! كنت أعول
بهذا الكلام في السوق • يجب أن أذكر لك اننى كنت في حالة سكر
شديد • قبضوا علىّ مع ذلك قرب منزل أسرة فلاسوف • احتاجوا الى
ثلاثة رجال من أجل أن يرجعوني الى البيت عنوة • صارت القصة حديث

الناس كلهم فى المدينة • أصبحت الفتيات اذا التقى بعضهن بعض فى السوق تقول احداهن للأخرى : « هل علمت ؟ ان آكولكا عذراء ! » • وبعد ذلك بزمان قصير صادفت فليكا ماروزوف فقال لى جهازاً على رؤوس الأشهاد أمام غرباء :

- ما عليك الا أن تباع زوجتك فبشترى بـمنها خمراً • افعل ما فعله الجندى ياشكا ! انه لم يتزوج الا لهذا الغرض ، حتى أنه لم يضاجع امرأته مرة واحدة ، ولكنه على الأقل حصل على مال وفير يسكر به مدة ثلاث سنين ***

أجبتة :

- نذل •

فقال لى :

- غبى • لقد تزوجت وأنت فى حالة سكر لا تملك عقلك وشعورك ولم يكن فى وسعك أن تفهم شيئاً وأن تدرك الحقيقة •

وصلت الى البيت وصرخت أقول لهم :

- لقد زوجتمونى وأنا سكران •

أرادت أم آكولكا أن تتشبت بى ولكننى قلت لها :

- اليك عنى يا امرأة فانك لا تفهمين الا شؤون المال ! هاتى لى آكولكا ! وعندئذ انما أخذت أضربها *** ظلتت أضربها يا صاحبى ساعتين كاملتين الى أن تهاويت أنا نفسى على الأرض ولم تستطع هى بعد ذلك أن تبارح السرير خلال ثلاثة أسابيع •

قال تشيريفين ببرود :

- طبعاً اذا لم تضربهن فانهن ••• هل وجدتها مع عشيقها ؟
قال شيشكوف بعد صمت وهو يتكلم فى عناء :
– أبدا يا صاحبي ! لم يقع شيء من ذلك فى يوم من الأيام ! ولكننى
شعرت بمهانة كبيرة ومذلة شديدة لأن جميع الناس كانوا يسخرون منى •
ان فيلكا هو سبب ذلك كله • كان يقول لى :
– انما خلقت امرأتك ليستمتع بها الآخرون •
وفى ذات يوم دعانا الى بيته وها هو ذا يبدأ فيقول :
– انظروا الى هذه المرأة الطيبة ما أعظم رقتها وحنانها ونبلها وأدبها
وعاطفتها وكرمها مع جميع الناس ! أترك نسيت يا صاحبي أننا لطفنا
بابهم بالقطران معاً •
كنت حينئذ فى حالة سكر شديد • وها هو ذا يمسك شعري
ويشدنى شدا قويا يضطرنى الى التمدد على الأرض دفعة واحدة وها هو ذا
يقول لى : هيا ارقص يا زوج آكولكا • أنا أمسك شعرك وأنت ترقص
لتسلىنى وتسرى عنى •
– سافل
– سأجىء اليك مع الأصحاب أجسد امرأتك آكولكا ما شاء لى
هواى ذلك •
هل تصدق يا صاحبي لقد مكنت فى البيت شهراً بكامله لا أجرؤ
أن أخرج مخافة أن يجيء إلينا فتقع لامرأتى جرسه • وما أكثر
ما ضربتها أثناء ذلك !
– وعلام تضربها ؟ ان المرء يستطيع أن يوثق يدي امرأة ولكنه

لا يستطيع أن يعقل لسانها • ما ينبغي الاسراف في ضرب النساء ،
أضربها أولاً من قيل التأديب ثم داعبها بعد ذلك ، ان المرأة خلقت
لهذا •

لبث شيشكوف صامتاً بضع لحظات ثم تابع يقول :

- كنت أشعر بمهانة كبيرة ومذلة شديدة • استأنفت عاداتي
القديمة • أصبحت أضربها من الصباح الى المساء متعللاً بأتفه الأسباب ،
أضربها لأنها لم تنهض كما أحب أن تنهض ، أو لأنها لم تمش كما يجب
ان تمشي ••• صرت اذا لم أضربها أحس بضجر شديد وسام كبير •
كانت في بعض الأحيان تمكث جالسة قرب النافذة تبكي بكاءً صامتاً فكان
يحزنني أحياناً أن أراها تبكي ولكنني أظل أضربها مع ذلك • كانت أمها
تقرعني وتسبني بسبب هذا فتقول لي :

- أيها النذل يا غراب الشؤم •••

فأجيبها :

- اسكتي ! لا تنطقي بكلمة واحدة والا أجهزت عليك ! لقد
زوجتمونيها وأنا سكران فخذتموني وغششتموني •
- أراد الشيخ أنكوديم في أول الأمر أن يتدخل في القضية • فقال
لي ذات يوم :

- حذار حذار ! ما أنت بمن لا يمكن رده الى الصواب •••

ولكنه لم يلبث أن اتشى عن عزمه • وأخذت ماريا ستيانوفنا تعتمد
الى الرقة واللفظ والدمائة • جاءتني ذات مرة باكية وقالت لي :

- اسمع يا ايفان سيموتش ! ان قلبي محطم ألماً وحزناً •

ما سأطلبه منك لا قيمة له عندك ، ولكنني أحرص عليه كثيراً . اصرفها بالحسنى يا بنى ، دعها تذهب .

قالت العجوز ذلك ثم جث وأضافت تضرع الى :

- هدىء روعك . اغفر لها . لقد افترى الأشرار عليها فوصموها بما ليس فيها . وأنت تعلم حق العلم أنها كانت عذراء حين تزوجتها .

وطفقت الأم تبكى وأصررت أنا على عنادى فقلت لها :

- لا أريد أن أسمع شيئاً وسأفعل بكم ما يحلو لى أن أفعله لأننى خارج عن طورى لا أستطيع كبح جماح نفسى . أما فيلكا ماروزوف فهو خير صديق لى ، وهو أعز اسنان على نفسى .

قال تشريفين :

- هل استأفتما السكر معاً ؟

- مستحيل ! لقد أصبح لا يمكن الاقتراب منه ! لقد أدى به الشرب الى ما يشبه الجنون . أنفق كل ما يملك وارتضى أن يجند فى الجيش بديلاً لفتى من أغنياء المدينة . والعادة عندنا أن الشاب الذى يقبل أن ينوب عن شاب آخر فى الجندية يصبح سيد البيت ، ويصبح الأمر والنهى ، الى أن يساق الى الجندية . انه يتقاضى المبلغ المتفق عليه يوم سفره ، ولكنه بانتظار ذلك يعيش فى منزل مولاه ، وقد يقضى فى هذا المنزل ستة أشهر كاملة . وما من فطاعة من الفطاعات يتورع عن ارتكابها أمثال هؤلاء الفتيان ! ألا انه لينبغى فى مثل هذه الأحوال أن تنقل من البيت جميع الصور المقدسة . ان الفتى من هؤلاء الفتيان حتى قبل أن يكون بديلاً لابن رب البيت فى الجندية يعد نفسه صاحب فضل عظيم ونعمة كبرى ، ويستقد أن من حقه أن يحاط بجميع أنواع

الاحترام ، والا نكل عن وعده ونكص على عقيبه • هكذا كان فلكا ماروزوف لا يتورع عن شيء في منزل ذلك الرجل ، فهو ينام مع الفتاة ، ويمسك رب البيت من لحيته بعد العشاء ، ويفعل كل ما يخطر بباله أن يفعله • كان على أهل الدار أن يوقدوا له حمام البخار كل يوم ، وأن يضيفوا الى الحمام خمرا • وكان على النساء أن يأخذنه الى الحمام مسنّدا من تحت ابطيه • وكان اذا عاد الى المنزل بعد أن قصف وشرب يتوقف في وسط الشارع ويجأّر قائلا :

- لا أريد أن أدخل من الباب فانزعوا السياج •

فلا يملك أهل الدار عندئذ الا أن يهدوا الحاجز قرب الباب حتى يتيحوا له أن يدخل • غير أن هذا كله قد انتهى أخيرا يوم سيق فلكا الى الجندية • لقد اضطر أن يصحو من سكره في ذلك اليوم • واحتشد الجمهور في الشارع كله يقول بعضه لبعض :

- هذا فلكا ماروزوف يقاد الى الجندية •

فكان فلكا يحيي الناس في كل جهة من الجهات يمنا ويسرة • واتفق في تلك اللحظة ان كانت آكولكا عائدة من البستان فما أن لمحها حتى صاح يقول :

- قفى

ثم وثب من العربة ووقف أمامها منتحيا وخاطبها بقوله : «ياروحي ! يا حياتي ! يا تفاحتي الصغيرة ! لقد أحبيتك سنتين كاملتين ، وأنا الآن أقاد الى الجندية على أنغام الموسيقى ! اغفري لي أيتها الفتاة الشريفة يا بنت الأب الشريف ، لأننى نذل حقير ، لأننى مسؤل عن شقائق •• كله ، وعن عذابك كله •

قال فيلكا ذلك وانحنى أمامها مرة أخرى • جزعت آكولكا في أول الأمر ، لكنها حيتته بعد ذلك تحية كبيرة ثنتها نصفين ، وقالت له :
 - اغفر لي أنت أيضاً أيها الفتى الطيب • لست غاضبة منك قط •
 رجعت أنا الى البيت وراءها وسألتها :
 - ماذا قلت له يا كلبه •

أجابتي بقولها وهي تنظر الى نظرة جريئة (لك أن تصدق أو لا تصدق)

- أحبه ••• أحبه أكثر مما أحب أى شئ في هذا العالم •
 قال تشيريفين :
 - عجب !

- في ذلك اليوم لم أنطق بكلمة واحدة • غير أنني قلت لها في المساء : « آكولكا ، سأقتلك » ولم يغمض لي جفن طوال الليل ومضيت أشرب خمر الكفاس في حجرة المدخل حتى اذا طلع النهار رجعت الى الغرفة • قلت لها : « آكولكا استعدي للذهاب الى الحقل » كنت أنوى الذهاب الى الحقل من قبل ، وكانت زوجتي تعرف ذلك • قالت لي : « أنت على حق ! لقد آن أوان الحصاد ، وقد سمعت أن العامل مريض منذ يومين ، فهو لا يفعل شيئاً » • قرنت الحصان الى العربدة دون أن أقول كلمة واحدة • ان في آخر المدينة غابة طولها خمسة عشر فرسخاً ، وفي نهاية الغابة يقع حقلنا ، فلما قطعنا ثلاثة فراسخ تحت الأشجار أوقفت الحصان • قلت لزوجتي : « هلمى يا آكولكا • انهضى • لقد حان أجلك • نظرت الى مذعورة ذعرا شديدا ونهضت صامتة • قلت لها :

« لقد عذبتنى تعذيباً كافياً ... هيا صلي صلاتك الأخيرة » • أمسكتُ
سعرها - كان لها ضفائر طويلة كثيفة - لففت الضفائر على ذراعى •
قبضت على زوجتى بين ركبتي • أخرجت سكينى • قلبت رأسها الى
وراء • شققت عنقها ... صرخت ... تدفق الدم ... عندئذ رميت
سكينى وضممت زوجتى بين ذراعى ومددتها على الأرض وقبلتها وأنا
أعول بكل ما أوتيت من قوة • أنا أصبح وهى تعول وتلمس وتتخبط
ودمها ما يزال يتدفق بمزيد من القوة فيصيب وجهى ويخرج يدى •
عندئذ خفت ، فتركها ، وتركت حصانى ، وأخذت أركض ، وما زلت
أركض حتى وصلت الى البيت • دخلت البيت من خلف ، واختبأت فى
خص كان يستعمل حماماً وأصبح الآن مهجوراً • رقدت تحت المصطبة •
ولبثت مختبئاً هنالك الى أن جن الليل •

- وآكولكا ؟

- نهضت لترجع الى البيت هى أيضاً ، وعثروا عليها بعد ذلك على
مسافة مائة قدم من المكان •

- اذن لم تجهز عليها ؟

- كلا •

وصمت شيشكوف لحظة • قال تشريفين :

- نعم هناك وريد ان لم يُقطع بطعنة واحدة فان الانسان يتخبط
ولكنه لا يموت مهما يتدفق دمه •

- لقد ماتت مع ذلك ، وجدوها فى المساء جثة باردة • أبلغوا
الشرطه فأخذت الشرطه تبحث عني • قبضوا علىَّ أثناء الليل فى ذلك
الحمام المهجور •

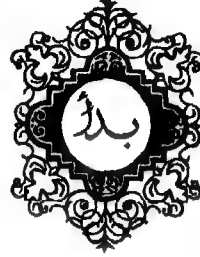
وأردف شيشكوف يقول بعد صمت :

- وهأنذا هنا منذ أربع سنين !

قال تشريفين في وقار وتفخيم وهو يخرج علبة التبغ من جسيده
وينشق منها نشقاتٍ طويلة متقطعة :

- نعم لا بد أن نضربهن والا لم نتوصل الى شيء • ولكنك أيها
الفتى قد تصرفت في غباء شديد • أنا أيضاً فاجأت امرأتى مع عشيق فماذا
فعلت ؟ اقتدتها الى الزريبة فتناولت لجاماً فطويته نصفين وقلت لها : « من
الذى حلفت له أن تكونى وفيه ؟ من الذى أقسمت له فى الكنيسة ؟ »
وأخذت أضربها بلجامى ثم أضربها خلال ساعة ونصف ساعة الى أن
صاحت تقول وقد هدها الضرب هداً : « لسوف أغسل قدميك وأشرب
ماءهما ! » • كان اسمها أفدوتيا •

فصل الصيف



شهر نيسان (أبريل) • الأسبوع المقدس
غير بعيد • أخذنا نقوم بأعمال الصيف • الشمس
تصبح أكثر دفئاً و سطوعاً يوماً بعد يوم • الهواء
يحمل أشدّاء الربيع فيحدث أثره في الأعصاب •

ان السجين بالأغلال يهتز هو أيضاً في أيام الصحو • ان هذه الأيام
الجميلة تبعث فيه رغبات قوية وأشواقاً عنيفة وتثير في نفسه أحزان الغربة
وأشجان الحنين • احسب ان الانسان يأسى لفقد حرّيته في نهار مشمس
أكثر مما يأسى لذلك في الأيام الممطرة الحزينة من الخريف والشتاء •
هنالك شيء يلاحظ لدى جميع السجناء : لئن كانوا يشعرون بشيء من الفرح
في نهار جميل مضى فانهم يصبحون في مقابل ذلك أقل صبراً وأكثر غملاً
وأشدّ احتياجاً • لقد لاحظت أن المشاجرات في سجننا تكثر في الربيع ،
وأن الصخب يشتد ، وأن الصراخ يتفاقم ، وأن الاقتال يزداد • وفي
أثناء ساعات الشغل يتاح لك أن تلاحظ في بعض الأحيان نظرة واجمة
ناثمة في الفضاء الأزرق على عناد ، هناك ، في مكان ما ، على الضفة
الأخرى من نهر ارتيش ، حيث يمتد السهل الفسيح مئات الفراسخ
سهوبا هي سهوب الكيرخيز الواسعة الحرة • وربما سمعت عندئذ
تنهدات طويلة تخرج من أعماق الصدر كأن ذلك الهواء البعيد الطلق

قد حمل السجناء على أن يتنفسوا ، وكأنه خفف عن نفوسهم الجيسه
المسحوقه • ان السجنين يطلق من صدره آخر الأمر أهة طويله ثم اذا
هو على حين فجأة كأنه يريد أن ينفض عنه هذه الأحلام وأن يبددها
فيتناول رفشه غاضباً أو يحمل القرميد الذى يجب عليه أن ينقله من مكان
الى مكان • وما هى الا لحظة بعد ذلك حتى يكون قد نسي ذلك الاحساس
العابر الهارب فيعود الى ضحكه أو سببه تبعاً لمزاجه • انه يكب على
مهمته المفروضة بحماسة غير معهودة وهمة غير مألوفة ويعمل بكل ماأوتى
من قوة كأنه يريد أن يخنق بالتعب ألماً يجثم على صدره فيؤنك أن
يقتله • هؤلاء رجال أشداء هم جميعاً فى زهرة العمر وهم جيعا يملكون
قواهم كاملة ••• ألا ما أثقل الأغلال فى هذا الفصل ! لست استرسل
هنا مع العواطف • ان هذه الملاحظة صحيحة صادقة • فى فصل الدفء،
تحت الشمس الساطعة ، حين يحس المرء بالطبيعة تستيقظ من حوله
بقوة لا توصف ، حين يحس المرء بذلك فى نفسه كلها وفى كيانه كله ،
فانه يشق عليه احتمال السجن واحتمال رقابة الحرس واحتمال تحكم
ارادة أجنبية فيه أكثر مما كان يشق عليه ذلك من قبل •

وفى الربيع • مع غناء أول قُبْرَة ، انما يبدأ التشرد فى سبيرييا
كلها وفى روسيا كلها : ان عباد الله يهربون عندئذ من السجون ويفرون
الى الغابات ؟ فبعد الآقية الخائفة والأحكام الصارمة والأغلال الثقيلة
والسياط الموجهة يتشرد هؤلاء حيث يحلو لهم أن يتشردوا ويضربون فى
الأرض على غير هدى ، ويتوقفون حيث تبدو لهم الحياة أمتع وأسهل •
انهم يشربون ويأكلون ما يتيسر لهم مصادفة ، وينامون الليل هادئين فى
الغابة أو فى حقل ، لا يقلقهم هم ولا يرعبهم سجن فكأنهم طيور من
طيور الله لا تقول الا لنجوم السماء تحت بصر الله : طاب ليلك أيتها
النجوم ! على أن الحياة لا تصفو لهم كل الصفو فهم يتألمون أحياناً من

الجوع والتعب « فى خدمة الجنرال وقوف » وكثيراً ما يقضون أياماً بأسرها دون أن يقفوا على كسرة خبز يقتاتون بها • ويجب عليهم أن يتواروا عن جميع الناس ، أن يختبئوا تحت الأرض ، ويجب عليهم أن يسرقوا وأن ينهبوا بل وأن يقتلوا فى بعض الأحيان • يقول الناس عن المنفيين فى سيبيريا : « ان المنفى أشبه بطفل يهجم على كل ما يرى » ألا ان هذا القول يصدق مزيداً من الصدق على المتشردين • يكاد يكون جميع المتشردين قطاع طرق ولصوصاً ، تدفعهم الى ذلك الضرورة أكثر مما يدفعهم اليه ميل فى نفوسهم ، وتحضهم عليه الحاجة أكثر مما يحضهم عليه الاحتراف • وهناك متشردون كثيرون تأصل فيهم التشرد • ان بين السجناء رجالاً يتشردون بعد أن قضوا مدة سجنهم وأصبحوا مستوطنين • قد يتوهم المرء أن هؤلاء الذين قضوا مدة سجنهم لا بد أن يكونوا راضين عن حياتهم الجديدة سعداء برزقهم المضمون • ولكن الحقيقة ليست كذلك • ان هناك شيئاً مجهولاً يزدهم فى الاستقرار ويجذبهم الى التشرد • ان هذه الحياة فى الغابات ان كانت بائسة رهيبة فان فيها حرية ومغامرة وان لها فى نظر من عانوها سحراً مغرياً سرياً • ولقد يدهشك أن ترى بين هؤلاء المتشردين أناساً تصفهم بخسن السلوك وهدوء الطبع ، أناساً كانوا يمشرون بأن يستقروا وأن يصبحوا مزارعين ناجحين ، ثم اذا هم يتشردون • وقد يتزوج أحد المنفيين ، وقد ينجب أطفالاً ، وقد يعيش خمس سنين فى مكان واحد ، ثم اذا هو يختفى فجأة فى ذات صباح تاركاً زوجته وأولاده محيرين أسرته والبلدة عليهما لقد دلونى ذات يوم فى السجن على واحد من هؤلاء الهاربين من أسرهم • لم يكن قد ارتكب جريمة ، أو لم تحم حوله أية شبهة على الأقل ، ولكنه هرب من منزله وتشرد وظل يتشرد طول حياته : مضى الى الحدود الجنوبية من الامبراطورية وذهب الى الضفة الأخرى من نهر الدانوب وانتقل الى

سهوب كرخيز وتجول فى سيبيريا الشرقية وطاف فى أرجاء القفقاس •
 ما من مكان لم يذهب اليه • من يدرى ؟ لعل هذا الرجل الذى يعصف به
 هوى الأسفار قوياً هذه القوة ، كان يمكن أن يصبح مثل روبنسون
 كروزوى ، لو أحاطته ظروف أخرى ! لقد عرفت عنه هذه التفاصيل من
 سجناء آخرين لأنه كان لا يحب أن يتكلم ، ولا يفتح فيه الا فى حالات
 الضرورة القصوى • انه فلاح قصير ضئيل فى نحو الخمسين من عمره ،
 مسالم وديع ، اذا نظرت الى وجهه رأيت فيه هدوءاً بل ورأيت فيه
 بلاهة ••• ان فيه هدوءاً يشبه العته • كان يحلو له أن يظل جالساً فى
 الشمس يدمدم بين أسنانه أغنية "من الأغاني" ، ولكنه يبلغ من الرفق فى
 دمدمتها أنك لو ابتعدت عنه خمس أقدام ما سمعت شيئاً • ان قسما
 وجهه متجمدة ان صح التعبير ، وهو قليل الطعام يأكل الخبز الأسود
 خاصة • لم يشتر فى يوم من الأيام خبزاً أبيض أو خمرة ؛ بل أحسب
 أنه لم يملك فى يوم من الأيام مالاً ، وأنه ما كان له أن يعرف كيف
 يعد المال • كان لا يبالي بشئ البتة • وكان يطعم كلاب السجن أحياناً
 بيده ، وذلك أمر لم يكن يفعله أحد قط (ان الروسى عامة لا يحب أن
 يطعم الكلاب) • ويقال انه كان قد تزوج مرتين ، وان له أولاداً فى
 مكان ما ••• لماذا أرسل الى السجن ؟ لا أدري عن ذلك شيئاً • على أن
 رفاقنا كانوا يعتقدون دائماً أنه سيهرب لا محالة ••• فلئن ارتضى البقاء
 حتى الآن هادئاً فذلك يرجع اما الى أن ساعته لم تحن واما الى أن تلك
 الساعة قد فاتت • لم تكن له أية علاقة بالبيئة الأجنبية التى يعيش فيها انه
 أكثر انطواء على نفسه من أن تتعقد بينه وبين أحد صلة • وما ينبغى
 الركون الى هدوئه الظاهر هذا • ولكن ما هو الربح الذى يمكن أن
 يجنيه من الفرار ؟

يجب أن نقول مع ذلك ان حياة التشرّد في الغابات اذا قورنت بحياة السجن هي سعادة فردوسية • صحيح ان حياة التشرّد حياة شقاء ، ولكنها حياة حرة على الأقل • ذلك هو السبب في أن كل سجين ، حيثما يكن من أرجاء روسيا ، يلتمّ به القلق عند أولى أشعة الربيع الباسمة • صحيح أنهم لا ينتوون جميعاً أن يهربوا • ان واحداً من مائة فحسب يقرر أن يهرب ، أما الباقون فلا يعقدون العزم على الفرار ، وذلك خوفاً من العقبات التي سيصادفونها أو من القصاص الذي سيلقونه • على أن جميع الباقين وهم تسعة وتسعون لا يزيدون على أن يسترسلوا في الأحلام متسائلين متى يستطيعون أن يهربوا وكيف ؟ ان التفكير وحده في احتمال نجاح مثل هذه المغامرة يعزيهم ويخفف عنهم ••• وهم لذلك يتذكرون فراراً سبق أن حدث ••• لا أتكلّم الآن الا عن السجناء الذين صدرت أحكام في حقهم ، أما الذين لم تصدر بعد في حقهم أحكام فانهم يتخذون قرار الهروب بسهولة أكبر كثيراً • والذين صدرت في حقهم أحكام • لا يهربون الا في أول عهدهم بالسجن ؛ حتى اذا انقضت على اقامتهم في السجن ستان أو ثلاث أذعنوا للواقع وأدركوا أن من الخير لهم أن يتموا مدة سجنهم وفقاً للقانون وأن يصبحوا مستوطنين •• فذلك أولى بهم من التعرض للضياع عند الاخفاق ، والاخفاق ممكن دائماً فليس هناك الا سجين من عشرة سجناء ينجح في محاولة « تغيير مصيره » • والذين يحاولون ذلك انما هم السجناء الذين حكم عليهم بالسجن مدداً طويلة • ان من حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً يحس أن هذه المدة أبه لا نهاية له ••• ويجب أن نذكر أخيراً أن الموسم الذي يدمغ السجناء عقبة من العقبات الكأداء في طريق الهرب • وقولنا « تغيير المصير » انما هو اصطلاح تكنيكي • فالذين يُضبطون متلبسين بجرم محاولة الفرار يُستجوبون على أساس أنهم أرادوا أن « يغيروا مصيرهم »

•• ان هذا التعبير ، الأدبى بعض الشيء ، يصوّر الفعل الذى يدل عليه تصويراً كاملاً • ما من هرب يأمل أن يصبح حراً كل الحرية ، فهو يعلم أن ذلك مستحيل تقريباً ، ولكنه يريد أن يُرسل الى سجن آخر أو أن يوطّن فى مكان ثانٍ من البلاد ؟ يريد أن يحاكم مرة أخرى بجرمة يرتكبها أثناء تشرده ؟ انه يريد أن يُرسل الى أى مكان ••• شريطة أن لا يكون ذلك المكان هو هذا السجن الذى احتبس فيه فأصبح لايطيقه ! ان جميع أولئك الهاربين ، اذا هم لم يجدوا أثناء الصيف مأوى يستطيعون أن يقضوا فيه الشتاء ، اذا هم لم يصادفوا أحداً يجنى من اخفائهم نفعاً ما ، أو اذا لم يحصلوا بالجرمة أحياناً على جواز سفر يمكنهم من أن يعيشوا آمنين فى كل مكان ، أقول ان جميع أولئك الهاربين يتكاثرون أثناء الخريف فى المدن والسجون ، يعترفون بتشردهم ويقضون الشتاء فى الحبس آمليين أملاً خفياً أن يهربوا فى الصيف المقبل •

وقد أحدث الربيع أثره فى نفسى أنا أيضاً • ما أزال أتذكر كيف كنت أنظر الى الأفق البعيد من خلال شقوق السياج فى شراة عظيمة ! كنت ألصق رأسى بأوتاد السياج فما أزال أتأمل العشب الذى يخضوضر فى خندق السور ، وأتأمل السماء الزرقاء البعيدة التى تتكاثف شيئاً بعد شيء ، دون أن أشبع من هذا المنظر ودون أن يصيبنى كلال أو ملال • وكان غمى وحزنى يزدادان يوماً بعد يوم ، وكان كرهى للسجن ونفورى منه وابتناسى به يتفاقم مزيداً من التفاقم شيئاً بعد شيء • والبغض الذى كان يشعر به السجناء نحوى خلال السنين الأولى لأننى أتمنى الى طبقة السادة كان يسمّم حياتى كلها • فكنت أطلب الذهاب الى المستشفى فى كثير من الأحيان دون أن تكون بى حجة الى المستشفى ، وانما أطلب ذلك حتى لا أكون فى السجن وحتى أفر من هذا البغض الحاقد العنيد • كان السجناء يقولون لنا : « ان لكم مناقير من حديد يا معشر النبلاء •• لقد

مزقتم جلودنا بمناقيركم حين كنا لكم أفناناً *** ، لشد ما كنت أحسد
أبناء الطبقة الدنيا من الشعب حين كانوا يصلون الى السجن ! كان هؤلاء
يصبحون رفقاً وأصحاباً للسجناء على الفور ! هكذا كنت ازداد حرنا
واهياجاً عصياً حين يحل الربيع فاستشرف الحرية وأطل على فرحة
الطبيعة كلها * وفي نحو الاسبوع السادس من الصوم الكبير قمت
بشعائري الدينية * كان صف الضابط قد قسم السجناء ست فئات (بعدد
أسابيع الصوم تماماً) ، من أجل أن يقوموا بشعائهم الدينية فئة بعد فئة .
ان كل فئة تتألف من ثلاثين رجلاً على وجه التقريب * ما كان أعظم
عزائي أثناء ذلك الأسبوع ! كنا نذهب ، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم ،
الى الكنيسة التي لا تبعد كثيراً عن السجن * لم أكن قد ذهبت الى
الكنيسة ، منذ زمن طويل * ان قداس الصوم الكبير ، هذا القداس الذي
كنت أعرفه معرفة جيدة منذ نعومة أظفاري ، لانتى سمعته كثيراً في
بيتنا ، ان هذا القداس مع ما يصاحبه من صلوات وأدعية وانحناء وركوع ،
قد هزّ في نفسي ماضياً بعيداً ، بعيداً جداً ، وأيقظ فيها أقدم المشاعر *
ما زلت أتذكر مدى سعادتي حين كنا نذهب في الصباح الى بيت الله
سائرين على الأرض التي تجلّدت أثناء الليل * كنا نذهب الى الكنيسة
ومعنا حرس قد شحّنا بنادقهم بالرصاص * وكان الحرس لا يدخلون
الكنيسة * حتى اذا صرنا في داخل الكنيسة تجمعنا عند الباب ، في
الصفوف الأخيرة ، فما نكاد نسمع الا الصوت العميق الذي يخرج من
صدر الكاهن صادحاً بالصلوات ؛ ومن حين الى حين نلمح من فوق
المصلّين جبهة السوداء أو رأسه العاري * تذكرت عندئذ كيف كنت
أثناء طفولتي أنظر الى أبناء الشعب يزدهمون عند باب الكنيسة كتله
متراسة ويتقهقرون في خضوع حين يدخل ضابط كبير أو نبيل أكرس
أو سيدة رائعة الثياب لكنها من شدة تدينها وتقها مسرعة تشق طريقها

الى الصف الأول وتوشك أن تشاجر جميع الناس فى سبيل أن تحظى
بشرف احتلال الأماكن الأولى • لقد كان يخيّل الى أثناء طفولتى أن
ذلك المكان الذى يقع عند مدخل الكنيسة هو المكان الذى يمكن أن يصلى
فيه الانسان خاضعاً لله ساجداً على الأرض شاعراً بحرارة الايمان وروعة
الخشوع •

وهأنذا الآن أقف فى ذلك المكان نفسه الذى كان يقف فيه أبناء
الشعب ، لا بل ان حالى تختلف عن حال أبناء الشعب ، فانا مكبل بالأغلال
مجلل بالخزى والعار • ان الناس يتحاشوننا ويخشوننا ويتصدقون
علينا • ما زلت أذكر أننى كنت أجد فى ذلك احساساً مرهفاً ولذة
غريبة • كنت أقول لنفسى : « لتكن مشيئة الله ! » • وكان السجناء يصلون
بحرارة وحمياً • وكان كل منهم يجرى الى الكنيسة بقرشه ليشتري به
شمعة أو يضعه فى صحيفة الاحسان • ولعلمهم كانوا يقولون لأنفسهم حين
يقدمون هذه القروش : « البشر جميعاً سواسيه أمام الله • • • » • وكنا
تتناول القربان بعد صلاة الساعة السادسة • حتى اذا تلا الكاهن ، وهو
يرفع حقة القربان ، الآية التى تقول : « ارحمنى يا رب كما رحمت
اللص الذى خلصته • • • » ، سجد جميع السجناء تقريراً على الأرض
فجلجلت من ذلك أغلالهم • أحسب أنهم كانوا يفهمون هذه الآية فهماً
حرفياً ويعملونها خاصة بهم •

وأقبل الأسبوع المقدس • فوزعت علينا ادارة السجن بيضة من
بيض عيد الفصح ، وقطعة من خبز معجون بالحليب • وغمرتنا المدينة
بالصدقات • وكما حدث فى عيد الميلاد حدث فى عيد الفصح : زيارة
الكاهن حاملاً الصليب ، زيارة الرؤساء ، توزيع حساء الكرنب المطبوخ
بشحم الخنزير ، وكذلك السكر والتجول ، مع فرق واحد هو أننا
أصبحنا نستطيع منذ الآن أن نتروض فى الفناء وأن نتدفأ بأشعة الشمس •

كل شيء يبدو الآن أكثر ضياءً وأعظم اتساعاً ولكنه أشد حزناً كذلك .
ثم ان النهار فى الصيف ، وهو نهار طويل ، يكون فى أيام الأعياد أثقل
على الصدر منه فى أيام العمل ، لأن التعب فى أيام العمل يجعله أقصر .

وأشغال الصيف أشق كثيراً من أشغال الشتاء . ان السجناء يعملون
صيفاً فى الأشغال الشاقة التى يأمر بها المهندسون ، فهم يبنون أو يحفرون
الأرض أو يصنعون القرميد ، أو يساقون لاصلاح الابنية الحكومية
حدادة أو تجارة أو دهاناً ؛ ومنهم من يذهب الى مصنع الاجر يشوى
الاجر وذلك كان فى نظرنا أشق الأعمال طرا . كان هذا المصنع يقع
على بعد أربعة فراسخ تقريباً من قلعنا . وكان تُرسل اليه ، طوال
الصيف ، فى الساعة السادسة من كل صباح ، جماعة من السجناء عددها
خمسون . وكان يُختار لهذا العمل أولئك الذين لا يجيدون أية مهنة
و لا ينتمون الى أية ورشة . وكان السجناء الذين يذهبون الى مصنع
الاجر يحملون معهم خبز يومهم ، لأنهم بسبب بُعد المسافة لا يستطيعون
أن يعودوا للفداء حين يعود غيرهم ، ولا أن يسيروا ثمانية فراسخ فى غير
طائل ، وانما هم يأكلون فى المساء حين يرجعون الى السجن . وكان يعهد
اليهم هنالك بأعمال للنهار كله ، ولكن هذه الأعمال تبلغ من الضخامة
أن أحداً لا يكاد يستطيع انجازها . كان عليهم فى أول الأمر أن يحفروا
الأرض فيخرجوا الغضار ثم ينقلوه ويجبلوه بأرجلهم فى الحفرة ، وان
يصنعوا منه بعد ذلك مقداراً كبيراً من القرميد ، مائتى قرميدة وربما مائتين
وخمسين . لم أذهب الى مصنع الاجر الا مرتين . كان السجناء الذين
يُرسلون الى هذا المصنع يعودون منه فى المساء وقد تشعثت وجوههم
وانهدت قواهم ، فهم لا ينفكون يأخذون على الآخرين أنهم تركوا لهم
أقصى عمل . أغلب ظنى أن مأخذهم هذه كانت تعزيبهم وتسرى عنهم
وتلد لهم . وكان منهم أناس يحبون هذا العمل ويؤثرونه على غيره من

الأعمال ، أولاً لأنه يمكنهم من الذهاب الى خارج المدينة على شاطئ نهر ارتيش في مكان رحب مريح ، فالضواحي أجمل منظراً من المباني الحكومية الكريهة ؛ وثانياً لأن في وسعهم أن يدخلوا هنالك بحرية تامة ، بل وأن يلبثوا راقدين نصف ساعة فيشعروا من ذلك بأعظم رضى •

أما أنا فقد كنت أعمل في ورشة ، أو أعمل في تكسير الجص ، أو في نقل الآجر الذي يستعمل في البناء • وقد وقع على عاتقي هذا العمل الأخير شهرين كاملين • فكان عليّ أن أنقل حملي من الآجر من شواطئ نهر ارتيش على مسافة مائة وأربعين متراً ثم أقطع خندق القلعة حتى أصل الى الثكنة التي كانت بسبيل البناء • وكان هذا العمل يناسبني تماماً رغم أن الجبل الذي أحمل به الآجر كان ينشر كنفى نشراً • والشئ الذي كان يعجبني خاصةً هو أن قواي كانت تنمو نمواً واضحاً • • كنت في أول الأمر لا أستطيع أن أحمل ثمانى أجراء دفعة واحدة ، وكانت كل آجرة تزن حوالى اثني عشر رطلاً • فأصبحت أستطيع أن أحمل اثنتى عشرة آجرة ، بل وخمس عشرة ، وابتهجت من ذلك أشد الابتهاج واغبطت له أعظم الاغبطات • لم تكن حاجتي الى القوة الجسمية أقل من حاجتي الى القوة النفسية من أجل أن أستطيع احتمال جميع المتاعب والمكاره في تلك الحياة اللعينة •

وكنيت أريد أن أحيا حين خروجي من السجن • اننى أجد لذة في نقل الآجر لا لأن هذا العمل يقوى جسمي ، فحسب ، بل لأنه يمضى بى الى ضفاف نهر ارتيش • ولئن كنت أتكلم كثيراً عن هذا المكان فلأنه المكان الوحيد الذى يمكن أن أرى منه دنيا الله ، أن أرى الأفق البعيد المضى ، أن أرى السهوب الفسيحة الحرة المقفرة الذى كان عريها يحدث في نفسى أنراً غريباً • أما ميادين العمل الأخرى فكانت كلها في القلعة أو ما حولها ، وكنيت منذ الأيام الأولى قد كرهت هذه القلعة ، وكرهت

مبانيها خاصة • كان منزل الميجر مثلاً يبدو لى مكاناً كريهاً لعيناً منفراً ،
و كنت كلما مررت به أنظر اليه نظرة تفيض بغضاً ومقتاً • ولا كذلك
الشاطيء • فان المرء يستطيع هنالك أن ينسى نفسه على الأفل وهو ينظر
الى الفضاء الواسع المقفر ، كما ينسى السجين نفسه وهو ينظر الى العالم
الحر من خلال القضبان الحديدية فى سجنه • كان كل نىء فى ذلك
المكان حبيباً الى قلبى عزيزاً على نفسى : الشمس الساطعة فى السماء
الأزرق اللانهائى ، والاغاني البعيدة التى يصدح بها الكرخزيون الآتون
من الضفة الأخرى

ما أكثر ما كنت أطيل النظر الى كوخ فقير مسودٍ من السخام ،
يسكنه بايجوشى ما ! ما أكثر ما كنت أطيل النظر الى الدخان المزرق
الذى ينتشر فى الهواء ، والى المرأة الكرخيزية التى تعنى بخروفيها ! ..
ذلك منظر متوحش فقير ، ولكنه حر • كنت أتابع ببصرى طيراً يشق
بتحليقه الهواء الشفاف الصافى انه يلامس الماء ثم يختفى فى السماء
اللازوردية ثم يعود فيظهر صغيراً كنقطة حتى الزهرة الصغيرة
المسكينة التى تذوى فى شق من شقوق الشاطيء ، التى أراها فى مطلع
الربيع ، كانت تجذب انتباهى وتوقظ حنانى ان الحزن الذى يجثم
على صدرى فى هذه السنة الأولى من سجن الأشغال الشاقة كان لا يطاق
وكان يثير أعصابى • معنى هذا القلق فى أول الأمر من ملاحظة الأشياء
التي تحيط بى • كنت أغمض عيني ولا أريد أن أرى شيئاً • وبين الناس
الفاستدين الذين كنت أعيش معهم لم أستطع أن أميز الرجال الذين
كانوا رغم القشرة الظاهرة المنفرة قادرين على أن يفكروا وأن يحسوا •
لا ولا استطعت أن أسمع وأن أثبت كلمةً فيها شىء من عاطفة ، وسط
السخریات المسمومة التى كانت تنهال على انهيال المطر مع أن هذه
الكلمة كانت تقال ببساطة تامة ، دون غاية مخبأة أو هدف مبيت ، وكانت

تصدر عن الأعماق من قلب اسنان تألم كثيراً واحتمل أكثر مما احتملت
وقاسى أكثر مما قاسيت • ولكن علام الافاضة فى هذا ؟

كان التعب الشديد مصدر رضى لى وغبطة ، لأنه يجعلنى أمل فى
نوم عميق • كان النوم فى فصل الصيف عذاباً ممضاً أكثر مما كان كذلك
فى فصل الشتاء • على أن هناك أمسيات كانت رائعة والحق يقال
ان الشمس التى ظلت تفرق فناء المنزل طولك النهار تغيب أخيراً
فاذا الهواء طرى ، واذا الليل بعد ذلك بارد بعض البرودة فكذلك
هى لىالى السهوب كان السجناء ، بانتظار أن يُحبسوا فى الثكنات ،
يتجولون فى الفناء جماعات ، ولا سيما قرب المطبخ فهناك كانت
تناقش المسائل التى تهتم السجناء ، وهنالك كان يعلّق على الشائعات
الواردة من خارج السجن ، وهى فى كثير من الأحيان شائعات سخيفة
مستحيلة ولكنها تثير دائماً انتباه هؤلاء الرجال الذين اجتثوا من المجتمع •
من ذلك أن نسمع فجأة أن المجير قد طُرد • كان السجناء كالأطفال
سرعة تصديق • انهم يعلمون حق العلم أن النبأ ملفق ، وأن طرد الميجر
ليس معقولاً ، وأن ناقل الخبر كذاب محنك هو كفاسوف ؟ ولكنهم مع
ذلك يتعلقون بهذه الشائعة ويناقشونها ويقتبطون لها ، ويعزون أنفسهم
بها ، ثم ما يلبثون أن يخذلوا من أنهم أتاحوا لرجل مثل كفاسوف أن
يخدعهم ويضلّهم • هذا سجين يصيح قائلاً :

– ومن ذا الذى يستطيع أن يطرده ؟ لا تقلق عليه ! انه رجل
يعرف كيف يحافظ على مركزه !

• وهذا سجين آخر يحسن الجدل ويتحمس للنقاش ، سجين خبر
الحياة ورأى العالم وطاف فى البلاد ، هذا هو يجيب قائلاً :

– ولكن أليس له رؤساء ؟

وهذا ثالث يقول عابسَ الوجه مكفهر السحنة كأنه يحدث نفسه :

– الذئاب لا يأكل بعضها بعضا •

ان هذا السجين الثالث رجل أشيب الشعر كان قابلاً فى أحد الأركان يأكل حساء المصنوع من مخلل الكرنب •
وهذا سجين رابع يقول فى غير اكترات البتة ، وهو ينقر على آلة البلايكا التى كانت فى يده :

– هل تظن أن الرؤساء سيسألونك رأيك ويطلبون نصحتك من أجل أن يطردوه أو أن لا يطردوه ؟

فيجيب الثانى قائلاً فى حماسة وغضب :

– ولم لا ؟ اذا سئلتهم أيها الرفاق فعليكم أن تجيئوا بصراحة •
ولكن لا ... نحن هنا نظل نصيح ما شاء لنا هوأنا أن نصيح حتى اذا آن أوأنا العمل نتصلنا ونكصنا على أعقابنا •
فيقول عازف البلايكا :

– طبعاً ! ... فمن أجل هذا انما وجد سجن الأشغال الشاقة ! •

استأنف الآخر كلامه حتى دون أن يسمع ما أجيبَ به :

– منذ أيام بقى قليل من دقيق ... هو نفايات لا قيمة لها ...
جمعناها وأردنا أن نبيعها لنتنفع بثمنها ... فماذا فعل حين علم بذلك
وجيء بها اليه ؟ لقد صادرها لنفسه ... من باب التوفير طبعاً ! ...
أصبح هذا أم لا ؟

– ولكن الى من عساك تشكوه ؟

– الى من عسأى أشكوه ؟ أشكوه الى المفتش الذى سيصل قريباً •

— أى مفتش ؟

— حقاً يا رفاق ، ان مفتشاً سيصل فى القريب !

كذلك قال سجين آخر هو شاب قوى الجسم قرأ كتاب « دوفه دى لافالير » أو قرأ كتاباً آخر من هذا القليل « وكان فى الماضى عريفاً فى كتيبة بالجيش . انه رجل هازل مازح ، ولكن السجناء كانوا يحترمونه بعض الاحترام لسعة اطلاعه . فما ان قال جملة تلك حتى نهض دون أن ينتبه أى انتباه الى الجدل الذى كان يهز السجناء جميعاً » ومضى الى الطباخ رأساً يطلب منه شيئاً من كبد (كثيراً ما كان طباخونا ييعون أطعمه من هذا النوع ، فهم يشتركون كبداً كاملاً فيقسمونه ويعونونه للسجناء الآخرين قطعاً) . سأله الطباخ :

— بكم ؟ بكوبكين أم بأربعة ؟

— بأربعة كوبيكات . فليحسدنى الآخرون . نعم يا رفاق ، ان جنرالاً ، جنرالاً حقيقياً ، سيصل من بطرسبرج للتفتيش فى سيبيريا . صحيح . قيل ذلك فى منزل الأمر .

أحدث هذا النبأ انفعالاً شديداً خارقاً . ظل السجناء ربع ساعه يتساءلون عن الجنرال من يكون وما لقبه وهل هو أعلى رتبة من جنرالات مدينتنا ؟ ان السجناء يشقون الكلام على الرتب والرؤساء ، وأن يعرفوا من هو الذى يملك من هؤلاء الرؤساء منزلة أعلى ، من الذى يستطيع أن يحضى ظهور الموظفين الآخرين ومن الذى يحضى ظهوره للموظفين الآخرين ؟ انهم فى سبيل هؤلاء الجنرالات يتشاجرون ويتشاجون حتى لقد يصلون من ذلك الى التماسك بالأيدى والتضارب . أية مصلحة يمكن أن تكون لهم فى هذا ؟ انك حين تسمع السجناء يتكلمون عن الجنرالات والرؤساء تستطيع أن تقدّر درجة النمو والذكاء لدى هؤلاء الرجال كما

كانوا فى المجتمع قبل دخول السجن • ويجب أن نذكر أن الحديث عن
الجنرالات والادارة العليا كان يُعدّ عندنا أهم حديث وأجمل حديث •
قال ماسوف ، وهو رجل قصير القامة ، أحمر الوجه ، مندفع
الطبع ، محدود العقل ، كان هو الذى أشاع أن الميجر سيستبدل به
آخر ؟ قال :

— هأتم أولاء ترون أنهم يريدون طرد الميجر •
فقال الشيخ المكتّش وقد فرغ من تناول حسائه ، قال بصوت
متقطع :

— سوف يرشوهم •

وقال آخر :

— سوف يرشوهم حتماً • لقد سرق هذا اللص مالاَ كثيراً ، لاسيما
وأنة كان ميجراً قبل أن يأتى الى هنا • ومنذ زمن غير طويل خطب ابنة
الأسقف •

— ولكنه لم يتزوج • لقد طرد • وهذا يدل على أنه فقير •
يا للخطيب الرائع ! انه لا يملك الا الثياب التى يرتديها ! فى السنة
الماضية ، أثناء عيد الفصح ، خسر فى القمار كل ما كان معه ! ان فداكا
هو الذى قال لى ذلك •

— صحيح • انه ليس بالمبذر المتلاف • ولكنه لا يملك الآن قرشاً •
هنا انبرى سكوراتوف يشارك فى الحديث فقال :

— صدقونى يا شباب : ليس يحسن بالمرء أن يتزوج حين يكون
فقيراً • لقد عرفت هذا بنفسى • المرء يستعجل الزواج ، ولكن اللذة
لا تطول •

قال الفتى المتحمس الذى كان نائب عريف فى الجيش :

— أتحسب أننا ستلهى بالحديث عنك الآن ؟ وأما أنت ياكفاسوف فانك غبى كبير ! اذا كنت تظن أن الميجر يمكن أن يرشو جنرالاً مقشاً فأنت تخطئ خطأ فاحشاً ! وهل تتصور أن يرسل الجنرال من بطرسبرج خصيصاً ليفتش صاحبك الميجر ؟ ألا انك ما تزال على جانب عظيم من الغباء يا فتى ! أنا أقول لك ذلك ...

قال واحد من الجمهور بلهجة الشك :

— هل تظن أنه لا يأخذ رشوات لأنه جنرال ؟

— طبعاً ... واذا أخذ رشوات فهو يأخذ رشوات ضخمة •

— حتماً ... الرشوة على قدر الرتبة ، فكلما كانت الرتبة أعلى كانت الرشوة أضخم !

قال كفاسوف بلهجة جازمة :

— ما من جنرال يرفض رشوة !

فقاطعه باكلوشين فجأة ليسأله باحتقار :

— هل رشوتهم أنت حتى تقول هذا الكلام جازماً ؟ بل هل رأيت فى حياتك كلها جنرالاً !

— نعم يا سيدى !

— كذاب !

— أنت الكذاب !

— طيب يا أولاد ! ما دام قد رأى جنرالاً فليقل لنا أى جنرال رأى ! هيا قل ! انتى أعرف جميع الجنرالات !

قال كفاسوف بلهجة مترددة :

- رأيت الجنرال زيبرت •

- زيبرت ؟ لا يوجد جنرال بهذا الاسم ! لعل هذا الجنرال قد شاهد ظهرك حين جلدوك • لعل زيبرت هذا لم يكن الا ليوتنان كولونيل، ولكنك كنت قد بلغت من شدة الفزع عندئذ أنك حسبته جنرالاً •

صرخ سكوراتوف يقول :

- لا ••• اصغوا الىّ يا أصحاب ، لأننى رجل متزوج • حقاً لقد كان يوجد فى موسكو جنرال باسم زيبرت • انه ألمانى أصبح روسياً • كان هذا الجنرال يعترف كل سنة للقس بالخطايا التى قارفها مع سيدات صغيرات ••• وكان يشرب كما يشرب البط • كان يشرب أربعين كأساً على الأقل من ماء نهر موسكوفا • كان يستشفى بذلك من مرض لا أدرى ما هو • ان خادمه هو الذى قال لى ذلك •

قال السجين صاحب البالالاىكا :

- لا شك أن السمك كان يسبح فى بطنه •

وكان هناك سجين اسمه مارتينوف هو شيخ كثير الحركة دائم الانشغال كان قد خدم فى سلاح الفرسان ، فها هو ذا يتدخل فى الحديث سائلاً :

- هلاًّ هدأتم قليلاً ؟ أنكون فى جدٍ ثم تأخذون تقولون سخافات؟
أى مفتش سيصل يا رفاق ؟

فقال واحد من المشككين :

- هؤلاء أناس كذابون ! الله يعلم من أين جاءوا بهذا النبأ ! ماهذا الكلام كله الا هراء •••

قال كوليكوف بلهجة قاطعة ، وكان قد لزم حتى ذلك الحين صمتاً مهيباً وقوراً :

– لا ... ليس هذا الكلام هراء .

ان كوليكوف رجل ذو وزن ، في نحو الخمسين من عمره = له وجه متناسق القسما ، يصطنع في سلوكه آداباً فيها عظمة واحترار ، ويستمد من ذلك غروراً وأبهة . ان في عروقه دماً غجرياً ، وهو يعمل بيطرياً ، ويجنى أرباحاً من معالجة الخيول ، ويبيع في سجننا خمرأ ؛ ليس هو بالغبي ، حتى يمكن أن يعد ذكياً ، هذا الى ذاكرة زاخرة . وهو يساقط أقواله بعناية كبيرة كان كل كلمة من كلماتها تساوي روبلاً .

تابع يقول بلهجة هادئة :

– هذا الكلام صحيح . سمعته في الأسبوع الماضي . انه جنرال ذو شارات ضخمة ، سيفتش سبيريا كلها . لا شك أنه يأخذ رشوات ، ولكن ميجرنا « ذا العيون الثماني » ليس هو الذي سيرشوه : انه لن يجرؤ أن يتسلل قربه ، ذلك ان هناك جنرالات وجنرالات ، يرافق ، كما هنالك حزم وحزم من الحطب . أنتم تعرفون هذا . ليس جميع الجنرالات سواء . ولكنني أؤكد لكم أن ميجرنا سيقى في مكانه . نحن بلا ألسن . نحن لا يحق لنا أن نتكلم . أما رؤساؤنا فليسوا من سيشى به . سوف يصل المفتش الى سجننا ، فما ان يلق عليه نظرة حتى ينصرف ؛ وسيقول ان كل شيء يجري في سجننا كما يجب أن يجري .

– صحيح . ولكن هذا لا ينفي أن الميجر قد خاف . انه سكران منذ الصباح .

– وفي هذا المساء طلب عربتين ... ان فدكا هو الذي قال ذلك .

- لا يصير الزنجى أبيض اللون مهما تغسله • أهذه أول مرة تروته فيها سكران ؟

اضطرب السجناء وثاروا فقال بعضهم لبعض :
- لسوف يكون ظلماً شديداً أن لا يصنع بهذا الميجر شيء •

انتشر خبر وصول المفتش فى السجن كله • أخذ السجناء يطوفون فى الفناء ويرددون البناء الخطير • فبعضهم يصمتون ويحافظون على هدوئهم ليظهروا بمظهو الوقار وليسبقوا على انفسهم شائنا وخطرا وبعضهم لا يبالي ولا يكثرث • وعلى عتبة الابواب جلس بعض السجناء يعزفوا على الببالايدا ، بينما راح بعضهم الآخر يتابع ثرثرته • وهذه جماعات منهم تغنى فى استرخاء • ولكن فناء السجن مضطرب مهتاج بوجه عام •

وفى نحو الساعة التاسعة عددنا وأودعنا التكنات التى تعلق علينا أبوابها فى الليل • هو ليل قصير من ليالى الصيف • ونحن لذلك نوقظ فى الساعة الخامسة من الصباح • غير ان احدا منا لا يستطيع ان ينام قبل الحادية عشرة من المساء ، لان الاحاديث لا تنقطع حتى تلك الساعة ، وكذلك الحركة والذهاب والاياب ••• حتى لقد يتخلق السجناء للمقاومة فى بعض الأحيان كما يفعلون ذلك فى ليالى الشتاء • الحر خائق لا يطاق • صحيح ان النافذة المفتوحة تدع لطراوة الليل أن تدخل، غير أن السجناء لا يزيدون على أن يضطربوا فوق سررهم الخشبية كأنهم فى هذيان • ما أكثر الهوام والحشرات ! لقد كان عندنا منها كثير فى الشتاء غير أنها تتكاثر حين يأتى الربيع تكاثرا رهيا ماكان لى أن أصدقه لولا أن قاسيت منه بنفسى • وكلما تقدم الصيف ازدادت الهوام والحشرات • ان المرء يستطيع أن يتعود على الحشرات فقد لاحظت ذلك، غير أنها تظل عذابا لا يطاق ، عذابا يبلغ من الهوال أنه يبعث فى الجسم

حمى ! ... ان المرء يحس أثناء النوم أنه غير نائم ، وانما هو يهدى ...
وأخيرا ، عند الصباح ، حين يتعب عدوك ، فتنام نوماً هنيئاً فى طراوة
الفجر ، تسمع الطبل الظالم الذى لا يرحم ، يقرع على حين فجأة ...
انك تسمع ضربات العصا على الطبل وهى تزداد كثرة وقوة ... فتلن
هذه الضربات ، ولا تملك وأنت تطلو فى معطفك الا أن تخطر ببالك
هذه الفكرة على غير ارادة منك : سوف يتكرر هذا غدا ، وبعد غد ،
سين متتالية ، الى أن يفرج عنك وتتمتع بحريتك . متى تأتى هذه
الحرية ؟ أين هى هذه الحرية ؟ ... ولا بد أن تنهض ، فان السجناء
قد أخذوا يسيرون حولك ، وعاد الصخب المألوف يعلو ... ويرتدى
السجناء ثيابهم ، ويسرعون للذهاب الى العمل . على أنك ستستطيع أن
تنام ساعة بعد الظهر .

ان ما قيل عن قدوم المفتش كان هو الحقيقة بعينها . كانت الشائعات
تؤكد يوماً بعد يوم ، وعلم أخيراً أن موظفاً كبيراً برتبة جنرال قد جاء
من بطرسبرج ليفتش سبيريا كلها . وأنه وصل الى توبولسك فهو الآن
هناك . كنا نطلع كل يوم على شئ جديد . كانت الشائعات توافقنا من
المدينة . قيل ان الجميع خائفون . وان كل واحد يقوم باستعداداته من
أجل أن يظهر بأحسن مظهر . السلطات تنظم استقبالات وحفلات راقصة
ومهرجانات وأعياداً من كل نوع . وأرسلت جماعات من السجناء لتمهيد
سوارع القلعة ، وانتزاع نقر الأرض ، وطلاء الأسبجة والأوتاد ، وتطين
الجدران ، وصبغ الأبواب ، واصلاح كل ما هو ظاهر للعيان . كان
السجناء يفهمون الغاية من هذا العمل فهما تامة ، وكانت مناقشاتهم ماتتفك
تزداد حرارة وحدة وشدة . أصبحت أخيلتهم لا تعرف حدوداً . حتى
لقد أصبحوا يهثون أنفسهم لتقديم بعض المطالب متى وصل الجنرال ،
ولكن ذلك لا يمنهم قط من أن يتشائموا ويتشاجروا . وكان ميجرنا

على مثل نار الجمر قلماً • انه يزور السجن بغير انقطاع ، يصرخ مزيداً من الصراخ ويتهجم على السجناء أكثر مما كان يتهجم عليهم من قبل ، ويرسلهم لآتفه الأسباب الى مقر الحرس من أجل ازالة عقوبة من العقوبات فيهم ، ويهتم اهتماماً خاصاً بنظافة الشكنات وترتيبها وحسن مظهرها • وفى تلك الآونة وقعت قصة صغيرة لم تهز هذا الضابط ولم تؤثر فيه قط ، كما كان يمكن أن يتوقع ذلك ، بل أرضته ارضاء كبيراً وأحدث له بهجة عظيمة • ان واحداً من السجناء قد طعن سجيناً آخر بمخز في صدره عند القلب تقريباً •

الجاني اسمه لوموف • أما المجنى عليه فقد فكان يسمى فى سجننا باسم جافريلكا : انه واحد من أولئك المتشردين العتاة الذين سبق أن تكلمت عنهم • لا أدري هل كان له اسم آخر ، ولكننى لم أعرف له فى يوم من الأيام اسماً غير اسم جافريلكا •

كان لوموف فلاحاً ميسوراً من سكان تومسك باقليم ك • • • هو من أسرة عدد أفرادها خمسة : أخوان وثلاثة أبناء • انهم فلاحون أغنياء كان يقال فى المقاطعة كلها ان ما يملكونه يربو على ثلاثمائة ألف روبل نقداً • كانوا يفلحون ويدبغون الجلود ، ولكن الأعمال التى كانوا يتعاطونها خاصة انما هى الاقتراض بالربا ، واخفاء المتشردين والمسروقات وما الى ذلك من أمور • • • وكان نصف سكان المقاطعة مدينياً لهم بمال ، فهو واقع بين برائتهم • وكانوا يعدون أذكاء ماكرين ، وكانوا يصطنعون مظاهر الأبهة والعظمة • وقد اتفق أن حلّ ضيفاً على الاب فى ذات مرة موظف من كبار الموظفين فأحب الموظف فيه جسارته وبراعته ودهاءه ، فتخيل أفراد أسرة لوموف عندئذ أن فى وسعهم أن يفعلوا ما يحلو لهم ، فتمادوا فيما كانوا يقومون به من أعمال يحرّمها القانون • وكان جميع الناس يمدمون متذمرين ، ويتمنون لو يرونهم غائرين تحت الأرض

مائة قدم • غير أن أفراد أسرة لوموف ما يرحوا يتمادون فى استهتارهم حتى أصبحوا لا يخشون لارؤساء الشرطة ولا قضاة المحاكم فى المقاطعة • وأخيراً خانهم الحظ ، فإذا هم يضيعون لا بسبب الجرائم السرية التى كانوا يرتكبونها بل بسبب تهمة ملفقة وشاية كاذبة • كان لهم على بعد عشرة فراسخ من منزلهم مزرعة يعيش فيها أثناء فصل الخريف ستة عمال كرخيزيين كانوا قد استعبدوهم منذ زمن طويل • وفى ذات يوم ، وجد هؤلاء الكرخيزيون قتلى ، وكشف التحقيق الذى دام مدة طويلة عن أشياء فظيعة • واتهم أفراد أسرة لوموف بأنهم هم الذين قتلوا هؤلاء العمال الستة • ان لوموف وابن أخيه هما اللذان قصا هذه القصة فعرفها جميع السجناء ؛ قالوا ان السلطات قد قدرت أن الكرخيزيين كانوا مدينين لأفراد أسرة لوموف بمبالغ طائلة من المال ، وأن هؤلاء بسبب شدة بخلهم وطمعهم ، ورغم ثرائهم العريض ، قد قتلوا الكرخيزيين حتى لا يدفعوا لهم دينهم عليهم • وفى أثناء التحقيق والمحاكمة ذابت ثروتهم وتبددت • ومات الأب • ونفى الأبناء • وحكم على أحدهم مع عمه بسجن الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً • الحق أن أفراد أسرة لوموف كانوا ابرياء كل البراءة من الجريمة التى نسبت اليهم • وفى ذات يوم ، اعترف جافريلكا ، وهو انسان حقير وغد دنيء ، عرف بأنه متشرد ايضاً ، ولكنه شديد المرح كثير النشاط ، اعترف بأنه هو القاتل • لست أدري فى الواقع هل اعترف هو نفسه بذلك ، ولكن السجناء كانوا يعدونه هو قاتل الكرخيزيين ، لقد كان لجافريلا هذا شأن مع أفراد أسرة لوموف أيام تشرده (وهو لم يجرى الى سجننا الا لقضاء فترة قصيرة جداً بتهمة الهرب من الجندية والتشرد) ؛ وقد ذبح الكرخيزيين متعاوناً مع ثلاثة متشردين آخرين أملاً فى نهب المزرعة •

لم يكن السجناء يحبون لوموف وابن أخيه ، لا أدري لماذا ! ان

ابن الأخ فتى خشن الطبع ، لماح الذكاء ، يحب معاشره الناس ، ولكن عمه الذى طعن جافريلكا بمخززه ، فلاح غبى مندفع لا ينفك يشاجر السجناء فيضربه هؤلاء ضرباً مبرحاً . وكان جميع من فى السجن يحبون جافريلكا بسبب مرح مزاجه ولين عريكته وسهولة معشره . وكان لوموف وابن أخيه لا يجهلان انه مقترف الجريمة التى حكم عليهم بسببها ، ولكنهم لم يشاجراه فى يوم من الايام . وكان جافريلكا لا يلتفت اليهما أى التفات ولا يهتم بهما أى اهتمام . أما المشاجرة التى أدت الى الطعن بالمخززه فقد شبت بين لوموف وجافريلكا بسبب امرأة مقرزة كان جافريلكا ينافس العم لوموف عليها ، فلما تباهى جافريلكا ذات يوم بما ناله من خطوة لديها ، جن جنون الفلاح غيرةً ، فاذا هو يغمد مخززه أخيراً فى صدر جافريلكا .

وكان أفراد أسرة لوموف ، رغم أن الحكم الذى انتزع منهم جميع املاكهم قد أصابهم بالخراب والدمار ، كانوا يعدّون فى السجن أغنياء جداً . لقد كانوا يملكون مالا ، وكان عندهم سماور ، وكانوا يشربون شايًا . وكان الميجر لا يجهل ذلك ، وكان يكره لوموف وابن أخيه ، ويحاول ازعاجهما . وكان الرجلان يفسران سلوكه معهما بأنه يرغب فى أن يقدم لهما رشوة ، ولكنهما لم يشاءا أن يفعلا .

ولو قد أعمد لوموف مخززه فى صدر جافريلكا بمزيد من القوة اذن لأجهز عليه حتماً ، ولكنه لم يستطع أن يحدث فى جسمه الا خدشاً . وأبلغ الميجر النبأ . فها هو ذا يصل الى الثكنة لاهثاً وقد ظهر فى وجهه الرضا والارتياح . ما زلت أراه الى الآن مقبلاً علينا . اتجه الى جافريلكا يسأله بلهجة لطيفة ودود أبوية ، كأنه يخاطب ابنه :

— هل تستطيع يا صديقى أن تذهب الى المستشفى وحده ، أم أنت

في حاجة الى نقلك اليه ؟ لا ... أعتقد أن من الأفضل أن يوتي لك
بحصان • هيأ أسرجوا حصاناً على الفور •

قال جافريلكا :

— ولكنني لا أحس بشيء يا صاحب النبالة الرفيعة • انه لم يزد
على أن خدشني هنا يا صاحب النبالة الرفيعة •

— أنت لا تعلم يا صديقي ، أنت لا تعلم ... سوف ترى ... لقد
أصابك في موضع خطر ... كل شيء متوقف على موضع الاصابة ...
لقد أصابك هذا اللص تحت القلب تماماً !

قال الميجر ذلك ثم أضاف يخاطب لوموف :

— انتظر ... انتظر ... لسوف أقتص منك ! خذوه الى مقر
الحرس !

وبرَّ الميجر بوعده • حوكم لوموف • ورغم أن الجرح كان
طفيفاً ، فان التعمد ظاهر واضح ، لذلك زيدت مدة سجن لوموف بضع
سنين ، وجلد ألف جلدة بالعصا • وسرَّ الميجر بذلك سروراً عظيماً •
وصل المفتش أخيراً •

وجاء يفتش السجن غداة وصوله • كان اليوم يوم عيد • وكان
كل شيء قد أصبح منذ بضعة نظيفاً لامعاً أحسن غسله • وكانت رعوس
السجناء قد حُلقت ، وكانت ملابسهم الناصعة البياض خالية من كل بقعة
(ان النظام يوجب أن يلبسوا في الصيف صدرات وسراويل من قطن ،
وعلى ظهر كل واحد منهم رقعة مربعة سوداء مخططة الى الصدر ، قطرها
ثمانية سنتيمترات) • وكان السجناء قد تلقوا درساً خلال ساعة كاملة :
فتعلموا ما الذي يجب عليهم أن يحييوا به ، وبأى ألفاظ يجب عليهم أن

يجيئوا ، اذا خطر ببال هذا الموظف الكبير أن يحييهم ؛ حتى لقد أجريت تجارب للتأكد من أن السجناء قد تلقوا الدرس وحفظوه . وكان الميجر كمن فقد صوابه . اصطف الجنود في أماكنهم قبل وصول الجنرال بساعة كاملة ، ووقفوا ساكنين جامدين كالتماثيل ، مسبلين أذرعهم ، جاعلين أصابعهم ملاصقة لخيطة السروال . وأخيراً ، فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، دخل المفتش . انه جنرال مهيب الطلعة ، فى هيئته أبهة تبلغ من القوة أن قلب جميع الموظفين فى سبيل الغربة لا بد أن تخفق من الذعر خفقاناً شديداً متى رآته . دخل الجنرال بادی القسوة ظاهر العظمة ، يتبعه رهط من جنرالات وكولونيلات هم الذين كانوا يشغلون وظائف كبيرة فى مدينتنا . وكان هنالك أيضاً مدنى طويل القامة متسق القسما يتردى فراكاً ويتعل حذاءين . كان هذا الشخص يتصرف تصرفاً فيه حرية وطلاقة ، وكان الجنرال يتجه بالكلام اليه كل لحظة فى كثير من الأدب واللفظ . ان هذا المدنى أت كذلك من بطرسبرج . وقد حير أمره السجناء كثيراً ، بسبب ما كان يظهره له الجنرال العظيم من احترام . وقد عُرِف اسمه وعُرِف وظائفه بعد ذلك ، ولكن ما أكثر الكلام الذى دار عليه قبل أن يُعرف اسمه وتعرف وظائفه ! أما صاحبنا الميجر الذى كان متأقاً فى ملبسه أشد التأق ، وكان يحيط عنقه بياقة برتقالية اللون فانه لم يحدث فى نفس الجنرال أثراً حسناً ، وذلك بسبب ما لاحظته الجنرال من احتقان فى عينيه ، وتورد فى وجهه وقسوة فى ملامحه . وكان الميجر قد نزع نظارتيه احتراماً لرئيسه ، ووقف على مسافة متصباً كوتد ، منتظراً على أحرار من الجمر اللحظية التى يؤمر فيها بشئ يسارع الى تنفيذ رغبة صاحب السعادة . ولكن أحداً لم يشعر بالحاجة الى خدماته . طاف الجنرال بالسكنات صامتاً ، وألقى نظرة على

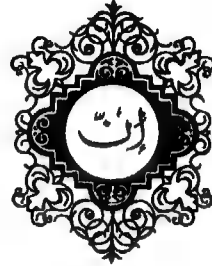
المطبخ ، حيث ذاق حساء الكرنب الحامز • وقد دلوه على ، وذكروا له
أنتى نبيل سابق ، وأنتى فعلت كيت كيت ... فقال الجنرال :

- آ ... وكيف سلوكه ؟

فقبل له :

- سلوكه الآن مرضٍ يا صاحب السعادة ، سلوكه الآن مرضٍ •
فأوماً الجنرال برأسه وخرج من السجن بعد دقيقتين • كان السجناء
مبهوتين حائرين مضطربين أشد الاضطراب • أما أن يشكوا الميجر
فذلك أشد أمر ما كان يمكن أن يخطر ببال أحد منهم • ولقد كان
الميجر واثقاً من ذلك كل الثقة سلفاً •

حيوانات السجدة



شراء جنيدكو (الحصان الكميث) ، وقد تم بعد ذلك بزم من قصير، كان للسجاء تسليّة أمتع كثيراً من زيادة الشخصية الكبيرة التي تحدث عنها كنا في السجن في حاجة الى حصان لنقل الماء ورمى الأوساخ وغير ذلك . وكان أحد السجاء هو الذي يهتم بالحصان ويجره، تحت الحراسة طبعاً . كان حصاننا يعمل من الصباح الى المساء تقريباً . انه حيوان جيد ، ولكنه أصبح ضعيفاً مهترئاً من طول ما عمل . وفي ذات يوم ، عشية عيد القديس بطرس ، بينما كان يحمل برميلاً من الماء ، سقط على الأرض ونفق بعد بضع لحظات . أسف السجاء عليه كثيراً . وهام أولاء يحتشدون حوله ، فيناقشون أمر موته ويعلقون عليه . وبرهن الذين سبق لهم العمل في سلاح الفرسان ، والفجر ، والبيطرة ، وغيرهم ، على معرفة عميقة بالخيول عامة ، واختلفت آراؤهم في الأمر واختصموا عليه . ولكن ذلك كله لم يردّ حصاننا الكميث الى الحياة ، بل ظل ممتداً على الأرض منتفخ البطن . وأحسن كل سجين أن من واجبه أن يجسّه باصبعه . وأعلم الميجر أخيراً بالحادث الذي

وقع للحصان قضاءً وفدراً • فقرر الميجر أن يأمر بشراء حصان آخر على الفور •

وفى ساعة مبكرة من صباح الغد ، يوم عيد القديس بطرس • حين اجتمع السجناء جميعاً بعد الصلاة ، جرى إلى السجن بخيول ليعبها • كان امر اختيار الحصان موكلاً إلى السجناء • لأن بينهم رجلاً خبيرين حقاً ، ولأن من الصعب خداع مائتين وخمسين رجلاً كان تطاى الخيل اختصاصهم • وصل رجال من الفجر ورجال من الكرخيز ، وسامسة حيل ، وأناس من سكان المدينة • كان السجناء ينتظرون بفارغ الصبر وصول كل حصان جديد ، ويشعرون من ذلك بفرح كفرح الاطفال • ان الشيء الذى كان يسرهم خاصة هو انهم يستطيعون ان يشتروا دابة كما يفعل اناس احرار ، فكأنهم يشترون « لانفسهم » وكان المال من جيوبهم «هم» • جرى بثلاثة أحصنة قبل ان يستقر الراى على شراء الرابع • كان البائعون ينظرون بدهشة وبشيء من الخوف الى جنود الحراسه الذين كانوا يرافقون السجناء • وخليق بمائتى رجل مخلوقى الروس موسومين بالحديد مكبلى الأقدام بالسلاسل أن يوحوا الى من يراهم بشيء من التهيب ، لا سيما وأنهم فى منازلهم ، انهم فى عرينهم الذى لا يدخله أحد يوماً • لم ينضب معين المكر والدهاء لدى السجناء • كان عليهم أن يعرفوا بالمكر والدهاء ثمن الحصان الذى جئوا به • ها هم أولاء يفحصون الحصان ويجسونه وقد ظهر فى وجوههم جد كبير واهتمام شديد ، كأن رخاء السجن رهن بشراء هذه الدابة ؛ بل ان الشراكسة قد وثبوا على صهوة الجواد ، فكانت أعينهم تسطح وكانوا يتمتمون تمتمة سريعة بلفتهم التى لا يفهمها أحد ، كاشفين عن أسنانهم البيضاء محرّكين مناخيرهم المتسعة من أنوفهم السمراء المقوفة • وكان هناك روس يتبهنون الى مناقشتهم انتباهاً شديداً حتى ليكادوا يلتهمونهم

بأعينهم التهاما • انهم لا يفهمون شيئاً من الكلام الذى كان يتبادلده رفاقهم ،
 ولكن كان واضحاً انهم يتمنون لو يعرفون من تعبير أعينهم هل الحصان
 جيد ام لا • ترى لماذا يهتم سجين ، ولا سيما سجين مبهوت مقهور ما كان
 له أن يجرؤ يوماً على أن ينطق بكلمة أمام رفاقه ، لماذا يهتم سجين كهذا
 بأن يتم شراء هذا الحصان أو ذاك كأنما هو يشتريه لنفسه ، وكأنما
 يعنيه أن يشتري هذا الحصان أو ذاك الآخر ؟ ان السجناء الذين أنزلوا
 المنزلة الاولى فى اتمام هذه الصفقة وأعطوا حق الكلام أكثر من غيرهم
 انما هم الشراكسة ثم العنبر ومن كانوا فى الماضى يتعاطون تجارة الخيل •
 وقد نشب نوع من المارزة بين سجينين ، فأما الأول فهو كوليكوف الذى
 كان سمسار خيل وسارق أحصنة ، وأما الثانى فهو بيطرى موهوب ،
 فلاح سيبرى ماكر كان قد أرسل الى سجن الاشغال الشاقة منذ زمن
 قصير فنافس كوليكوف فى السيطرة ، وأفلح فى أن ينتزع منه ما كان
 يقوم به من أعمال بالمدينة • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن الناس
 كانوا يقدرون كثيراً بياطرة سجنائنا الذين لا يملكون شهادة الطب
 البيطرى ، فكان سكان المدينة والتجار بل وكبار الموظفين يتجهون اليهم
 اذا مرضت خيولهم ويؤثرونهم على كثير من البياطرة أصحاب الشهادات •
 فكان للسجين كوليكوف ، الى أن وصل الفلاح السيبرى يولكين ، زبائن
 كثر فى المدينة يدفعون له المال عرفاناً بفضلهم ، ولم يكن ينافسه فى ذلك
 أحد • وكان يعمل كما يعمل غجرى حق ، فهو يفش ويخدع ، لأنه لم
 يكن يعرف مهنته بمقدار مباهاته • وقد جعلته ايراداته أشبه بأرستقراطي
 بين نزلاء سجننا ، فكان السجناء يصفون اليه ويطيعونه ، ولكنه كان قليل
 الكلام ، فهو لا يعلن رأيه الا فى المناسبات الكبرى • انه رجل مزهو
 بنفسه ، ولكنه ينعم بنشاط عظيم وطاقة جبارة حقاً • وهو متقدم فى
 السن ، جميل جداً • على جانب كبير من الذكاء خاصة • كان يكلمنا •

نحن النبلاء القدامى ، بكثير من الأدب واللفظ والكياسة ، مع احتفاظه بوقاره وكرامته احتفاظاً كاملاً • يقينى أنه لو ألبس لباساً مناسباً ، وأخذ الى نادٍ من نوادى العاصمة ، وقدّم الى الناس على أنه كونت ، لاستطاع أن يظهر بهذا المظهر وأن يرقى الى هذه الرتبة ، وأن يلعب التويست ، وأن يتحدث حديثاً يفتن الألباب كما يفعل رجل ذو شأن خطير يعرف كيف يصمت حين يجب الصمت ، ولما استطاع أحد طوال السهرة أن يحزر أن هذا الكونت ليس الا مشرداً من المتشردين • لقد كان يحسن التأدب بالأدب الاجتماعيه الراقية ، فلعله رأى كثيراً ••• أما ماضيه فلقد كنا نجهله جهلاً تاماً ، وكان الرجل ينتمى الى القسم الخاص • فما ان وصل يولكين - وهو فلاح بسيط ينتمى الى الملة المشتقة ، ملة « قدامى المؤمنين » • ولكنه ماكر كأمر مويك - حتى أفل نجم كوليكوف من حيث هو بيطرى حاذق ؟ فاذا بالبيطرى الجديد ينتزع منه ، فى أقل من شهرين ، جميع زبائن المدينة ، لأنه أخذ يشفى ، خلال برهة قصيرة جداً ، خيولاً كان كوليكوف قد أعلن أن أمراضها لا تشفى ، وكان البيطرة الذين يحملون شهادات الطب البيطرى قد عدلوا عن علاجها وتركوا مداواتها • كان هذا الفلاح قد أودع سجن الأشغال الشاقة لأنه صنع نقوداً مزيفة ، متعاوناً مع شركاء • ترى ما الذى أغراه باقتحام هذا الميدان وتعاطى هذه الصناعة ؟ لقد ذكر لنا هو نفسه ، ساخراً ، كيف أنهم احتاجوا الى ثلاث قطع ذهبية صحيحة من أجل أن يصنعوا قطعة واحدة مزيفة !

استاء كوليكوف استياءً شديداً من النجاح الذى أصابه هذا الفلاح بينما كان مجده هو يأفل أقولاً سريعاً • انه ، وهو الذى كان له خلية فى الضاحية ؟ وكان يرتدى معطفاً من فراء رائع ويتعلم حذامين طويلين فآخرين ، قد وجد نفسه على حين فجأة مضطراً الى أن يصبغ خماراً •

لذلك كان جميع السجناء يتوقعون أن تنشب بين الرجلين مشاجرة قوية عند شراء الحصان الجديد • ان حب الاطلاع قد تأجج في جميع النفوس • ولكل رجل من الرجلين أنصاره ، والمتحمسون منهم قد أخذوا يضطربون ، بل أخذوا يتبادلون الشتائم منذ الآن • وكان وجه يولكين المعبر عن الدهاء والمكر قد تقبض على ابتسامه ساخرة • غير أن الأمور جرت على غير ما كان يتوقع المتوقعون : ان كوليكون لا يريد أبداً أن يشاجر صاحبه ، وقد تصرف تصرفاً بارعاً يجنبه المشاجرة • سلم لصاحبه في أول الأمر بكل شيء ، وأصغى باحترام الى الآراء النقدية التي أدلى بها خصمه ، ولكنه لم يلبث أن انتهر فرصة كلمة زلّ بها لسان يولكين فاذا هو يقبض على هذه الكلمة فيقول لصاحبه بلهجة متواضعة جازمة انه على خطأ • وقبل أن يتسع وقت يولكين لأن ينوب الى نفسه ويعدل عن رأيه أخذ يبرهن له على انه قد وقع في غلطة فاحشة ، وهكذا حوصر يولكين محاصرة بارعة لم تكن في الحسبان ، فسرّ بذلك حزب كوليكون سروراً عظيماً • قولوا :

– هل رأيتم يا شباب ؟ انه لا يمكن أن يخطئ ! انه يعرف ماذا يفعل !

فقال الآخرون ، ولكن بلهجة لينّة لا تحدى فيها :

– يولكين أعلم منه •

• وكان الحزبان مستعدين للتنازل والتصالح •

قال أنصار كوليكون :

– عدا أن كوليكون لا يقل عنه علماً ، فان يده أخف ••• انه فيما

يتعلق بالماشية لا يخشى أحدا •

– وكذلك يولكين !

– كوليكونف لا يضارعه فى هذا مضارع !

وأخيراً اختير الحصان الجديد الذى تم شراؤه بمعد ذلك • انه حصان ممتاز ، صغير السن قوى الجسم جميل المنظر : دابة لا مأخذ عليها من ناحية من النواحي • بدأت المساومة : صاحب الحصان يطلب ثلاثين روبلاً ثمناً له • والسجناء لا يريدون أن يدفعوا الا خمسة وعشرين • وطالت المساومة وحمت ، فطرف يزيّد قليلاً ، وطرف يتنازل قليلاً ، ثم اذا بالسجناء يأخذون يضحكون من تلقاء أنفسهم •

قال بعضهم :

– لماذا المساومة ؟ أأنت تدفع الثمن من كيسك ؟

وصاخ آخرون :

– أأنت تريد أن تحقق للخرزنة وفراً ؟

– هذا المال ملك مشترك !

– ملك مشترك ! صحيح أن أحداً لا يزرع حمقى وأغبياء ، ولكن

الحمقى والأغبياء ينتون من تلقاء أنفسهم دون أن يزرعهم أحد ! ...

وتم الاتفاق أخيراً على أن يدفع ثمن الحصان ثمانية وعشرين روبلاً • وأبلغ الميجر نتيجة المساومة فوافق على الشراء • فسرعان ما جرى بخبز وملح ، واقتيد الحصان الجديد الى السجن فى عظمة وأبهة • أحسب أنه مامن سجين لم يربط على عنق الحصان أو لم يداعب أنفه • وقد قام الحصان بنقل الما الى السجن فى ذلك اليوم نفسه : فكان جميع السجناء ينظرون اليه فى كثير من الاستطلاع وهو يسحب أول برميل ؟ وكان سقاؤنا ، السجن رومان ، يتأمل دابته فى كثير من الرضى والغبطة والجور • ان هذا السجين الذى كان فى الماضى فلاحاً ، والذى

يبلغ من العمر نحو خمسين عاماً ، كان امرءاً جاداً صموتا ، كسائر
الحوذيين الروس تقريباً ، كأن استمرار معاشرة الخيل تسبغ على طبع
المرء شيئاً من الوفاق والجد حقاً • كان رومان هادئاً ، لطيفاً في معاملته
جميع الناس ، قليل الكلام • وكان يستشقى سعوطاً يتناوله من علبة
خاصة للسعوط • وهو مولج بخيول السجن منذ زمن بعيد لا يعرف
أوله • والحصان الذى تم شراؤه أخيراً هو ثالث حصان يعهد به اليه
منذ دخوله السجن • وكان كل سجين من السجناء مقتنعاً بأن الكمية من
بين الخيول هو الحصان الذى يناسب « منزلنا » • وذلك ما كان يؤكده
رومان أيضاً • فما كان يمكن أن يشتري حصان أبلغ مثلاً ! •••

ان وظيفة الحوذى وقف على رومان لا يمكن أن ينازعه فيها أحد.
وحين فطس « الكمية » الاول لم يخطر ببال أحد ان يتهم رومان بشيء
من الاهمال أو قلة التبصر ، حتى ولا الميجر • فقد عدوا موت الحصان
قضاءً وقدرا لا أكثر • وكان رومان حوزيا ممتازا فى الواقع •

سرعان ما أصبح الكمية الجديد أثر السجن كله • فكثيرا ما كان
السجناء يقبلون عليه : يداعبونه ويلاعبونه ، رغم ما قد يوصفون به من
ضعف الاحساس وقلة العاطفة • وفى بعض الأحيان ، حين كان رومان ،
بعد عودته من النهر ، يخلق الباب الكبير الذى فتحه له صف الضابط ،
كان الحصان جنيدكو يقف جامداً بانتظار سائقه ، ناظراً اليه من جانب ،
فيصيح به رومان قائلاً : « اذهب وحدك ! » فاذا بالحصان يمضى هادئاً
حتى المطبخ فيتوقف هناك ، منتظراً أن يأتى الطباخون والخدم فيمتحوا
الماء بقواديسهم ؛ فيصيح السجناء عندئذ قائلين :

- ما أروع حصاننا جنيدكو ! لقد جاء بالبرميل وحده ! انه مطيع !
ما أسعدنا به ! •••

— حقاً ••• هو حيوان ولكنه يفهم ما يقال له ! •••

— ما أذكى جنيدكو !

فيهز الحصان عندئذ رأسه ويصهل ، كأنه فهم الأماديح وقد رها •
ويجيئه أحدهم بخبز وملح ، فاذا فرغ الحصان من التهام الخبز والملح
هز رأسه مرة أخرى كأنه يريد أن يقول : « أنا أعرفك ، أنا أعرفك ،
أنا حصان جيد وأنت رجل طيب شهم ! » •

و كنت أحب أنا أيضاً أن أدلل جنيدكو باطعامه خبزاً • كنت أجد
لذة في أن أنظر الى بوزه الجميل ، وأن أحس في راحة يدي شفتيه
الدافئتين الطريتين اللتين تتلفغان أعطيتي بشراسة • كان نزلاء سجننا
يجبون الحيوانات ، فلو قد سمح لهم ، اذن لملثوا التكنات بالطيور
والحيوانات الأهلية •

أى شاغل يمكن أن يرتقى بالطباع المتوحشة التي يتصف بها
السجناء ، وأن يلفظها ويلينها ، أكثر من هذا الشاغل ؟ ولكن ذلك لم
يكن مباحاً • فلا النظام يأذن به ، ولا المكان يتسع له •

ومع هذا كان قد استقر في سجننا عدد من الحيوانات ابان اقامتي
فيه • كان لدينا ، عدا جنيدكو ، كلاب وأوز وجدى (هو فادكا) ونسر
لم يعيش طويلاً •

أحسب أنني سبق أن ذكرت أن كلبنا كان يسمى « شاريك »
(السمين) • وأضيف الآن أنه كان حيواناً ذكياً ، وأتني كنت على صداقة
معه • ولكن لما كان الشعب يعد الكلب حيواناً نجساً ما ينبغى الالتفات
اليه ، فان أحداً لم يكن يهتم به • كان هذا الكلب لا يفارق السجن ،
ينام في الفناء ، ويأكل فضلات المطبخ ؛ ولم يجتذب اليه شيئاً من عاطفة
السجناء الذين كان يعرفهم جميعاً مع ذلك وينظر الى كل منهم على أنه

صاحبه • فاذا عاد السجناء من عملهم ، وسمعهم يصيحون « يا عريف ! » هرع نحو الباب الكبير واستقبل القادمين فرحاً ، يهز ذيله ، وينظر فى عينى كل واحد ، كأنه ينتظر شيئاً من مداعبة وملاطفة • ولكن جميع ما بذله من جهود للتودد اليهم والتقرب منهم خلال عدة سنين لم يجده نفعا • فما من أحد رضى أن يلاطفه وان يداعبه غيرى • لذلك كان يؤثرنى على جميع السجناء • اما الكلب الثانى ، واسمه «بايلكا» (التلج) فانتى لا أذكر الان كيف جاء إلنا • وأما الكلب الثالث ، كوليئابكا ، فقد أتيت به أنا السجن صغيراً •

ان كلبنا « بايلكا » مخلوق عجيب غريب • كانت عربته من العربات قد داسته فأحنت عموده الفقرى من داخل ، فمن راه يركض من بعيد ، خيل إليه أنه يرى كلبين توأمين ولدا ملتصقين • وكان عدا ذلك أجرب اعمص العينين له ذيل زال عنه شعره وتهدل متدليا بين قائمته • لقد ظلمه القدر فقرّر أن يبقى فى كل مناسبة هادئاً ساكناً لايهتز ولا يهتاج ؛ فهو لا ينبع على أحد كأنه يخشى ان يهشّم من جديد • وكان يبقى خلف الثكنات فى جميع الاحيان تقريباً ، فاذا اقترب منه أحد ، سارع ينقلب على ظهره كأنه يقول : « اصنع بى ما تشاء فلست أفكر فى مقاومتك قط ! » • وكان كل سجين لا يفوته حين ينقلب الكلب على ظهره أن يركله برجله كأنه يقوم بواجب من الواجبات قائلاً له : « يا للكلب قدر ! » ولكن الكلب لا يجرو حتى ان يثن ، فاذا تألم ألماً نديدا لم يزد على أن يصدر صوتاً أصم مختفياً • وكان ينقلب على ظهره أيضاً أمام الكلب السمين (شاريك) أو أمام أى كلب آخر يجيى الى المطبخ طلباً للرزق • وكان ينطح متى هجم عليه كلب من الكلاب الشرسة نابحاً • ان الكلاب تحب من أقرانها الذل والخضوع • لذلك ترى الكلب المهتاج سرعان ما يهدأ متى رأى استكانة قرينه ، فيتوقف

ساعماً أمام الكلب الذليل المنبطح على الأرض ضارعاً متوسلاً » ثم يأخذ يشم جميع أجزاء جسمه في استطلاع • ترى فيم يفكر بايلكا في مثل هذه اللحظة وهو يرتعد خوفاً ؟ أغلب الظن أنه يقول لنفسه : « هل سوف يعرضني هذا الوغد ؟ » • ومتى فرغ الكلب الشرس من تشممه تركه ومضى في سبيله ، لأنه لم يكتشف فيه شيئاً يثير اهتمامه • فسرعان ما كان بايلكا ينهض ثم يأخذ يجرى وراء جماعة من أقرانه تلاحق كلبه لعباً ما •

ان بايلكا يعلم حق العلم أن الكلبة اللعوب لن ترضى أن تنزل الى مستواه ، فهي اكبر شهما واعظم انفة من ان تنزل الى هذا المستوى الوضع ، غير أن جريه وراها من بعيد عرجاً كان يسرى عنه ويخفف بلواه ويعزيه عن أنواع الشقاء التي يعانيتها • اما الكرامة فقد فقد الاحساس بها حتى اصبح لا يعرفها • واذ ضيغ كل أمل في المستقبل • فقد اصبح لا يطعم في اكثر من أن يملأ بطنه ، وكان يملأ بطنه فعلاً في كثير من الاستهتار • حاولت مرة أن أداعبه ، فكان ذلك أمراً جديداً لا عهد له به من قبل ، فاذا هو يتكور على الأرض مستلقياً على قوائمه الأربع ، واذا هو يأخذ يرتعش ويحشرج من فرط اللذة ؛ ولما كنت أشفق عليه فقد كنت أداعبه أحياناً كثيرة • ولذلك صار كلما رأيته يقبل علىّ ويشن أنينا تاركياً وتكاد عيناه تدمعان • وفي ذات يوم ، وُجد ميتاً وراء السجن في الخندق ، قد مزقته كلاب أخرى شراً ممزق •

أما كوليتا بكا فقد كان له طبع آخر مختلف عن طبع بايلكا كل الاختلاف • لا أدري لماذا جئت به من أحد المواضع التي كنا نعمل فيها ، وهناك وُلد • كنت أجده لذة في اطعمه وفي تتبع نموه • وسرعان ما تولى شاريك حمايته ورعايته ، فأصبح ينام معه ، حتى اذا كبر الكلب الصغير ظل صاحبه الكبير يشمر نحوه بعطف خاص ، فهو يسمح له بأن

يعضه من أذنيه ، وأن يشد شعره ، وهو يلعب معه كما تلعب الكلاب الكبيرة مع الجراء الصغيرة • والشئ الغريب أن كوليتابكا كان لا يكبر علوا ، وإنما يكبر عرضاً وطولاً فحسب • وكان كوليتابكا غزير الشعر ، وكان شعره بلون شعر الفار • وكانت إحدى أذنيه متدلية منهتلة بينما ثانت الأذن الأخرى قائمة منتصبه • وكان شديد الحميا كثير الحماسة كسائر الكلاب الفتية التي تتوانب فرحة وتنبج مسرورة حين ترى مولاها حتى لتقفز الى وجهه لتلعبه • انه لا يخفى عواطفه وكأنه يقول لنفسه : « حسبي أن يلاحظ فرحي ، فأما المواضع فلا قيمة لها ولا شأن ! » • كان يكفي أن أناديه بقولي كوليتابكا حتى أراه يخرج من ركن من الاركان ، كأنه انبجس من تحت الأرض ، وحتى يسرع نحوى راكضا صاحباً متحمساً ، وحتى يتدحرج بين قدمي كما تتدحرج كرة أو ينقلب على ظهره منبطحاً • كنت احب هذا الشيطان الصغير حباً جماً • كان يبدو أن القدر لم يخبىء له فى هذه الحياة الدنيا الا المسرة والفرح ، ولكن السجين نوسترويف الذى يصنع احذية للنساء ويحضّر جلوداً ، قد لاحظته ذات يوم ، لان شيئاً قد لفت نظره فيه حتماً ، فاذا هو ينادى كوليتابكا ويبجس شعره ، ويقبله على الأرض فى تحجب وتودد ، واذا الكلب ، الذى لم يراوده شئ من شك ولا خطر بباله سوء ، ياخذ يسبح فرحاً وسروراً ، فما ان جاء الغد حتى كان الكلب قد اختفى • بحثت عن الكلب زمناً طويلاً دون أن أعثر له على أثر ، ولكن كل شئ قد اتضح بعد أسبوعين • ان فراء كوليتابكا قد أغرني نوسترويف ، فعمد الى سلخه ليطن به حذاءين كانت زوجة أحد الموظفين قد طلبت منه أن يصنعهما لها • لقد أرانى نوسترويف الحذاءين حين فرغ من صنعهما ، فكان فرائهما الداخلى رائعا • مسكين كوليتابكا ! ...

لقد كان كثير من السجناء يعملون في دباغة الجلود ، فكثيراً ما كانوا يجيئون الى السجن بكلاب جميلة الفراء سرعان ما تختفى . كان السجناء يشترون هذه الكلاب أو يسرفونها . أذكر أنتى رأيت في ذات يوم وراء المطبخ سجينين يتشاوران ويتناقشان . كان احدهما يمسك مقود كلب أسود جميل جداً ينتمى الى جنس رائع من أجناس الكلاب . ان خادماً من الخدم كان قد سرق الكلب من سيده وباعه لحداءنا هذين بثلاثين كوبكاً . وكان الرجلان يستعدان لخلق الكلب ، وذلك عمل سهل يعمدان بعده الى سلخ الجلد ، ثم يريان الجنة في الحفرة التي أعدت لرمى الاقدار والتي كانت تنشر روائح كريهه فظيعة في ايام الحر الشديد من الصيف ، لانها لم تكن تنظف الا نادرا . احسب ان احيوان المسكين قد أدرك المصير الذى ينتظره ، فكان ينظر الينا نظرة قلقة فاحصة ، بعضا بعد بعض ؛ وكان لا يجرؤ الا من حين الى حين أن يهر ذيله الكثيف المتدلى بين فائتيه كأنما ليرقق فلوبنا بما يظهره لنا من قه بنا واطمئنان الينا . أسرعرت أبتعد عن هذين السجينين اللذين أنجزا عملهما بغير حرج .

أما أوز سجننا فقد استقر فيه عرضاً ومصادفة . لا أدري من كان يعتنى به ومن كان صاحبه ، ولكننى أعلم أنه كان لسجنائنا سلوكاً وبهجة ، وانه نال شهرة في المدينة . لقد ولدت أوزاتنا في السجن واتخذت المطبخ مقراً لها تخرج منه جماعات متى ذهب السجناء الى الشغل ، فما أن يقرع الطبل فيتجمهر السجناء عند الباب الكبير حتى تجرى الأوزات وراءهم مصوّنة صافقةً جناحيها، ثم اذا هى تثب واحدة بعد أخرى ، فتجتاز دكة الباب المرتفع ، فاذا أخذ السجناء يعملون طمقت ترعى على مسافة قصيرة منهم ، حتى اذا انتهوا من عملهم وقفلوا راجعين الى السجن انضمت الى موكبهم من جديد فكان المارة يقولون : « انظروا

الى السجناء يمرون مع أوزاتهم » • وقد سألنا أحدهم يوماً قائلاً :
 « كيف علمتموها أن تتبعكم ؟ » • وقال رجل آخر وهو يضع يده في
 جيبيه : « خذوا هذا المال لاوزاتكم » • وقد ذبح السجناء هذه الأوزات
 رغم اخلاصها لهم ، احتفالاً بالعيد الكبير بعد الصوم في سنة من
 السنين •

أما الجدى فاسكا فما كان لأحد أن يقرر ذبحه لولا مناسبة خاصة •
 لا أدري كيف وجد هذا الجدى في سجننا ولا أعرف من الذى أتى به :
 انه جدى أبيض جميل جداً لم تمض على وصوله ايام حتى أحبه جميع
 السجناء ، وأصبح لهم تسليّة وعزاء • واذ كان لا بد لهم من عذر
 يفعلون به للاحتفاظ بالجدى في السجن ، فقد أكدوا انه لا بد من
 تيسر في الاصطبل * • ومع ذلك لم يسكن الجدى الاصطبل بل سكن
 المطبخ وانتهى أخيراً الى أن يكون السجن كله مسكنه يطوف فيه على
 ما يشاء له هواء • كان هذا الحيوان الرشيق مرحاً لعباً يتب على الموائد
 ويصارع السجناء ويركض اذا نودى ويحتفظ دائماً بمزاجه الفرح
 وطبعه الفكه • فى ذات مساء كان اللزخينى باباى جالسا على درجات
 مدخل الثكنة وسط جماعة من السجناء الآخرين فخطر بباله ان يصارع
 فاسكا الذى كان قرناه طويلين بعض الطول • أخذ الرجل والجدى
 يتضاربان بجهتيهما ، وكان هذا اللعب أحبّ التسليات الى قلوب
 السجناء • وها هو ذا فاسكا يشب الى الدرجة العليا من درجات المدخل ،
 فما أن تنحى باباى قليلاً حتى انتصب الجدى فجأة على قدميه الخلفيتين ،
 وقرّب حافريه من جسمه ثم لبط اللزخينى على قداله بكل ما أوتى من
 قوة ، فاذا بالرجل ينقلب متدحرجاً على الدرجات ، فيشيع الفرح في جميع
 الشهود وفى باباى نفسه • الخلاصة أننا أحيينا جدنا فاسكا حباً عظيماً ،
 فلما أدرك سن البلوغ ، أجرى له البيطريون من نزلاء سجننا ، بعد

مؤتمر عام هام ، عملية كانوا يحسنون اجراءها على أنم وجه ، أعى
عملية الخصى . وقال السجّاء عندئذ معلقين : « فذلك لن يسمرنا بانه
نيس على الاقل . » . اخذ فاسكا منذ ذلك الحين يسمن سمّة مدهله .
يجب أن نذكر على كل حل أن السجّاء كانوا يسرفون فى اطعامه .
أصبح فاسكا تيساً جليلاً جداً له قرنان رائعان وأصبح مفرطاً فى السمّة ،
حتى صار يتفق له فى بعض الأحيان أن يتدحرج على الأرض ثقيلًا
أثناء المشى . وكان يرافقنا هو أيضاً الى العمل ، وكان ذلك يسر السجّاء
ويسر المارة الذين كانوا يعرفون جميعا تيس السجن فاسكا ؛ فاذا كان
السجّاء يعملون على شاطئ النهر قطعوا أغصاناً من أشجار الصمّاف
وفطفوا أوراقاً وجنوا أزهاراً يزينون بها فاسكا ، فهم يصفون على قرنيه
غصونا وازهاراً ، ويضعون على صدره الأكاليل ، فكان فاسكا يعود الى
السجن على رأس القافلة متبرجاً متزيّناً ، وكان السجّاء يسرون وراءه
معتزين بجعله فخورين بحسنه ؛ وقد بلغ بمض السجّاء من حبهم تيسا
أنهم قدموا هذا الاقتراح الطفولى : وهو . أن يعطى فرنا فاسكا بالذهب
ولكن اقترحهم بقى مشروعا فى الهواء ولم يكتب له أن يوضع موضع
التنفيذ . سألت أكيم أكيمتش وهو خير مذهب فى سجننا بعد اسميا
فومتش هل يمكن حقاً تذهيب قرنى تيس ، فأخذ يفحص قرنى فاسكا
باتتياه شديد ، وفكر برهة ثم أجابنى بان تذهيبهما ممكن ولكن الطلاء
الذهبى لن يبقى مدة طويلة ، ولا داعى اليه على كل حال . ووقف الامر
عند هذا الحد .

كان يمكن أن يعيش فاسكا فى سجننا سنين طويلة ، ولعله كان
سيموت مصاباً بضيق التنفس لولا أنه فى ذات يوم أثناء عودته من العمل
على رأس قافلة السجّاء ، قد صادف الميجر جالساً فى عربته . كان التيس
مزدانا بالأزهار . زار الميجر قائلاً : « قف ! لمن هذا التيس ؟ » .

فأوضحوا له الأمر فقال غاضباً : « كيف هذا ؟ أ يوجد تيس فى السجن ويكون ذلك بدون اذننى ؟ يا عريف ! » • وأصدر الميجر أمره الى العريف بذبح التيس فوراً وسلخه وبيع جلده فى السوق وايداع ثمنه صندوق السجن ، أما لحمه فيطبخ مع حساء الكرنب الحامز الذى يأكله السجناء • تكلم السجناء كثيراً عن هذا الحادث ، وأسفوا كثيراً على التيس ، ولكن ما كان لاحد ان يعصى امر الميجر • ذبح فاسكاً قرب حفرة القاذورات واشترى أحد السجناء لحمه كله ، ودفع ثمنه روبلا وخمسين كوبيكاً • واشترى بهذا المال خبز أبيض للجميع • والسجين الذى اشتراه قام ببيعه بعد ذلك شرائح مقلية • كان لحمه لذيد الطعم صيب المذاق !

كان فى سجننا أيضاً خلال فترة من الوقت نسر من نسور السهوب (كاراجوش) التى تنتمى الى فصيلة تتصف بانها صغيرة الحجم • لقد جاء به أحد السجناء جريحاً يشبه أن يكون ميتاً • أحاط به جميع السجناء • كان النسر عاجزاً عن الطيران ، فجناحه اليمنى متهدلة معطلة ، واحدى قائمته مخلوعة • كان ينظر الى الجمهور المستطلع المحتشد حوله نظرة غاضبة ، ويفتح منقاره المقوف مستعداً لأن يدفع ثمن حياته غالباً • فلما انصرف عنه السجناء بعد أن تأملوه طويلاً ، مضى الطائر الأعرج متواكباً على قائمته السليمة ، صافقاً جناحه ، مضى يخبئ فى أقصى مكان من الفناء ، فقع فى ركن من الأركان ملتصقاً بأوتاد السياج ، ثم لم يبارح ركنه ذاك خلال الأشهر الثلاثة التى قضاها فى فناء سجننا • كان السجناء فى البداية يجيئون من حين الى حين فينظرون اليه ويهيجون عليه الكلب شاريك الذى كان يهجم نحوه مستمر الحقن ، ولكنه يخشى أن يقترب منه كثيراً ، فكان ذلك يسلى السجناء ويضحكهم ، فيقول بعضهم لبعض : « حيوان كاسر ، هه ! لا يسمح لأحد أن يفيظه ! » •

ولكن الكلب شاريك أصبح بعد ذلك لا يهابه وأخذ يتحرس به
وينأوشه ، فاذا حرضه السجّاء عليه أمسك الجناح المريض من جناحي
النسر فكان النسر يدافع عن نفسه. بمثاقفه ومخالبه • ويلطو في ركنه
متعالياً متغطرساً كملك جريح ، ويحدّق الى من حوله مستطلماً ومل
السجّاء أخيراً من هذا المنظر ، فسرعان ما نسوا النسر نسياناً تاماً • ومع
ذلك كان يجيئه في كل يوم واحد منهم • فيضع قربه قطعة من لحم طرى
واتاء مكسوراً فيه ماء • ظل النسر في الايام الاولى يرفض ان يأكل
شيئاً من يد أحد ، أو أن يأكل على مرأى من الناس • استطعت ان اراقبه
مراراً من بعيد • كان اذا لم يرا أحداً ، وحسب انه وحيد ، جازف
فترك الركن الذى يقبع فيه وأخذ يسير عارجاً على طول السياج ، مسافه
اثنتى عشرة خطوة تقريباً ، ثم قفل راجعاً ، ثم استدار فمشى هذه المسافه
نفسها مرة أخرى ، ثم عاد ، وهكذا دواليك ، تماماً كما لو ان طيبياً قد
أمره بالقيام بهذه الرياضة الصحية ! ولكنه ما يكاد يلمحنى حتى يركض
نحو ركنه عارجاً متوثباً بأقصى سرعة يستطيعها • وكان عندئذ يرد راسه
الى وراء ، ويفغر منقاره ، ويشعث ريشه ، كانما هو يتهاى لمعركة •
حاولت أن أداعبه ، ولكن جهودى كلها لم تفلح فى ان تؤنسه : كان
يمض ويتخبط متى لمس • ولم يقبل مرة واحدة أن يتناول اللحم الذى
أحاول أن أقدمه اليه ؟ وكان يحدّق الى بنظرة شريرة ثاقبة ما بقيت
قريباً منه • كان النسر الشقى يحب العزلة ويمتلئ قلبه حقداً ، فهو
ينتظر الموت مستمراً على تحدى جميع الناس ، مصراً على أن لا يصلح
أحداً • وتذكره السجّاء أخيراً بعد شهرين من نسيان ، فأظهروا نحوه
عطفاً لم يكن فى الحسبان ، واتفق رأيهم على أن ينقلوه من السجن •
قال بعضهم : « فليفطس ، ولكن فليفطس حرّاً طليقاً على الأقل » •
وأضاف آخرون :

- حتماً ... فان طائراً حراً مستقلاً مثله لن يتعود السجن في
يوم من الأيام •
وقال أحدهم :
- انه لا يشبهنا ! ...
فأجاب ثان :
- طبعاً ، هو طائر ونحن بشر ! ...
وانبرى سكوراتوف يقول :
- النسر ، يا رفاق ، مك الغابات ...
ولكن أحداً لم يستمع اليه يومئذ •
وبعد الظهر من أحد الأيام ، حين قُرع الطبل مؤذناً بالذهاب الى
العمل ، جاء بعض السجناء الى النسر ، فأوتقوا منقاره ، لانه كان يدافع
عن نفسه بضراوة ، ونقلوه الى خارج السجن فوق السور • ان السجناء
الذين تولوا هذا العمل ، وكان عددهم اثني عشر سجيناً ، كانوا في أشد
الشوق الى معرفة الجهة التي سيمضى فيها الطائر • شيء غريب : لقد
كانوا جميعاً مسرورين ، كأنهم هم الذين يفرج عنهم ، كأنهم هم الذين
يفوزون بالحرية !
قال السجين الذي كان ممسكاً به ، قال وهو ينظر الى النسر فيما
يشبه المحبة والحنان :
- يا للحيوان الشرير •• تريد له الخير ثم هو يمزق يدك ليشكر
لك صنعك !
- دعه يطير يا ميكيتكا !

– الأسر لا يناسبه • هب له الحرية ■ هب له الحرية الجميلة !

رُمى النسر من على السور الى الفلاة • كان ذلك فى يوم اشهب
بارد من آخر الخريف • كانت ريح السهوب العسارية تصفر وتثن فى
العشب الاصفر المصوّح • مضى النسر قدماً لا يلوى على شيء ، صافقاً
بجناحه المريضة ، كأنه يستعجل أن يتركنا وأن يختبئ عن أنظارنا •
وجعل السجّاء يتابعون بأبصارهم رأسه الذى يبرز من العشب •

قال أحدهم ساهماً :

– هل ترون ؟

وأضاف آخر :

– انه لا ينظر الى وراء ! لم ينظر مرة واحدة الى وراء !

فأجاب ثالث :

– وهل تظن أنه سيعود ليعبر لنا عن شكره وامتنانه ؟

– هو الآن حر • لقد ذاق طعم الحرية !

– نعم الحرية !

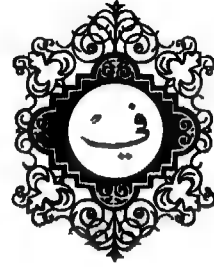
– لن نراه بعد اليوم يا رفاق !

– ما توقفكم هنا ؟ هيئاً امشوا ! ♦♦♦

كذلك صاح الحرس من الجنود ، فسار السجّاء يذهبون الى العمل
بخطى بطيئة •

الفصل

مطلع هذا الفصل يشعر ناشر « ذكريات منزل الأموات » التي كتبها المرحوم ألكسندر بترفش جورياتشيكوف ، ان من واجبه أن ينقل الى القراء ما يلي :



« لقد تحدث كاتب ذكريات منزل الأموات ، في الفصل الأول من كتابه ، عن جريمة ابن قتل أباه (وهو نبيل الاصل) * واتخذ الكاتب من هذه الجريمة مثالا على ما يلاحظ في السجناء من فقدان الاحساس حين يجيئون على ذكر الجرائم التي ارتكبوها . وقد ذكر كاتب المذكرات أيضاً أن الابن لم يشأ أن يعترف أمام المحكمة بشيء ، غير أن ما رواه للكاتب أشخاص يعرفون جميع تفاصيل القصة قد جعل ارتكاب الابن جريمة قتل أبيه أمراً لا يتطرق اليه الشك . ولقد روى هؤلاء الأشخاص لكاتب « ذكريات منزل الأموات » أن الابن المجرم كان شاباً فاسقاً مثقلاً بالديون ، وأنه قد قتل أباه استعجالاً للحصول على ميراثه منه ؛ ثم ان المدينة كلها التي كان يخدم فيها قاتل أبيه قد روت القصة على هذا النحو نفسه ، وهكذا حصل كاتب الذكريات على معلومات مستفيضة . وذكر الكاتب أيضاً أن هذا القاتل كان حتى في السجن مرح الطبع فرح المزاج ،

طائش السلوك أھوج التصرف ، رغم أنه ذكى ، وأن كاتب الذكريات لم يلاحظ فى يوم من الأيام أنه يتصف بقسوة خاصة ، وأضاف الكاتب يقول : « لذلك لم أصدق يوماً أن يكون مجرمًا » •

« وقد تلقى ناشر هذا الكتاب « ذكريات من منزل الأموات » ، تلقى من سييريا نبأً يقول ان هذا الشاب الذى اتهم بقتل أبيه كان بريئاً من هذه الجريمة كل البراءة ، وأنه فضى فى سجن الاشغال الشاقة عشرة سنين بغير حق ، وأن براءته قد ثبتت رسمياً » وأن المجرمين الحقيقين قد عرفوا واعترفوا ، وأن الشاب المسكين قد أفرج عنه • ولا يملك ناشر هذا الكتاب أن يشك فى صدق هذه الأنباء •••

« لا جدوى من اضافة شىء الى هذا • علام الافاضة فى الكلام على ما فى هذه الواقعة من عنصر المأساة ؟ ما فائدة التحدث عن هذه الحياة التى حطمتها ودمرتها تهمة كتلك التهمة ؟ ان الواقعة تتحدث من تلقاء جهازاً •••

« وفى تقديرنا أن أمثال هذه الأخطاء يمكن أن تقع ، وأن امكان وقوعها يضيف الى قصتنا سمةً بارزة جديدة ، ويساعد على اكمال المشاهد التى يعرضها كتاب « ذكريات من منزل الأموات » ، ويعين على توضيح هذه المشاهد مزيداً من التوضيح ••• •

ولنعد الآن الى حيث كنا من « الذكريات » التى كتبها المرحوم ألكسندر بترفتش جورياتشيكوف :

سبق أن قلت اننى تعودت هذه الظروف أخيراً ، غير أن « أخيراً » هذه لم تحن الا بعد عناء كبير وزمن طويل • لقد احتجت الى ما يقرب من السنة حتى أعود السجن ، وسأظل أنظر الى تلك السنة الأولى على

أنها أرفع سنى حياتى • ولذلك انحفرت فى ذاكرتى كاملة حتى فى أدق تفاصيلها : بل اننى لاعتقد اننى اذكر كل ساعة من ساعاتها واحدة بعد أخرى • سبق ان قلت ايضا ان السجناء الاخرين لم يستطيعوا ان « يتعودوا » هذه الحياة اكثر منى • لقد ظلت أَسْأَلُ طوال تلك السنة الاولى هل كانوا هادئين حقا كما كان يبدو عليهم ؟ وكانت هذه الاسئلة تشغل بالى كثيرا وتلح على الحاحاً شديدا • كان جميع السجناء ، كما ذكرت من قبل ، يحسون فى السجن أنهم غرباء • كانوا لا يشعرون فى السجن انهم فى منزلهم ، بل فى فندق نزله عابرين فى مرحلة من مراحل الطريق • ان هؤلاء الرجال ، المنفيين الى الابد ، كان يبدو بعضهم مضطربا وبعضهم مصعوقا ، ولكن كل واحد منهم كان يحلم بتحقيق مستحيلٍ ما • فان هذا القلق الدائم الذى لا يكادون يظهرونه ولكن العين البصيرة لا تخطئه ، وان كانوا يعبرون عنه على غير ارادة منهم من الحماسة ونفاد الصبر فى آمالهم وأحلامهم وأمانيتهم التى لا سبيل الى تحقيقها والتي تشبه أن تكون هذيانا ، ان ذلك كله كان يسبغ على هذا المكان هيئة خارقة ويطبعه بطابع عجيب ، حتى يمكن القول ان كل ما يميزه من أصالة انما يرتد الى هاتين السمتين • ان المرء ليحس حين يدخل الى السجن أن ليس فى خارج السجن شئ يشبهه • جميع الناس هنا يستسلمون لأحلام اليقظة ويهيمنون فى تهاويل الخيال • ذلك شئ يخطف البصر ويثب الى العين وثوباً • وهذا احساس يثير النفس ويهز الأعصاب ، لأن هذه الاحلام التى يسترسل فيها السجناء تسبغ على وجوه أكثرهم مظهراً قاتماً كئيباً ، متجهماً مكفهراً ، مظهراً يشبه أن يكون مرضاً • كان جميعهم على وجه التقريب صامتاً لا يتكلم ، مهتاجاً يوشك أن ينفجر فى كل لحظة • وكانوا لا يحبون أن يظهروا ما يقبع فى قراة قلوبهم من آمال مستسرة • لذلك كانوا يحتقرون البساطة والصراحة.

وكلما كانت الأمانى أقرب الى الاستحالة ، وكلما كان السجين يعترف
لنفسه باستحالتها اعترافاً أوضح ، كان يحرص على دفنها فى أعماق نفسه
مزيداً من الحرص ، دون أن يستطيع التنازل عنها والزهد فيها . ترى
هل كانوا يستحيون من هذه الأمانى التى تراود أخیلتهم ؟ ان الروسى
واقعى فى نظرته الى الأمور ، لا يتهيب أن يسخر من عيوبه وأن يتهكم
على نقائصه ! ...

ولعل هذا الاستياء من النفس هو سبب ما يلاحظ فى العلاقات
اليومية بين السجناء من فقدان التسامح وشدة التعصب ، ولعله سبب
ما يلاحظ لديهم من قسوة السلوك وكثرة السخر . فاذا إتفق لواحدٍ
منهم ، هو أكثر سذاجة وتمللاً ، أن عبّر بكلام مسموع عما يفكر
فيه كل واحد صامتاً ، وإذا اتفق له أن استرسل فى الأحلام ، وفى بناء
قصور باسبانيا ، أسرع رفاقه يصدونه بفظاظة وغلظة ، وراحوا يطاردونه
بالسخر والتهكم . واغلب ظنى أن أعتى هؤلاء الساخرين انما هم أولئك
الذين كانوا اثر من صاحبهم استرسالاً فى الأحلام الطائشة والامانى
المجنونة . سبق أن ذكرت أن نزلاء سجننا كانوا ينظرون الى البسطاء الى
السذج نظرتهم الى أناس حمقى أغبياء ، وكانوا لا يحملون لهم الا
الازدراء والاحتقار . لقد كان السجناء يلفون من شدة المرارة وسرعة
التأذى أنهم كانوا يفضون من كان مشرق المزاج قليل الكبرياء . الى
جانب فئة المهذارين البسطاء هؤلاء ، يمكن أن نقسم السجناء الى اخیار
وأشرار ، الى مرحين وعابسين . والعابسون هم السواد الاعظم ، فاذا
اتفق أن كان بينهم ثرثارون ، كان هؤلاء الثرثارون أناساً ندمين وشاةً
حسودين يتدخلون فى جميع شئون الآخرين ، رغم أنهم يحاذرون أن
يكشفوا عن أنفسهم وأن يعلنوا ما خفى من أفكارهم ، لأن ذلك أمر غير
مقبول ، ولأنه يخالف ما جرى به العرف . أما الأخیار - وهم قلة - فهم

هادئون موادعون مسالمون يخفون آمالهم صامتين ، ويصدّون أحلامهم وأوهامهم أكثر من العابسين المتجهمين . ويخيّل الى أنه قد كان في سجننا مع ذلك فئة اخرى من المنفيين هي فئة اليائسين من أمثال شيخ ستارودوب ، ولدن هؤلاء قلة قليلة جداً .

كان هذا الشيخ هادئاً في الظاهر ، ولكن كان من حقى استناداً الى بعض العلامات ان افترض ان حالته النفسية كانت رهيبية لا تطاق . ان له ملجأً يلوذ به ، وسلوى يفزع اليها ، ألا وهي الصلاة وقناعته بأنه شهيد . ولعل السجين الذى كان دائم الاستغراق فى قراءة التوراة ، والذى سبق أن تكلمت عنه ، أعنى السجين الذى أصبح مجنوناً وهجم على المجر بأجرة فى يده ، لعله كان هو أيضاً واحداً من أولئك الذين هجرهم كل امل ؛ فلما كان يستحيل على الانسان تماماً أن يعيش بلا امل ، فقد سعى الى الموت سعياً باستشهاد مقصود متعمد . لقد صرح هذا الرجل بأنه هجم على المجر لا لاذى لحقه منه ولا لحقد يضره له وانما هجم عليه فى سبيل ان يتالم لا أكثر . من ذا الذى يعرف ما هى العملية النفسية التى تمت فى أعماق روحه حينذاك ؟ ما من انسان يحيا بدون هدف يسعى اليه ، وبدون جهد يبذله فى سبيل الوصول الى ذلك الهدف ؛ فمتى غاب الهدف وزال الأمل ، فان القلق كثيراً ما يجعل من الانسان عندئذ مخلوقاً شاذاً غريباً ولقد كانت غايتنا نحن جميعاً هى أن ننال الحرية ، هى أن نخرج من السجن .

اننى أحاول أن أصنف سجناءنا فى زمر شتى ، فى فئات مختلفة : هل هذا ممكن ؟ ان الواقع يبلغ من كثرة التنوع أنه يفُلت من جميع استنتاجات التفكير المجرد مهما تكن بارعه . ان الواقع لا يحتمل التصنيفات الواضحة الدقيقة . ان الواقع يميل دائماً الى التبعر فى تنوع لا نهاية له ، و لا يمكن حصره . لقد كان لكل منا حياته الخاصة ، الداخلية ،

الشخصية ، فى خارج كل حياة رسمية ■ فى خارج كل حياة توحيتها
الأنظمة وتفرضها القوانين •

ولكننى ، كما سبق أن قلت ، لم أستطع النفاذ الى أعماق هذه
الحياة الداخلية فى بداية عهدى بالسجن ، لان جميع المظاهر الخارجية
كانت تصدمنى وتجرحنى وتملؤنى حزنا لا سبيل الى مغالبتها • كان
يتفق لى فى بعض الأحيان ان انفض هؤلاء الشهداء الذين كانوا يتألمون
مثلما كنت أتألم • وكنت أحسدهم لانهم يحيون بين اقرانهم ويفهم بعضهم
عن بعض • الحق أن هذه الصلة التى تجمع السجناء فتجعلهم رفاقا ■
أعنى صلة السوط والعصا ، وهذه الحياة المشتركة الاجبارية ،
كانت تثير فى نفوسهم من الكره والبغض مثل الذى كانت تثيره فى نفسى؛
فكان كل واحد منهم يحاول أن يعيش متحيا • ولكن ذلك الحسد الذى
كان يستبد بى فى لحظات الاحتياج والحق قد كانت له أسباب مشروعه
وبواعث مقبولة • ان الذين يدعون أن السيد الذى نال قسطاً من ثقافة
لا يتألم فى سجن الاشغال الشاقة أكثر مما يتألم فلاح بسيط ، هم على
خطأ كامل • لقد قرأت وسمعت دعوى كهذه الدعوى • والفكرة عادله
وكريمة من حيث المبدأ : فالسجناء جميعاً بشر • ولكنها مجردة مسرفة
فى التجريد : هنالك تعقيدات عملية يجب أن لا تنيب عن بالنا ، وهى
تعقيدات عملية لا نستطيع أن نفهمها ما لم يتح لنا أن نعانيها بأنفسنا فى
الحياة الواقعية • لست أريد أن ادعى بذلك ان السيد المثقف ارهف
شعوراً وألطف احساساً، لأنه أكثر تطوراً وأعلى تحضراً. ولكن المساواة
بين النفوس أمر مستحيل • وحتى الثقافة نفسها لا يمكن اتخاذها مياراً
لتنويم العقوبات • اننى أول من يشهد بأننى رأيت بين هؤلاء الأشقياء
المعذبين الذين يعيشون فى أحط بيئة بعيدة عن الثقافة ، آثار نمو روحى
مرهف • لقد كان فى سجننا أناس عرفتهم عدة سنين ، وكنت أظنهم

حيوانات كاسرة مقترسة وكنت لذلك أحقرهم احتقاراً شديداً • ثم اذا بنفوسهم تتكشف فجأة ، فى لحظة ليست فى الحسبان ، وعلى غير ارادة منهم ، عن غنى عاطفى ومودة انسانية وفهم قوى لالام الآخرين وأمالهم ، واذا هم يلفنون من ذلك كله أنك تراهم رؤية جديدة كأن غشاوة سقطت عن عينك • ويبلغ بك الذهول فى بعض الاحيان انك تتردد عن تصديق ما رأيت وما سمعت • وقد يحدث عكس هذا أيضاً : فرب انسان مثقف يبرهن فى بعض الأحيان على وحشية رهيبة واستهتار فظيع يثيران فى نفسك الاشمئزاز ويبعثان فى جسمك الغثيان ، فاذا أنت لا تستطيع مهما أحسنت الظن ان تجد له أى عذر أو أن تتحل له أى مبرر •

لن أقول شيئاً عن تغير العادات وطراز الحياة ونوع الطعام وما الى ذلك ، وهو تغير يشق على رجل من الطبقة الراقية أكثر مما يشق على فلاح سبق له ان جاع حين كان حراً طليقا فاذا هو فى السجن يادل حتى يشبع • لا ، لن أناقش هذا الامر ! لنسلم بان الانسان الذى يملك ارادة قوية لا يعبأ بهذه الترهات ولا يابه لهذه السفاسف التى ليست شيئاً مذكورا اذا قيست بأنواع الحرمان الاخرى • ولكن لابد لنا من الاعتراف بأن تغير العادات المادية ليس أمراً سهلاً لا قيمة له • على أن فى حياة السجين فظاعات يهون بالنسبة اليها كل شئ ، ويتضاءل بالقياس اليها كل أمر ، حتى الهوان الذى يحيط به ، والغربة التى يشعر به والطعام القذر الذى يأكله ، والأغلال القاسية التى تخنقه وتسحقه • ان أكثر الرجال رقة وتخشا وأكثرهم بياض يدين ونعومة جلد لا تطرف عيناه حين يعود الى السجن بعد أن ظل يعمل طول النهار ، فيأكل خبزه الاسود ويزدرد طعامه الذى تسبح فيه الهوام • تلك أمور يعودها المرء كلها ويألفها كلها، كما تذكر بذلك أغنية ساخرة يغنيها السجناء عن « سيد » مدلل آل أمره الى السجن :

طعامى حساء الكرنب مطبوخاً بالماء ألتهمه وأتلمظ

وانما الأمر المهم أن كل قادم جديد الى السجن يصبح بعد ساعتين اثنين فريناً لسائر السجناء : فهو فى منزله ، بين أهله وذويه ، يتمتع بجميع الحقوق التى يتمتع بها رفاقه . انه يفهمهم وانهم يفهمونه ، وهم جميعا يعدونه واحدا منهم ، وذلك ما لا ينعم بمثله نبيل من النبلاء حين يودع السجن . ان السجن الذى يتسمى الى طبقه النبلاء ، مهما يكن طيب القلب ذكياً ، لا بد أن يكرهه وأن يحقره جميع السجناء سنين طويلة ؛ انهم لن يفهموه ، وانهم لن يصدقوه خاصة . لن يكون صديفهم ولا رفيقهم ، واذا استطاع أن يحملهم على أن لا يهينوه وأن لا يسيئوا اليه ، فسيتل مع ذلك غريباً ، وسيظل يعترف لنفسه مثالاً بأنه وحيد وبانه بعيد عنهم جميعاً . وهذا الفراغ الذى يخلقه السجناء حوله ، انما يخلقونه بدون سوء نية ، بل يخلقونه على غير شعور منهم بما يفعلون . كل ما فى الأمر أن هذا السجن الذى يتسمى الى طبقه النبلاء ليس منهم ، ليس ينتمى اليهم ، ليس عضوا فى جماعتهم . . . ان أقطع شئ هو أن لا يعيش المرء فى بيئته . فالفلاح الذى ينقل من تاجانروج* الى ميناء بتروبافلوفسك يجد هنالك فلاحين روسيين فمهى الا ساعتان حتى يرتبط بهم ويرتبطوا به ، فاذا هم يعيشون معاً فى سلام وهدوء فى عربة واحدة أو خص واحد . ولا كذلك النبلاء . فان هوة سحيقة لا قرار لها تفصل بينهم وبين عامة الشعب . وهذا لا يلاحظ واضحاً الا حين يفقد نبيل من النبلاء حقوقه الأولى ويصبح هو نفسه فرداً من أفراد الشعب . وهبك ظلت طول حياتك على علاقات يومية بالفلاح ، وهبك ظلت على صلة دائمة به كل يوم بخدمتك فى الوظائف الادارية مثلاً ، وهبك كنت لهذا الشعب اسناناً محسناً وأباً رحيماً ، فانك لن تفهم فهماً عميقاً فى يوم من

الايام • وكل ما ستظن أنك عرفته لن يكون الا وهما وضلالاً • ان الذين سيقراون هذا الكلام سيقولون عنى حتما اننى أبالغ وأغالى ، ولكننى على يقين من ان ملاحظتى هذه صحيحة صادقة • وهذا اليقين ليس يقينا نظريا رسخ فى نفسى من قراءة هذا الرأى فى موضع ما ، بل هو يقين ناشئ عن الحياة الواقعية التى اتاحت لى كل الوقت اللازم لامتحان ارائى ومراقبة قناعاتى • ولعل جميع الناس سيعرفون مدى صدق ما أقول •••

لقد جاءت الاحداث تصدق ملاحظاتى منذ الايام الاولى ، وتؤثر فى جسمى تأثيرا مرضيا • كنت فى الصيف الاول اطوف فى ارجاء السجن وحيدا منزلاً • وقد سبق أن قلت اننى كنت عندئذ فى حالة نفسية لا تتيح لى ان أحكم على السجناء ولا أن أتبين بينهم أولئك الذين كان يمكن ان يحبوني دون أن يقفوا منى مع ذلك موقف الند من الند • لقد كان لى رفاق هم اناس كانوا فى الماضى من طبقه السادة ، ولكن صحتهم لم تلق هوى فى نفسى • حتى لقد تمنيت ان لا ارى أحداً • ولكن الى اين المفر ؟ اليكم حادثا من الحوادث التى افهمتنى منذ اللحظة الاولى اتى فى السجن وحيد غريب . فى ذات يوم من شهر اب (أغسطس) ، يوم شديد الحر ، فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتلك لحظة يقيل فيها جميع السجناء قبل استئناف العمل ، فام السجناء فومة رجل واحد واحتشدوا فى فناء السجن • كنت حتى تلك اللحظة لا أعرف شيئاً • ومن شدة استغراقى فى أفكارى ، لم أكد ألاحظ ماكان يجرى حولى • وكان السجناء مع ذلك يضطربون ويتحركون منذ ثلاثة أيام • ولعل هذا الاضطراب كان قد بدأ قبل ذلك بزمان طويل ، كما افترضت ذلك من بعد ، حين تذكرت شذرات من أحاديث سمعتها وحين تذكرت خاصة ما كان يظهر على السجناء من مزيد من اعتكار المزاج واهتياج النفس وشدة الحنق واستمرار السخط منذ زمن • لقد كنت

أعزرو ذلك الى قسوة الأشغال الشاقة في فصل الصيف ، والى طول النهار المرهق في هذا الفصل ، والى ما يسترسل فيه السجناء من احلام تملهم الى الغابات والحرية على غير ارادة منهم ، والى فيسر الليالى التى لا يصيبون فيها حظاً كافياً من النوم • ولعل ذلك كله قد انصهر بمضه في بعض فتألفت منه كتلة كبيرة من السخط كانت تحاول أن تنفجر ، متخذة من الطعام عذراً وتعلّة • ان السجناء يشكون من سوء الطعام جهاراً منذ عدة أيام ، فيأخذون يتذمرون حين يكونون فى الثكنات « ولا سيما حين يجتمعون فى المطبخ للغداء أو العشاء • وقد حاولوا ان يستبدلوا باحد الطباخين طباًخاً آخر ، ولكنهم لم يلبثوا أن طردوا الطباخ الثانى بعد يومين وأعادوا الطباخ الاول • الخلاصة أن جميع السجناء كانوا فى حالة قلق شديد وتململ كبير •

كان أحدهم يدمدم قائلاً :

— نهلك من كثرة العمل ، ثم لا يطعمونا الا أسوأ الطعام !•••

فيجيبه سجين آخر :

— اذا لم يعجبك هذا الطعام فأمر لنفسك بطعام فاخر !

فيصبح ثالث قائلاً :

— حساء مطبوخ بأمعاء البقر « ذلك طعام طيب جداً ، أحب أنا مذاقه حباً عظيماً !

— واذا لم يطعموك الا أمعاء ، فهل تظل تجد هذا الطعام طيب المذاق !

قال رابع :

— حقاً ! يجب أن يطعمونا لحماً ••• اتنا نضنى أنفسنا بالعمل فى

مصنع الآجر ... والمرء يشند جوعه بعد أن ينجز عمله ... ولا يمكن
أن تقيم الأمعاء أوده وأن تسد رمقه •

— وإذا لم يطعمونا أمعاء أطعمونا كروشاً •

— حقاً ... انه لطعام ردىء •

— لا شك أنه يملأ جيوبه !

— ليس هذا شأنك !

— اذا لم يكن شأنى أنا ، فشأن من هو ؟ ان بطنى ملكى • وإذا
أجمعنا على الشكوى ، فسرون ...

— الشكوى ؟

— نعم ...

— يظهر أنك لم تصب خطأ كافياً من الضرب بسبب مثل هذه
الشكاوى ! يا لك من غبى أحمق ! ...

قال سجين آخر متأففاً معتكر المزاج :

— صحيح ! فى العجلة الندامة ... قل لنا يا صاح : ممّ ستشكو ؟
ما هى ظلامتك ؟ يجب أن نعرف هذا قبل كل شيء •

— سأقول : اذا ذهب الجميع يعرضون ظلامتهم ، فسأذهب أنا
أيضاً ، لأننى أكاد أفطس جوعاً • ان الذين يأكلون على حدة ، من حقهم
أن يبقوا قاعدين ، وأن لا يحركوا ساكناً ... أما الذين يأكلون طعام
السجن ...

— يا للحسود ! ان عينيه تسطعان متى وقع بصره على ما لا يملك !

- طيب يا رفاق ! لماذا لا نعزم أمرنا ؟ أما كفانا عناباً ؟ ان هؤلاء
الصوص يسلخون جلدنا سلخاً ! هلموا نقدم شكوانا ! هيا نحتج !

- فيم الاحتجاج ؟ أظن أن عليهم أن يعضوا اللقم نابةً عنك وأن
يدسوها في فمك بعد ذلك ؟ هه ؟ يا للفتى الشسيط ، انه لا يريد أن
بأكل الا ما يُمنّح له ! نحن في سجن الأشغال الشاقة يا رجل ...
ذلك سبب كل شيء .

- الشعب يموت جوعاً والرؤساء يملئون بطونهم « بهذا جرت
العادة !

- صحيح ، لقد سمن صاحبنا « ذو العيون الثماني » ، وقد اشترى
لنفسه مؤخرًا حصانين أشبهين .

قال أحد السجناء بلهجة ساخرة :

- وهو لا يجب أن يشرب الخمر ! ...

- لقد غُلب في القمار منذ زمن حين لعب بالورق مع البيطري ،
فظل يلعب ساعتين دون أن يكون في جيبه قرش واحد .

- هذا هو السبب في أننا نطعم حساءً بالكرب والأمعاء !

- أأتم جميعاً أغنياء ! ما شأننا نحن وهذا ؟

- اذا قدمنا الشكوى مجتمعين فكيف يستطيع أن يسوغ سلوكه ؟
يجب أن نعزم أمرنا .

- كيف يستطيع أن يسوّغ سلوكه ؟ الأمر سهل : يهوى على
وجهك بصفعة قوية ... ذلك كل ما سيفعله !
- وسيجيلك الى المحاكمة أيضاً ...

كان السجناء مضطربين اضطراباً شديداً • والحق أن طعنا كان رديئاً جداً • وما زاد حدة هذا الاستياء العام والحق الشامل أن السجناء كانوا في حالة من قلق متأجج وألم مستمر وانتظار متصل • ان السجناء مشاجر متمرّد بطبعه ، ولكن من النادر جداً أن يثور السجناء جماعة ، لانهم لا ينفقون يوماً في رأى ولا يجمعون على أمر • وكل واحد منا يشعر بذلك شعوراً قوياً ، لذلك فإن السجناء يتبادلون الشتائم أكثر مما يعملون فعلاً • ومع ذلك لم ينقض الاضطراب في هذه المرة دون نتائج • تشكلت في التكنات جماعات تناقض وتلوم وتقرع وتشتّم وتعدّد عيوب ادارة الميجر حاتقة كارهة ساخطة ، وتحاول أن تسبر خفاياها وأن تفصح أسرارها • والمعروف أن كل قضية كهذه القضية تخلق زعماء ومحرضين • والزعماء في مثل هذه الظروف رجال يمتازون بصفات خاصة بارزة ، لا في السجون فحسب ، بل في جميع فئات العاملين ، وفي فصائل الجيش ، وغير ذلك • ان نموذج الزعيم واحد في كل زمان ومكان : هم أناس متأججو الحماسة ، ظمأى الى العدل ، شديدي السذاجة ، مقتنعون اقتناعاً صادقاً شريفاً بالقدرة المطلقة على تحقيق رغباتهم • ليسوا أغبي من الآخرين ، بل ان بينهم أناساً يعمون بذكاء متفوق ، ولكنهم أعظم حماسة وأشد تأججاً من أن يكونوا دهاةً مكرة ، ومن أن يكونوا حذرين متردّدين • واذا صادفنا أناساً يعرفون كيف يوجهون الجماهير وكيف يقوودونها ، وكيف يحققون ما يريدون ، فيجب أن نعلم أن هؤلاء يتمنون بهذا وحده الى نموذج آخر من الزعماء الشعبيين يندر وجودهم كثيراً في بلادنا • والذين أتحدث عنهم الآن ، وهم زعماء العصيان والمحرضون على التمرد ، هم أناس يخسرون قضيتهم في جميع الأحيان تقريباً ، ناهيك عن أنهم يملئون السجون • ان العيب الذي يضيعهم انما هو الاندفاع ، ولكن هذا الاندفاع هو الذي يمكنهم

من التأثير فى الجماهير : فلناس تتبعهم ، لأن النار التى تتأجج فى نفوسهم والاستياء الصادق الشريف الذى يشب فى قلوبهم يفضل عمله فى جميع البشر ، فاذا أكثر المألأ ترددا يتحمس ويندفع • ان تقتهم العمياء فى النجاح والنصر تفرى حتى الشكاكين الريابين ، رغم أن هذه الثقة التى تفرض نفسها قد تكون فى كثير من الأحيان قائمه على أسس تبلغ من الضعف والوهن والسذاجة الطفولية أن المرء يدهشه ان يرى الناس قد صدقوها • ان سر تأثيرهم فى الناس هو أنهم يسرون اول السائرون لا يهابون ولا يخافون شيئا • انهم يندفعون الى الأمام خافضين رءوسهم الى تحت ، مقدمين قرونهم الى أمام ، كالثيران ، دون ان يعرفوا فى كثير من الأحيان ما يشروعون فيه من عمل ، ودون أن يساورهم شيء من تلك الروح اليسوعية العملية الماكرة التى بفضلها يستطيع انسان دنيء سافل فى أحيان كثيرة أن يربح قضية وأن يبلغ هدفه وأن يخرج ناصع البياض من برميل حبر • ان عليهم أن يحطمو قرونهم • ان هؤلاء الأفراد هم فى الحياة العادية أناس شديدو الاندفاع سريعو الاحتياج قليلو التسامح كثيرو الاحتقار ، وهم فى كثير من الأحيان محدودون ، وذلك عامل من عوامل قوتهم على كل حال • والمؤلم فى الأمر أنهم لا يهجمون أبدا على الشيء الاساسى ، على الشيء الهام ، وانما يتلبثون دائما عند تفاصيل ، بدلا من المضى قدما الى الهدف ، وذلك ما يضيعهم • ولكن الجمهور يستمتع لهم ويفهم عنهم ، وهم بذلك رهيون •

يجب أن أقول الآن بضع كلمات عمّا قصدته بكلمة « الظلامه » أو الشكوى •

ان بعض السجناء كانوا قد نفوا الى سيبيريا وأودعوا السجن لا لشيء الا لأنهم قدموا شكوى أو رفعوا ظلامه • ان هؤلاء هم أكثر السجناء حركة واضطرابا • أذكر بينهم رجلا اسمه مارتينوف كان قد خدم فى سلاح

العرسان ، وهو على شدة اندفاعه وقلقه وغضبه انسان شريف صادق • وأذكر منهم أيضا فاسيلي آتونوف، وهو رجل شديد الاحتياج وقبح النظرة ساخر الابتسامة ولكنه شريف صادق أيضاً ، كما أنه ذكي يقط • وحسبي ذكر هذين الاسمين ، لأن عدد هؤلاء الرجال كبير • وكان بتروف يذهب ويجيء من جماعة الى أخرى ، يتكلم قليلاً ولكنه مهتاج من غير شك ، لأنه وثب أول الواثين الى خارج الثكنة حين تجمهر الآخرون في الفناء • سرعان ما وصل صف الضابط الذي كان برتبة وكيل ، مروّعاً مذعوراً... • فما أن اصطف السجناء حتى رجوه في لطف وأدب أن يبلغ الميجر أنهم يرغبون في أن يتحدثوا اليه وأن يسألوه عن بعض الأمور • ووراء صف الضابط وصل جميع الجنود المشوّهين فاصطفوا في الجهة الأخرى أمام السجناء • ان الرسالة التي عهد السجناء الى صف الضابط بنقلها الى الميجر أمر خارق لا عهد له بمثله من قبل ، فامتأ الرجل جزعا وهلعاً ، ولكنه لا يجزؤ أن لا يقدم تقريره الى الميجر ، فلو تمرد السجناء وقاموا بمصيان ، لكان يمكن أن تحدث أمور لا يعلمها الا الله • • • لقد كان جميع رؤسائنا جبناء غاية الجبن في علاقتهم بالسجناء • وهب لم يحدث شيء أسوأ مما حدث ، هب السجناء عدلوا عن رأيهم وتفرقوا فسوف يكون على صف الضابط أن يبلغ الادارة جميع ما وقع • وها هو ذا يسرع الى الميجر ، ممتنع اللون مرتعد الجسم من الفزع ، حتى دون أن يحاول رد السجناء الى الصواب واقتناعهم بالتزام جانب الحكمة والرشاد • لقد أدرك حق الادراك أن السجناء لن يتسلوا بمناقشته هو •

وكنت أجهل ما يجري كل الجهل ، فاصطففت مع المصطفين (اننى لم أعرف تفاصيل هذه القصة الا فيما بعد) • كنت أظن أن الهدف هو تفقدنا وعدنا ، فلما لم أر حرساً يراقبون التعداد ، أملت بى دهشة وأخذت أنظر فيما حولى • كانت الوجوه تعبر عن انفعال شديد وحنق

مستعر • وكان بينها وجوه شاحبة صفراء • ان السجناء مهمومون صامتون ، يفكرون فيما يجب عليهم أن يقولوه للميجر • ولاحظت أن كثيراً منهم كانوا مدهوشين من رؤيتي الى جانبهم ، ولكنهم سرعان ما تحولوا عنى • لقد استغربوا أن أصطف معهم ، وأن أريد أنا أيضاً أن أشارك فى شكواهم، فلم يصدقوا ذلك • وما هى اللحظة حتى التفتوا الى من جديد وقد بدت فى وجوههم علامات السؤال •

قال لى فاسيلي آتونوف بلهجة فظة وصوت عالٍ ، وكان الى جانبي بعيداً عن سائرهم ، وكان يخاطبني قبل ذلك دائماً بصيغة الجمع فى كثير من اللطف والتأدب ، قال يسألنى فى هذه المرة بصيغة المفرد (أنت) :

— ما مجيئك أنت الى هنا ؟

فنظرت اليه مرتبكاً أشد الارتباك متحيراً أشد التحير ، محاولاً أن أفهم ماذا يعنى • كنت قد حررت منذ تلك اللحظة أن شيئاً خارقاً ما كان يجرى فى سجننا •

قال لى سجين عسكرى شاب لم أكن أعرفه حتى ذلك الحين وهو فتى طيب مسالم موادع :

— نعم ! ما بقاؤك هنا ؟ اذهب الى التكنة ، فالأمر لا يعينك !
أجبهته قائلاً :

— رأيكم تصطفون فاصطففت ، أليس تفتيشنا هو الغرض ؟
صاح أحد المنفيين يقول :

— جاء يحشر نفسه !

وقال آخر :

- يا للأنف الحديدي !

وأضاف ثالث يقول باحتقار لا يوصف :

- قتلة ذباب !

فما كان من هذا اللقب الذي لقبني به الرجل الا أن جعل الجميع
ينفجرون ضاحكين •

وأضاف آخر :

- ما أحلى منظرهم في المطبخ ، هؤلاء الناس !

- هم في كل مكان مترفون ! ألسنا في السجن ؟ ومع ذلك
يشترون خبزاً أبيض وخنازير رضاء كما يفعل سادة عظام ! ألسنت
تأكل على حدة ؟ فما مجيئك هنا ؟

وقال لي كوليكوف بغير تحرج ، وهو يمسك يدي ويخرجني من
الصف ، ويخاطبني بصيغة الجمع :

- ليس مكانكم هنا •

لقد كان شاحباً كل الشحوب ، وكانت عيناه السوداوان تسطعان ،
وكان بعض شفته السفلى حتى ليكاد يدميها • انه ليس من أولئك الذين
كانوا ينتظرون وصول الميجر هادثي النفس ثابتي الجنان •

كنت أحب كثيراً أن أنظر الى كوليكوف وهو على مثل هذه الحال
أي حين يضطر أن يكشف عن نفسه كاملاً بحسباته وسيئاته ، بمزايه
وعيوبه • لكن كان كوليكوف يصطنع أوضاعاً ومظاهر ، فلقد كان أيضاً
يفعل • وأحسب أنه لو اقتيد يوماً الى الموت لمشي اليه رشيقياً أنيقاً ،

كسيد صغير • لقد ضاعف تأدبه معى وملاطفته لى بينما كان الآخرون جميعاً يخاطبوتنى بصيغة المفرد ، ويكيلون لى الالهات ، ولكنه كلمنى بلهجة قاطعة جازمة لا تسمح بمقاطعة أو رد أو جواب • تابع يقول :

– نحن هنا لشان خاص بنا يا ألكسندر بترفش ، فليس عليك أن تتدخل فى هذا الشأن • اذهب حيث شئت ••• انتظر حيث أردت ••• اسمع : ان جماعتك فى المطبخ فامض اليهم ••• وقال آخر :

– هم هنالك على خير حال !

نظرت الى داخل المطبخ من خلال النافذة ، فلمحت البولنديين فعلاً ، كما لمحت كثيراً من السجناء أيضاً • ومضيت أدخل المطبخ مرتبكاً أشد الارتباك ، ترافقتى قهقهات وشتائم ، وتسمينى صيحة خاصة كانت تقوم فى سجننا مقدم صغير الاستهزاء والسخر :

– لم تعجبه الحل ! •• تيو – تيو – تيو ! •• هاتوه ! أمسكوه ! •• لم تلحق بى اهانة كهذه الالهانة خطورة منذ دخولى السجن • كانت تلك اللحظة أليمة جداً ، ولكن كان فى وسعى أن أتوقمها ، فلقد كانت النفوس محتاجة مفرطة فى الاحتياج • وفيما أنا ألج حجرة المدخل التفت بالفتى ••• سكى ، وهو شاب من طبقة النبلاء ليس على حظ كبير من الثقافة ، ولكنه صلب الارادة كريم النفس كان السجناء يستنونهم ولا يضمرون له ما كانوا يضمرونه لسائر السجناء النبلاء من بغض وكره حتى ليكادون يحبونه • ان كل حركة من حركاته تدل على أنه انسان شهم شجاع قوى •

صاح يقول لى :

– ماذا تفعل يا جورياشيكوف ؟ تعال الى هنا ! •••

سأله :

- ولكن ما الذى يجرى ؟

- يريدون تقديم شكوى ، ألا تعلم ذلك ؟ وإن يظفروا بطائل
طبعاً ، فمن ذا الذى يصدق سجناء ؟ وسوف تبحث الادارة عن
المحرّضين ، فاذا كنا معهم ، ألقت التبعة علينا وعدتنا مسؤولين عما وقع .
تذكر لماذا نفينا الى هذا المكان ! ان الادارة اذا أرادت معاقبتهم لم ترد على
أن تأمر بجلدهم ، أما نحن فسوف تحيلنا الى المحاكمة . ان المجرر
يكرهنا جميعاً ، وسوف يسعده جداً أن يضيقنا . سوف يتخذنا عذراً
لتسوين أعماله وتبرئة نفسه !

فلما دخلنا المطبخ ، أضاف كى يقول :

- أما السجناء فسوف يبيعوننا موثقى الأيدي والأرجل ! . . .

فقال : . . . سكى *

- لن تأخذهم بنا شفقة .

وكان فى المطبخ ، عدا السجناء الذين ينتمون الى طبقة النبلاء ،
نحو من ثلاثين سجيناً آخر كانوا لا يريدون الاشتراك فى تقديم
الشكاوى ، فبعضهم عن جبن ، وبعضهم عن اقتناع مطلق . بأن هذه
الشكاوى لا جدوى منها . وكان آكيم آكىمتش - وهو عدو طبعى لجميع
الشكاوى ولكل ما يمكن أن يخل بالنظام ويعرقل الخدمة - ينتظر نهاية
هذه القضية هادئاً دون أن يعبا بها أو يكثر لها أو يقلق منها . لقد كان
مقتنعاً اقتناعاً كاملاً بأن النظام والسلطة ستسّم لهما الغلبة فوراً . أما أشعيا
فومتش ، فكان خافضاً أنفه مضطرباً أشد الاضطراب ، يصنى الى ما كنا
نقوله ، باستطلاع مذعور . انه قلق أشد القلق . وقد انضم الى البولنديين

النبلاء سجناء من العامة يتمون الى الجنسية البولندية ، وانضم اليهم كذلك روسيون من ذوى الطبائع الخائفة الوجلة وهم أناس مهوتون صامتون دائماً ، لم يجسروا أن يعتصموا مع الآخرين فهم ينتظرون خاتمة هذه القضية حزاني مبشرين • وكان هنالك أيضاً عدد من السجناء المتجهمين المستائين لبثوا فى المطبخ لا عن خوف بل لاعتقادهم بأن هذا النمرود سخي لا طائل تحته ولا أمل فى نجاحه • وأحسب أننى لاحظت أنهم كانوا فى تلك اللحظة محرجين متضايقين ، وأن نظراتهم كنت مضطربة قلقة • كانوا يحسون احساساً قوياً بأنهم على حق ، وبأن نتيجة الشكوى ستكون هى النتيجة التى تنبأوا بها ، ولكنهم كانوا يعدون أنفسهم متكرين لمبادئهم حتى لكأنهم خانوا جماعتهم وباعوا رفاقهم للميجر •

وكان فى المطبخ أيضاً ذلك الفلاح السيبرى الداخية يولكين الذى أودع سجن الأشغال الشاقة لأنه اشترك فى صنع تقود مزيفة ، والذى انتزع من كوليكونف ما كان ينعم به كوليكونف من زبائن فى المدينة يلجئون اليه لتطبيب بهائمهم • وكان فى المطبخ أيضاً ذلك الشيخ الوافد من ستارودوب • ولم يترك أحد من الطباخين مكانه ، ربما لأنهم كانوا يعدون أنفسهم جزءاً من الادارة ، فلا يجمل بهم أن يشاركوا فى تمرد عليها •

قلت أخاطب مـ ••• كى بلهجة مترددة :

– ولكن جميع السجناء قد خرجوا ما عدا هؤلاء •

فججم ب يقول :

– ما شأننا وهذا ؟

– لو شاركناهم لتعرضنا لمخاطر أشد كثيراً من المخاطر التى

يتعرضون هم لها • اننى أكره هؤلاء اللصوص • وهل تظن أنهم

سيعرفون كيف يشكون ؟ ألا اننى لا أرى ما هى اللذة التى يجدونها فى
توريط أنفسهم بأنفسهم •

قال شيخ عنيد شرس :

- لن يظفروا بطائل •

وأسرع ألامزوف ، الذى كان معنا أيضاً ، يقول كلاماً كهذا
الكلام •

- سيُجلد منهم خمسون ••• تلك هى الفائدة التى سيجنونها •

صاح واحد يقول :

- وصل الميجر •

فأسرع الجميع الى النوافذ •

كان الميجر قد وصل واضعاً نظارته على عينيه ، منقلب السحنة ،
حائق النفس ، محمر الوجه ؛ واتجه نحو صف السجناء رأساً بقدم
ثابتة دون أن يقول كلمة واحدة • انه فى ظرف كهذا الطرف يكون
جسوراً جريئاً فى الواقع ، لا يفقد حضور بديته • يجب أن نذكر أن
المجير ثمل فى جميع الأحيان تقريباً • وفى تلك اللحظة كان لقبته
المتسخة ذات الشريط البرتقالى اللون ، وكان لشاراته الفضية الصدئة
منظر يوحى بشئ من الشؤم • ووراءه وصل الموظف دياتلوف ، وهو
شخصية هامة جداً فى السجن ، لأنه هو الذى كان يحكم السجن ويدير
شؤونه فى حقيقة الأمر • لقد كان لهذا الفتى الكفاء القدير الداهية
سلطان كبير على الميجر • ولم يكن شريراً ، فكان السجناء راضين عنه
على وجه العموم • وكان يتبعه الوكيل وثلاثة جنود أو أربعة ، لا أكثر
من ذلك • وكان الوكيل قد نال نصيباً كبيراً من التقرير والتأنيب ولا شك

أنه يتوقع أن ينال المزيد أضعافاً مضاعفة • كان السجناء قد حُسروا
 روسهم منذ أرسلوا يستدعون الميجر ، فهمهم أولاء الآن يتقاربون
 ويتراصون ، ويثبت كل منهم جسمه على الساق الأخرى • انهم ساكنون
 لا يتحركون ، ينتظرون أول كلمة سينطق بها رئيسهم الأعلى أو قل أول
 صرخة ستصدر عنه •

ولم يطل انتظارهم ، فما ان قال الميجر كلمته الثانية حتى أخذ
 يصرخ مسعوراً بأعلى صوته • لقد كان خارجاً عن طوره • ورأيانه من
 نوافذنا يركض من أول الصف الى آخره ويهجم على السجناء يلقي
 عليهم الأسئلة تلو الأسئلة • واذ كنا بميدان ، فانا لم نسمع أسئلته ولا
 سمعنا أجوبة السجناء ، وانما كنا نسمعه يصيح صياحاً شديداً يصاحبه
 نوع من الأنين •

— عصاة ! متمردون ! ••• ستجلدون ! هناك محرضون !

ثم صرخ يقول وهو يهجم على سجين من السجناء :

— أنت واحد من المحرّضين ! أنت أحد المحرّضين !

لم نسمع جواب السجين ، ولكننا رأينا هذا السجين يخرج من
 الصف بعد دقيقة ويتجه نحو مقر الحرس ••• وتبعه سجين ثان ،
 فسجين ثالث !

— ستحاكمون جميعاً ! لسوف ••• من هنالك فى المطبخ ؟

كذلك قطع كلامه حين لمحنا فى النوافذ المفتوحة ••
 وتابع يصرخ :

— تمالوا جميعاً هنا ! جيئوني بهم جميعاً !

اتجه دياتوف نحو المطبخ • فلما قلنا له اتنا لا نشكو من شيء ولا
نعرض أية ظلامة عاد يبلغ الميجر ذلك على الفور •

قال الميجر وهو يخفض صوته طبقتين ، فرحاً كل الفرحة :

- آه ••• أولئك لا يشتكون • لا بأس ••• جيئوني بهم جميعاً !

خرجنا من المطبخ • كنت أشعر بنوع من الخزي والعار • ثم ان
الجميع يسرون خافضين رؤوسهم •

- آ ••• بروكوفيف ! يولكين أيضاً ! وأنت كذلك يا آمازوف !
هنا ! تعالوا هنا دفعة واحدة !

كذلك قال لنا الميجر بصوت لاهت لكنه ملطف ، حتى لقد كان
في نظرته شيء من تودد •

وتابع الميجر يقول :

- وأنت بينهم أيضاً يا ••• كى ••• سجلوا أسماءهم !
يا دياتوف ، سجل جميع الأسماء ، أسماء الراضين على حدة ، وأسماء
الساخطين على حدة ••• سجل جميع الأسماء بغير استثناء • ستقدم الى
كشفها بالأسماء ••• ستمثلون أمام المجلس ••• سوف أفعل كل مايحسن
أن أفعله أيها الأوباش !

أحدث الأمر باعداد الكشف أثره • فهذا واحد من الساخطين
يصيح قائلاً بصوت أجش متردد :

- نحن راضون •

- آ ••• راضون ••• من هو الراضى ؟ فليخرج الراضون من
الصف !

هتفت أصوات أخرى تقول :

- نحن ! نحن !

- أأنتم راضون عن الطعام ؟ لقد حرّضوكم اذن ؟ كان هناك اذن
محرّضون ! ويل للمحرّضين !

قال صوت من بين الجمهور :

- ما معنى هذا يا مولانا ؟

فزأر الميجر يسأل وهو يهجم نحو الجهة التي صدر منها الصوت :

- من ذا الذي صاح بهذا السؤال ؟ من ؟ أنت الذي صرخت ،
يا راستوجوف ؟ هلم الى مقر الحرس !

خرج راستوجوف من الصف وسار متجهاً نحو مقر الحرس
بخطى بطيئة • انه شاب ممتلئ الوجه طويل القامة • ليس هو الذي
صرخ • ولكنه لم يحاول أن يعترض حين سمّاه الميجر •

زأر الميجر يقول :

- ان السمنة هي التي تجعلكم غاضبين مسعورين ! انتظر أيها
البوز الضخم ! هي ثلاثة أيام ثم لا تستطيع أن ! ••• انتظروا ! سوف
أكشف عنكم وأقبض عليكم جميعاً • فليخرج الذين لا يشتكون !

قال بعض السجناء وقد أظلمت وجوههم :

- نحن لا شكوى لنا يا صاحب النبالة الرفيعة !

وصمت الآخرون • ان الميجر لا يتمنى أكثر من ذلك • كان يرى
أن من مصلحته أن ينهى هذه القضية بأقصى سرعة ممكنة ، وباجتماع
السجناء • قال متمتماً :

ـ آ ... الآن لا يشكو أحد شيئاً • رأيت ذلك • وكنت أعرفه
المعرفة • ولكن هنالك محرّضين ! نعم ، لا شك أن هنالك محرّضين !

وتابع يقول مخاطباً ديالتوف :

ـ يجب أن يُعرف جميع المحرّضين • أما الآن فقد حان موعد
الذهاب الى العمل • اقرعوا الطبل !

وشهد الميجر بنفسه تشكيل فرق العمل • تفرق السجناء في
حزن ، دون كلام ، وقد أسعدهم أن يقيبوا • فما ان فرغ الميجر من
توزيع فرق العمل حتى مضى الى مقر الحرس ، حيث اتخذ اجراءات في
حق المحرّضين • ولكن لم يسرف في القسوة • كان واضحاً انه يريد
أن يحل المشكلة بأقصى سرعة • وقد حدثنا أحد الذين ذهبوا الى مقر
الحرس ، حدثنا بعد ذلك فقال انه استغفر الضابط ، فسرعان ما أفرج
عنه • لا شك في أن الميجر لم يكن مرتاح البال • لعله كان خائفاً • ان
العصيان أمر شائك دائماً ، رغم أن تمرد السجناء لم يكن في حقيقة
الأمر تمرداً (وهو لم ينقل خبره الا الى الميجر ، أما الأمر فقد كتم عنه)،
فانه قضية مزعجة على كل حال • والشئ الذي أقلق الميجر خاصة انما
هو اجماع السجناء على العصيان • فكان لا بد اذن من قمع مطالبهم باى
ثمن ، مهما كلف الأمر • وما لبث الميجر أن « أخلى سبيل » المحرّضين •
وفي الغد تحسن الطعام بعض التحسن ، ولكن هذا التحسن لم يدم
طويلاً • وأصبح الميجر في الأيام التالية يزيد زياراته للسجن ، ويفرض
عقوبات على من يخالفون النظام • وأصبح الوكيل يذهب ويجيء مضطرباً
قلقاً مهموماً ، كأنه لم يستطع أن يشوب الى رشده وأن يتخلص من
ذهوله • أما السجناء فانهم لم يهدأوا الا بعد زمن طويل ، غير أن
اضطرابهم يختلف الآن عن اضطرابهم في الأيام الأولى • هم الآن قلقون

مختارون مرتبكون • بعضهم يخفضون رؤوسهم ويصمتون ، وبعضهم يتكلمون عن هذه المجازفة مدممين كأنما على غير إرادة منهم ، وكثير منهم يسخرون من أنفسهم بمرارة كأنما ليعاقبوا أنفسهم على هذا العصيان الذى لم يكن فى محله •

يقول أحدهم :

- خذ يا رفيق ، خذ وكل ! ...

- أين الفأرة التى تريد أن تعلق جرساً فى ذنب الهرّة ؟

- نحن أنس لا يمكن اقناعنا الا بالعصا ... ذلك مؤكد • ألا فلننبط أنفسنا على أنه لم يأمر بجلدنا جميعاً !

- فكّر أكثر ، وثرثر أقل ! ذلك خير وأبقى !

- ما بالك تلتقنى درساً ؟ أتراك معلم مدرسة ؟

- طبعاً يجب تلقينك درساً !

- من أنت حتى تلتقنى درساً ؟

- أنا رجل ، أما أنت فماذا أنت !

- ما أنت الا عظمة كلب • ذلك أنت !

- هيا ! كفى ! ما هذا العياط والزياط ؟

كذلك كانت تعالى الصيحات من كل جانب تحاول أن تسكت المشاجرين •

وقد التقيت فى مساء اليوم الذى حدث فيه التمرد ، التقيت بصاحبي بتروف بعد عمل النهار • كان بتروف يبحث عني • وسمعته يجمع

بهتافات غير مفهومة وهو يقترب منى ، فما ان وصل الى حتى صمت
وسار يتنزه معى بخطى آلية • كنت ما أزال مثل النفس من هذه
القضية كلها ، واعتقدت أن فى وسع بتروف أن يفسرها لى •
سألته :

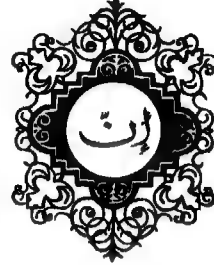
- قل لى يا بتروف : هل أصحابك غاضبون منا حانقون علينا ؟
- فأجاب كمن تاب الى نفسه على حين فجأة :
- غاضبون ؟ من ؟
- السجناء ... هل هم غاضبون من النبلاء ؟
- فيم يفضبون ؟
- لأننا لم نؤيدهم ، لأننا لم نشاركهم اعتصامهم !
- قال بتروف محاولاً أن يفهم ما أقوله له :
- ولكن علام تعتصبون أتم ؟ انكم تأكلون على حدة •
- ولكن بين أصحابك من لا يأكلون طعام السجن المعتاد ، ثم
- شاركوكم الاعتصاب مع ذلك ... لقد كان علينا أن نؤيدكم وندعمكم
- ونشد أزركم ... ألسنا رفاقاً لكم ؟
- أأنتم رفاق لنا ؟
- كذلك سألتى بتروف مدهوشاً •

نظرت اليه • انه لم يستطع أن يفهم أو أن يدرك ما قلته له أبداً •
أما أنا فقد فهمته حق الفهم • ان فكرة كانت تتحرك فى رأسى غامضة
وكانت تحاصرني منذ زمن طويل قد تبلورت الآن نهائياً • أدركت
ادراكاً واضحاً ما كنت أحزره قبل ذلك حزراً مبهماً • أدركت أنني لن
أصبح فى يوم من الأيام رفيقاً للسجناء ، ولو حكم على بالسجن المؤبد،

ولو أصبحت انتمى الى سجناء « القسم الخاص » ، وانحفرت هيئة تروف فى ذهنى فى تلك اللحظة ، وظلت ماثلة فى ذاكرتى الى الأبد .
 اقد كان فى قوله : « أأتم رفاق لنا ؟ » ، كان فى فوله هذا من السذاجة الصريحة والدهشة البريئة ما جعلنى أتساءل ألا يخفى كلامه شيئاً من سخريه ، ألا يخفى كلامه شيئاً من خبث مستهزىء متهم ؟ أبداً . أنا لست رفيقهم ... هذا كل شيء ... اذهب أنت يسرة ، ونذهب نحن يمنة ... لك شأنك ولنا شأننا ...

واعتقدت حقاً أنهم بعد هذا العصيان سيمزقونا تمزيقاً ، وأن حياتنا ستصبح جحيماً لا يطاق . غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث ! لم نسمع أى لوم ، لم نسمع أى غمز خبيث ! ظلوا يناكدوتنا كما كانوا يناكدوتنا من قبل ، اذا عرضت فرصة أو طرأت مناسبة ... ذلك كل شيء . لم يضم أحد حقداً على الذين لم يشاءوا أن يعتصبوا وظلوا فى المطبخ ، لا ولا حمل أحد حقداً على الذين صاحوا أول الصائحين بأنهم لا يشتكون من شيء ! لم ينطق أحد بكلمة واحدة فى هذا الأمر . وأذهلنى ذلك ثم لم تنقضى دهشتى منه يوماً !

رفائي



الذين اجتذبوني أكثر من غيرهم، كما تقدر،
انما هم المتمون الى طبقة النبلاء ، ولا سيما في
الآونة الأولى . ولكن ، من بين النبلاء الروس
الثلاثة ، وهم آكيم آكيتمش ، والجاسوس

آ . . . ف ، والشاب الذي كان يُظن أنه قاتل أبيه ، لم تتصل أسبابي
الا بأسباب آكيم آكيتمش ، فكنت لا أكلم غيره . والحق أنني كنت
لا ألتجئ اليه وأخاطبه الا في حالة اليأس والقنوط ، في لحظات الحزن
التي لا تطاق ، حين يتراءى لي أنني لن أقرب من أحد غيره في يوم من
الأيام . لقد حاولت في الفصل السابق أن أصنف نزلاء سجننا في فئات
شتى . ولكنني اذ أتذكر الآن آكيم آكيتمش أحسب أن عليّ أن أضيف
الى تصنيفي فئة ثالثة ، وهذه الفئة لا تضم أحداً سواه . ان هذه الفئة
هي فئة السجناء الذين لا يبالون بشيء قط ، ويستوى عندهم أن يعيشوا
أحراراً وأن يعيشوا في سجن الأشغال الشاقة وذلك أمر لا يمكن أن
يكون عندنا استثناء من القاعدة . لقد استقر آكيم آكيتمش في سجن
الأشغال الشاقة استقراراً مرمياً سيقضى فيه حياته كلها : ان كل ما يخصه ،
من فراشه الى وسائله الى أوانيّه ، كان مرتباً ترتيباً ثابتاً وطيداً نهائياً .
كان على آكيم آكيتمش أن يمكث في سجن الأشغال الشاقة عدة سنين

أخرى، ولكننى أشك أن يكون قد فكّر فى الإفراج عنه وإطلاق سراحه .
لقد تلام مع الواقع، وتصلح مع الظروف التى يعيش فيها، ولم يكن ذلك
من باب الخضوع والاذعان والاستسلام ، وإنما كان صدرا عن نفسه
تأبعا من قلبه ، وسيان عنده الأمران على كل حال . إن آكيم آكىمتش
إنسان طيب السريرة شهم ، وقد ساعدنى فى الآونة الأولى بنصائح
وخدماته ، ولكن يجب أن أعترف أنه كان فى بعض الأحيان يوظف فى
نفسى حزناً عميقاً لا شبيه له ، حزناً يزيد ويفاقم ما اتصف به من ميل
الى القلق والهم والغم . وكنت اذا انحدرت الى حضيض الكمد والكرب
والأيس أحدث اليه متمنياً أن أسمع منه كلاماً فيه حرارة ومرارة ، فان
كلاماً كهذا الكلام كليل بأن يجعلنا نسخط معاً على مصيرنا المشترك فى
أقل تقدير ، فيكون لى من ذلك بعض العزاء . ولكن آكيم آكىمتش كان
يصمت ويمضى يعمل هادئاً فى الصاق مصابحه ، ويقص على أثناء ذلك
أنهم قاموا باستعراض سنة كذا ، وأن أمر الفرقة كان اسمه فلاناً ، وان
اشارات جنود المدفعية كانت قد غيّرت ، وهلم جرا . . . يقول ذلك كله
بصوت رصين متساوٍ ، كأنه الماء يتساقط قطرة قطرة . كذا لا يتحمس
حتى حين كان يروى لى كيف أنه فى قضية من القضايا التى وقعت فى
القفقاس (لا أذكر الآن ماذا كانت تلك القضية) قد منح وسام «القديسة
حنة» ، وأن سيفه قد ازدان بشريط هذا الوسام . كل ما هذلك أن صوته
يصير عندئذ أشد رصانة ووقاراً « فهو اذا نطق اسم « القديسة حنة »
خفض صوته طبقةً ، وأسبغ على نبرة كلامه طابع السر ، ثم ظل بعد
ذلك صامتاً جاداً خلال ثلاث دقائق على الأقل . . . وكانت تتأبى أثناء
تلك السنة الأولى كلها حالات فظيعة أكاد أكره فيها آكيم آكىمتش
دون أن أعرف لماذا ، وكانت تعزىنى سوريات يأس شديد ألحن فى ابانها

القدر الذى رمانى الى سرير فى السجن يلاصق سريرى حتى ليتلاصق
رأسانا • على أن هذه التوبات لم تصبنى الا خلال السنة الأولى من اقامتى
بالسجن • ثم تعودت على طبع آكيم آكىمتش وألفت أخلاقه ، وصرت
أشعر بالخجل حين أتذكر اندفاعتى السابقة • ولست أذكر أننا اختصمنا
صراحةً فى يوم من الأيام •

عدا هؤلاء الروس الثلاثة الذين كانوا يتمنون قبل دخولى السجن
الى طبقة النبلاء ، كان لى ثمانية* رفاق آخرين ، انعقدت بينى وبين بعضهم
صداقة قوية • كان خيرهم أناسا يشبهون أن يكونوا مرضى من فرط
تفردهم وتعصبهم ، حتى أن بينهم اثنين كفت آخر الأمر عن مخاطبتهم
وقطعت صلتى بهم • ولم يكن بينهم الا ثلاثة متفقون هم : • • • سكى*
و • • • كى و الشيخ ز • • • سكى* الذى كان فى الماضى أستاذًا
للرياضيات ، وهو رجل طيب القلب شاذ الطبع محدود الفكر رغم علمه •
ولا كذلك • • • كى و ز • • • سكى • لقد تفاهمت مع • • • كى
من أول وهلة ، ولم أختصم معه مرةً واحدة ، وقد قدرته واحترمته
كثيراً ، ولكن دون أن أحبه ودون أن أرتبط به ، ولم أستطع فى يوم
من الأيام أن أصل الى ذلك • لقد كانت نفسه تفيض مرارة وشكاً
وارتياباً وحذراً ، وكان شديد السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ،
وذلك بعينه هو مالم يعجبني فيه ، فان المرء يشعر أن هذا الرجل لن يفتح
نفسه يوماً لأحد • على أننى قد أكون مخطئاً • وانما المهم أن الرجل
كان على جانب عظيم من الرفعة • أما شدة ارتيابه فكانت تتجلى براءةً
خارقة وحذراً كبيراً فى تعامله مع من يحيطون به • والحق ان نفسه
كانت مزدوجة ، فلقد كان يجمع بين الشك الشديد والايمان العميق •
لقد كان يؤمن ببعض الآمال وبعض القناعات ايماناً لا يتزعزع • وكان

رغم كل براعته العملية ، فى حرب سافرة مع : ••• سكى وصديقه
: ••• سكى •

أما : ••• كى فقد كان رجلاً مريضاً ، وكان فيه استعداد للاصابة
بالسل ، وكان شرس الطبع ضيق الصدر عصبى المزاج ، ولكنه طيب
القلب كريم • وكان احتياجه العصبى يجعله ذا نزوات كأنه طفل •
ولقد كنت لا أستطيع أن أحتمل طبعاً كهذا الطبع ، لذلك انقطعت عن
رؤية : ••• كى ، دون أن أكف عن حبه مع ذلك ، تماماً على عكس
••• كى الذى لم أنتجر معه يوماً ، ولكننى لم أحبه • وحين قطعت
جميع علاقاتى بصاحبنا : ••• سكى اضطررت أن أقطع جميع علاقاتى
أيضاً بصديقه : ••• كى الذى تحدثت عنه فى الفصل السابق ، وذلك
ما أسفت له أشد الأسف ، لأنه كان رجلاً ممتازا يتصف بشجاعة
عظيمة ، ولكنه يبلغ من حبه واحترامه وتقديسه لصديقه : ••• كى أن
كل من يقطعون علاقاتهم بصديقه يصبحون أعداء • وهكذا ساءت صلته
مع ••• كى بسبب : ••• سكى ، رغم أنه قاوم ذلك مدة طويلة •
ومهما يكن من أمر فلقد كان هؤلاء الرجال جميعاً يتصفون بأنهم شديدي
الغضب سريعو التأذى كثيرو الشك مفرطو الحساسية • وذلك أمر له
ما يفسره • لقد كان وضعهم أليماً شاقاً ، وكان أقسى من وضعنا نحن ،
لأنهم أبعادوا من بلادهم ونفوا عشر سنين أو اثنتى عشرة سنة ؛ والشئ
الذى كان يجعل اقامتهم بالسجن شاقة مشقة خاصة انما هو ما وقع فى
وهمهم ورسخ فى اعتقادهم من أحكام سابقة فى حق السجناء ، وما سيطر
عليهم من نظرة خاصة جاهزة ينظرونها اليهم • كانوا لا يرون فى
السجناء الا حيوانات كاسرة مفترسة ، وكانوا يأبون أن يسلموا بأى شئ
انسانى فيهم • ولقد تورطوا فى هذه النظرة بحكم الظروف وبحكم
مصيرهم • لقد كانت حياتهم فى السجن عذاباً لا يطاق • كانوا لطافاً مع

الشراكسة والتر وأشعيا فومتش • ولكنهم كانوا لا يحملون لساتر
النسجاء الا الاحتقار • والشخص الوحيد الذى فز باحترامهم كله انما
هو الشيخ الذى ينتمى الى الملة المنشقة • ومع ذلك فما من سجين ، طوال
المدة التى أقمتها فى السجن، قد عاب عليهم اصلهم أو عاب عليهم عقيدتهم
الدينية ، أو عاب عليهم مبادئهم ، أو غير ذلك مما نعرفه لدى الطبقة الدنيا
من الشعب فى علاقاتها بالأجانب ، ولا سيما الألمان ، والحقيقة أن الشعب
انما يسخر من الرجل الألماني لأنه يعده دجالاً فقط • لقد كان سجنائنا
يحترمون النبلاء البولنديين أكثر كثيراً مما يحترمونا نحن النبلاء
الروس • كانوا لا « يمسُون » أولئك ، ولا يتعرضون لهم بسوء •
ولكننى أعتقد أن البولنديين لم يشاءوا أن يلاحظوا هذه الواقعة وأن
ينظروا اليها بعين الاعتبار • لقد تكلمت عن : • • • سكى ، فلأعد اليه •
انه، حين بارح مع صديقه أول محطة على طريق المنفى لينتقل الى سجناء
قد حمل صديقه ب طول الوقت تقريباً ، لأن ب كان ضعيف البنية سقيم
الصحة ، فأصبح منهوك القوى مرهقا بعد نصف مرحلة من مراحل
السفر • لقد نُفيا فى أول الأمر الى أو - جورسك * ، فكانا هنالك
مرتاحين • ان الحياة هنالك أقل قسوة من الحياة فى قلعتنا • ولكن السلطات
ارتأت على أثر مراسلات بريئة قامت بينهما وبين المنفيين فى مدينة أخرى،
أن يُنقلا الى سجننا حتى يكونا تحت المراقبة المباشرة للسلطة العليا •
ولقد ظل • • • بكى اذن وحيدا حتى وصلا ، فلك أن تتصور مدى
ما كان يشعر به من تعاسة أثناء السنة الأولى من منفاه !

ان ز • • • سكى هو ذلك الشيخ الذى كان يكب دائماً على الصلاة
والدعاء ، والذى سبق أن تحدثت عنه • لقد كان جميع السجناء السياسيين
شبابا ، بل كانوا فى ريعان الشباب ، على حين أن ز • • • سكى كان فى
الخمسين من عمره على الأقل •

لا شك في أنه كان انساناً شريفاً جداً ، ولكنه كان غريب الأطوار .
حتى لقد كان رفيقه : *** سكى و : *** سكى يكرهانه ولا يكلمانه
قط ؛ وكانا يصفانه بأنه عنيد مشاكس ، واني لأشهد بأنهما كانا على حق .
أعتقد أن الناس حين يكونون في معتقل - أو في أى مكان آخر اجتمعوا
فيه عنوةً بغير ارادة منهم - يختصمون ويشتجرون ويكره بعضهم بعضاً
. أكثر مما يفعلون ذلك حين يكونون أحراراً طلقاء . هنالك أسباب كثيرة
تسهم في خلق هذه المشاحنات بينهم . ولقد كان ز *** سكى انساناً
مزعجاً محدوداً في الواقع . فما من أحد من رفاقه كان على علاقة - سنة
به . ولئن لم تسؤ صلتى به يوماً ، فانتا لم تنشأ بيننا صداقة في لحظة من
اللحظات . أحسب أنه كان قديراً في الرياضيات . لقد شرح لى في ذات
يوم ، بلغته الركيكة التى نصفها روسى ونصفها بولندى ، نظريةً فلكية
كان قد أوجدها ، وقيل لى انه ألّف في هذا الموضوع كتاباً متعلماً سخر
منه جميع الناس . أعتقد أن حكمه على الأمور قد فسد قليلاً . ولقد
كان يعكف على الصلاة راکعاً على كوعيه أياماً بكاملها ، وذلك أمر جلب
له احترام السجناء ، وظل السجناء يحترمونه الى أن مات ، ذلك أنه مات
في السجن تحت سمعى وبصرى على أثر مرض أليم شاق . ولقد فاز
يتقدير السجناء منذ وصوله ، وذلك في أعقب قصة حدثت له مع الميجر .
فحين جىء بهؤلاء السجناء من أوجورسك الى قلعنا ، على مراحل ، كان
شعر رؤوسهم ولحاهم طويلاً جداً ، لأنه لم يحلق لهم ، فلما مثلوا أمام
الميجر ثارت نائرة الميجر وغضب غضباً شديداً من هذه المخالفة للنظام
التي لم يكن الذنب فيها ذنبهم مع ذلك . زأر الميجر يقول :
- ما هذه الهيئة ! هؤلاء متشردون ، هؤلاء قطاع طرق ! ***

واذ كان ز *** سكى لايحسن فهم الروسية فقد ظن أنهم يسألون
هل هم قطاع طرق أو متشردون ، فما كان منه الا أن أجاب بقوله :

– بل نحن سجناء سياسيون لا متشردون •

فزأر الميجر يقول :

– كيف ؟ ماذا ؟ أتتوقع ؟ خذوه الى مركز الحرس •• واجلدوه

مائة جلدة •• فوراً ••

وعوقب الشيخ • رقد على الأرض تحت السياط دون أن يبدي أية مقاومة ، واضعاً يده بين أسنانه ، وتحمل القصاص بلا شكاة ، بلا اينء ساكنأ جامدأ لا يتحرك بينما تهوى على ظهره الضربات • وقد وصل ء ••• سكى و ب ••• كى فى تلك اللحظة الى السجن ، حيث كان م ••• كى ينتظرهما عند باب الدخول ، فما ان رآهما حتى ارتمى على عنقيهما رغم انه لم يرها قبل ذلك فط ، وجرى الحديث بين هؤلاء الرجال عن المشهد القاسى الذى وقع ، فكانوا ثائرين حائقين من استئبال الميجر • وقد ذكر لى م ••• كى فيما بعد أنه خرج عن طوره حين علم بالأمر • قال : « أصبحت من شدة حنقى لا أشعر بنفسى ، وأخذت أرتعد من الحمى • انتظرت ز ••• سكى عند الباب الكبير ، لأنه كان سيعود من مركز الحرس بعد نيل العقاب رأساً • فُتح الباب ، فرأيت ز •• سكى يمر أمامى وقد ابيضت شفتاه تماماً وأخذتا ترتعشان ، كما شجب لونه وامتقع وجهه • كان لا ينظر الى أحد ، واجتاز جماعات السجناء المحتشدين فى وسط الفناء – وكانوا يعلمون أن نبيلأ قد عوقب – ودخل الثكنة ، ومضى قدماً الى مكانه لا يلوى على شىء ولا ينطق بكلمة ، ثم ركع وطفق يصلى • دُهِس السجناء بل تأثروا تأثراً شديداً • فلما رأيت هذا الشيخ الأشيب الذى ترك فى وطنه زوجته وأولاده ، لما رأيته بعد ذلك العقاب المزرى راكعأ يصلى ، أصبحت كالمجنون ، وأصبحت كالسكران • • • منذ ذلك الحين أصبح السجناء يحترمون ز •• سكى • والشىء الذى أعجبهم فيه خاصةً هو أنه لم يصرخ تحت ضربات السياط •

يجب علىّ مع ذلك أن أكون منصفاً وأن أقول الحقيقة : اننا لا نستطيع أن نحكم على علاقات الادارة بالمنفيين النبلاء ، سواء أكونا روسين ام كانوا بولنديين ، على أساس هذا المثال . ان القصة التي رويتها تدل على أن من الممكن أن تقع على انسان شرير ، فاذا كان هذا الانسان الشرير حاكماً بأمره لسجن من السجون ، فكره أحد المنفيين عرضاً ، فان حاله هذا المنفى تصبح حالة سيئة لا يحسد عليها . أما الادارة العليا لسجون الأشغال الشاقة في سيبيريا ، وهي التي تزود الأمرين التابعين لها بتعليمات عامة ، فانها تميّز السجناء النبلاء ، حتى انها في بعض الاحيان تنساح في معاملتهم أكثر مما تتسامح مع غيرهم . واسباب ذلك واضحة : اولها أن هؤلاء الرؤساء أنفسهم ينتمون الى طبقة السادة ؛ ثم انه يروى ان هناك نبلاء رفضوا أن يرقدوا تحت ضربات السياط وهجموا على من ينفذون فيهم عقوبة الجلد ، وكانت عواقب هذه العصيانات سيئة دائماً ؛ والسبب الاخير - وهو السبب الاساسي في رأيي - أنه قد حدث منذ زمن بعيد ، منذ خمسة وثلاثين عاما على وجه التقريب ، أن سجن عدد كبير من المنفيين النبلاء دفعة واحدة* ، فأظهر هؤلاء المنفيون من الرصانة والوقار وحسن السلوك ما جعل رؤساء سجون الأشغال الشاقة ينظرون ، بحكم العادة ، الى النبلاء من المجرمين نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم الى السجناء العاديين . وافتتق الأمر المروسون اثر رؤساؤهم فأخذوا ينظرون هذه النظرة نفسها خاضعين خضوعاً أعمى . ولئن كان كثير منهم ينتقدون هذه الاجراءات التي يتخذها رؤساؤهم ، ويأسفون لها ويُسْرُن حين يُسمح لهم بأن يتصرفوا على مايشاء لهم هواهم ، فان حرية التصرف التي تتاح لهم لم تكن واسعة . ان هناك ما يسمح لي أن أعتقد بذلك . واليكم الأسباب . ان « الفئة الثانية » من سجناء الأشغال الشاقة ، وهي الفئة التي انتمى اليها والتي تتألف من سجناء خاضعين للسلطة العسكرية،

كانت ظروفها أفسى كثيراً من ظروف سجناء « الفئة الأولى » (المناجم) و « الفئة الثالثة » (المصانع) ؛ كانت ظروفها أفسى لا بالنسبة الى النبلاء فحسب ، بل بالنسبة الى سائر السجناء أيضاً ، لأن الادارة والتنظيم عسكريان تماماً ، وهما يشبهان الادارة والتنظيم في معتقلات روسيا . ان الرؤساء أكثر قسوة والعادات أشد صرامة في هذه الفئة الثانية مما هي في الفئتين الأخريين : السجناء هنا مكبلون بالأغلال دائماً ، مخفرون دائماً ، محبسون دائماً ، وذلك ما لا وجود له في غيرها ، فيما كان يقوله السجناء على الأقل ، وبينهم أناس مطلعون . ان سجناء هذه الفئة ليمنون أن يذهبوا الى العمل في المناجم ، وهو العمل الذي يعده القانون أفسى عقوبة . انهم يحلمون بأن يذهبوا الى العمل في المناجم . ان جميع الذين كانوا في المعتقلات الروسية يتحدثون عنها جزعين ، ويؤكدون أنها جحيم لا يشبهه جحيم ، وأن سيريا جنة اذا قيست بالاعتقال في قلاع روسيا . واذن فاذا كنا نحن النبلاء نحظى بشيء من المداواة أكثر مما يحظى بمثل ذلك سائر السجناء في سجننا الذي كان يخضع لاشراف الجنرال الحاكم والذي كانت ادارته عسكرية تماماً ، فلا بد أن يكون سجناء الفئة الأولى وسجناء الفئة الثالثة يتمتعون بمزيد من هذه المداواة . اننى أستطيع أن أتحدث حديث علم ودراية عما كان يجرى في سيريا كلها في هذا المجال : ان الأقاصيص التي سمعتها من منفيين ينتمون الى الفئة الأولى والى الفئة الثالثة تأتي مصدقةً للنتيجة التي خلصت اليها . لقد كنا نراقب هنا مراقبة أشد من المراقبة التي تتم في أى مكان آخر : لم يكن لنا أية حصانة لا فيما يتعلق بالأشغال ولا فيما يتعلق بالحبس . كنا نقوم بنفس الأعمال التي يقوم بها المعتقلون الآخرون ، وكنا نحمل نفس الأغلال التي يحملون ، وكنا نخضع لنفس أنواع التوقيف والمصادرة التي لها يخضعون . وكان يستحيل استحالة تامة أن نحصى ، ذلك أن

الوشايات والمكائد والسعايات، التي تريد الايقاع ببعض الموظفين كانت في عهد قريب جداً قد بلغت من التكاثر أن الادارة كانت تخشى أن تقع ضحية تلك الوشايات ... والتسامح مع طبقة من طبقات السجناء كانت تعد في ذلك الزمان جريمة لا تغتفر ... لذلك كان كل موظف من الموظفين يخاف على نفسه ... وهكذا أنزلنا الى مستوى سائر السجناء ، باستثناء أمر واحد هو العقاب الجسدى ... ومع ذلك كان يمكن أن نجلد لو ارتكبنا ذنباً من الذنوب ، لأن الخدمة العسكرية توجب أن نكون سواسية أمام العقاب ، ولكننا لا نجلد عن خفة وطيش بغير سبب من الأسباب كما يجلد سائر المسجونين . وحين علم أمر السجن بالعقوبة التي أنزلت في ز ... سكى ، غضب من الميجر غضباً صادقاً وأمره بأن يكون أكثر اتبهاً وحذراً بعد الآن . وقد علم الجميع بذلك . وعلموا أيضاً أن الجنرال الحاكم الذى كان يثق ثقة كبيرة بالميجر والذى كان يحبه لشدة تقيده بالقانون ولما يتصف به من مزايا الموظف المطيع ، قد أنبّه تأنيباً شديداً حين علم بالنبا . وقد اتعظ الميجر بهذه الحادثة . فلقد كان يتمنى ، مثلاً ، أن يتمتع نفسه بجلد ... كى الذى كان يكرهه الميجر كرهاً بالغاً ، على أساس وشايات آ ... ف ، ولكنه لم يستطع أن يحقق هذه الأمنية ، ولم يستطع أن يحظى بهذه اللذة رغم كل ما سعى اليه من انتحال عذر يتعلل به ، ورغم اضطهاده له وتجسسه عليه . وانتشر نبأ قضية ز ... سكى فى المدينة ، واستاء الرأى العام من الميجر ، فبعض الناس لاموه وبعضهم أنبوه وقرعوه .

اتنى أنذكر الآن أول لقاء لى بالميجر . كانوا قد روّعونا - أنا وسجين نبيل آخر - منذ وصلنا الى توبولسك ، بأقاصيص كثيرة عن سوء طبع هذا الرجل . ان منفيين قدامى (سبق الحكم عليهم بخمس وعشرين سنة فى سجن الأشغال الشاقة) * ، وهم نبلاء مثلنا ، قد زارونا زيارة

كريمة أثناء إقامتنا في سجن توبولسك عابرين ، وحذرونا من هذا
الاسمان الذي سيكون رئيسنا في السجن ؛ ووعدونا أيضاً بأن يفعلوا كل
ما في وسعهم أن يفعلوه في سبيلنا لدى الأشخاص الذين يعرفونهم حتى
يقوتوا اضطهاداته . وبالفعل كتبوا رسائل الى بنات الجنرال الحاكم الثلاث
اللواتي تشفعن لنا فيما أعتقد . ولكن ماذا كن في وسع الجنرال الحاكم
أن يفعل ؟ لقد اقتصر على أن قال للميجر ان عليه أن يكون عادلاً في
تطبيق القانون . وصلنا الى المدينة في الساعة الثالثة بعد الغداء ، أنا
ورفيقي ، فمضى بنا الخفير الى عند الميجر رأساً . لبثنا في حجرة المدخل
نتنظر وصول صف الضابط الذي يعمل في السجن والذي أرسلوا
يستمعونه . فما ان وصل صف الضابط حتى دخل علينا الميجر . ان
وجهه المصطبغ بحمرة قانية ، المعبّر عن الشر والخبت ، قد أحدث في
نفوسنا أثراً أليماً . لكأنه عنكبوت يهم أن يهجم على ذبابة مسكينة وقعت
في مسجيه وأخذت تضطرب فيه .

اتجه الميجر الى رفيقي يسأله :

— ما اسمك ؟

ان صوته خشن متقطع ، وهو يريد أن يؤثر فينا ويسيطر علينا

ثم اتجه نحوى ، وحدّق الى من تحت نظارتيه وسألني :

— وأنت ؟

ذكرت له اسمي . فقال يخاطب صف الضابط :

— يا وكيل ... فليؤخذنا الى السجن ، وليخلق شعرهما في مركز

الحرس كما يخلق للمدنيين ... أى نصف الجمجمة ... وليكبل
بالأغلال غداً ! ما هذان المطفان اللذان ترتديان ؟ من أين جئتما بهما ؟

كذلك سألنا فجأة اذ لمح المعطفين الرماديين المرقعين بدوائر صفراء
فى الظهر ، وهما المعطفان اللذان أعطيناهما فى توبولسك • وتابع يقول:

– هذا زى موحد جديد ••• لا شك أنه زى موحد جديد •••
انهم ما يزالون ينوون أن ••• هذا آتٍ من بطرسبرج •••

هكذا قال وهو يفحصنا واحداً بعد آخر • ثم قال يسأل الخفير
فجأة :

– أليس معهما شئ ؟

فأجابه الخفير وهو يضع سلاحه على كتفه احتراماً ، ويرتجف
بعض الارتجاف خوفاً ، فقد كان جميع الذئس يعرفون الميجر ويخشونه ،
اجابه الخفير يقول :

– معهما ثيابهم الخاصة يا صاحب النبالة الرفيعة !

– انتزع منهما كل هذا ماينبغى أن يحتفظا بغير الملابس الداخلية،
البيضاء ••• أما الملابس الداخلية الملونة فبعضها بالمزاد اذا كان معهما منها
• شئ •

ثم أضاف يقول لنا وهو يلقي علينا نظرة قاسية :

– لا يحق لسجين الأشغال الشاقة أن يملك شيئاً • ولتكونا على
حذر ! ليكن سلوككما حسناً ! لا أحب أن أسمع شكاوى ! والا •••
فالعقاب الجسدى ينتظركما ! ما ان ترتكبا أيسر ذنب حتى امر
بجلدكما !

كدت أمرض فى ذلك المساء من ذلك الاستقبال الذى لا عهد لى
بمثله من قبل ، وتفاقم شعورى وازداد ألمى حين دخلت الى ذلك الجحيم!
ولكن سبق أن تحدثت عن هذا كله ، فلا داعى الى تكراره الآن •

قلت اتنا لم يكن لنا شيء من حصانة ، ولم يكن يخفف عنا العمل
 أى تخفيف بحضور السجناء الآخرين • غير أنهم حاولوا أن يساعدونا
 فأرسلونا ثلاثة أشهر ، أنا ورفيقي • • • سكى ، الى مكاتب المهندسين
 كناسخين ، ولكن ذلك تم سرّاً لا علانية ؛ وجميع الذين كان يجب ان
 يعلموا به قد علموا به ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً • ان الرؤساء
 المهندسين هم الذين تفضلوا علينا بهذه المنّة ، أثناء الوقت القصير الذى
 كان فيه الليوتنان كولونيل ج • • • كوف آمراً لنا • ان هذا الرئيس
 (الذى لم يبق أكثر من ستة أشهر ، لأنه لم يلبث أن عاد الى روسيا)
 قد بدا لنا نعمةً كبرى هبطت علينا من السماء ، وقد خلف فى نفوس
 جميع السجناء أثراً طيباً • كن السجناء لا يحبونه حباً بل يعبدونه عبادة
 ان صح هذا التعبير • لا أدري كثيراً ما الذى صنعه ، ولكنه فاز بمحبتهم
 منذ الوهلة الأولى • « هو أب حقاً » كذلك كان السجناء يقولون فى كل
 لحظة من اللحظات طوال المدة التى ظل فيها مديراً لأشغال الهندسة • كان
 انساناً فرحاً مرحاً مقبلاً على الحياة محباً لمباهجها ومسراتها • هو رجل
 قصير القامة ، جرى النظره ، قوى الثقة بنفسه ، لطيف السلوك مع
 جميع السجناء ، وكان يحب السجناء حباً أبوياً حقاً ! لا أدري على وجه
 الدقة لماذا أحبوه ذلك الحب كله ، ولكننى أستطيع أن أقول انه كان
 لا يستطيع أن يرى سجيناً دون أن يقول له كلمة تودد ، ودون أن
 يضحك له وأن يمازحه • ولم يكن فى أُمَازيحه شيء من تعال وتسلط ،
 لم يكن فى أُمَازيحه شيء يُشعر بأنه سيد ، بأنه رئيس • لقد كان
 للسجناء رفيقاً ، كان لهم نداء • ورغم هذه الملاطفة كلها ، لا أذكر أن
 السجناء قد استباحوا لأنفسهم يوماً أن يقللوا احترامهم له أو أن يرفعوا
 الكلفة بينهم وبينه • بالعكس • كل ما هنالك أن السجين كان يشرق
 وجهه فجةً حين يصادف هذا الرئيس ؛ ان السجين يتسم ابتسامة عريضة

ويمسك طاقته بيده متى رآه يقترب » فإذا وجه له الرئيس كلمة عدّ ذلك شرفاً عظيماً له • هنالك اناس من هذا النوع يفوزون « بشعية » كبيرة ! لقد كان ج • • كوف مهيب الطلعة ، واسع الحطى ، منتصب القامة • « انه نسر » كذلك كان يقول السجناء • ولم يكن فى وسعه أن يساعدهم لأن القيام بأعمال الهندسة كان يتم فى عهد جميع الرؤساء السابقين وفقاً لأصول قانونية مرسومة لا يملك هو أن يبدلها • ولكنه اذا التقى بجماعة من السجناء انهوا عملهم ، كان يسمح لهم بالعودة قبل قرع الطبل • كان السجناء يحبونه لانه يوليهم ثقته ، ولانه يكره التنكيد والتفويض الذى يثير اعصاب السجين فى علاقته بالرؤساء • انى لعلى يقين من أن اكبر لص بين السجناء لو عثر على ألف روبل ضاعت من هذا الرجل ، لردّها اليه كاملةً غير منقوصة • نعم ، أنا من ذلك على يقين • وما كان أشد تعلق السجناء به وتعاطفهم معه حين علموا بأنه استجر اشتجاراً عنيفاً مع الميجر الكريه المقيت ! حدث هذا بعد وصولنا بشهر • وقد بلغ فرح السجناء عندئذ أوجه ! كان الميجر فى الماضى رقيقاً له فى السلاح • فلما التقيا بعد طول فراق ، عشا فى أول الأمر حياة فرحة معاً ، ولكنهما لم يلبثا أن فقدوا ما انعقد بينهما من علاقه صميمية ؛ ثم تخصما وأصبح ج • • كوف عدواً لدوداً للميجر • حتى لقد قيل انهما تضاربا ، فلم يثر ذلك شيئاً من الاستغراب لدى من كانوا يعرفون الميجر • لقد كان الميجر يحب الاقتال والتضارب • فلما علم السجناء بأمر هذه المشاجرة طفح فرحهم ، فكان يقولون : « لا يصلح لهذا الميجر الا مثل هذا الكومندان • • • ان الكومندان نسر ، أما الميجر فهو • • • » اننى أستحى أن أذكر الكلمة البذيئة التى كانوا يصفون بها الميجر • وكانوا فى أشد الشوق الى أن يعرفوا من الذى كانت له الغلبة فى هذا الصراع الذى قام بين الرجلين ، وأيهما أشبع الآخر ضرباً ! ولو قد كُذِّبَت هذه

الشائعة اذن لشعر السجناء بكثير من الاسف والحسرة ! كانوا يقولون :
 « مؤكد أن الكومندان هو الذى بطحه • فلئن كان قصيرا انه لشجاع
 باسل مقدم ! ولا شك ان الثانى قد اختبأ تحت السرير من سده خوفه
 وجزعه ! » • ولكن ج • • كوف لم يلبث ان عاد تاركا فى السجن اسفا
 شديدا وحسرة كبيرة ! ولقد كان جميع المهندسين اناسا طيبين ابدلوا
 خلال اقامتى فى السجن ثلاث مرات او اربعا • كان السجناء يقولون :
 « لن نرى مثله أبدا • لقد كان نسرا • • • كان نسرا وحاميا فى ان
 واحد • • • »

ان ج • • كوف هذا هو الذى ارسلنا انا و • • • سكى للعمل فى
 مكتبه ، لانه كان يحب المنفيين النبلاء • فلم سافر ظل وضعنا مقبولا
 محتملا بمض الشيء ، لان هناك مهندسا كان يشعر نحونا بكثير من
 المودة • وكنا بسيل نسخ تقارير منذ مدة ، وذلك حسن خطنا ، حين
 صدر امر عال يقضى بعودتنا الى اشغالنا السابقة • والحق اننا لم نستا
 من ذلك كثيرا ، لاننا كنا قد سئنا عمل النسخ هذا ومللناه • وظلمت
 سنتين كاملتين أعمل بغير انقطاع مع • • • سكى ، دائما فى الورشات على
 وجه القريب • فكنا تثرثر كثيرا ، نتحدث عن آمالنا وتنافس فى ارائنا
 وكانت اراء صاحبى الممتاز • • • سكى غريبة تناذة منفردة • ان هناك
 اناسا أوتوا حظا كبيرا من الذكاء ، ثم تكون آراؤهم فى بعض الاحيان
 عجيبة مفارقة ، ولكنهم يكونون قد بلغوا من فرط احتمال الالم والمدا
 فى سيلها ، ومن فرط التمسك بها والتضحية من اجلها ، أن انتزاعها
 من عقولهم يصبح أمرا مستحيلا وقاسيا • لقد كان • • • سكى يتالم
 من كل اعتراض أوأوجه به ، فيرد على هذا الاعتراض بأجوبة عنيفة •
 لعله كان على حق ، ولعله كان على حق أكثر منى فى بعض النقاط •
 ولكننا اضطررنا أخيراً أن نفترق ، فسمعت من ذلك بأسف شديد ، كنا

قد اتفقنا فى كثير من الأمور ، وكنت لنا آراء مشتركة كثيرة •

وأصبح م • • كى ، بمضى السنين ، ينحدر الى مزيد من الحزن والتجهم • لقد أرقه اليباس • دان فى الأوقات الاولى من دخولى السجن أكثر تواصلًا وأكثر افصاحاً عما يدور فى فكره • كان حين وصلت أنا الى السجن قد أنهى السنة الثانية من إقامته فيه • فاهتم فى أول الأمر كثيراً بالأبناء التى حملتها اليه ، لأنه كان لا يعرف شيئاً عما يجرى خارج السجن : أخذ يلقي على أسئلة كثيرة ، ويصغى الى أجوبتى بانتباه شديد ، وينفعل انفعالاً قوياً ، ولكنه عاد ينطوى على نفسه شيئاً بعد شيء ، ولا يفصح عما يدور بخاطره ويجول فى فكره • وكان أثناء ذلك يزداد نزقاً وحدة • كان مايفك يكرر لى ، وهو يتحدث عن السجناء الذين كنت قد أخذت أحسن معرفتهم : « اتنى أكره هؤلاء اللصوص قطاع الطرق ! » فإذا حاولت أن أدافع عنهم لم تؤثر فيه حججى وآرائى أى تأثير • كان لا يفهم ما أقوله له ، فإذا اتفق أن وافقتى على رأى مرة كان يفعل ذلك ذاهلاً غير متنبه ، ثم اذا هو يعود يكرر فى اليوم التالى قوله : « اتنى أكره هؤلاء اللصوص قطاع الطرق » (يقول ذلك باللغة الفرنسية ، فلقد كنا نكلمه بالفرنسية فى كثير من الأحيان ، ولهذا كان درانشيكوف ، وهو أحد جنود سلاح الهندسة ، يسمينا دائماً « مساعدى الجراحين » ، لا يعلم الا الله لماذا !) • وكان م • • كى لا ينتعش ولا يتحمس الا حين يتكلم عن أمه • كان يقول لى : « انها عجوز ومقعدة ، وهى تحبني أكثر مما تحب أى شيء فى هذا العالم ، ولست أدري أهى الآن حية ! أم لو علمت أنهم جلدوني ! • • • » لم يكن م • • كى من طبقة النبلاء ، وقد جُلد قبل نفيه ، فكان اذا وافته هذه الذكرى يكرز أسنانه ويشيح وجهه • وصار فى آخر عهده بالسجن لا يكاد يتنزه الا وحيداً • وفى

ذات يوم ، عند الظهر ، دعى الى مقابلة الكومندان ، فاستقبله هذا بإبتسامة عريضة على شفثيه ، وسأله :

— قل لى يا م.م.كى : بماذا حلمت هذه الليلة ؟

وقد حدثنى م.م.كى عن هذه المقابلة فيما بعد فقال لى : « حين سألتى الكومندان هذا السؤال ارتعشت ، وخيّل الىّ أن قلبى يُشق شقاً » .

قال م.م.كى يجيب الكومندان :

— حلمت بأننى تلقيت رسالةً من أمى .

فقال له الكومندان :

— بل هناك ما هو خير من ذلك ! هناك ما هو خير من ذلك . أنت منذ اليوم حر طليق لقد توصلت أملك الى الامبراطور فاستجاب الامبراطور لتوسلها . خذ اقرأ هذه الرسالة انها أمر بالافراج عنك . سوف تبارح السجن فى هذه اللحظة نفسها .

عاد الينا أصفر الوجه ممتنع اللون لا يكاد يصدق السعادة التى هبطت عليه .

هناؤه . صفحنا بيديه الباردتين المرتعشتين . هناؤه كثير من السجناء أيضاً . لقد سعدوا لسعادته .

أصبح مستوطناً واستقر فى مدينتاه وعيّن موظفاً بعد ذلك بقليل . فكان يأتى الى السجن زائراً فى كثير من الأحيان ، ينقل الينا أنباء شتى متى استطاع الى ذلك سبيلاً ، وكانت الأنباء السياسية هى التى تعنيه خاصة .

عدا البولنديين الأربعة الذين تكلمت عنهم ، وهم سجناء سياسيون ، كان ذلك اثنان . آخران في ميعة الشباب نفيًا فترة قصيرة جداً . لم يكن لهما حظ من ثقافة ، ولكنهما شريفان بسيطان صريحان . وكان هنالك ثالث اسمه آ . كزوكوفسكى ، وهو شاب مسرف في البساطة لا يمتاز بشيء يلفت النظر . ولا كذلك ب . م . وهو رجل متقدم في السن قليلاً ، فقد أحدث في أنفسنا أسوأ انطباع . لا أدري لماذا نفى الى سيبيريا ، رغم أنه قد روى من تلقاء نفسه سبب نفيه . انه انسان صغير النفس ، بورجوازي الطبع ، له من الآراء والعادات ما لصاحب دكان أصاب ثراءً وأصبح غنياً . ليس على شيء من ثقافة البتة ، فهو لا يهتم اى اهتمام بكل ما لا يتعلق بمهنته كدهان رسام . يجب أن نتعرف أنه كان دهاناً ممتازاً . وسرعان ما سمع رؤساؤنا عن مواهبه في هذا الفن ، فاذا المدينة كلها تستخدمه في تزيين الجدران والسقوف . فما انقضت ستان حتى كان قد دهن جميع مساكن الموظفين تقريباً ، وكان الموظفون يدفعون له أجراً حسناً ، فكان لا يعيش حياة مسرفة في البؤس . وكان يرسل للعمل مع ثلاثة من رفاقه أتقنوا تعلم مهنته ، حتى أصبح أحدهما ، وهو ت . ريزيفسكى لا يقل مهارة عنه . وكان الميجر يقيم في مسكن تملكه الدولة ، فاستدعى ب . م . وأمره بدهن الجدران والسقوف ، فبذل صاحبنا من العناية بهذا العمل وأنفق فيه من الجهد ما جعل مسكن الجنرال الحاكم لا يعد شيئاً مذكوراً اذا قيس بمسكن الميجر . كان المسكن قديماً هرمماً مؤلفاً من طابق واحد ، وكان مظهره من الخارج وسخاً جداً ، فاذا هو يصبح من الداخل رائع الزينة كقصر من القصور . فرح الميجر أشد الفرح . . . فكان يفرك يديه ويقول لجميع الناس انه سيتزوج . « كيف لا يتزوج من كان يقيم في مسكن كهذا المسكن ؟ » . كذلك كان يقول جاداً كل الجدد . وكان سروره أشد من سرور ب . م .

ومساعدية • لقد دام العمل في دهان مسكن الميجر شهراً • وفي أثناء ذلك الشهر كله غيّر الميجر رأيه فينا ، حتى لقد أخذ يحميننا ويرعانا نحن السجناء السياسيين • وها هو يستدعى ز ••• سكى فى يوم من الأيام فيقول :

- اسمع يا ز ••• سكى ! لقد أسأت أنا اليك وأهنتك بغير سبب •
 انتى نادم على ذلك • هل فهمت ؟ أنا ، أنا نادم !
 أجابه ز ••• سكى بأنه فهم •
 فعاد الميجر يقول له :

- هل فهمت أننى أنا ، أنا ، أنا رئيسك ، قد استدعيتك لأطلب منك الصفح والمغفرة ؟ هل تتخيل هذا ؟ ما أنت بالنسبة الى ؟ أنت بالنسبة الى دودة من دود الأرض ، بل أنت بالنسبة الى أقل شأناً من دودة ! أنت سجين ، أما أنا فبحمد الله ميجر * ••• ميجر ، هل فهمت ؟
 أجابه ز ••• سكى بأنه فهم أيضاً •
 فقال له الميجر :

- طيب ••• أريد أن أصالحك • ولكن أأنت تدرك حق الادراك ما أفعله ؟ أأنت تدرك كل ما يتصف به عملى هذا من نبل وعظمة ورفعة ؟ أأنت قادر على أن تشعر بهذا وعلى أن تقدّره ؟ تصور ••• انتى ، أنا الميجر ، أنا الميجر ، أصالحك ••• النخ النخ •••

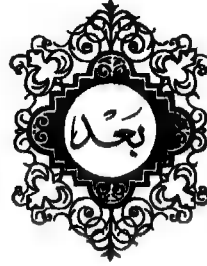
لقد قصّ علىّ ز ••• سكى هذا المشهد • اذن كان هذا الانسان الفظ الغليظ الذى لا ينقطع عن السكر ولا يكف عن الازعاج ولا تعرف حياته الا الفوضى ، كان اذن لا يخلو من عاطفة انسانية • يجب أن نعرف ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار الى آرائه والى نموه العقلى ، بأن

هذا الفعل الذى صدر عنه كان فيه شيء من الكرم حقاً • ولعل السكر الدائم الذى كان لا يفارقه قد ساهم فى اقدمه على هذا الفعل الكريم •

لم يتحقق حلم الميجر • انه لم يتزوج رغم أنه عقد النية على أن يتزوج متى تم تزوين مسكنه • وبدلاً من أن يتزوج ، فقد أحيل على المحاكمة ، وأجبر على الاستقالة • وعرفت عندئذ أنام قديمة سبق أن ارتكبها حين كان مديراً للشرطة بالمدينة فيما أظن • صعقته هذه الضربة التى لم تكن فى حسبانته • وفرح السجناء أشد الفرح حين علموا بالنبا الجديد • كن ذلك اليوم عيداً لهم • قيل ان الميجر أخذ يبكى كأمراة عجوز ويعول احوالاً شديداً • ولكن ما حيلته ؟ لقد اضطر أن يقدم استقالته ، وباع خيوله الشهباء الجميلة ، وباع كل ما كان يملك ، وانحدر الى هوة البؤس والفقر والشقاء • أصبحنا نلتقى به أحياناً فيما بعد ، فكنا نراه فى رداء مدنى مرقع وطاقية متسخة ، وكان يلقي على السجناء نظرة شذراء • ولكن الهالة التى كانت تحيط به فى الماضى والمهابة التى كان يتمتع بها قد زالتا منذ خلعت عنه بزة الميجر • كان أثناء ارتدائه بزة الميجر أشبه باله ، حتى اذا ارتدى الرداء المدنى فقد كل شيء ، وأصبح أشبه بخادم •

ان البزة العسكرية هى التى تصنع قيمة أمثال هذا الرجل ! ...

الفرد



استقالة الميجر بزمن قصير « أعيد تنظيم سجننا
تنظيماً جديداً كل الجدة • أُلغيت الأشغال
الشاقة واستعُض عنها باعتقال عسكري على
طراز المعتقلات في روسيا • وبعد ذلك أصبح
لا يُرسل إليه المنفيون الذين يتمون إلى الفئة الثانية ، وأصبح من
الواجب أن لا يضم إلا المعتقلين العسكريين أي سجناء يحتفظون بحقوقهم
المدنية • هم جنود كسائر الجنود ، وإنما صدرت في حقهم أحكام •
وهم لا يسجنون إلا مدداً قصيرة جداً (أقصاها ست سنين) ، حتى إذا
قضوا مدة سجنهم عادوا إلى قطعاتهم جنوداً كما كانوا من قبل • أما
أصحاب السوابق فيحكمون بالسجن عشرين سنة • لقد كان في سجننا
حتى ذلك الحين قسم عسكري ، ولكن ذلك يرجع إلى عدم توفر إمكانية
أخرى • أما الآن فإن ما كان استثناءً قد أصبح هو القاعدة • فالسجناء
المدنيون ، المحرومون من جميع الحقوق ، والموسمون بالحديد الحامي ،
والمخلوقة رؤوسهم ، أصبح عليهم أن يبقوا في السجن إلى أن تنصرم
المدة المحكوم عليهم بها • وإذا أصبح لا يصل إلى هذا السجن سجناء جدد
من هذا النوع « وإذا أن القداماء منهم قد أصبح يُفرج عنهم بعضاً بعد

بعض ، فان السجن لن يضم سجيناً واحداً من هذا النوع بعد عشر سنين • وقد أُبقي على القسم الخاص • فمن حين الى حين كان يصل اليها مجرمون عسكريون خطيرون يودعون سجننا بانتظار انشاء سجون الأشغال الشاقة في سيبيريا الشرقية • ولم يتغير طراز حياتنا • فالعمل والنظام ظلا كما كانا من قبل • كل ما هنالك ان الادارة قد تجددت وتعقدت : عيّن ضابط كبير برتبة كومنندان رئيساً للسجن ، وجعل تحت امرته أربعة ضباط مرؤسين يتناوبون العمل • وصرف الجنود مشوهو الحرب ، وأحل محلهم اثنا عشر رجلاً من ضباط الصف ومراقب ترسانة • ووزّع السجناء زمراً تضم كل منها عشرة أشخاص ، واختير من بينهم عرفاء لا يملكون في حقيقة الأمر الا سلطة اسمية على رفاقهم ، وأصبح آكيم آكيمتش بذلك عريفاً • وظل هذا التنظيم الجديد كله خاضعاً لاشراف الحاكم • ولم تمض التغيرات الى أبعد من هذا الحد •

اضطرب السجناء في أول الأمر كثيراً ، فكانوا يناقشون ، وكانوا يحاولون أن ينفذوا الى أعماق رؤسائهم الجدد • ولكنهم حين رأوا أن كل شيء قد بقي في حقيقة الأمر على ما كان عليه من قبل ، لم يلبثوا أن هداؤا وعادت حياتنا تجري في مجراها العادي المألوف • لقد تحررنا من الميجر على الأقل • فتنفس كل منا الصعداء ، واسترد كل منا شجاعته • زال عنا الذعر • وأصبح كل واحد يعلم أن من حقه عند الحاجة أن يشكو أمره الى رئيسه ، وأن لا يعاقب اذا كان على حق ، اللهم الا خطأ •

ظلت الخمرة تهرب الى السجن كما كانت تهرب اليه من قبل ، رغم أن المشرفين أصبحوا الآن ضباط صف لا جنودا من مشوهي الحرب • انهم أناس شرفاء على جانب من حصافة الرأي ، مدركون وضعهم • ولئن أراد بعضهم أن يمارس شيئاً من التسلط والتحكم وأن

يعاملونا كما يعامل الجنود ■ في أول الأمر ، فانهم سرعان ما انساقوا مع التيار العام • والذين طال عليهم الأمد حتى يتعلموا عادات سجننا ، تولى السجناء أنفسهم تعليمهم هذه العادات • حتى لقد وقعت حوادث ظريفة • من ذلك أن يغرى السجناء أحد ضباط الصف بشرب الخمرة ، فإذا هو يسكر ، حتى إذا أفاق من سكره شرح له السجناء بطريقة مقنعة أنه ما دام قد سكر هو نفسه فليس له بعد الآن ان يعترض ••• وانتهى ضباط الصف الى غض أبصارهم عن تجارة الخمرة • واصبحوا يذهبون الى السوق ، كما كان يذهب الجنود من مشوهي الحرب ، فيسترون للسجناء خبزاً أبيض ولحماً وكل ما كان يمكن ادخاله الى السجن دون التعرض لخطر من الاخطار • لذلك لم استطع ان افهم لماذا ثم ذلك التغير كله ، ولماذا أصبح السجن سجنًا عسكريا • وقد حدث ذلك قبل خروجي بسنتين • فكان علىَّ أن أعيش في ظل هذا النظام سنتين آخرين ••

هل يجب علىَّ أن أصف في هذه المذكرات كل الوقت الذي قضيته في المعتقل ؟ لا ••• فلو أردت أن أقص بالترتيب كل ما رأيت اذن لصاعفت عدد الفصول مشى وثلاث ، ولجاء الوصف رتيباً متشابها ، لأن كل ما قد أرويه عندئذ سيكون قد ورد حتماً في الفصول السابقة التي استمد القارئ من تصفحها فكرة كافية عن حياة السجناء الذين ينتمون الى الفئة الثانية • لقد أردت أن أصف سجننا وأن أعرض حياتي فيه عرضاً دقيقاً واضحاً ، فلا أدري هل وقّعت الى تحقيق هذا الهدف • اننى لا أستطيع أن أحكم بنفسى على هذا العمل الذى قمت به • ولكننى أحسب أن فى وسعى أن أختمه هنا • اننى حين أهرّ هذه الذكريات القديمة أشعر بالعذاب القديم يستيقظ فى نفسى ويخفق صدرى • أنا واثق من أننى نسيت أشياء كثيرة • ان ما أتذكره مثلاً هو أن هذه السنين

قد انقضت بطيئة حزينه وأن الأيام كانت طويلة مضجرة مملة تمضي قطرة قطرة • وأتذكر أيضاً أن رغبةً عنيفةً قويةً في أن أبعث بعثاً جديداً وان احيا حياة جديدة قد وهبت لى القدرة على ان اصمد وان أنتظر وأن أمل ؛ وان نفسى قد قست أخيراً ، فأنا أنتظر صابراً ، واعد الأيام يوماً يوماً ، ويفرحنى ، حتى حين يكون قد بقى على أن امكث فى السجن ألف يوم أخرى ، أنتى سأستطيع أن أقول لنفسى فى الغداة انه لم يبق الا تسعمائة وتسعة وتسعين يوماً ، لا ألف يوم • وأتذكر أيضاً أنتى كنت ، وأنا محاط بمئات من الرفاق ، أشعر بوحدة هائلة وعزلة رهبة ، وأنتى وصلت من ذلك الى أن أحب هذه الوحدة وهذه العزلة • كنت وأنا معتزل فى وسط جمهرة السجناء أستعرض حياتى السابقة واحلل أدق تفاصيلها ، وأطيل التفكير فيها ، وأحكم على نفسى بغير رحمة ولا شفقة • حتى لقد كنت فى بعض الاحيان اشكر للقدر أنه فرض على هذه العزلة التى لولاها لما استطعت أن أحكم على نفسى ولا أن أنفذ الى قرارة حياتى الماضية • وما أكثر الآمال التى كانت تنبت فى قلبى حينذاك! كنت أفكر ، وأقرر ، وأحلف أن لا أقارف فى المستقبل ما قارفت فى الماضى من أخطاء ، وأن أتجنب السقطات التى حطمتنى • ووضعت برنامجاً لمستقبلى ، وآليت على نفسى أن ألزم هذا البرنامج فلا أخرج عنه بل أبقى وفيّاً له • وكنت أوّمن ايماناً أعمى بأننى سأنفذ كل ما أردت ، وبأننى أستطيع أن أنفذ كل ما أردت • كنت أنتظر حريتى ، وأناديها فى حرارة وحماسة • كنت أريد أن أجربّ قواى مرة أخرى فى كفاح جديد • وكان يلهم بى فى بعض الاحيان شوق محموم ينفذ له صبرى ويخففنى خفناً • أنتى أتألم الآن من مجرد ايقاظ هذه الذكريات • ذلك لا يهم أحداً غيرى بطبيعة الحال • وانما أنا أكتب ذلك لاعتقادى بأن كل

انسان سيفهمنى ، وبأن كل انسان سيشعر شعورى اذا شاء حفظه العائر
أن يحكم عليه وأن يسجن وهو فى زهرة العمر وكمال القوة •

انتى أفدّر أنه رب سائل يسأل هل الفرار من السجن مستحيل ،
وهلاً وقعت محاولة هروب طوال المدة التى قضيتها فيه ؟ لقد سبق أن
قلت ان السجين الذى قضى فى السجن سنتين أو ثلاث سنين ، يحسب
حساب هذا الرقم ، ويقدر أن الافضل أن يمضى المدة الباقية بلا متاعب
ولا مخاطر ، وأن يصبح بعد الافراج عنه مستوطناً • غير أن الذين
يجرون هذا الحساب انما هم السجناء الذين حكم عليهم بالسجن مدةً
قصيرة بعض القصر : أما الذين حكم عليهم بالسجن مدةً طويلة فانهم
مستعدون للمخاطرة فى كثير من الأحيان ••• ومع ذلك كانت محاولات
الهرب نادرة • أيجب أن نغزو ذلك الى جبن السجناء أم الى قسوة النظام
العسكرى ، أم الى ان وضع مدينتنا لا يسهل الفرار كثيرا (لانها تقع
وسط سهوب مكشوفة) ؟ لا أدرى ••• أحسب أن هذه الأسباب جميعها
كان لها أثرها ••• لقد كان الهروب من سجننا صعباً • وهناك اثنان من
السجناء حاولا الهروب فى زمانى ، وهما من المجرمين العتاة •

حين استقال الميجر أصبح آ •• ف (جاسوس السجن) وحيداً
بلا حامٍ يحميه • ان آ •• ف ما يزال شاباً ، وان طبعه يزداد صلابة
كلما تقدم فى السن • انه شديد الجرأة ، قوى العزيمة ، ذكى جدا •
ولو أفرج عنه لاستمر يتجسس ويتعاطى أعمال النصب والاحتيال بجميع
الوسائل مهما تكن خبيسة معية ، ولكنه لن يقبض عليه بعد الآن
بسهولة ، فقد استمد من السجن خبرة واسعة • لقد تمرن على صنع
جوازات سفر مزورة • غير أننى لا أؤكد ذلك ، لأننى سمعته من سجناء
آخرين ، حتى لقد قالوا انه كان يمارس هذه المهنة فى مطبخ الميجر أيام
كان يذهب اليه ، وان ذلك عاد عليه بأرباح طائلة • أحسب أنه كان

مستعداً للمخاطرة بكل شيء فى سبيل أن يغير مصيره • لقد أتبع لى أن
أنفذ الى قرارة نفسه وأن أرى كل ما فيها من بشاعة وبيع ودماة • ان
استهتاره البارد الذى لا يتورع عن شيء ، يثير النفس ويبعث فيها اشتزازا
لا يقاومَ وتقرزاً لا سبيل الى مغالته • وأحسب أنه لو اشتهى أن يشرب
خمرة وكانت السبيل الوحيدة الى ذلك هى أن يقتل انساناً ، لما تردد عن
ذلك لحظةً ، على شرط أن تبقى جريمته سراً مكتوماً لا يعلم به أحد •
ولقد تعلم فى سجننا أن يحسب كل شيء • وعليه انما وقع اختيار
كوليكوف ، سجين « القسم الخاص » •

سبق أن تكلمت عن كوليكوف هذا ، لقد تجاوز سن الشباب ،
ولكنه يفيض حرارة وحماسة وحياة وقوة ، وينعم بملكات خارقة فذة •
كان كوليكوف يحس بقوته ويريد أن يعيش طويلاً • ان أمثال هذا
الانسان يجبون أن يعيشوا حتى حين تكون الشيخوخة قد ألت بهم
واستولت عليهم • فلو أن كوليكوف لم يحاول الفرار لاستغربت منه
ذلك • ولكن كوليكوف كان قد عقد النية على الفرار • لا أدري أى
الرجلين كن أكثر تأثيراً فى صاحبه : كوليكوف أم آ • • ف ؟ ولكن
أغلب الظن أنهما متكافئان ، وأنهما متوافقان من جميع النواحي • لذلك
لم يلبثا أن ارتبط كل منهما بالآخر • أظن أن كوليكوف كان يعوّل على
آ • • ف من أجل أن يصنع له جوازاً مزوراً • ثم ان آ • • ف يرجع
أصله الى طبقة النبلاء ، وينتمى الى المجتمع الراقى ، وذلك يهيء للرجلين
فرصاً كثيرة ويتيح لهما حظوظاً سعيدة اذا هما استطاعا أن يعودا الى
روسيا • لا يعلم الا الله ما الذى تفاهما عليه وماذا كانت آمالهما • ولكن
لا شك أن هذه الآمال تخرج عن دائرة الآمال التى تراود أحلام
المشردين السييريين • ان كوليكوف ممثل بارع يستطيع أن يقوم فى
الحياة بأدوار شتى ، ومن حقه أن يعقد على مواهبه آمالاً كثيرة • ان

السجن يضئ أمثال هؤلاء الناس ويخنتهم خنقاً • المهم أن الرجلين
تواطاً على الفرار من السجن •

ولكن كان يستحيل الفرار دون خفير فلا بد لهما إذن أن يضما
اليهما خفيرا • وكان في إحدى الفصائل العسكرية في القلعة رجل
بولندي متقدم في السن قليلاً • ولكنه جم الشط جاد شجاع كان
يستحق مصيراً خيراً من المصير الذي انتهى إليه • انه حين وصل الى
سيريا في الماضي شاباً ، كان قد فرّ من الجندية لأن الحنين الى الوطن
قد أضنى نفسه ، فقبض عليه وجُلد ، وأُلحق بفرق التأديب ستين •
حتى اذا رجع الى فوجه بلغ من حماسه في العمل ودأبه على الخدمة
بهمة ونشاط أنه كوفئ بمنحه رتبة عريف • وكان الرجل معتداً بذاته ،
يتكلم بلهجة انسان يقدر نفسه تقديراً عظيماً •

كنت ألاحظه أحيانا بين الجنود الذين يراقبونا ، لأن البولنديين
كانوا قد حدثوني عنه • أحسب أن حنينه الى وطنه كان قد استحال الى
كره شديد وبغض لا يهدأ • ما كان له أن يحجم عن شيء ، ولا أن
يتهقتر أمام أية عقبة • ولقد أدرك كوليكوف ذلك بما أوتى من بصيرة
نافذة ، فاختاره شريكاً في الهرب • كان هذا العريف يسمى كوهلر •
اتفق مع كوليكوف ، فضربا للفرار موعداً وحدداً له يوماً • كنا في
شهر حزيران (يونيه) • هذه أيام القيظ الشديد • ان المناخ في مدينتنا
متساوٍ ولا سيما في فصل الصيف ، وذلك أمر يناسب المتشردين كثيراً •
ما كان ينبغي التفكير في الهرب من القلعة رأساً ، فالمدينة تبعد عنها مسافة
كبيرة • وكان لا بد من تنكر • ومن أجل هذا التكر يجب الوصول الى
الضاحية حيث كان كوليكوف قد أعدّ منذ زمن طويل مكاناً يلتجئ
اليه • لا أدري هل كان أصحابه في الضاحية مطلعين على السر • يجب
أن نعتقد أنهم كانوا مطلعين على السر ، رغم أن هذا الأمر بقي غامضاً

غير مؤكد • فى أثناء تلك السنة ، كانت قد أقامت فى ركن من الضاحية
فتاة مشبوهة السمعة جميلة المنظر اسمها فانيكا مانىكا • كانت هذه الفتاة
تبشر بآمال كثيرة جاءت الأحداث بعد ذلك مصدقة لها • وكان الناس
يطلقون عليها لقب « النار واللهيب » • أظن أن هذه الفتاة كانت على
تفاهم مع الهاربين ، لأن كوليكونف قد قام فى سبيلها بأعمال جنونية أثناء
تلك السنة •

حين شكّلت فصائل العمل فى الصباح ، رتب أصحابنا الثلاثة
أمورهم بحيث يرسلون الى العمل مع السجين شيلكين - ومهنته مبيض -
فى تبيض الثكنات الخالية التى غادرها سجناء المسكر • كان على آو.ف
وكوليكونف أن يساعداه فى نقل المواد اللازمة • وافلح كوهلر فى أن
يعين خفياً عليهم • ولما كان النظام يقضى بأن يعين جنديان اثنان
لحراسة ثلاثة سجناء ، فقد ألحق بكوهلر مجتد شاب كان على كوهلر
أن يدرّبه على الخدمة بصفته عريفاً • لا بد أن يكون هذان السجينان
للذان عقدا النية على الفرار قد أثرا فى كوهلر تأثيراً كبيراً حتى ارتضى
أن يقرر الفرار معهم هو الرجل التجاد الذكى الحسوب الذى لم يبق
عليه أن يقضى فى الخدمة العسكرية الا بضع سنين •

وصل السجناء الثلاثة والخفيان الى الثكنات فى الساعة السادسة
من الصباح ، وكانوا وحدهم لا يرافقهم أحد آخر • فبعد أن عملوا نحو
ساعة قال كوليكونف وآو.ف لزميلهما شيلكين انهما ذاهبان الى انورشة
لاحضار أداة من أدوات العمل هما فى حاجة اليها • كان لا بد لهما من
أن يعمدا الى المكر مع شيلكين ، ومن أن يقولوا له هذا الكلام بلهجة
طبيعية جداً لا تثير فى نفسه أية شبهة • ان شيلكين رجل من موسكو ،
مهنته بناء المواقد ، وهو ذكى مكر قليل الكلام ضعيف البنية معروق
الجسم • ان هذا الرجل الذى كان ينبغى أن يقضى حياته لابساً صدره

وقفطاناً في دكان من دكاكين موسكو ، ينتمى الآن الى « القسم الخاص » في عداد أعتى المجرمين العسكريين بعد طول ترحل . هكذا شاء له القدر! لا أدري ما الذى فعله حتى استحق عقوبة قاسية كل هذه القسوة . كان شيلكين لا يظهر شيئاً من نزع أو شراسة ، وكان يعيش في السجن هادئاً مسالماً موادعاً . انه يسكر من حين الى حين كما يسكر اسكافي . ولكن سلوكه فيما عدا ذلك سلوك ممتاز . لم يطلعه أصحابنا على سرهم طبعاً ، وكان عليهم أن يضلّوه . قال له كوليکوف وهو يغمز بعينه انهما ذاهبان لاحضار خمرة قد خبأها في الورشة منذ البارحة ، وذلك أمر شاق شيلكين كثيراً . لم تراوده أية شبهة ، وبقي وحده مع المجند الشاب ، بينما مضى كوليکوف و آ . ف الى الضاحية بحراسة كوهلر .

انقضى نصف ساعة ولم يرجع الغائبون . أخذ شيلكين يفكر . برقت في ذهنه فكرة . تذكر أن كوليکوف كان يبدو عليه شيء غير مألوف ، وأنه كان يوشوش آ . ف غامزاً بعينه . لقد رآه يفعل ذلك ، وهو الآن يتذكر كل شيء . ثم ان كوهلر قد لفت انتباهه أيضاً . فحين ذهب العريف مع السجين شرح للمجند ما كان عليه أن يعمل أثناء غيابه ، وذلك أمر لم يكن من عادته أن يفعله . أصبحت شكوك شيلكين تزداد وتقوى كلما أوغل في نبش ذكرياته . وكان الوقت أثناء ذلك يمضي والسجينان لا يعودان . بلغ شيلكين أقصى حد من حدود القلق ، فقد أدرك أن الادارة قد تشبته فيه وتعهده متواطئاً مع الهارين ، وأن جلده معرض اذن للخطر . لقد كان يمكن أن يُظن أنه كان متواطئاً معهم وأنه سمح لهم بالذهاب ، فاذا تأخر في الابلاغ عن غيابهم ، فان هذه الشبهات ستعزز وستقوى . كان عليه اذن أن لا يضيع وقتاً . وتذكر عندئذ أن كوليکوف و آ . ف قد أصبحا رفيقين حميمين منذ مدة . وأنهما كانا كثيراً ما يأتمران وراء الشكات بعيدين عن الأنظار .

وتذكر أيضا أن هذه الفكرة قد راودته قبل الآن ، فتصور أنهما لعلهما
يبتآن أمراً يتفقان عليه ... ألقى شيلكين نظرة على حارسه • كان
الحارس يتأهب متكئاً على بندقيته ، ويحك أنه براءة • لذلك لم يقدّر
شيلكين أن عليه أن يطلعه على خراطره • فاكتمى بأن طلب منه أن
يصحبه الى ورشة الهندسة • كان يريد أن يسأل هناك عن رفيقه هل
رآهما أحد • فلما سأل هذا السؤال تبين له أن أحداً لم يرها • تأكدت
شكوك شيلكين • أتراه ذهبا يسكران ويعربدان في الضاحية كما كان
كوليكون يفعل ذلك في كثير من الأحيان ؟ ولكن شيلكين رفض هذا
الافتراض • فلو قد كانا يريدان ذلك اذن لاطلعا على نيتهما ، فلا داعي
الى اخفاء هذه النية عنه • فما ان وصل شيلكين من تفكيره الى هذه النقطة
حتى ترك العمل ومضى الى السجن رأساً حتى دون أن يعود الى التكنة
التي كان يعمل فيها •

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حين وصل شيلكين الى رئيس
العرفاء ، فأطلعه على شكوكه وشبهاته • ذُعر هذا ، ولم يشأ في أول
الأمر أن يصدّق • ان شيلكين لم ينقل اليه فكرته الا في صورة شبهة •
وسرعان ما جرى رئيس العرفاء الى الميجر يطلعه على الأمر ، وسرعان
ما جرى الميجر الى الكومندان يبلغه النبأ • فما انقضى ربع ساعة الا كانت
جميع الاجراءات اللازمة قد اتخذت • رُفع تقرير الى الجنرال الحاكم •
ان هذين السجينين هم من السجناء الخطرين ، فمن الممكن والحالة هذه
أن تعاقب ادارة السجن عقاباً قاسياً على فرارهما • لقد كان آ • • ف يعد
من السجناء السياسيين خطأً أو صواباً • كما أن كوليكون ينتمى الى
« القسم الخاص » ، أى أنه مجرم عريق ، عدا أنه عسكري قديم • ولم
يسبق لأحد أن استطاع أن يفرّ من « القسم الخاص » • وتذكر
المشرفون على السجن عندئذ أن النظام يقضى بأن يحرس كلّ سجين من

سجناء « القسم الخاص » خفيان اثنان حين يذهب الى العمل • وهذه القاعدة لم تلتزم ، فمن الممكن أن يسيء هذا الاخلال بقواعد النظام الى جميع موظفى ادارة السجن • وسرعان ما أُرسل السعاة الى كافة القرى المحيطة بالمدينة والى كافة المدن الصغيرة المجاورة لابلاغ نبأ هروب سجينين • وسرعان ما جُرِّدت للملاحقة السجينين أعداد من الجنود القوقازيين • وسرعان ما كُتب فى الأمر الى جميع المديريات وجميع الأقاليم المجاورة • الخلاصة أن ذعراً رهيباً قد ألم بالجميع ...

ولم يكن الاضطراب فى سجننا أقل من ذلك • فكلما عادت من العمل جماعة من جماعات السجناء علمت بالنبا العظيم الذى كان يجرى من قم الى قم ، فكان كل سجين من السجناء يستقبله بفرح خبىء عميق ... ان هذا النبا ، عدا أنه يقطع رتبة الحياة فى السجن ويسلّى السجناء ، هو نبأ هروب ، هروب يرجع صدى مستجبا فى جميع النفوس ، ويلقى هوى لدى جميع القلوب ، ويهز أوتارها ظلت غافيه وسنى خلال زمن طويل • ان نوعاً من الأمل والجرأة والجسارة قد حرك قلوب السجناء جميعاً ، لأنه يصوّر لهم أن تغيير مصيرهم أمر ممكن وليس مستحيلاً • « نعم ... لقد هربوا رغم كل شئ » ، فلماذا نحن لا ... • وكان كل واحد اذا خطرت بباله هذه الفكرة ينهض قائماً ويلقى على رفاقه نظرة تحدٍ وتحريض واستفزاز • اتخذ جميع السجناء هيئة كبر وخيلاء ، ونظروا الى ضباط الصف نظرات تعاضم واستعلاء • وهرع جميع رؤسائنا ، كما يُتوقع ذلك ، حتى لقد وصل الكومندان نفسه • فكان السجناء يرشقونهم جميعاً بنظرة جريئة يمازجها شئ من احتقار ، ويشوبها نوع من رصانة قاسية • « هه ؟ نحن نعرف كيف ندبر أمورنا متى شئنا ! » • وتوقع الجميع أن يقوم الرؤساء بجولة تفتيشية عامة • كان السجناء يتوقعون سلفاً أن ادارة السجن ستعتمد الى

اجراء تحقيق وأنها ستقوم بتفتيش • لذلك خبأ السجناء كل شيء ، فهم لا يجهلون أن ادارة السجن لا بد أن تضاعف يقظتها بعد وقوع حادث كهذا الحادث • وقد صدقت نبوءة السجناء • فانقلب السجن عاليه سافله ، ولم يترك مكان فيه دون أن يفتش تفتيشاً دقيقاً ، ولكن لم يعثر على شيء طبعاً •

وحين دقت ساعة الذهاب الى العمل بعد الغداء ، كان عدد الخفراء الذين تولوا حراستنا مضاعفاً • وفي المساء كان الضباط وضباط الصف من الحرس يدهموننا في كل لحظة مفتشين • وقد عدونا اكثر مما كانوا يعدوننا في العادة ، فأخطأوا في عدنا مرتين ، فكان هذا الخطأ يحدث مزيداً من الاضطراب ، فاذا هم يخرجوننا من الثكنة الى الفناء ليعدوننا مرة اخرى • حتى اذا أرجعونا الى الثكنة عدونا من جديد •

لم يقلق السجناء كثيراً من هذا الاضطراب ، ولم يكثرثوا له ، بل كانوا يصطنعون هيئة الاستقلال وقلة المبالاة ، ولكن سلوكهم كان سلوكاً حسناً طوال تلك السهرة ، كما يحدث هذا دائماً في احوال كهذه الأحوال • « لن يستطيعوا أن يجرونا الى المشاجرة ، لن نتمكن من استدراجنا الى خلق المتاعب » • وكانت ادارة السجن تتساءل : ترى أليس بيننا أناس متواطئون مع الفارين ؟ فأمرت بمرافبتنا والتجسس على أحاديثنا ، ولكنها لم تظفر بباطل • « ليسوا من الغباء بحيث يتركون وراءهم شركاء ! » ؟ « ان المرء يخفي سره ويكتم أمره حين يعد ضربة كهذه الضربة ! » ؟ « ان كوليكونوف و آ • • ف يملكان من المكر والدهاء ما يؤهلهما لكتمان ما عقدا النية عليه • ألا انهما لمعلمان حاذقان ، فعلا فعلتهما ، دون أن يدعا لأحد أن يشتبه فيهما وأن يخطر على باله ماييتان من أمر • لقد تبخرا تبخراً ! لو شاءا لخرجا من أبواب موصدة ، هذان الشيطانان ! » • ذلك ما كان يردده السجناء • لقد ازداد قدر كوليكونوف

و آ • • ف فى أنظارهم ، وعظمت منزلتهما مائة مرة ! ان السجناء
فخورون الآن بهما • أحس الجميع أن هذه المغامرة ستناقل الأجيال
نبأها الى آخر جيل ، وأن عمر أخبارها سيكون أطول من عمر السجن
نفسه •

كان بعضهم يقول :

- يا للدماغين الذكيين !

فيضيف آخرون :

- هه ! كان يُظن أن الفرار مستحيل • • • فهاهما يهربان مع
ذلك !

ويعقب ثالث قائلاً وهو يلقي على رفاقه نظرة فيها مسكنة :

- نعم ، ولكن من هم الذين هربوا ؟ أأنتم تستحقون أن تحلوا
لهم أشرطة أحنيتهم !

ما كان لسجين من السجناء يخاطب بمثل هذا الكلام ، أن يسكت
على هذه الالهانة بحال من الأحوال ، وما كان له الا أن يرد على التحدى
وأن يدافع عن شرفه وكرامته • ولكن السجناء الآن يلتزمون الصمت
متواضعين • واذا نطقوا قالوا : « هذا حق ! ليس كل الناس مثل
كوليكونف و آ • • ف • على المرء أن يبرهن على قيمته أولاً ! • • • »
قال أحد السجناء ، وكان جالساً قرب نافذة المطبخ ، قال على حين
فيجأة مقاطعاً :

- حقاً يا رفاقى ! لماذا نبقى هنا ؟ ما ذا نفعل هنا ؟ اننا نحيا بلا حياة،
اننا أموات بغير موت !

قال الرجل هذا الكلام بصوت بطيء متراخ متثاقل ، بينما راح يفرك خده براحة يده ، ولكن كلامه كان ينطوى على ثقة خفية واقتناع مستسر .

فأجابه أحدهم قائلاً :

- ما تهديك هذا ؟ ان المرء لا يهرب من السجن كما يخلع حذاءً .
نحن مشدودون الى السجن شداً ...

فانبرى شاب غر متحمس يقول :

- ولكن هذا كوليكونف ! ألم يهرب ؟
فأجاب آخر ، وهو ينظر الى الفتى نظرة شذراء :
- كوليكونف ؟ كوليكونف ؟ ان أمثال كوليكونف ليسوا كثرأً ...
- وما قولكم فى آوف يا شباب ؟ ألا انه لفتى شجاع !
- هه ! انه قادر على أن يلف كوليكونف لفأ متى شاء وما شاء !
انسان داهية !

- أتراهم قد ابتعدوا ؟ ذلك ما أود لو أعرفه ! ...

ويتصل الحديث ويتشعب * هل هم الآن بعيدون عن المدينة ؟
من أى جهة هربوا ؟ أى طريق سلكوا ؟ ما أضمن السبل لفرارهم ؟
ما أقرب مديرية يلجئون اليها ؟ * واذا كان بين السجناء رجال يعرفون
الأماكن التى تجاور المدينة ، فقد أخذ الآخرون يصفون الى كلامهم
باتباه شديد واستطلاع نهم *

وحين وصل الحديث الى الكلام عن سكان القرى المجاورة ، أقرّ
الجميع أنهم أشرار لا يعتمد عليهم ؟ فكل من هم قرب المدينة من سكان

أناس" يعرفون ما يجب عليهم أن يفعلوه ، فلن يساعدوا الهارين بحال
من الأحوال ، حتى أنهم سيقبضون عليهم ليسلموهم •

- ليتكم عرفتم مدى ما يتصف به هؤلاء الفلاحون من شر ! ألا أنهم
بهائم خبيثة ، ألا أنهم حيوانات لثيمة !
- فلاحون أنذال !

- السيرى وغد ... انه لا يتورع عن قتل انسان فى سبيل أى
شئ ...

'- ولكن جماعتنا ...

- طبعاً ... سترى من الذى سينتصر ... ان جماعتنا لا يخشون
شيئاً •

- على كل حال ، اذا لم نفطس ، فنسمع عن أنبائهم !

- لعلك تظن أنهم سيقبض عليهم ؟

كذلك سأل سائل ، فاذا بسجين من أشد السجناء احتياجاً يضرب
المائدة بقبضة يده. ضربة قوية ويقول :

- أنا واثق أنهم لن يقبض عليهم أبداً !

فقال قائل :

- ذلك يتوقف على مجرى الأمور ...

فقال سكوراتوف :

- لو هربت أنا يا رفاق ، فلن يقبض علىّ يوماً !

- أنت ؟

كذلك سألهم أحدهم ، فما كان من الآخرين الا أن انفجروا

يقهقهون ؛ وتظاهر غيرهم بأنهم لا يريدون حتى أن يسمعوا كلامه •
ولكن سكوراتوف كن متحمساً ، فهاهو ذا يقول بحرارة وحمياً :

– لو هربت ما قبضوا علىّ فى يوم من الأيام ! اننى كثيراً ما أقول
هذا لنفسى • انى لأوتر أن أمر من ثقب مفتاح على أن أدع لهم أن يقبضوا
علىّ !

– لا تخف ! سوف تتصور جوعاً فإذا أنت تذهب من تلقاء نفسك
الى فلاح من الفلاحين تسأله أن يهب لك خبزاً !

وتجددت القهقهات •

قال سكوراتوف :

– خبزاً ؟ أنت تكذب !

– ما هذا الهراء ؟ أنسيت أنك أنت وعمك فاسيا قد قتلتما موت
البقر* ، وأن ذلك هو السبب فى مجيئكما الى هذا المكان ؟

تضاعفت القهقهات • وأظهر الوقورون من السجناء استياء
واستنكاراً •

صاح سكوراتوف يقول :

– أنت تكذب ! ان ميكيتكا هو الذى قصّ عليكم ذلك • لم اكن
أنا القاتل بل العم فاسيا ، ثم حشرتمونى فى الأمر ظلماً ! أنا موسكوفى
متشرد منذ نعومة أظفارى • اليكم هذا المثل : حين كان الكاهن يعلمنى
تلاوة الصلوات ، كان يقرص أذنى قائلاً لى : « ردّد ما أتلوه عليك :
اشملى برحمتك يا رب ! » فكنت أردد قولى : « أخذونى الى الشرطة
برحمتك يا رب ! » ، الخ ••• ذلكم ما فعلته منذ نعومة أظفارى •

انفجبر جميع السجناء ضاحكين • وكان ذلك كل ما يتمناه
سكوراتوف ، فلقد كان يحب أن يكون مهرجاً !

ولم يلبث السجناء أن عادوا الى أحاديثهم الجادة ، ولا سيما الشيوخ
منهم ، والخبراء فى شئون الفرار • أما الشباب والذين يتصفون بطباع
أقرب الى الهدوء فكانوا يصغون الى الحديث متداولين برووسهم ،
مبتهجين كل الابتهاج • كان قد تجمع فى المطبخ جمهور كبير • ولم يكن
هنالك أحد من ضباط الصف ، والا لما تجرأ السجناء أن ينطلقوا فى
الحديث هذا الانطلاق الصريح • ولاحظت بين المبتهجين المغتربين تترياً
قصير القامة ناتئ الوجنتين ، مضحك الهيئة • ان اسمه مامتكا ، وهو
لا يكاد يتكلم الروسية ، ولا يفهم كثيراً ما يقوله الآخرون ، ولكنه مع
ذلك يمدُّ راسه فى الجمهور ويصغى الى الكلام مسروراً مجبوراً • قال
له سكوراتوف الذى نسيه الجميع ، فلم يجد بداً من الاتجاه الى هذا
الترى يكلمه :

— هيه مامتكا ! « يا كشى » ؟ *

فقال مامتكا بحرارة وهو يحرك رأسه الضخم :

— « يا كشى » ! أوه ••• يا كشى ! •••

— لن يقبضوا عليهم ؟ « يوك » ؟

فعاد مامتكا يقول وهو يحرك رأسه ، ويلوح بذراعيه :

— « يوك » ! « يوك » ! •••

— اذا كنت تكذب فسوف أريك ، هه ؟

— طبعاً ، طبعاً ، يا كشى !

كذلك قال مامتكا وهو ما يزال يهز رأسه •

— طيب ... خذ اذن هذه « الياكشى » ! ...

قال له سكوراتوف ذلك ولطمه على رأسه لطمه أنزلت طاقته حتى غطت عينيه ، ثم بارح المطبخ مسروراً كل السرور ، تاركاً الترى في دهشة وانبهات ! ...

ظل النظام يُطبَّق في السجن تطبيقاً صارماً قاسياً خلال أسبوع • واستمرت مطاردة الهارين في القرى والمدن المجاورة • كان السجناء على علم دائم بالاجراءات التي كانت تتخذها السلطة للقبض على الهارين ، لا أدري كيف ! ... فأما في الأيام الأولى فقد كانت الأنباء سارة : لقد اختفى الهاربون فلا أثر لهم • أصبح السجناء لا يعملون شيئاً غير أن يستخروا من الرؤساء بينهم وبين أنفسهم ، واطمأنوا على مصير رفاقهم فلا يراودهم شيء من قلق • « لن يمشروا على شيء ! لسوف ترون أنهم لن يستطيعوا القبض عليهم ! » • كذلك كان السجناء يقول بعضهم بعض مبتهجين متعطلين !

كنا نعلم أن جميع الفلاحين في القرى المجاورة قد استنفروا ، وأنهم يراقبون الأماكن المشبوهة والغابات والوديان والشعاب • فكان السجناء يقولون ضاحكين :

— حماقات ! لا شك أنهم قد اختبأوا عند أحد !

— حتماً ! هؤلاء أناس عقلاء لا يخاطرون قبل أن يكونوا قد أعدوا كل شيء سلفاً !

ومضت الافتراضات الى أبعد من ذلك • ففيل فيما قيل : لعلهم قد اختبأوا في كهف من الكهوف بالضاحية ريشاً يهدأ الذعر ويطول شعرهم ، ولعلهم سيمكنون هنالك ستة أشهر ، ثم يخرجون مطمئنين هادين ليوغلوا في المسير ...

الخلاصة أن جميع السجناء قد أطلقوا الأعتة لأخيلتهم • وفجأة ،
 بعد الهروب بثمانية أيام ■ انتشرت شائعة تقول ان مكان الهاربين قد
 عُرِف • فهبَّ السجناء يكذبون الشائعة طبعاً باحتقار شديد • ولكن ما ان
 أتى المساء حتى قويت الشائعة • فاضطرب السجناء اضطراباً كبيراً • وفي
 صباح الغد كان الناس في المدينة قد عرفوا أن الهاربين قد تم القبض
 عليهم ، وانهم مقتادون في طريق العودة • وعُرفت بعد العشاء تفاصيل
 جديدة : عُرِف أنهم قد اعتقلوا في قرية صغيرة تبعد مسافة سبعين
 فرسخاً عن المدينة • ووصل الخبر اليقين أخيراً ، اذ أعلن رئيس العرفاء
 الذي كان عائداً من عند المجر أن الهاربين سيقادون الى مركز الحرس
 في هذا المساء نفسه • لقد قبض عليهم اذن ، لم يبق ثمة شك في ذلك •
 انه ليصعب على أن أصف الشعور الذي ألم بالسجناء حين عرفوا هذه
 الحقيقة • لقد اضطربوا اضطراباً عنيفاً وازدادت حركتهم وكرر نشاطهم ،
 ولكنهم لم يلبثوا أن هدأوا وسكنوا وخمدوا • ثم سرعان ما لاحظت
 لديهم ميلاً الى الهزء والسخرية • أصبحوا الآن يضحكون لا من ادارة
 السجن بل من الفارين الحمقى الذين لم يحسنوا تدبير الأمر • فعل ذلك
 بعضهم في البداية ، ثم فعلوه جميعاً بعد ذلك ، باستثناء عددٍ من السجناء
 حافظوا على وقارهم واستقلالهم ، لأن السخریات لا تهزمهم ، فكانوا
 ينظرون الى الجمهرة الهائجة الطائشة نظرة احتقار ، ويلزمون الصمت
 فلا يتكلمون •

وعلى قدر المديح والثناء والاطراء الذي كالوه في أول الأمر
 لصاحبيهم كوليكوف وآ • • ف ، أخذوا الآن يذمونهما ويقدون فيهما
 ويشهرون بهما • حتى لقد كانوا يفعلون ذلك مسرورين مجبورين ،
 كأن الرجلين قد أساء الى رفاقهم وألحقا بهم الاهانة حين أتاحا للسلطة أن
 تقبض عليهما • وقيل فيما قيل : لعلهما قد عضَّهما الجوع فلم يستطيعا

أن يحتملا آلامه فذهبوا الى ضيعة من الضياع يسألان الفلاحين شيئاً من خبز ، وهذا غاية الضعة والحطة والصغار في متشرد . والحق أن هذه الروايات لم تكن صحيحة ، ذلك أن المطاردين قد اقتفوا أثر الهاربين ، حتى اذا صار الهاربون الى احدي الغابات ، أحاط بها المطاردون فأحكموا محاصرتها ، فلما رأى الهاربون أن لا سبيل لهم الى الفرار ، استسلموا ، وما كان في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك .

أعيد الهاربون في المساء بحراسة رجال الشرطة ، وقد كبلت أيديهم وأرجلهم . أسرع جميع السجناء نحو السياج ليروا ما سيصنع برفاقهم . فلم يروا الا عربتي الميجر والكومندان ترابطان أمام مقر الحرس . لقد أخفى الهاربون بعد أن أعيد تقييدهم بالسلاسل . اقتيدوا في الغداة الى المحاكمة . وانقطعت سخريات السجناء من رفيقيهم من تلقاء نفسها ، وانقطع احتقارهم لهما ، حين عرف السجناء التفاصيل ، حين علموا أن رفيقيهما قد اضطرا الى الاستسلام اضطراراً ، لأنهما حوصرا من كل جهة فلم يكن لهما الا أن يستسلموا . واهتم جميع السجناء بالقضية اهتماماً فيه كثير من العطف والمودة .

— لا شك أنهم سيجلدون ألف جلدة !

— أوه ! أوه ! بل سيجلدون حتى الموت . قد لا يضرب آ. . . ف
الا مائة ضربة بالعصا ، أما الآخر فلا شك أنهم سيميتونه . . . هل نسيت
أنه من القسم الخاص ؟

كذب ظن السجناء . لقد حكم على آ . . . ف بأن يضرب خمسمائة ضربة بالعصا . لقد اعتبر سلوكه الماضى أسبأباً مخففة . ثم ان الذنب كان أول ذنب يرتكبه . أما كوليكونف فأظن أنه قد نال ألفاً وخمسمائة ضربة . والعقوبة كما ترون طفيفة . وكان الرجلان عاقلين حكيمين ،

فلم يورطاً في القضية أحداً ، وصراً بأنهما فرا من القلعة دون أن يدخلوا أى مكان من الأمكنة •

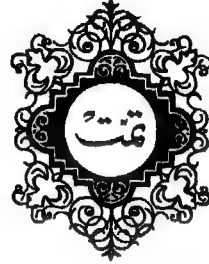
أخذتني الشفقة بكوهلر خاصة : لقد فقد بهذا الفعل آخر أمل له ، عدا العقوبة التي أنزلت فيه وهي ألفا ضربة • وقد أرسل بعد ذلك الى سجن آخر •

لم يكده يعاقب آووف ، فانه قد أعفى من الضرب بفضل الأطباء • ولكنه ما ان صار في المستشفى حتى أخذ يتباهى ويتججج ، وأعلن انه لن يتراجع بعد اليوم أمام أية عقبة ، وأنه سيعرف كيف يجعل الناس تتحدث عنه وتتأفل أخباره ! أما كوليكوف فلم يتغير ، بل ظل كما كان رجلاً لبقاً رضيعاً رزيناً • وحين عاد الى السجن بعد انزال العقوبة فيه كان كمن لم يغادر السجن لحظة من اللحظات • ولكن السجناء أصبحوا لا ينظرون اليه كما كانوا ينظرون اليه من قبل ؛ فهم ، على رغم أنه لم يتغير ، قد أصبحوا في قرارة نفوسهم ، لا يضمنون له ما كانوا يضمنونه له من تقدير واعجاب ، وأصبحوا يعاملونه معاملة النذل للند •

لقد كبا نجم كوليكوف كثيراً بعد حادثة الفرار هذه • ان النجاح يعنى كل شيء في هذا العالم •••

١٠

الخلاصة



محاولة الفرار هذه أثناء السنة الأخيرة من إقامتي بالسجن • انني أتذكر تلك السنة الأخيرة كما أتذكر السنة الأولى وضوحاً ولكن فيم الأفاضة في سرد التفاصيل ؟ حسبي أن أقول ان هذه

السنة الأخيرة كانت أقل سنى منفاى مشقة وعذابا رغم تحرقى شوقا الى انتهاء مدة سجنى • كنت قد اكتسبت آخر الأمر كثيراً من الأصدقاء والأصحاب بين السجناء الذين استقر رأيهم على أننى رجل طيب • ان عددا كبيرا قد أخلص لى المودة وأحببني حباً صادقا • حتى أن جندي سلاح الهندسة قد أوشك أن يبكى حين شيعنا أنا ورفيقي الى خارج السجن ؛ وحين أفرج عنا تماما أصبح يزورنا كل يوم تقريبا فى مبنى تابع للدولة حُدِّت إقامتنا فيه خلال الشهر الذى قضيناه فى المدينة • غير أن هناك وجوهاً قاسية متجهمة مكفهرة لم أستطع أن أحظى برضاها وأن أكتسب صداقتها ، لا يدرى الا الله لماذا ! لكن حابزا سيكا كان يفصل بيننا وبينها ، لكن سداً منيعاً كان يحجبنا عنها •••

وقد تمتعت خلال تلك السنة الأخيرة بامتيازات لم أكن أتمتع بها

قبل ذلك • كنت قد وقعت بين الموظفين العسكريين فى مدينتنا على اناس اعرفهم بل وعلى رجال كانوا من رفاى فى المدرسه ، فانهقدت بينى وبينهم صلات ، وبفضلهم انما اصبحت اتلقى مالاّ وأكتب الى اسرتى رسائل بل وأملك بعض الكتب • ننت لم املك كتابا واحدا منذ سنين • لذلك يصعب علىّ ان اصف الشعور الغريب الذى شعرت به والانفعال الشديد الذى عانيته حين قرأت فى السجن اول كتاب اتيح لى ان اقرأه • لقد أخذت ألتهمه فى المساء حين اغلقت علينا الابواب ، فما زلت أقرأ الليل كله حتى مطلع الفجر • ان ذلك العدد من المجله قد بدا لى كانه رسول هبط على من العالم الاخر • ارتسمت حياتى الماضيه امام عينى بارزه واضحه حينذاك ، وحاولت ان اعرف هل انا تخلفت وهل عاشوا كثيرا بدونى هناك ! تساءلت عما يشغل بالهم ويحرك نفوسهم ، تساءلت عن المسائل التى اصبحت نعيمهم وعن المشكلات التى اصبحت تهمهم • كنت أتلث على الكلمات قلعا ، واقرا بين السطور • وأحاول ان افهم من العبارات معناها الحفى ، وان ارى ما فيها من اشارات الى الماضى الذى أعرفه • كنت أقتفى آثار الأشياء التى كانت تهز الانفعال فى زمانى فما كان أشد حزنى حين اضطرت أن أعترف لنفسى بأننى اصبحت غريبا عن الحياة الجديدة ، وأنى الان عضو فى المجتمع منفصل عنه منبوذ منه ! لقد تأخرت وتخلفت • علىّ أن اعرف الجيل الجديد • لقد وقعت على مقالة مذيلة باسم انسان عزيز على نفسى فارتيمت على المقالة ألتهمها التهاماً ••• ولكن أصحاب اكثر المقالات الاخرى اناس لا أعرفهم • ان عاملين جدداً قد أصبحوا الآن على المسرح • أسرعت أتعرف بهؤلاء العاملين الجدد • وأحزنتى أشد الحزن أن لا أملك الا هذا العدد القليل من الكتب ، وأن يكون الحصول على المزيد منها صعباً كل هذه الصعوبة • وقبل ذلك ، فى عهد الميجر السابق ، كان احضار كتب الى السجن

مجازفة كبيرة ومخاطرة عظيمة • فإذا عثرت الإدارة على كتاب في السجن أثناء التفتيش ، قامت مشكلة ضخمة ونشأت قصة طويلة ، فأنت تُسأل من أين جئت بالكتاب ، وأنت تتهم بأن لك شركاء تواطأت معهم • بماذا كان يمكن أن أجيب لو أُلقيت على أسئلة كهذه الأسئلة ؟ لذلك عشت في السجن بغير كتب ، منظوياً على نفسي ، طارحاً مشكلات أحاول أن أحلها ، مشكلات تقض مضجعي وتقلقني أشد القلق في كثير من الأحيان ••• ولكن حسبي ما قلته ، فليس في وسعي أن أعبر عن هذه الشجون تعبيراً كافياً في يوم من الأيام !

كان ينبغي إطلاق سراحى في الشتاء لاننى دخلت السجن في الشتاء • سوف يدخل سبيلي في مثل اليوم الذى وصلت فيه الى السجن منذ سنين • فما كان أشد تحرقى شوقاً الى حلول ذلك الشتاء السعيد ! ما كان أعظم فرحى وابتهاجى حين كنت ألاحظ أن الصيف يشارف على الانتهاء ، فأرى الأوراق تصفرُ على الأشجار وأرى العشب يصوِّح في المروج ! لقد انقضى الصيف ••• هذه ريح الخريف ثن ، وهذا هو الثلج يهطل عاصفاً أول مرة ••• ان ذلك الشتاء الذى طالما انتظرتَه قد حل أخيراً ••• أصبح قلبى يخفق خفقاناً سريعاً حين أستشعر اقتراب الحرية • ومع ذلك ، كلما انقضى الوقت واقترَب الموعد أصبحت أكثر هدوءاً وأجمل صبراً • شئ غريب • دُهِشت أنا نفسى ، حتى لقد اهتممتنى ببرود العاطفة وقلة الاكتراث •

وأخذ كثير من السجناء يتحدثون معى ويهتئونى حين ألقاهم في الفناء بعد انتهاء الأعمال •

— هيه ألكسندر بتروفتش العزيز ! سوف يطلق سراحك قريباً ، فتركنا وحيدين نحن الأشقياء ! •••

كذلك قال لى أحدهم • فسألته :

— وأنت يا مارتينوف ، متى تنتهى مدة سجنك ؟

— أنا ؟ بعد سبع سنين يا عزيزى ••• سبع سنين أسلخها هنا فى كدر وعناء •••

قال مارتينوف ذلك وتنهى ، ثم وقف ونظر الى بعيد شارد اللب داهلاً كأنه ينظر الى المستقبل •••

نعم ••• كان كثير من رفاقى يهثونى بصدق ومودة • حتى لقد بدا لى أنهم أصبحوا أكثر لطفاً وبشاشة فى معاملتى • أنا الآن لا أسمى اليهم ، أنا لست الآن نظيرهم وشيئهم • انهم يودعوننى • وكان ك ••• زنسكى ، وهو شاب بولندى من طبقة النبلاء ، حلو الطبع هادى وديع ، كان يحب أن يتجول مثلى فى فناء السجن • انه يأمل أن يحافظ على صحته بالترويض واستنشاق الهواء النقى بعد العذاب الذى يلقاه اختتافاً فى اللالى الطويلة داخل الثكنات • قال لى ذات يوم مبتسماً بينما كنا نتنزه معاً :

— اننى أنتظر خروجك من السجن بصبر فارغ • فمتى خرجت أنت عرفت أنا أن قد بقى من مدة سجنى عام •

يجب أن أذكر هنا عابراً أن الحرية أصبحت بفضل ما نسبغه عليها من خيالنا وفكرنا ، أزخر بالحرية من الحرية كما هى فى الواقع • كان السجناء يضمخون معنى الحرية • ذلك أمر يشترك فيه جميع من يودعون السجن • رب خادم رث من خدم الضباط يبدو للسجين كأنه ملك من الملوك ••• انه مثال الانسان الحر • انه بغير سلاسل تقييد ساقيه ، انه لم يخلق له شعر رأسه ، انه يذهب الى حيث يشاء دون خفير يحرسه •

حين هبط الغسق ، عشيةً انطلاق سراجي ، طفت حول السياج
 « آخر طواف ! » ... لقد طفت حول هذا السياج آلاف المرات خلال
 هذه السنين العشرة ! ما أكثر ما تتجولت وراء التكنات أثناء السنة الأولى
 وحيداً حزيناً يائساً ! اننى أتذكر كيف كنت أعدّ الأيام التي كان مايزال
 علىَّ أن أقضيها في السجن • كان عددها عدة آلاف • يا رب ! ما أبعد
 ذلك العهد ! ... في هذا الركن قبع نسرنا السجين ... في هذا المكان
 كنت ألقى بتروف في كثير من الاحيان ... لقد اصبح بتروف لايفارقني
 الآن • فهو يسرع الىَّ ، ويسير الى جانبي صامتاً كأنه يريد أن يحزر
 ما يجول في ذهني من خواطر ، ويدّهش بينه وبين نفسه لا يدرى الا
 الله من أى شيء ! ... قلت في ذهني : وداعاً ... قلتها لعوارض
 الأخشاب المتشققة التي تتألف منها جدران التكنات ... كم من أعمار
 فتيّة وقوى معطلة دُفنت وضاعت بين هذه الجدران دون ان يفيد ذلك
 أحداً ! يجب أن نعترف فنقول : ان أولئك الرجال جميعاً كانوا أناساً
 خارقين ... لعل أولئك الرجال جميعاً كانوا خير أبناء شعبنا مواهب
 وقدرة • غير أن هذه القوى الجبارة قد أهدرت الى غير رجعة ! من
 المذنب في هذا ؟

نعم من المذنب ؟

وفي ساعة مبكرة من غداة ذلك المساء ، قبل أن يصطف السجناء
 للذهاب الى العمل ، طفت بجميع التكنات أودّع السجناء • ان كثيراً من
 الأيدي الخشنة القوية قد امتدت تصافحني بمودة ؟ وان بعض السجناء
 قد صافحوني كما يصافح الرفيق رفيقه ، غير أن هؤلاء كانوا هم القلة
 القليلة • أما الآخرون فقد كانوا يشعرون شعوراً قوياً بأنني أصبحت
 الآن شخصاً آخر تماماً ، وبأنني لست الآن واحداً منهم • كانوا يعرفون
 أن لي بالمدينة أناساً أعرفهم ، وأنني ذاهبٌ رأساً الى منزل « سادة » ،

أجلس الى موائدهم نداء لهم • كان السجناء يدركون ذلك ، لهذا لم تكن مصافحتهم الى مصافحة اللد للند ، رغم ما كان فيها من مودة وبشاشة ولطف • وهناك سجناء أشاحوا وجوههم عنى ، ولم يردوا الى تحية الوداع • حتى لقد رشقنى بعضهم بنظرات فيها كره وبغض •

قُرع الطبل ، ومضى جميع السجناء الى العمل • بقيت وحدى • كان سوشيلوف قد نهض قبل جميع الناس وأخذ يتحرك من أجل أن يعد الى الشاى مرة أخيرة • مسكين سوشيلوف ! لقد بكى حين أعطيته ثيابى وقمصينى وسيور الجلد التى توضع تحت السلاسل وفليلا من المال • وقال لى وهو يعرض على شفقيه المرتعشتين : « لا •• ليس هذا •• ليس هذا ما أفقده •• اننى أفقدك أنت يا ألكسندر بتروفتش •• ما عساي فأغلا الآن بدونك ؟ •• » •

وودعت أيضاً آكيم آكىمتش • قلت له :

— قريبا يطلق سراحك أنت أيضاً •

فقدم يقول وهو يشد على يدى :

— سأتبقى هنا زمناً طويلاً ، طويلاً جداً •••

وارتميت عليه وتعانقنا •

وبعد خروج السجناء بعشرة دقائق ، بارحنا السجن أنا ورفيقى الى الأبد • ذهبنا الى ورشة الحدادة حيث كان يجب أن تحطم أغلالنا • لم يخفنا حرس مسلحون فى هذه المرة • وانما ذهبنا الى ورشة الحدادة يصحبنا واحد من ضباط الصف • تولى تحطيم أغلالنا سجناء يعملون فى ورشة الهندسة • انتظرت كسر أغلال رفيقى ، ثم اقتربت من السندان • أدار الحدادون ظهري ، وأمسكوا بساقي فمدوها على السندان •••

كانوا يتحركون كثيراً ويضطربون كثيراً * انهم يريدون أن ينفذوا عملهم بسرعة ومهارة *

أمر معلم الحدادة مساعدته قائلاً :

— عليك بمسمار المفصل أولاً *** أدر مسمار المفصل *** ضعه هكذا * ضعه جيداً *** والآن اضربه بالمطرقة *

سقطت الأغلال * أنهضتها *** كنت أريد أن أمسكها بيدي ، وأن أنظر إليها مرة أخرى *** أدهشني أنها كانت منذ لحظة تكبل ساقى * قال لى السجناء الحدادون بأصواتهم التي كانت غليظة متقطعة ولكنها كانت فرحة :

— وداعاً ! ***

نعم *** وداعاً ! *** الى الحرية ، الى الحياة الجديدة ! *** الى الانبعاث من بين الأموات ! ***

كانت تلك لحظة لا سبيل الى وصفها !

حواش

- الصفحة
- ١٤ * « الأشغال الشاقة من الفئة الثانية » : هي العمل في بناء القلاع التي كانت تشاد في سيبيريا للسيطرة على حركات العصيان والتمرد التي كان يمكن أن يقوم بها أهل سيبيريا دائما . أما الأشغال الشاقة من الفئة الأولى فهي العمل في المناجم ، وأما الأشغال الشاقة من الفئة الثالثة فهي العمل في المصانع
- ١٤ * مدينة ك ٠٠٠ لعلها مدينة كوزنتسك من إقليم آلمونسك حيث تزوج دوستويفسكي زوجته الأولى سنة ١٨٥٧ .
- ٣١ * « الشارع الأخضر » : كلمة مألوفة تعني عقوبة الجلد : لقد كان على المحكوم عليه بعقوبة الجلد أن يمر بين صفيين من الجنود يحمل كل منهم سوطا ويهوى به على ظهر السجين .
- ٣٢ * ان اسم هذا الميجر هو كريفتسوف . أما الرئيس فهو الجنرال فون جراف .
- ٣٥ * ان قاتل أبيه هذا الذي أدهش دوستويفسكي لم يكن هو القاتل ، وإنما القاتل أخوه الأصغر ، وقد اكتشفت الجريمة بعد عشر سنين . وسيلذكر دوستويفسكي ذلك في مطلع الفصل ٧ من الجزء الثاني من « ذكريات منزل الأموات » .
- ٤٢ * كان الشعب الروسى يطلق على نزلاء سجون الأشغال الشاقة اسم « عاترى الخط » ، أو « الأشقياء » .
- ٤٩ * « الفارتيكوتيانبوست » : ليس لهذه الكلمة معنى ، وإنما كان

الصفحة

- السجين يتوهم أنها لفظة فرنسية معناها حسن السلوك ، فهو ما ينفك يستعملها بهذا المعنى تندرا وتفكها .
- ٥٠ * « كاجان » : لا وجود لطائر بهذا الاسم . وتعني كلمة كاجان، في بعض اللغات الشرقية ، الملك أو الأمير .
- ٥١ * « نيفاليد » تحريف للكلمة الفرنسية « أنفاليد » التي تعني، مشوه الحرب .
- ٥٢ * « الكفاس » : شراب مخمر يستخرج من نقع الحبز الأسود مع دقيق الشعير .
- ٥٥ * سيتحدث دوستويفسكي عن واحد من السجناء الذين كانوا ينتمون الى طبقة النبلاء قبل دخولهم السجن ، وهو آ . و . (ارستوف) ، وذلك في الصفحة ١٣٩ من هذا الكتاب .
- ٧١ * ان م . و . كي هو الثوري البولندي ألكسندر ميرتسكي الذي حكم عليه سنة ١٨٤٦ بسجن الأشغال الشاقة مدة عشرة سنوات ، ثم صدر عفو عنه قبل انتهاء هذه المدة .
- ٧٢ * ان مدينة فباتكا الواقعة في أراضي لتوانيا قد أصبحت منذ نهاية القرن السابع عشر ملجأ هذه الملة الدينية التي تحارب اصلاحات البطريق نيكون .
- ٨٣ * ان اسم سيروتكن مشتق من كلمة سيروتا ومعناها اليتيم ويقال « يتيم قازان » عن شخص يمثل دور الفقير .
- ٨٦ * « نرتشنسك » مدينة في ترانسبايكالي كانت مركزا لمنطقة مناجم يرسل اليها السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة من الفئة الأولى . راجع حاشية الصفحة ٢٠
- ١٣١ * « برولوف » رسام روسي (١٧٩٩ - ١٨٥٢) ، يرجع أصله الى أسرة هوجنوتية فرنسية اسمها برولولو .
- ١٣٨ * زارت دوستويفسكي في مدينة توبولسك سنة ١٨٥٠ ثلاث نساء من الديسمبريين هن : مورافيوفا و آنكوكا و فونقيرينا

الصفحة

- اللواتى أبين الا أن يتبعن سنة ١٨٢٦ أزواجهن المنفيين الى
سيبريا .
- ١٣٩ ★ « رفيق من رفاق السجن » : انه سرجى ف دوروف ، عضو
حلقة بتراشفكي الذى حكم عليه بالسجن حين حكم على
دوستويفسكى ، وقد ساءت العلاقة بين الرجلين أثناء اقامتهما
فى السجن .
- ١٤٢ ★ « السائق » صف ضابط من سلاح الهندسة .
- ١٦٨ ★ « ب . . . » : هو جوزيف بوجوسلافسكى ، ثورى بولندى .
- ١٧٢ ★ « بوناپرت » : المقصود هنا لويس نابوليون بوناپرت الذى
انتخب رئيسا لجمهورية فرنسا فى ١٠ كانون الأول
(ديسمبر) ١٨٤٨
- ١٨٥ ★ « فاسيا » : مصغر فاسيلى .
- ١٩٧ ★ « علبة صغيرة » : ان هذه العلبة المكعبة تمثل عند اليهود
هيكل سليمان ، وقد كتبت فيها الوصايا العشر .
- ٢١٥ ★ « امرأة العدالة » : ان « امرأة العدالة » التى كانت توجد على
منضدة كل محكمة روسية هى نوع من موشور مثلث قائم على
نسر مذهب له رأسان . وعلى كل وجه من وجوه الموشور يقرأ
المرسوم الذى أصدره بطرس الأكبر بشأن اجراءات المحاكمة
وحق المواطنين . وكانت هذه « المرأة » تمثل السلطة
الامبراطورية الموجودة فى كل مكان ، وتآمر بالتزام أقصى
حدود الأدب .
- ٢٤٤ ★ « الغريمان فيلادكا وميروشكا » : مسرحية هزلية من تأليف
بج جريجورييف ، مثلت فى بطرسبرج منذ سنة ١٨٣١ ثم
راجت كثيرا فى الأقاليم .
- ٢٤٥ ★ « كدريل » : لعل اسم كدريل أن يكون تحريفا لاسم
بدريلو .
- ٢٥٩ ★ « غرقتى الصغيرة » ، أغنية روسية مشهورة جدا .

- الصفحة
- ٢٦٤ ★ « الكارامنسكايا » : رقصة روسية شعبية عنيفة جدا يصاحبها غناء في كلماته استهتار .
- ٢٦٦ ★ « براهمي يرتدى مسوح الكاهن » ، لعل المقصود بالبراهمي قس من القسس .
- ٣٠٢ ★ « م ٠٠٠ كى » : راجع حاشية الصفحة ٧٩ ؛ لعل دوستويفسكى تعمد ان يخطئ حين قال عن م ٠٠٠ كى انه لا ينتمى الى طيفه النبلاء ، وذلك حتى لا يلج على عدم مشروعية العقاب الجسدى الذى أنزل فى الكسندر ميرتسكى الذى ينتمى فى الواقع الى الطبقة النبيلة .
- ٣٠٤ ★ « نوزدريوف » : شخصيه من شخصيات كتاب جوجول « النفوس الميتة » . انه نوزدريوف سكير عرييد مقامر .
- ٣٠٤ ★ « ما تزال ذكره حية ٠٠٠ » : بيت من الشعر يجرى على اللسان مجرى المثل ؛ وهو يرد فى مسرحية جريويودوف التى عنوانها : « كثير من الفكر ضرر » وذلك على لسان تشاتسكى .
- ٣١٤ ★ « تحدثت هنا عن العقوبات » : ان كل ما أرويه عن العقوبات الجسدية كان موجودا فى زمانى ، ولكننى سمعت أن كل شئ قد تغير الآن وما يزال يتغير (هذه الحاشية كتبها دوستويفسكى) .
- ٣١٨ ★ « المركيزة برنفلييه » : هى المركيزة مارين مادلين دى برنفلييه التى قتلت أباهها وإخوتها وأقرباء آخرين لتستولى على ميراثهم . وقد عذبت سنة ١٦٧٦ .
- ٣٢٦ ★ « م ٠٠ كى و ب ٠٠ » هما ميريكى وبوجوسلافسكى الثوريان البولنديان .
- ٣٣٣ ★ « هل عندكما أوراق ؟ » : أى هل عندكما جواز سفر .
- ٣٣٣ ★ « ان معى رفيقين يعملان فى خدمة الجنرال وقوان » : يعنى انهما فى الغابة حيث يغرد طائر « الوقواق » ، أى أنهما متشردان أيضا (حاشية كتبها دوستويفسكى) .

- الصفحة
- ٣٤٦ ★ «هلموا نلطح باب أكلوكا بالقطران» : ان تلطيخ باب منزل
تسكنه فتاة يعنى أن هذه الفتاة قد فقدت بكارتها .
- ٣٩٨ ★ « كان الجدى يعد فالأ حسنا فى الاسطبلات الروسية .
- ٤٠٤ ★ « ان القصة المؤثرة التى تروى عن ملازم اسمه ايلنسكى
اتهم ظلما بأنه قتل أباه قد استعمل دوستويفسكى بعضها
فى موضوع « الاخوة كارامازوف » .
- ٤١١ ★ « تقع تاجا نروج على بحر أزوف ، وتقع بثروبافلوسك فى
كامتشاتكا ، فالمسافة بينهما ألفا فرسخ .
- ٤٢٢ ★ « . . . سكى » هو سيمون توكارفسكى (١٨٢٣ - ١٩٠٠)
الثورى البولندى ، مؤلف كتاب بعنوان « سبع سنوات » فى
المعتقل :
- ٤٣٤ ★ « ثمانية رفاق آخرين » : هم بولنديون من السجناء
السياسيين .
- ٤٣٤ ★ « . . . سكى » ثورى بولندى .
- ٤٣٤ ★ « ز . . . سكى » : جوزيف زوخوفسكى ثورى بولندى ولد
عام ١٨٠٠ ، وحكم عليه سنة ١٩٤٨ بالسجن مع الأشغال
الشاقة عشر سنين ، ومات فى السجن سنة ١٨٥١ .
- ٤٣٦ ★ « أو - جورسك » : هى أوست - كامينوجورسك ، مدينة
من سيبيريا الغربية فى اقليم سيبيريا لاتنسك .
- ٤٣٩ ★ « هم الديسمبريون » الذين نفوا سنة ١٨٢٦ (وعددهم
يربو على المائة) .
- ٤٤١ ★ « هم الديسمبريون » فى توبولسك .
- ٤٥٠ ★ « أما أنا فبحمد الله ميجر » : لم يكن هذا الميجر بالضابط
الوحيد الذى يستعمل هذا التعبير ، بل كان ثمة ضباط

الصفحة

عسكريون آخرون يفعلون ذلك في زمانى ، ولا سيما أولئك
الذين ارتقوا من رتبة ضابط صف • (هامش كتبه
دوستوفسكى) •

★ ٤٦٧ « قتلتما موت البقر » أى قتلا فلاحا أو فلاحا اشتبها في أنها
دعت على الماشية بالموت • ولقد كان في سجننا قاتل من هذا
النوع (هامش كتبه دوستوفسكى) •

★ ٤٦٨ « ياكشى » : كلمة تعنى باللغة التتارية « طيب » ؛ و « يوك »
تعنى « كلا » •

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الجزء الاول	
مدخل	١٣
الفصل الاول : منزل الموتى	٢٣
الفصل الثانى : المشاعر الاولى (تنمة)	٤٤
الفصل الثالث : المشاعر الاولى (تنمة)	٧١
الفصل الرابع : المشاعر الاولى (تنمة)	٩٢
الفصل الخامس : الشهر الاول	١١٧
الفصل السادس الشهر الاول (تنمة)	١٣٨
الفصل السابع : اصحاب جدد - بتروف	١٦١
الفصل الثامن : اولو العزم - لوقا	١٨١
الفصل التاسع : اشعيا فومتش - الحمام - قصة باكلوشين	١٩١
الفصل العاشر : عيد الميلاد	٢١٦
الفصل الحادى عشر : التمثيل	٢٤١
الجزء الثانى	
الفصل الاول : المستشفى	٢٧٣
الفصل الثانى : المستشفى (تنمة)	٢٩٣
الفصل الثالث : المستشفى (تنمة)	٣١٤
الفصل الرابع : زوج اوكوكا (قصة)	٣٤٠

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس : فصل الصيف	٣٦٠
الفصل السادس : حيوانات السجن	٣٨٦
الفصل السابع : الظلمة	٤٠٤
الفصل الثامن : رفاقي	٤٣٢
الفصل التاسع : الفرار	٤٥٢
الفصل العاشر : الخلاص	٤٧٣
حواشي	٤٨٠

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الثامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١.
المثل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢.
<u>المجلد الثاني</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نيقوشكازفانوفنا	الأبله - ١.
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخارشتين	الأبله - ٢.
الجارا	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهرج	الشياطين - ١.
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	الشياطين - ٢.
قصة في تسع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	المراهق - ١.
زوجة آخر، ورجل تحت السرير	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	المراهق - ٢.
قرية ستيفانتشيكوفوسكانها	قصص
حلم العم	<u>المجلد السادس عشر</u>
<u>المجلد الرابع</u>	الأخوة كارامازوف - ١.
مذلولون مهانوف	<u>المجلد السابع عشر</u>
<u>المجلد الخامس</u>	الأخوة كارامازوف - ٢.
ذكريات من منزل الأموات	<u>المجلد الثامن عشر</u>
<u>المجلد السادس</u>	الأخوة كارامازوف - ٣.
في قبوي	
قصة اليمة	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
التمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأدبي	

دوستويفسكي

الاعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدفع عن "الفقراء" والمذللين المبانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقا أخذ بعضهم يشتهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سربرفيف